مقهى مراكش

رواية

منعم الفقير



الكتاب : **مقهى مراكش** (رواية)

المؤلف : منعم الفقير

الطبعة الأولى . القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٣٦٤٠/ ٢٠٠٨

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٨٤-٠١٢ : .I.S.B.N

الناشر : **شمس للنشر والتوزيع**

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت/فاكس: ٠٠٠٤ ٢٧٢٧ ٠٢ (+٢) - ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)

www.shams-group.net

الغلاف : الفنان أمين الصيرفي


مقهى مراكش

الفصل الأول :

البَحث عن الضَياع



يُفرج الضبابُ تدريجيًا عن كتلة سائرة، تنم عن رجل أنيق، وفاق ألوان ملابسه الغامقة خروجًا على سيادة البياض. يُلقي نظرة تلو أخرى، كأنه مدينٌ بالنظر إلى البحر الذي تفضَّل عليه بنزهة هادئة على شاطئه.

لا يدير ظهره، لا وراءَ له، أمامه، يلتف حوله. يتلفت، عيناه تتدافعان بالنظر؛ لتشكيل ذاكرة بصرية حاشدة بالصور. يستعير هدوءَ الكون ليبدو به، قسماته السمحة منقسمة بين الرعب والطمأنينة.

أناقته لا تحجب قدم خوفه أينما يكون، هناك رعب غير غريب عليه، يتعقبه بخطى ثقيلة، رعبُه يناهز عمرَه الضائع بالخوف والهرب. يحاول أن ينصرف منه إليه، ما الذي يبحث عنه ما دام مفقودًا، لا يفتقده أحد. إنه هنا الآن يفرّ به من هناك. يأتي إلى هنا، لا يبحث عنه، بل يريد أن يزوغ منه حدُّ الضياع. مهتدٍ يبحث عن ضلالة، يجعل الأشياء والكائنات حائلاً بينه وبينه. مُلاحق منه ومن سواه، وجوده عقوبة تاريخية على جريمة جغرافية، وَرِث عن أسلافه أفعال ارتكابها. الوطن ضريبة جغرافية على قدر تاريخي. يبتعد عنه ليراه عن قرب. إنه هنا يتعقب سارقًا كي يسرق منه مسروقاته. يحاول في سفره أو إقامته أن يتخلى عنه إلى آخر يكونه. يسعى إلى الأمكنة كي يتمكن فيها بلا خوف.

خطواته غير المنتظمة تأخذ بسيره إلى الشارع الرئيس. حيث تقع مقهى مراكش. تستقبله النادلة البدينة، المُتراكمة الملامح والمُتَرامية النظرات، تربو على الثلاثين، تبتسم من أجله، يسعدها وجوده دون سواه من الزبائن، هكذا يعتقد أو يتطلع.

تعرف طلبه: "فنجان قهوة سادة مع كأس من الماء البارد"، تعقبه بفنجان ثانٍ حين ينذر فنجانه الأول بالخواء. يُسعده أن يكون طلبُه معروفًا مسبقًا ومستجابًا على الفور أينما يكون. يُداعب سؤاله النادلة:

- كيف أصبحتِ هذا اليوم.

- أفضل من الأمس قليلاً.

ثم تُغدق عليه بكلمات الإعجاب بمظهره.

لا تفتر رغبته في الاعتناء بمظهره، تجاهل وجوده وأناقته يضمه إلى ضيق يسعى إلى الانفصال عنه. أناقته تعبيرُه المادي عن الحفاوة بروحه، حفاوة طالما يفتقدها، الأناقةُ دليلٌ على بقائه حيًا ومرغوبًا فيه في آن. (أنا جدير بي، وبلقائي أنيقًا) هذا ما يردِّدُه عليه. قد تفسد عامُهُ الأربعين، علاقتُهُ اليومية مع المرآة، "كل صباح تبعد عني خطوة هذه المرآة". التراجع هذا، لا بسبب خيبة المرآة فيه، إنما بتجرؤها على سماحة وجهه بالتجاعيد.

يتناول قهوته الصباحية، لليوم الثالث على وجوده في مدينة الصويرة. في هذه المقهى "مقهى مراكش" التي تبعد نحو كيلو متر واحد عن الشاطئ، يجلس إزاء البحر، اختلاف الأبنية وافتراقها، يخلِّف هامشًا بصريًا إلى التواصل مع البحر عن بعد. يطيب له تناول القهوة في هذا الوقت المبكر.

تصحو مدينة الصويرة المغربية الساحلية متأخرة. تُعبِّر الشمس عن وجودها بالضوء الحاد والحرارة المرتفعة، الضوء ثرثرة الشمس الساخنة. تنعدم أصوات وتُوجد أخرى في تدافع سماعي متنامي الضجة، يشبه احتفالاً صاخبًا لتشيع الصمت ووأد الهدوء. ما يلفت انتباهه، هو النهوض المتأني البطيء للمدينة إذ يتطلب بضع ساعات لاحقة، ليتعاظم المارة بظهورهم وبحركتهم في شوارعها. لكن الظهورَ البشري هنا، يشبه وضعاً يتروح بين حالة انتشار أو إعلان طوارئ.

المارة هم من السواح الأجانب. أما سكان المدينة الميسورون لا يَصْحُون باكرًا. فيما يقلق الفقراءُ الصباحَ بانهماكهم المبكر في تعقب مصادر عيشهم وضبطها. الحوانيت تشهد إقبالاً متدرجًا على بضعائها، خصوصاً المصنوعات التقليدية.

يسعى إلى اختراع فرح واكتشاف سعادة، السعادة تعريف مغرض لإدامة البحث عنها. كالحظ ذلك المقبور الذي نرهن نجاحنا بمجرد العثور عليه. يحاول فعلاً، أن يكون فرِحًا، ويعيد إلى نفسه الرِضى الذي سقط عنها، وها هو فمه يفلح برسم ابتسامة على وجهه، الابتسامة خطوة نحو رضًى أو فرح.

لا ينكر أن أحداثًا سعيدة تطرأ عليه. مثلاً، إنَّ الآخرين الجدد، منذ حلوله بينهم في هذه المدينة الساحلية، يؤكدون على أنه لافتٌ للنظر، وأناقته تشغل اهتمامًا وموضوعًا للحديث. أناس لا يعرفهم يتطوعون إلى مساعدته رغم عدم طلبه أو حاجته إليها. النساء لا يبخلن عليه بالنظر، 'ما أجمل نساء المغرب وما ألذّ طعامه'. يتلقى عرضًا أنوثيًا غاية في الهدوء، في إقامته في الفندق، تتسلل إليه، من وقت إلى آخر، سعيدة موظفة الاستقبال، تتبرع بخدماتها، تعتني بأشيائه، تشيع النظافة والترتيب والعطر في جو غرفته. يَضْبِطها غيرَ مرة متورطةً بالنظر إليه، هذا في وقت تبدو فيه مصابةً بالذهول به. تُبالغ بالإصغاء، تَقْتَصد بالقول. تميلُ إلى إسداء النصائح. تسخى بالأفعال والحركات الراقصة والمُداعبة. يُسعده ويرضى بنظرتها إليه، أن يكون مُعتنًى ومُحتفًى به، وخصوصاً من امرأة. يؤكد ذلك، أنه مرغوب فيه، هذا ما يريد أن ينتهي إليه، مهمٌ وجذَّابٌ إلى درجةٍ يتعذّر معها إهماله أينما يتجه أو يكون، قناعة كهذه تُداعب شيئًا روحيًا فيه، وبالتحديد حين يكون في موضع ملاحظة، مُرَحَّب به من بصرٍ مُترَقِّب ومودّع من آخر متحسر.

يؤجل 'بهاء' النظر إلى البحر، مكتفيًا في احتواء رائحته، وحفظ التحسس بالبلل في صدره إلى حين. تلك الرائحة تطغى عليه صباحًا، وتضعه على حافة الحنين إلى ذكريات لم تحدث، تُذكي الرائحة تلك مشاعرَه على نحوٍ خاصٍ إلى امرأة من صُنع خيالِه. حبّه هو قلبها، أشواقه إليها لا تهدأ، ورغبته فيها تدفعه إلى إجراء تحسينات على

قوامها. يجهل فمُها الكلامَ ويعرف القُبْلَة. سيأخذ أنفها النادر بجمال شكله نقطة انطلاق إلى وجهها المشمول بنظراته، وجسدها المرشح إلى لمساته. يصنع من صفاء مِزاجه مزاجها ويحدّ عنه كدره. ينتقي بعض المقتنيات الشعورية؛ لتأهيل المكان ليكون لائقًا بخلوتهما.

المكان حاوية صدئَة لزمن يتجدد بهاءً، هو مكان قابل للتصدع أيضًا، يمارس الزمن عليه تجاوزاته وظلمه. يتخيل نفسه: "لو كنتُ زمنًا لانتحرت على ما أتسبب إلى الوجوه البشرية من تجاعيد تعبث بالجمال وتسيء إلى الوداعة. وأعتذر أيضًا عن قدم يُقدم على تدمير الصروح وتصديع الأمكنة. أو عن تلك الرغبة الجانحة في تحويل الجديد إلى قديم، واليوم إلى أمس، وحجر الماضي الذي يضع الإنسان على حافة حنين مؤذٍ إليه".
الزمن فكرة بشرية لدوام المواجهة الوجودية غير المتكافئة مع العدم. الماضي حيلة بشرية لإدامة الشوق والتحايل على العجز والإنكسار الحاضر. بهاء الحانق، يعثر في قاع فمه على قبلات راسبة تعود إلى أيام مراهقة لا تخليه إلى تذوق مراحل عُمرية أخرى. يأسف ويعدّل عن تأفف كاد أن ينال منه.

تعتري بهاء رغبة في العودة إلى بلاده، البلاد ليست أمكنة، بل أقاليم مترامية الذكريات. البلاد التي لا تَعدُ بذكرى لا تعدّها. ليست بلادًا تلك التي لا تتعدد فيها الذكريات، ولا تتعدد على تعدد الذكريات عنها. الضحى بشمسه الخجولة والرائحة الذكية المنبعثة من الخضار الطازجة، تحفز الحنين فيه إلى أمكنته الحميمة. يريد أن يعود به إلى الأسواق؛ ليجدد فيه رائحة التوابل، الخضار والفواكه؛ ليغمض عينه على ألوانها الفاقعة والصارخة. يريد أن يسير به إلى شوارعه ليختزن زحامها، فوضاها وضجيجها، تُرى لا تزال الشوارع، كما هي، محل ثقة في حمل عبء خطواته.

يحلم بوطن يتيح له الوقت للاعتناء بمظهره وإزالة المواقف الزائدة وغير المرغوب فيها. وطنٌ لا يملي عليه ميلاً لا يميل إليه. يريد أن يحذف من سجل حياته تلك الأحداث التي لا جدوى منها ولا مبرر لحدوثها. سوف يرشد النسيان إلى ذكريات استباحت ذاكرته. يريد أن يحمله إلى عراق العراقيين؛ وليس إلى عراق الضحايا والجلادين.

يريد أن يسخر من العتمة ويشيع الفتنة بين الشمس والغيوم. الشمس التي لا تزال على تآمرها مع الفساتين الصيفية الملونة في الكشف عن المفاتن المشتهاة. يريد أن يخرج على الوقت وأجندته بالفوضى والعفوية. يحنّ إلى أن يمضي يومه بالنطّ بالحقول أو بملاحقة فَرَاشة. يريد أن يتثبت من أن الأمكنة التي يأتمنها على ذكرياته لم تخذله بالنسيان، وحَديثها لن يأتي على قديمه فيها.

يسعى إلى إعادة الاعتبار إلى أحلامه الموقوفة من قِبَل سواه. يتطلع إلى حذف العيوب المفروضة على أمِّه؛ كيلا ينكسر فيها شيء من الأُمُومة. يذكر بهاء عن أمه، المتّشحة دائماً بالسواد، أنها تقطع عليه قيلولته ببكائها المنتظم، من الساعة الثالثة إلى الثالثة والنصف زوالاً، تهدي تبكاءها لأمها مرة، ومرة لأبيها، ومرة للعمر المهدور بالعوز والحرمان، ثم تحمد الله على الهواء؛ الهواء العنصر الوحيد الذي يصعب تأميمه، ثروة كونية متاحة يستحيل وضع اليد القومية عليها، إنه سمة الحياة فيها، هو الدليل الوحيد على كون أمه غير ميتة. ثم تذهب إلى المطبخ لتجلب إبريق الشاي و صحن الكعك. تهذي أن حياة الإنسان وَقْف على نَفَس يشهقه وربما لا يزفره. تَنْحى بالملامة على الإنسان الطامع بأكثر من الهواء في العراق. ترى أن لا ينهى عين الإنسان عن الشراهة غير التراب.

يساهم الراديو بنشرات الأخبار والأغاني في إشاعة طقوس الحزن وتحفيز الرغبة في البكاء. تبث في هذا الوقت بالذات أغانٍ حزينة، كما لو كانت عقاباً على تقاعس عن الحزن، وتنذر من مغبة الإفراط بالفرح، أو التشفي عن عقد النية عليه. تردد أمه لازمتين من الغناء هما: 'أنا شسُوَّيت عادَاني زماني'، (ماذا فعلتُ لكي يعاديني زماني)، ثم تشجو مترنمة بـ 'أنا لو أموت لو يِعْمَن عيوني'، وترتفع بصوتها متهدجة: 'هاك إبرتك والخيط، خويه إمش عني، لو اعْرِف أخيِّط جروح كان خيطت ذني'. (خذ إبرتكَ والخيط، امش بعيداً عني، أخي، لو أنني أعرف أخيط جروحاً، لكنتُ قد خيطت هذه - جروحي).

تأمره أمه غالبًا أن يترك لعبه مع رفاقه ويذهب لاستدعاء خالته بسرعة. تترك خالته المتشحة بالسواد، هي أيضًا، كل شيء خلفها وتأتي جريًا. لعلمها المسبق بأن هناك مجلس عزاء؛ مما يتوجب عليهما الذهاب، وأداء واجب البكاء. نادرًا ما تعتذر الخالة عن الحضور بسبب أشغال المنزل الكثيرة، لكن أمه تنهاها بقول متداول: 'العمر يخلص والعمل لا يخلص، دعينا نبكي قليلاً ثم نعود لاستئناف أشغال المنزل، للموتى حق علينا'، تقول أمه.

تجهشان بالبكاء وهما تأكلان الكعك وتشربان الشاي. تأخذان نفسًا عميقًا من سيجارتيهما، وتنفثان الدخان عاليًا، ثم تقرران أن تكون البُكَاءة القادمة لأبيهما الذي غالبًا ما يطوف عليهما ليلاً رافضًا شايًا، كعكًا، أو حتى سيجارة، يجلس القرفصاء، يشكو من انعدام ذكْره وانحسار البكاء عليه، لكنهما تعدانه على أنهما ستعملان على إرضائه. يودعهما على أمل لقائهما في حلم آتٍ. تكون محسودة من الأخرى مَنْ تحلم بأبيها أو أمها أكثر.

أما حين يحدث ويقدر لهما أن تضحكا، تقدمان لضحكهما وتؤخران في طلب العفو عن فعلٍ ضاحك تورطتا فيه. تبهتلان إلى السماء أن تغفر لهما سهوهما الضاحك. 'يارب اجعلها ضحكة خير'.

تأخذ بهاء الذكريات إلى تلك الظهيرة الصيفية الساخنة. حين عاد إلى المنزل حاملاً شهادة تخرجه من الثانوية. كيف وجد الرايات البيضَ المُحنَّاة تخفق، ماء الورد يتدفق، زغاريد وأهازيج، قطع الشكولاتة تتناثر. وما أثار دهشته، خروج أمه على السواد بالأحمر، وتمردها على الحزن بالرقص. ترتدي ثوبًا أحمر اللون، وتتداح راقصة في الشارع، محلولة الشعر، حافية، تتحلق من حولها النسوة اللواتي يخففن من وطأة الأسود عليهن بالميل الطارئ والغريب إلى الغناء، الضحك والتصفيق. رقص، تصفيق وغناء، دفعة واحدة، يحدث على إيقاع موسيقى هادرة من آلة تسجيل قديمة. ما أن اقترب بهاء منهن حتى تعالت الأصوات، صدحت الزغاريد، نُثِرت عليه حبات الشكولاته ورُشّ عليه ماء الورد. تنظر أمه إلى السماء، تشكرها على مِنّتها بالتَلَطُّف على

ابنها بشهادة الثانوية. تضم بهاء إلى صدرها: 'منْ أنجب لا يموت'، تقول ذلك وتضيف 'هذا اليوم الذي كنا نريده'.

- أريد أن أفتح عيني وأغمضها وأجدك ضابط شرطة.

- لماذا ضابط شرطة؟

- لتعيد لأبيك حقه من أخيه الأكبر الذي سلبه إياه، نعم من عمك الظالم وزوجته القحبة القوة عزّة..

تشرح أمه، أن الزوجة التي تساند زوجها على ظلم، فهي قحبة. يدرك بهاء أن ظلم عمه وإساءة زوجته، تدفعان أمه لنعت الزوجة دون الزوج العم بالقحبة. يرى أن نعتًا كهذا غير موفق. حرِي بها أن تصفها بالظالمة، نذلة، متواطئة وليس بالقحبة، هذا ليس مقبولاً بنظره. يتساءل لماذا نسيء إلى القحبة، بإسقاطٍ عليها ما لا دخل لها فيه. هل أن إقدام القبحة وجرأتها في ممارسة مهنة الإمتاع، تدفعان الغيرة منها والحقد عليها إلى الإنتقام منها بأحقر الوسائل وأحطّ النعوت. أم كون الدعارة مهنة، تمارس بلا شعارات رنانة تضليلية أو انتخابية تَكَسُّبية، من قبيل: حماية الفضيلة، تحقيق الرفاهية، الحفاظ على أمن المجتمع وتأمين مُتع أفراده. العاهرة تعني على قدر مالك تأتي متعتك. ادفع وتلذذ. ليست القحبة وحدها تتحمل مسؤولية ما يؤول إليه، ذلك البروز البيولوجي الذكوري، هذا البروز التاريخي الذي يخلف حاجة لا تُشبع إلاّ بالدعارة. ألا تقف الثقافة الجمعية وراء التفاوت الرَغْبَوي بين الذكر والأنثى. إن التعامل مع الرغبة الناجمة عن تفاوت كهذا، لا يتم إلاّ بهذه الطريقة المنبوذة منهم والتي طالما نعتوها بـ(الدُونِية) وليس بطرق أخرى، إنسانية، كما يطيب إلى البعض و صفها. كما يتم إطلاق مصطلح الإنسانية جُزافًا على كل ما هو إيجابي، هذا ما يأسف بهاء عليه، بينما الإنسانية في تقييمه مشروع فاشل؛ لأن الإنسان مبكر على الكون ومباغت الكائنات بوعيه. الإنسانية ظاهرة مأزومة، وتدفع إلى التأزيم.

يلمح بهاء إلى أفكاره دون تصريح؛ خوفًا من أن يعاقبه الآخرون بالانزواء عنه. فيما يتعلق بأمه فهو يراعي مشاعرها، دون أن يُحَمِّلها تبعات جهل ترعرعت فيه. جهل ظافر لا يخسر مريديه ولا يندحر أمام تقدم المعرفة وتطور العلم، كما يُدعى.

- الإنسان علَّم الحيوان الضرواة.

تُنهي أمه فرحها هذا بدعوة أختها وبعض المقربات إلى البكاء على أرواح أمواتهن، لعلهن لا يَبكين شخصًا بعينه، إنما يَرثين ذلك المغدور الذي يطلق عليه الفرح. الفرح الذي لا يعمر طويلاً. فرحهن سرعان ما يخطفه الحزن، أو يتراجع تلقائيًا دون تقدم الحزن عليه. الفرح مهاجر فيما الحزن مقيم. العراق وطن الحزن، لا إقامة دائمية للفرح فيه. الفرح مطلوب وملاحق إسوة بالعراقيين. الفرح مواطن عراقي ليس صالحاً. نشأ الحزن عراقيًا، ثم أخذ العالم عن حزن العراق أحزانه.

الفرح
نصير خؤون
لا يتمسك بي
حين
يمسك بي الحزن

- الدمعة رأي العين

يستفسر بهاء عن سر تلك الطفرة من الفرح إلى الحزن. تجهش أمه بالبكاء، تخبره، تتمنى لو أن أمها لا تزال حية، لترى بعينها السعادة التي هي فيها، 'ابني ضابط شرطة ولا خوف على حقوقنا بعد الآن'.

لكن أملها تداعَى، عندما أخبرها بهاء بعزمه على دراسة الفلسفة. الكلمة والمادة، الكلمة يصعب لفظها، والمادة يصعب عليها فهمها. لكنها كما تعتقد، ما دامت لها صلة بالفكر والقراءة، فكلاهما نذيرا شؤوم وخراب في العراق، وهي التي تخبئ عن أنظار

زوارها كتب بهاء، وتنفي بشكل قاطع أية صلة له بالكتاب غير المدرسي. تعتقد أن وراء كل شخص مفقود كتاب ممنوع.

بعد توقف أَمْلَته ضرورة إعداد الغداء، والقيام ببعض الأشغال المنزلية، تعدّ أمه الشاي، وتحضر الكعك، وتفتح الراديو، ثم تنخرط مجدداً بالبكاء؛ حاسدة أمها هذه المرة على موتها المبكر، كما تخبره، أمها التي عفاها الموت من الصدمة وخيبة الأمل بحفيدها. تنهمر الدموع من عيني بهاء ليس على خديه، بل حارقة في أعماقه. يريد أن ينام نومة هادئة لا يوقظه فيها حلم.

خذوا
كل سنواتي
وأعطوني سبعاً فقط
أحنّ إلى أيامي
أيامي الأولى
لأضحك دونما أحد
وأتحدث دونما أحد
لأعرف
أين تختبئ آلامي
أحنّ إلى أخطائي
أخطائي المُدربة عليّ.

يتجه بهاء بنظره صوب المطاعم، محال بيع الصحف، المجلات والبطاقات البريدية. يتدرب على أن يكون سائحاً، يتطلع، يندهش ويلتقط صوراً. يأخذ رشفة من فنجان القهوة، يستطيب مرارة مذاقها. يعوم بصرياً على البحر البشري المتدفق. يتوقف بالنظرة عند لون البشرة، الطول والوزن. تشغله الفوارق الجمالية بين البشر. يرى أن الجمال تواضع ثقافي، حيث بمقدور الثقافة التحكم بمواصفاته وتعميمها حدّ الإشتراط بها.

الجمال ظاهرة طبيعية، لكنها مخترقة ثقافيًا. كما يعتقد ويضيف أن الجمال سلعة اجتماعية، تتحدّث ويتطور الإعلان عن مواصفاته للتشجيع على الإقبال عليها. يوصف الجمال حسب الحاجة المتدخلة في تصنعيه. يتساءل هل الجمال فعل أم تصوير حسي، منْ هو الجميل وما هو الجمال. الجمال تجربة ذوقية، كما يعتقد.

يخلص إلى أن الفُرُوقَات الجمالية مصادر لسوء الفهم. إن هناك بُعدًا جماليًا في الموقف من الآخر. الفهم ليس حركة شعبية، أو عامة، إنه إجراء سُلْطوي. الإلتزام به تحذير من الخروج عليه. يعتقد أن الإنسان مَفْطُور على سوء الفهم، وهذا ما يفسر سعيه إلى احتكار الفهم والإدعاء به. إن من السهل نبذ سوء الفهم، لكن من الصعب تمثله، ما أصعبه وما أكثره تمنعًا، ذلك الذي نطلق عليه (الفهم). "عندما لا تقدر على فهمي فلا تُسيء إليّ". يواصل بحثه ويبذل جهده في الدعوة إلى المساواة الجمالية والمطالبة بتحقيقها. ينتهي إلى تدوين هذه الملاحظات وغيرها في دفتره الأزرق الصغير.

اسم الغريب لا يعلق بالذاكرة؛ فيُكَنّى بالبلد الذي ينحدر منه، أو البلد الذي يقيم فيه. لذا يُسَمِّي البعضُ بهاء بـ"السيد العراقي"، نسبة إلى العراق الوطن الذي وُلِد فيه ونُفِي عنه، فيما يطلق البعض الآخر عليه "السيد الدنماركي"، نسبة إلى الدنمارك التي يقيم فيها بصفة لاجئ.

يتطلع إلى حدود بلاده: هاربًا، متنكرًا له ولتاريخه؛ لكي ينجو به. يُعَبِّئ حياته في جسد ينوء به. يتحمل مسؤولية حفظه من مرض أَلَمَّ به، وحجبه عن ملاحقة، والفرار به من تعذيب مخابراتي، أو تصفية مُتوقعة. يلوذ بالدنمارك من خوف ورعب طالما انفردا به. يُصنع الخوف والحزن في العراق، ويتم تصديرهما حيث يُنفى العراقيون. يحيا حياة تَحْياه ولا يحياها. يريد أن يكسر حصارَ حاضرِ كوبنهاجن بماضيه العراقي المرغوب الخالي من الخوف والمناوئ للعنف. الماضي كما الحاضر ينبغي أن يكون مأهولاً بالذكريات وحافلاً بالطُمأنينة. يتمنى أن يقضي حياته مُتَصَومعًا في ذكرياته لا معزولاً عنها.

- الخوف تخويف الخائف.

يتفاوض البحر لَوْنيًا على لفت النظر. السفن المُبْحِرة والنوارس المُحلقة تقدم عرضًا مرحاً. ألوان تتعاقب على الرؤية. البُعد المبحر يخلف على ضفة اليابسة قُربًا يتطلع إليه. السماء تُوقف تداعي الأفق على المدى. يتنحى اللون الأزرق لتُمَرِّر الشمس مشروعها الذهبي. الأزرق حليف السماء و صِفة البحر اللونية المنتحلة. أصوات صاخبة تفرّ من مصادرها: الأفواه والمحركات والارتطامات.

يَرْشَح عن وجه السواح الغربيين نشوة ورضًى حارين، يلقون على العابرين تَحَايَا وابتسامات، ينخرطون بلطف بعملية المساومة على شراء التذكارات من المصنوعات التقليدية. في الفضاءات المطروحة على النظر والفضول تستأنف المدينة بلا توقف عرض فصول كرنفالها الفلكوري المتعاقبة، فهناك منْ يؤدي رقصة الغناوة، ومنْ يغني عن بعد. وفي القرب تتزخرف كوكبة من الفتيات اللواتي يتناوب الجمال عليهن، وتمرح على شِفَاهن المطلية بالألوان الفاقعة البسمات. تتراءين بأثواب حديثة وأزياء تقليدية. يتفاوضن بصريًا على عقد صفقة مُتعة. على الأرصفة المكتظة، يتعرج السير. يتبارى على الظهور رجال ونساء بجلابيبهم الملونة. شحاذون بأردية رثة، يبرعون في تحصيل بعضاً مما يَرُومُون.

يعود بهاء إلى بيته في بغداد ليلاً، يصعد إلى السطح. يراقب بشهوة وحذر، نومَ جارته الشابة، المواظبة ليلاً على الاستلقاء تحت القمر بساقين منفرجتين. كأنها في حالة مواقعة ضوئية مع القمر الأقرب إليها. العلاقة الضوئية بينهما تُخَلِّف هامشًا وضّاءً يساعد بهاء على الدخول البصري فيها. تعرف هي النائمة بغرور أنثوي، أنَّ هناك منْ يراقبها ويترقب استلقاءها في حضن القمر. لهذا تدع بلا تردد أعضاءها الأكثر شهوة مكشوفة؛ تثير الرغبة فيها. قميصها الأزرق الشفاف لا يثني جسدها عن مزاولة عُريه. يثير تلاحم الضوء بالجسد سؤالاً رَغْبَويًا: ماذا يعني كون المرأة أنثى وكون الرجل ذكرًا.

الفرح المخترع والسعادات المبتكرة، لا تفتأ تقاوم شعوره الراسخ بأنه مطلوب وملاحق دون أن يُلقَى القبض عليه الآن. يتحمل تبعة تهمة على فعل، ليس لأنه لم

يرتكبه، بل لأنه لا ذنب له فيه. العالم محكمة وجودية منعقدة على الدوام، لمحاسبة البشر على الفعل الناجم عن عملية التفكير. الفكر ظاهرة كونية والإنسان أداة تعبيرها. الوعي مصدر تعاسة. أما العالم، كما يراه بهاء، هو ليس سوى قفص، المتهم فيه هو الكائن المشبوه على وجوده المبكر.

يعود بهاء بذاكرته إلى العراق فهو متهم لم يُدَن ولم يُبرأ. شعوره بالملاحقة والذعر منها، موغل في القِدم، يعود إلى أيام تنميط الفكر واحتكار التعبير. نتج عنها، حملة إرهابية منظمة لإشاعة قصص مرعبة عما انتهت إليه مصائر المقبوض عليهم، من تعذيب، اغتصاب، ومن ثم تصفية جسدية. قصص معروفة بتفا صيلها ومتداولة على نطاق واسع: اعتقال امرأة واغتصابها أمام زوجها لحمله على الاعتراف. إذابة مُعارِض في حوض من حامض النتريك. تساقط أفراد عائلة تسمماً بمادة الثاليوم الممزوجة بعصير البرتقال المقدم إليهم أثناء استجوابهم. اعتقال أمهات المعارضين وتعذيبهن. خطف بنات وأخوات المعارضين واغتصابهن. استجواب الأطفال كل صباح، عمّا حدث وما فعلته أسرهم مساءً. يتم توزيع استمارات- جداول تنطوي على الأسئلة الاستخباراتية. ويجري القسر والإكراه على الإجابة عليها بالمعلومات والوقائع: الهوايات، الألوان، الأقارب، الأصدقاء، الطموحات والأحلام، التوجهات السياسية والفكرية. يحدث ذلك، مع تصعيد حملة شفاهية واسعة؛ لإشاعة جو الإرهاب وتسريب القصص المرعبة عنه. فالقصة التي لا تنطوي على تعذيب مريع ولا تنتهي بإعدام غير مرشحة للاستماع ولا قابلة للتداول. هكذا يتوطد بالشائعة والترهيب الإعلامي وضع التعايش مع الرعب والتكيّف معه. لكن وضعاً كهذا لا يلقى من العالم سوى فعل الصمت، وما يخرج على الصمت من قول، يُخْتَصَر إلى شجب ببيان أو تنديد بنداء. شجب ونداء لا يتطوران إلى فعل مناهض أو ضاغط على الأقل.

يندس بهاء نهاراً بين البشر، يتسقّط آخر أخبار الحملة الإرهابية التي تشنها الأجهزة الأمنية والإعلامية؛ لاستئصال منظومات التفكير البشري واجتثاث ملكات التعبير. هذا المصنع العنفي المنظم، يهدف إلى إنتاج بشر متطابقين، محرّم عليهم اختلافهم. تقوم

المصادر المخولة رسمياً بنشر الرعب بتسريب عن أسماء أشخاص تم القبض عليهم، وتحت ألم التعذيب ورعب التهديد، انتزعت اعترافاتهم، مما ينذر بتعقب المعترف عليهم من رفاقهم. أما إطلاق سراح بعض المعتقلين يتوقف على استعدادهم للتعاون الاستخباراتي، وبتوقيع بعضهم الآخر على تعهد خطي يعلنون فيه تنكرهم لانتمائهم السياسي والتبروء من عقائدهم. وخلافًا لذلك ينتظرهم الاعتقال والتعذيب وحتى التصفية الجسدية. إن أخبار المعتقلين تشيع الرعب في نفوس الذين جمعهم إليهم عمل سياسي أو ربطتهم بهم صلة عمل، صداقة أو قرابة. فالمعتقل يعرِّض أيضاً كل مَنْ كان على صلة به إلى الشُبهة والأذى بغض النظر عن طبيعة هذه الصلة.

يقصد بهاء زواية مهملة من تعقب ومراقبة. يقف متطلعاً إلى المَحَال التي شهدت تجمعات كان طرفًا فيها، والطرقات التي حملت خطاه وإياهم. تشهد الأمكنة هذه، بشهود حَذِر، على اختفاء تدريجي للوجوه المعهود حضورها فيها. أما الحانات والمقاهي، فهي مهجورة من روادها، ومأهولة بآخرين مجهولي الهوية، مما يرجح، أنهم من عناصر مخابراتية. بغداد أصبحت غريبة على سكانها، مدينة متروكة من الأُلفة، الثقة والمودة، ومأهولة بالوِشاية، الحذر والخوف، فالطمأنية مُحْتجزة، والخيانة كامنة للانقضاض. بغداد ملعب مفتوح، يتمرن المرء فيه، كيف يكون معتقلاً ومتعايشاً مع الرعب حدّ التكييف معه. إنسان مبتور التفكير ومقطوع الصلة بإرثه الوطني والعالمي.

- الإنسان كيف يكون متكيِّفًا؟

يفاجئ بهاء الصباح بتملصه المبكر، من أسر ليلٍ طويل، تعرض فيه إلى كابوس: "غرفة رمادية، كُوَّة صغيرة تخرم جداراً رطباً، تحمل ضوءاً خافتاً، يشبه لهيباً. أنين استغاثات تتعالى. صوت تساقط رتيب لقطرات الماء. بهاء منبطح على أرضية الغرفة الأسمنتية، منزوع من حقه في ثوب. يظهر رجل شاهق غاضب ومتوتر، ينهار على بهاء، ويولج فيه اغتصاباً على مرأًى من أم بهاء البادية بوجه مطبوع عليه ألم واستغاثة. يطلق بهاء صرخات مكتومة" ينهض بهاء خائفًا من عريه، يصرّ صدره في قميص ويَعْبَأ ساقيه بسروال. يذهب إلى الحمام، يغتسل من آثار كابوسه. يتحاشى النظر إلى وجهه المبلول،

يُعفي المرآة من عبء الإدلاء بملامحه التي تقر بهزيمته وتعترف عليه، كخائف ومذعور لا حيلة له، مسلوب الفعل والإرادة ينتظر معجزة شافية تُنْهِي وباء الرعب المتفشي

تأذن الشمس للظل بأن يتشكل على هيئة ظل قصير يلازم بهاء في خطوه المتأني. خُطًى لا تستفز الطريق فيوقع بوقع قدميه. يلتفت، يحاول إضفاء الألفة الهادئة على قسماته المنهوكة بالحذر والترقب. تترأى له الأشياء متراصة، غامقة وغموضها غير مطلوب من وضوح، تكف المرئيات عن الكشف عن هيئآتها، إن كانت كائنات أو جمادات. وظيفة النظر: حفظُ القدم من زلّة، وتجنيب الجسد عاقبة المطبات. أما بقية الحواس عاطلة عن الوظائف، وما ينشط منها، سوى البصر بحدته والسمع برهافته لتجنب المخاطر المحيقة والمهددة بمداهمتها.

حين
ينفرد بك الليل
لا تُمنِ
نفسك بالصباح
إنما بزوال الليل

تحط يد على كتف بهاء، يتوقف عن السير، يجمد في مكانه، ينكمش وجهه على ملامح مرعوبة يدير بصره ببطء نحو اليد، كف ناعمة، تهبط على كتفه، أصابعها النحيفة تنتهي إلى أظافر طويلة طلاء الأظافر الأحمر الفاقع يؤجل خوفه ويبث فيه طمأنينة مؤقتة نبضاته تعود إلى ما يجب أن تكون عليه تتلقى بصره الصاعد من صدرها إلى وجهها بابتسامة لم يُبْقِ الحزن على فرحٍ فيها تقاوم ملامحها الوديعة قسوة الزمن ظهورها المفاجئ يشي بثقة لم تعد مألوفة إنها أول كائن يلتقيه منذ فترة ليس بالقصيرة ولا يلاقيه بتوجس أو خوف
- سوف يُلْقَى القبض عليك، مسألة وقت لا أكثر.
- هيفاء، كيفك.
- ما زلتُ حيَّة، رغم أنَّ كل ما حولي يدعو إلى الهلاك.

- لا تقولي ذلك.

- الحياة غير الجديرة، إساءة للوجود وخذلان للعدم.

- لا أحدَ سعيد بحياة لا يستطيع تقريرها.

- ما دامت الحياة غير جديرة، لنكن جديرين بموتنا. كيفك انتَ.

- حي يحيا على هزائم الموت.

(تماثلتُ إلى الكلام بعد وعكة الصمت، أثَّر صدمتي بفعلك المهين) تقول هي. ينا شدها هو العفو عنه. بعد عقابها جاء عقابه له على فعله المُخْزِي حيالها. ترشد هيفاء بهاء إلى الظلال، بعدما تجاوزت الشمس عليهما بالضوء والحرارة. الظلال اعتذار الكون عن عَسف الشمس. تشمل الأنحاء في نظرها المتحفز. يجلسان على درجات مدخل بناية لا تشهد إقبالاً عليها. تسأله فيما إذا كان قد تناول فطوره وتمضي إلى نصحه بالاعتناء بصحته ومراقبة وزنه، رغم بطن بهاء الضامر و صدره البارز.

فجأة تَطغى على وجهها ابتسامة مرحة تعابث جديتها. تُوَصِّيه: (عليك بالثوم والبصل، فيهما شفاء ووقاية، أكثر من تناولهما. تجنب استعمال الكولونيا والعطر فيهما ضرر على بشرتك الناعمة). يدرك بهاء غرض نصيحتها الصحية هذه. إنها دعابة لا تخلو من مكرٍ أُنثوي، فهي ترمي منها أن تُنَفِّر النساء من رائحته وينعدم أي احتمال لحدوث قُبْلَة. يتلقى دعابتها الأنثوية الماكرة بمودة ذكورية مرحة وفطنة. لكن حَدَثَ ظهورها في هذا الظرف القاسي، يُضْفِي على بهاء هدوءاً مُرَاهَنًا عليه في حياة لا رِهان عليها. حياة يمكن أن تُهزم بمرسوم جمهوري، أو قرار أُمَمي، بفتوى، أو بدعوة مشبوهة لإعلان جهاد يضفون عليه صِفَة القدسية لتحريم مناوئته.

- خائفة عليكَ.

- مَنْ يخاف على مَنْ؟

- أنا خائف، فعلاً.

- الوضع يبعث على الخوف، خَف، تَوَلّ نجاتك. أَسَرَّ لي، زوجي الضابط معلومات مفادها إنك من بين أولئك المطلوب القبض عليهم. على فكرة زوجي يكرهك جداً.
- وأنا أكرهه أيضاً.

شعوره بالملاحقة يتوطد. لكن أين المفرّ؟ الكل العراقي نصف ضحية ونصف جلاد. العراق وطن يقطنه شعب من الخائفين والمُخيفين. التخويف خوف الخائف. الوطن على عظمته ضئيل تحت المجهر المخابراتي. وطن لا يساوي جحراً يمكن أن يأوي إليه. يقدم لها سيجارة، تعتذر عنها، لأنها في مكان عام ولا تريد أن تُوصَف سمعتها بالسيئة. (هامش حركتي - وجودي على قدر سمعتي. سمعة المرأة وجودها ومعيار حريتها) تقاوم رغبتها في تدخين سيجارة جهاراً. (تولد المرأة متهمة بجسدها، أعني عاهرة، وتدفع حياتها ثمناً لنفي هذه التهمة) تقول.

- أما زلتِ تقرأين؟
- أحياناً، كل ما حولي معادٍ للثقافة، أسرقني من محيطي، لأكون كما أتمنى، ولو للحظة واحدة، القراءة وضعتني على مشارف وعي ينذر بالتعاسة، الوعي مصدر خصب للتعاسة.
- هل التقيتِ حسيناً؟..
- إنك تَنْكَأ جرحاً، لا تسلْ.
- عفواً، لا أقصد ذلك..
- لا يزال انتهازياً وجميلاً جداً، لا يكف عن زيارة نومي بحلمه. شعورها حيال حسين مزيج من الاحتقار والشفقة. كانت تتمنى أن يسقط شهيداً طبقياً في مواجهة اجتماعية؛ كي ترثيه فخورة به وتبكيه طالما فيها حياة. تمنت لو أنه قد صمد في معتقل أو انهار؛ كي تعظم بطولته وتتعاطف مع انهياره. أما أن يضع نهاية مخزية يطوي بها مرحلة من حياته، تَصَرُّف مرفوض وغير مفهوم، لكنه يُبْقِي جميلها، تجمّل بجماله ماضيَ أيامها التي اكتشفت كينونتها فيه. الماضي الذي تحيا على ميراثه من رؤية وإحباط. تشيع إلى

مثوى اليأس أمالها المغدورة، وترعى بالوهم أُمنيتها العَصِيَّة على التحقيق. لا تزال ذُكُورة حسين تتحرش بأنوثتها.

اتهمني بكِ.

لأكون..

جديراً بإدانة.

تفتح حقيبتها، تُخرج منديلاً أبيض عليه رسومُ ورداتٍ صغيرة وردية اللون، لكنه يسبقها ماسحًا دمعتها براحَتِه. تنهاه بغنج: (احترس قد يرجموننا بالحجر بتهمة الزنا)، تقول هيفاء.

- تهمة زنا، ولا تهمة سياسة.

- الزناة جانحون لا يواجهون بالموت، فيما الساسة مخربون وخونة، ينتظرهم الموت، اعتنِ بكَ.

تنتهز فرصة حقيبتها المفتوحة، لتخرج منها رُزمة من النقود الورقية، وورقة نقدية من فئة الخمسة دنانير. تضع الرزمة في يده، فيما تلوح بالورقة النقدية الأخرى. (هذه أسوأ تذكار منكَ، شاهد ورقي على جرحك) ثم تدسها في جيبه، (كان بُوُدِّي أن احتفظ ليس بها وإنما بأي شيء منكَ عَدَاهَا، كي أحج إليكَ بالنظر إليه. خذ ورقتك القذرة يا أحمق، يا رائق، ما ألذّك).

- اعتذر عن الحماقة وعن قُبول مبلغكِ.

- لا وقت للاعتذار ولا وِسع لك عن عدم قبول المبلغ مهما كان قدره.

تُصَوِّب نظراتها إليه. ترفع بأطراف أناملها رأسه الحاني لا خوفًا ولا خجلاً، إنما بفعل الفضول الذكوري اللا إرادي لتسقط النظر إلى نهديها المضمومين إليهما بفعل تضييق القميص عليهما، فيما قطرات العرق المتصببة على عنقها والسائلة نحو صدرها تستدعي الانتباه بلمعانها.

تفكر هيفاء بصوت عالٍ وبطريقة تسهل عليه بها قراءة أفكارها: (أنتَ مُقبل على وضع حرج، قد يكون المالُ حلاً للمشاكل الناشئة عنه. أسوأ المشاكل تلك التي يشكل المال حلاً جيداً لها. حياتك أمانة حافظ عليها. كما أسلفت، لا أعرف ما الذي يدفعني إلى الإخلاص، في وجود مشبع بالخيانة والخذلان. لمَ أكون مخلصة، لشخص هو أنتَ، ما حدث بيننا، يدفعني إلى إلحاق الأذى بكَ. بإلحاق الأذى بكَ، لا أكون قد ثأرت منكَ وإنما مني أنا أيضاً، نحن طرفا ذكريات، حماقتنا وكرامتنا المشوهة وغرورك التافه، جعلها مأسوفاً عليها، أعمل غير مرة، على تدمير ذكرياتي عنكَ بالخيانة أو النسيان. لا أجدك جديراً بوفائي. إذا تكرمتُ وفكرتُ أن أهديك شيئاً فهو صفعة واحدة على وجهكَ وألف ركلة على مؤخرتكَ)، تهمس ذلك. بينما تتصدى عبثاً شفتاها الباسمتان لسيل دموعها الحزينة المتهورة.

- عقابكِ وثوابكِ، موجه إلى حسين الذي تجدينه فيّ.

- أنتَ سخيف.

- طبعاً، لو لم أكن كذلك، لهَرِمت.

- اهرم، ثم مت، لا تمت قبل الأوان، فالموت قبل الأوان اغتيال، يا....

- .... بهاء.

- عدتَ سخيفاً.

- وأنت أيضاً.

- لا بأس، اصغ إليّ، صنْ حياتك، الحياة أمانة لا تقضيها في سجن، ولا تقضي عليها في حرب، عدني أن تبقى حياً.

- أعدك.

- عِد نفسك.

- لا تبكِ.

- لا تبكِ أنتَ أيضاً، قل لنفسك، أيها السخيف ما أجملك، يا حسين، عفواً يا بهاء، كما يحلو لكَ التنكر مني بهذا الاسم الغريب.

تترك بهاء إلى خوفه المتعاظم. تعود بنشوة لقائها بهما: حسين الذاهب والآتي بهيئة بهاء. ما أجملها بهما هما اثنان في واحد. قامة واحدة قوامها شخصان، لا تجدهما كذلك، إنهما شخص واحد يظهر متنكراً بالآخر، لمداعبتها وتعميق ميلها إليهما. تطلق عليهما حسيناً؛ لتقدم عليه حسيناً بالظهور والذكريات. ها هي الآن منزوعة عنهما، تعود إليها على مضض. تنضم إلى المجهول والنسيان. بلا أمل برؤية أو لقاء. تودعهما معاً بتوديعها لأحدهما. تتمنى عليه، أن يبقى حيًا، لكي لا ترثي ذكرياتهما. تريده حيًا من أجله لا من أجلها. تقودها خطاها إلى حياة تخطفها منها. حياة مكرهة عليها، لا خيار فيها. حياتها غفلة موت تسرق نفسها، ربما منها، لتكون لحظة كما ينبغي أو كما تحلم أن تكون.

الحياة موقف. ولا حياة لمنْ لا موقف له. عليها ألاَّ تكون كي تكون مقبولةً ومرحبًا بها مما ينفيها عنها ويلغي وعيها ويختزلها إلى أداة للخدمة والمتعة. وها هي الآن يطويها بيت الزمن الآيل إلى النسيان وتغلق دونها أبواب المجهول والإهمال.

يتواطأ ثوبها الوردي الخفيف مع أشعة شمس مايو/أيار في الكشف عن مفاتنها والوِشَاية بصدرها الناهد بوضوح. إنها في الخامسة والعشرين من العمر، تكبره بخمسة أعوام فقط. يُطِلّ عليها من سطح داره المجاور. يرتدي بنطلونًا أسود قصيرًا وفانيلة بيضاء. يُراقبها وهي تنشر الغسيل على حبال السطح بتأنٍ ورضًى. يتظاهر هو بالقيام ببعض التمارين الرياضية. يُبالغ في أداء حركاتها إيهاماً بالاحتراف. يسعى بطرقٍ شتى إلى إثارة اهتمامها.

بعد مُضِي وقت قصير تشتبك نظراتهما فتقرب بينهما ابتساماتهما المرحبتان بهما. يدنوان منهما. يباعد بينهما جدارًا السطحين المتوازيين بقرب.

- صباح الخير.
- صباح النور.
- كيفكِ.

- يعني، لابأس.

- لابأس، كم جميلة أنتِ

- أتعني ما تقول، صحيح تراني جميلة (تغطي صدرها براحتيها).

- أعني ذلك تماماً، لا أقول غير ما أشعر به.

- هل لديك سيجارة.

- لا أدخن؛ أنا رياضي محترف كما ترين لكن انتظري سأحضر لك سيجارة في الحال

يُسرع نازلاً. يُفتش عن علبة سجائر أمه التي تكون في هذا الوقت في السوق. يقبض على علبة السجائر وعلبة الكبريت. يصعد إلى السطح مسرعاً. يجد الغسيل منشوراً ولا وجود لها. يشعر بالضيق. يُوبِّخه على قلة نباهته. كان عليه أن يبرع في انتزاع موعد لقاء منها قبل أن يتوجه ببلاهة لجلب السجائر. الآن يتعين عليه الانتظار حتى صباح اليوم التالي. يقضي الوقت ساخطاً عليه حارماً إياها من رضى عنه وإعجاباً به.

يباغت الصباح بوجوده على السطح في هذا الوقت المبكر. يحمل علبتيّ الدخان والكبريت. ترد على محاولات إشعارها بوجوده بالتجاهل. لا تُعيره أدنى اهتمام. يكرر محاولات شدّ الانتباه. يضع العلبتين جانباً. ينصرف إلى القيام بالتمارين الرياضية. يردد بصوتٍ عالٍ: واحد، اثنان، واحد، اثنان، لكن دون جدوى. تبدو منهمكة بعيداً عنه في نشر غسيلها. تعالج شعورها بالضيق والحنق، بكَمْش أنفها الصغير المدبب بملقط الغسيل مرة، ومرة أخرى تَكمش به شعرها الفاحم المرسل الطويل. تعطيه خداً يتورد بجفاء غامض. بعد انهيار نصف ساعة من الوقت الصلب تلتفت إليه، تكشف شفتاها عن ابتسامة محجوبة، توبخه بنظراتها اللائمة.

- أينكَ بالأمس؟

- أحضرتُ السجائر وجئتُ مسرعاً.

- أينكِ أنتِ؟

- ذهبتُ إلى تصويب شعري وتنسيق مظهري وجئتُ ولم أجدكَ، أحسستُ بالخيبة، تأسفت على تجاوبي معك حسبتكَ لستَ جديراً بالثقة.

تَطْفر دمعة من عينها؛ تعتذر له عن ظنها المُجْحف فيه. تومئ بيدها. نعومة كفها تقاوم تَجرُّؤ الماء والصابون المتآمرين عليها بالخشونة. يقذف علبتيّ الدخان والكبريت تجاهها تتلقفهما بيدها مع حركة جسدية لا تخلو من استدعاء إثارة.

تشرع على الفور بالتدخين، تأخذ نَفساً عميقاً، ينفث فمها الدخان على شكل دوائر تحلق عالياً كي تتلاشى في الهواء. يجده كلاً مشمولاً بنظراتها؛ نظرات أقرب إلى الفحص والتدقيق منها إلى الإعجاب أو الفضول. يتعذر عليه فهم ما يتعرض إليه بصرياً. طوافها فيه يحدث عنه صمت مفاجئ يشل حركة كلامهما. شرودها فيه لا يصمد حتى ينهار تحت ضغط انخراطها المباغت في البكاء الذي يتطور إلى نحيب؛ مما يحمله على البكاء هو أيضاً.

- لا تبك، البكاء من نصيب النساء، الرجال لهم الصمت.

- أنا لستُ من أولئك الرجال.

تأخذ نَفساً عميقاً من السيجارة، وتنفث دخانها بتنهد. تمسح بباطن كفّها دموعَها ودموعَه. يتركها تواجه مصيرها السائل على وجهه.

ما الذي يدعوها إلى البكاء ... يتساءل.

- أبكي على ذلك الذي أبحث عنه فيكَ.

- هل ستعثرين عليه؟

- أعتقد ذلك، ففرص الشبه كبيرة بينكما.

- في الواقع، أنا أرد عليكِ، دون أن أفهم ما تقصدين بالضبط.

- إذاً تجد نفسكَ مضطراً إلى فهم ما أقصد. تعالَ غداً على الساعة الثامنة صباحاً. سأترك باب الدار الخلفي مفتوحاً. خُذ علبتي السجائر والكبريت. (تهمّ على قذفهما).

- لا احتفظي بهما، أنا لا أدخن، أنا رياضي محترف كما ترين.

- طيب يا رياضي، يا محترف، إلى اللقاء غداً صباحاً.

تَغرق ابتسامتها في دموعها. عبثًا انتشالها بابتسامة غارقة هي أيضًا على نحو مماثل في دموع وحزن. يحاول أن يُوقف جريان دموعها لكن البُعد بينهما يحول دون وصول لمسته إلى خدها. تتداعى عليه. تراكم عليه نظراته الغامضة ثم تتوارى. يعود إلى استئناف تمارينه الرياضية المفتعلة بحركات هستيرية. يقفز في الهواء، مردِّداً أرقام الحركات على غير تسلسل وبصوت عالٍ.

يصحو باكرًا يَرْزِم عريه برداء الحمام. يدخل إلى الحمام. يشرع بحلاقة ذقنه، يغسل وجهه، يتفاجأ به، كم هو جميل، يبدو إليه. يكلف المرآة في التنقيب عن مواضع جمال جسده المثيرة. تعكس المرآة التي لا تحيد عن حيادها رغبته فيه صراحة. يهيم في جسده حدّ الاحتواء. ينتهي سعيداً به حدّ المتعة. يأخذ دوشاً بطمأنينة العارف به. يعطرّه بماء الكولونيا. يُسرح شعره ويدهنه قليلاً بالكريم ليحفظ عليه لمعانه.

- هل أنتَ عريس لتستغرق هذالوقت ، تصرخ أمه عن بُعد.

- أنا العريس والعروس يا أمي.

يتناهى إليه صوت أمه غير الراضية عليه. يتقلص رضاها عما حولها كلما أضاف الزمن عاماً إلى فاتورة عمرها. تصحو باكراً. تعد الشاي، تجلب الخبز الحار من الفرن، والقيمر (القشطة) من الحانوت. تعتقد أن التأخير في النوم يجلب الشؤوم. (لا يجوز أن تصحو الشمس قبل البشر)، هكذا تقول. تشرع بإيقاظ الجميع بنداءات متلاحقة تشبه الاستغاثات: (إصحوا من الأمس وأنتم نائمون).

صوتها الذي يشي بتذمرها يدوّي في أرجاء الدار. تتشح بالسواد حداداً عليها، واستقبالاً لموت مسيء محاسب ومعنف دائمًا على تأخير أو قدوم مبكر. تجلس القرفصاء على بساط ممدود في وسط الصالة. متثائبة ونعسانة طوال الوقت. متجهمة تقاطع الضحك (الضحك للشباب) تتوهم أمراضًا لتئن وتشكو منها. تميل إلى النصح، الإرشاد، التدخل والتحذير الدائم من مكائد الزمن. الأمهات أمهات الحزن قبل كل شيء.

- هل رأيت علبة سجائري؟

- لا لم أرها.

- لا أعرف أين وضعتها يدي. أنسى كثيراً، النسيان من علامات الشيخوخة، لقد شخت يا ولدي. تصور أنني لا أتذكر أين وضعتها، من الأمس وأنا أبحث عنها. أو صيت أباك أن يُحضر لي علبة أخرى فنسي هو أيضاً. نعم نحن نكبر لننسى، لعل الموت يشيخ هو أيضاً وينسانا. أيها الموت علامك ساكت على المرض الذي يفتك بنا، أيها الموت لِما لا تموت أنتَ أيضاً، فترتاح وتريح... تقول، ثم تجهش بالبكاء.

يرتدي بهاء بنطلوناً أزرق وقميصاً سماوياً، يدهن حذاءه، تصدر عن فمه دندنة تنتبه إليها أمه. (لا يجوز الغناء في الصباح) تزجره. (إذا طابت النفوس صدحت غناءً) كما يُقال، يرد عليها. ثم يتسلل خِلسة؛ يستطلع المكان، يتأكد من خلوه من (حراس الفضيلة) المتربصين ليس بدافع الفضيلة، كما يزعمون، وإنما بدافع الفضول والرغبة في الفضيحة والتشهير. نعم أولئك الذين يتطوعون لمراقبة الفضيلة وتعقب الخارجين عليها، هم أنفسهم من ازدرتهم الرذيلة ذاتها.

يدخل بحذر يجدها في انتظاره. ترتدي ثوب الزفاف الأبيض. تشدّ شعرها بوشاح أبيض يتدلى على كتفيها العاريتين. يفوح منها عطر أنثوي أخّاذ. يُضفي عليها المكياج هالة جمالية شفافة لافتة. تتدلى من عنقها قلادة لألأة، تشمل عنقها والجزء العاري من صدرها ببريقها. تُطَوِّق معصميها أساور تحدث خشخشة ودّية. حول أصابعها تلتف عدد من الخواتم الذهبية والماسية. نتصافح ونتعانق بصرياً.

- صباح الخير (يهمس).

- صباح الورد (تهمس هي أيضاً). احملني على ذراعيك إلى غرفة النوم وضعني على السرير يا سيدي.

- أين تقع غرفة النوم؟

- إنها في الطابق العلوي.

- هذا يعني أن أحملك على ذراعيّ وأصعد إلى أعلى هذا السلم.

- نعم، احملني إلى صومعة الماضي الآتي بك، ثم ضعني على فراش الرغبة الغائبة. احملني الآن.

يقوم بحملها على ذراعيه بحذر خوفاً من أن يسقط وإياها من على السلالم. صحيح إنها نحيفة، رشيقة وجميلة لكن هذا يخفف من حضورها لا من وزنها. تتعالى أنفاسه لاهثةً فيما تغمض هي عينيها بطمأنينة لذيذة. تهدي إلى عينيه المحملقتين ابتسامة رضًى محتفى بها من شفتين كأنهما عثرتا للتو عليها. شفتاها غليظتان عليهما طِلاء شفاه أحمر فاقع يتسق لونياً مع رمشيها الكحيلين ولون روميل جفنيها.

يضعها على السرير بعناية. يلتقط أنفاسه بصعوبة لاهثاً. تتسلل من فمها همسة.

- اخلع حذائي من فضلكَ.

ينهض فوراً يخلع حذاءها الأبيض. ينتصب واقفاً يشرف عليها. جسدها ينشر على السرير أعضاءه الفاتنة. تتنهد، تنهض ببطء، تخلع خاتم الزواج من إصبعها وتضعه في فردة حذائها (لكي لا أنسى مكانه) تهمس. تتجه نحو منضدة السرير الجانبية، تُخرج مفتاحاً من جارورها. تستدير، تفتح أحد أبواب الخزانة الثمانية. تُخرج طقماً رجالياً أسود، وربطة عنق حمراء. تطلب منه أن يرتديها.

يخلع بهاء ويلبس. تصحح له ربطة العنق. تأتي بمشط وتسرح به شعره على طريقة أخرى، تصفف القسم الأكبر منه إلى الجهة اليسرى وتصوب الخط الفاصل بين الشعر المفروق. تخرج من الخزانة ذاتها قنينة كولونيا تعطره، تستنشقها وتشمه بها بعمق. تتنهد، تبتعد خطوة عنه، تدقق النظر فيه (أنتَ الآن هو، ببدلته، ربطة عنقه، عطره وبتصفيفة شعره).

- أنتَ حسين بعينه.

- مَنْ يكون حسين؟

- نادني هيفاء.

- من تكون هيفاء هي الأخرى؟

- أنا منْ أطلقت عليها أمها اسم هيفاء، ألا تعرف اسمي بعد، أم أنك تتناسه وتطلق عليّ أسوة بالآخرين زوجة الضابط.

- لكن أنا اسمي بهاء.

- أنتَ حسين، أرجوك (تسد براحتها فمه ملامسة برقة شفته السفلى) كنْ هو الآن، على الأقل هذه اللحظة بالذات.

- (تخلف لمستها العابرة سخونة مرغوبة) حاضر يا ....

- (تعاجله) هيفاء، قلْ هيفاء لم أسمع اسمي يتردّد على شفتيّ أحد، لا أحدَ يناديني به البتة منذ أن فارقتكَ وخرجت من جحر أمي، لأدخل في جحر الضابط. حتى هو الآخر يناديني يا امرأة. وحين يحدث ويضطر إلى تقديمي إلى أحد، وذلك من النادر جداً، فيقدمني بـ(حرمنا المصون).

- هيفاء.

- نعم سيدي حسين.

- حسين

- لو قُدر لكَ التعرف إلى حسين، لسقطت بحبه أنتَ أيضاً. إنه جميل، ذكي، مثقف، مرهف وشيوعي وشاغل أحلامي برجولته.

- لا أحدَ يسقط بالحب، بل يقوم به.

منصرفة به إليها، لا تعلق على اعتراضه. تأخذ بيده تجلسه على حافة السرير. تنظر إليه مسحورة بخَلْقه. تبتعد عنه قليلاً. ترقص رقصة طقوسية أقرب إلى شعيرة منها إلى هزّ جزء من جسد. تبتهل ساجدة إلى إله ينبعث لتوه من لدنها ويقوم سائداً على مرأًى منها. (حسين وهيفاء بطلا قصة الحب الطبقي الصامت يمجدهما شكل الكفاح ومحتوى الثورة) تتغنى بها.

- حسين سوف أحدثكَ عنكَ.

- حسين يا هيفاء، من أين ظهر لي حسين، ناقصني أنا حسين الآن، وقته هذا الآن، يردد ذلك في سرّه.

- انطق ا سمي كيفما اتفق، لكن اتلو (حسين) مثلما تتطلب ميلو ديا نطقه. كن سعيداً وفخوراً حين تقول ا سمه. تر د د (حسين) (بصوت منغّم وبدلال أنثوي).

- حسين

- أليس كذلك، حسين هكذا.

- حسين

- رائع، بدأت تتقن لفظه، إنها درجة على سُلم حبه.

- ومنْ يكون حسين هذا؟

يكون حسين ابن خالتها. كان طالبًا جامعيًا يدرس الاقتصا د عندما انتبهت له الأنثى التي فيها، كما تصف. ومن أجل أن تلتقيه عليها أن تقنع أمها بضرورة الذهاب إلى دار خالتها. تتذرع أن خالتها مسنّة وتحتاج إلى مساعدة في إدارة شؤون منزلها المؤلف من تسع غرف. حسين طالب مجتهد لأنه شيوعي، كما تعتقد وهي عاملة ماهرة في مصنع المنا ديل الورقية. تخرج علبة المنا ديل الورقية، تحتفظ بعدد من العلب في الخزانة ذاتها. تفتحها، تحتوي العلبة على منا ديل ورقية حمراء اللون.

- إنه اللون الذي يفضله حسين، شِم ... إنها معطّرة فعلاً، وليس ذلك مجرد دعاية لتسويقها، شِم

- إنها ليست معطرّة.

- لا تمزح، ما أثقلكَ.

تذهب بعد الانتهاء من العمل إلى بيت خالتها. تمضي الإجازات هناك أحيانًا. أمها تقوى على القيام بأعمال البيت. بيت أمها صغير مُؤلَف من غرفتين. يأتي حسين من الجامعة أنيقًا فرِحًا. تُهيِّئ الطعام له بنفسها. يأكل بشهية. يفضل الطعام من يدها؛ يجده لذيذًا، (إنها أكلة عظيمة، أنتِ تطبخين بنَفْسٍ طيبة)، يثني عليها، ثم يذهب إلى السرير ليستريح قليلاً. تغسل ملابسه، تشمها غير مرة وتضمها إلى صدرها. تُطَيِّب أنوثتها برائحة رجولته. تفعل ذلك قبل الشروع بغسلها. تغبط ملابسه على ضمها لحسين، وتغار من حَقٍّ

القماش في احتواء جسده فيما هي الدم واللحم والشعور لا حَقَّ لها فيه. يطلع حسين من غرفته يقظان من قيلولة استعارها من نوم العالم. يرتدي بيجامة حمراء. يتجه إلى كرسيه، هادئًا راضيًا عنه ومطمئنًا على مستقبل الشعوب الاشتراكي. يترك على شفتيه ابتسامة ملائمة تتعامل مع سواه. ترعاه هيفاء بنظرها، مبهورة بطلعته وخائفة عليه من الحسد، هي تحسده عليه، فكيف بخُصُومِه.

تُعدّ له شاي المساء وتحضر صحن الكعك. يبدأ بمطالعة الجريدة ثم ينتهي إلى قراءة مواده الجامعية. يذهب مرة واحدة في الأسبوع لحضور اجتماع حزبي شبه سري. يعود سعيدًا ومتفاءلاً. يُطلعها على جوانب من نشاطه السياسي. يثق بها، كما يصور لها. يشرح لها كأستاذ متمرِّس يعطي درسًا لطلبة جدد. (هناك أساس مادي يدعم تفاؤلنا بعراق اشتراكي)، يستأنف حديثه (يشرح لها ما معنى أن يكون العراق اشتراكيًا، سيكون مجتمعًا لا طبقيًا، ينتهي فيه التفاوت الطبقي، لا فقير فيه ولا غني، لا شبعان على حساب جائع ولا دم يُهدر. سيقود العمال المجتمع بأسره نحو الاشتراكية ومنها إلى الشيوعية. نعم، سننهي صراع الطبقات ونشرع بتفكيك الدولة ونضع أجزاءها المفككة في المتحف إلى جانب (جمجمة النياندرتال)، يخلص حسين إلى ذلك.

- هذا يعني أني سأكون عاملة وقائدة في الوقت ذاته.

- نعم ستبقين عاملة، كما أنتِ. حتى مرحلة الشيوعية عاملة في مصنع المناديل الورقية.

- المعطرة من فضلك.

- المعطرة

أمواج بشرية ببدلات زرقاء ورايات حمراء خفاقة تتدفق على الساحة الكبيرة. منصة شاهقة يصطف فيها قادة شيوعيون، يبرز من بينهم الرفيق حسين يطل على الجماهير بوجه صارم الملامح، قبضة مرفوعة و صوت حماسي هادر. هكذا يتخيل حسين نفسه، فهو يخطب ولا يتحدث. لا يخطب في فرد بل في حشد. ينتقي عيِّنةً واقعية هي هيفاء من ذلك الحشد المتخيل. يستأنف الرفيق حسين إلقاء خطابه: (نعم سينضم المجتمع

بأسره إلى صفوف الطبقة الظافرة. سوف تخفق رايات الشيوعية الحمر عاليًا فوق رؤوس الشعوب السعيدة وربى أوطانها الحرة. سنحول المساجد والكنائس إلى مكتبات عامة، قاعات مؤتمرات، و صالونات ثقافية. سنجعل من كل الساحات مسارح عامة ترقص عليها فرقة الباليه البولشوي. سنهدم السجون ونحولها إلى رياض أطفال. وسنرفع من معدلات نمو السعادة. سنوفر الهناءات ولكل مواطن هناءته. أجل كلٌّ حسب طاقته ولكل حسب حاجته. سنعتقل الأحزان ونترك الأفراح طليقة. للجميع الحق في الابتسام إلى المستقبل والضحك على ماضي البشرية الطبقي).

يقهقه حسين عاليًا على ماضي البشرية الطبقي المتفسخ وتضحك على قهقهته هيفاء وهي مأخوذة به. هكذا هُمُ العظماء. وُلِد حسين ليكون عظيمًا. بالطبع نعم، لهذا يسكنه ميل إلى تعظيم الأمور، يعظّم حسين الأشياء الراغب فيها؛ أعظم كتاب، أعظم خطوة، أعظم حزب، أعظم قائد، أعظم قُبلة، أعظم حُب، وأعظم حقد. أعظم وجبة دولمة من أعظم طاهية التي هي أنتِ يا هيفاء، لم يصفني بالعظيمة، لأني عظيمة ضمنًا به، (هكذا تقيّمه) إنها في الواقع لا تعي مغزى ما يذهب إليه في أقواله. يصعب عليها تَمثُّل أفكاره وعويًا. لا تريد أن تَعِيَ مادام حسين واعيًا، يعي ما يقول. وعيه يكفيها. في حضرته، تنسى كل شيء، المكان، الزمن، الآخر وكل شيء.

(صدقني أنسى كل شيء، شعوري نحوه يستحوذ عليّ، فيتداعى كل شيء ما عداه)، تقول وتتمنى أن يكون شعور بهاء حيال حسين مماثلاً لشعورها به. (أحبب حسين تحبك الدنيا).

كان يجلب لها الكتب العظمية، حسب رأيها. (لا يصدر عن العظيم غير العظمة) تحفظ ما يقول من أجله، تقرأ من أجله. تحفظ دون أن تجدها معنية بفهم ووعي بما تحفظ، مادام حسين هو وجودها الواعي وسيبقى. عليه الوعي وعليها العناية به راحة، متعة، وخدمة.

ذات مساء، تشعل شموعًا، تضع ورودًا حمراء غامقة في آنية فاتحة الاحمرار. تسدل الستائر. على فستانها السماوي ترتدي صدرية عَمَلِها الزرقاء. تفاجيء الرفيق حسين

بظهورها. فتقرأ عليه دون تمهيد قصيدة لشاعر شيوعي بلشفي وليس من المناشفة الانتهازيين. إنه شاعر حقيقي، كما ترى. كل شاعر ليس شيوعياً فهو إما أن يكون انتهازياً أو برجوازياً مدعياً على حد قول الرفيق حسين الذي يضيف أيضاً أنَّ أعلى مراحل الوعي الالتزام. لا يترك حسين عبارته غارقة في غموضها، فينجدها بالشرح، يعني بالالتزام هو الالتزام بقضية الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي. (حسين موسوعة، يعرف كل شيء وله فيه رأي. حقل مترامٍ، نَضِر بالمعرفة ورِقْراق بالرأي) تتوجه إلى بهاء، تقلل منه بنظراتها، أين هو من عظمة حسين، ثم تشير إليه بيدها طالبة المصادقة.

تقف قبالته، تتنهد رافعة رأسها بثقة وشموخ. ترفع يدها إلى مستوى صدرها وتشرع بالإلقاء:

(آه، لو أنَّ لصوتِي القدرة على أنْ يهزَّ النفوس
لِمَ هذا اللهب المتوقد، عبثًا في صدري
أتراني أرى شعبًا، يا أصدقائي، وقد تحرر
من جَوْرِ العبودية بأمرٍ من القيصر؟
أو لم يحِن لفجر الحرية الوطنية الرائع
أنْ يشرقَ على وطننا أخيراً)

تنهي إلقاء القصيدة بعبارة: عاش شاعرنا الشيوعي البلشفي بوشكين. يصفق الرفيق حسين بحرارة. (يتقدم مني يحضنني. ينزع عني صدرية العَمَل ويضمني إليه. يأخذ فمي بقبلة ساخنة وطويلة. تلك هي المرة الأولى التي تؤرخ تذوقي لطعم قبلة الفم. لأقبل الفم الذي ينطق بشعر البروليتاريا الثورية. ضم وتقبيل تعبيراً عن إعجابه بموقفي الطبقي الواضح، ليس إلاّ) نعم حدث ذلك، لكن في خيالها المُبحر بها بعيداً حيث شواطئ الرغبة. أما حسين لا يزال جالساً على كرسيه الوثير منفوشًا، يحوص إعجابًا به على صنيعته القابلة على التطور. حسين لا يقبّل يد امرأة، لأنها عادة برجوازية، كما يصف، أما قبلة الفم فهي عادة ثورية جديدة يقترحها على الطبقة العاملة الصاعدة سلم المجد.

"قبلة الفم عقد شفاهي لذيذ بين طرفين يجمعان على الشهوة أو الحب". هذا ما فهمته متأخراً من تجربتها الواسعة بالمطالعة. على هذا النحو تُعزي رغبتها على أفعالها المنقوصة.

بهاء المستلقي مشغول عنها بمعالجة توتره الناشئ عن تحرش أعضائها المتواصل بنظره. لا يزال ينازعه الاعتقاد أن وضعاً كهذا غير ملائم لصعود الرغبة. كل ما حوله يدعو إلى تعليق الفعل أو بطلانه. ها هو يشهد أيضاً على تداعي رغباته في هيفاء، المتسربة منه إلى حسين الذي يتراءى لها فيه. لا ترى من بهاء هذا الصرح الذكوري المنتصب والمتداعي على سرير رغبتها، غير ذلك الوجه الشبيه، الذي يتوجه بها وجهة حسين. يجمع نفسه فيه ويخرج على هيفاء من صمته المحاصر بطوق من كلماتها العالية الصوت.

- هيفاء. بوشكين شاعر روسي وليس بلشفياً، ولم يعاصر ثورة أكتوبر. ولد في عام ١٧٩٩ وقتل في عام ١٨٣٧ أثر مبارزة لجأ إليها بسبب زوجته الفاتنة، وفتنتها هذه أثارت له المتاعب.

تنتفض غاضبة. تقف. يشيح بهاء النظر عن وجهها الذي يُذهب الغضب بجمال بعض ملامحه. تجزم هيفاء. (أنتَ غلطان وألف غلطان) تتهمه على أنه أداة ناطقة تردد بلا وعي آراء صفراء ودعاية رأسمالية مبتذلة. توقن أنه من مستمعي (إذاعة أوربا الحرة) المعادية للشيوعية. تأمره بالتوقف الفوري عن الاستماع لتلك الإذاعة المُغرضة. توبِّخه على قوله: إنه شاعر روسي، بينما هو في الحقيقة شاعر سوفياتي، ليس هناك روسيا، إنما الاتحاد السوفياتي العظيم. وتتوقف به عند إساءته المقصودة عندما أسقط أثناء قوله صفة العُظمى عن ثورة أكتوبر. وتعنّفه على نطق كلمة قُتل بدلاً من كلمة استشهد، فالشاعر لا يموت من أجل امرأة، (ليس شاعراً منْ لم يمت بسبب الحب أو بسبب امرأة، يقول بهاء في سرّه)، ضحّى بوشكين بحياته من أجل قضية، ولا قضية أعظم من قضية الطبقة العاملة الظافرة.

تحسم المسألة بيقين لا يضاهيه شك. {لا يمكن أنْ تفهم أكثر من حسين، وما يقوله حسين هو الحقيقة بعينها}، حسين ذلك الفتى الذي أفنى وقته بين دفات الكتب وفي قاعات الاجتماعات يتدرب على كيفية استخدام الحقيقة ضد خصومه. تتحامل بنظراتها على بهاء الذي يبدد وقته متسكعاً بين السماء والسطح، لعله يعي ذلك ويقتدي به. تذهب مسرعة صوب الخزانة، تخرج المزيد من علب المناديل الورقية. تفتح علبة، تخرج أوراقها بانفعال حادٍ، تقذف بها في الهواء فيما تحتفظ باثنتين تلوح بهما. تراوح في مكانها كما يرواح العسكر. تنشد بصوت عالٍ:

هبوا ضحايا الاضطهاد

قد لاح فجر الظفر

مجد الأممية يوحد البشر

تذهب أفكار بهاء به بعيداً عن هذا الجسد الذي يميل إلى الإنكفاء عن البدو بجماله والاعتذار عن إثارة أو تهيّج كما لو أنهما قد حدثا سهواً. يرقب بانزعاج، كيفية تحول هذا الفم الجميل بطلاء الشفاه الأحمر الفاقع إلى فوهة بوق نحاسي صدئ لا ينقطع عن نفخ لحن رتيب لدعاية أيديولوجية.

يحاول بهاء حسم الموقف لمصلحة رجولته المطعونة. يلجأ إلى أية فكرة من شأنها مساعدته والخروج به من هذا المأزق الذكوري. لا يتفرج وحسب وإنما هو طرف في لعبة سُوء استخدامه من قِبَلها. يريد أن ينهي حالة التنكيل بكرامته الرجولية ويعيد العزّة إلى ذكورته. يفكر بإيقاف مهزلة الإساءة إليه. هل هناك من حاجة أو رغبة تستدعيان مُضيه في لعبه العابث لأداء دور مزدوج. لا يريد ولا يقدر أن يكونهما معاً، في آنٍ ومكان واحد. يفكر بوجوب مغادرته المكان هذا أحدهما؛ إما هو أو حسين.

- كيف تُجلي إنساناً من مكانه بقنبلة يدوية؟

- ليس عندي أية فكرة يا سيدي.

- لم إذن أبديتَ مثل هذا الرأي؟

- كانت عبارة مجازية، يا سيدي.

- ألم تقتل جميع الفيتناميين الذين وقعوا بأيدي فصيلتكَ؟

- لا أعلم، يا سيدي.

- ألا تذكر كم كان عددهم؟

- لا، يا سيدي. لم يكن الأمر مهمًا بالنسبة لي في ذلك الحين، يا سيدي.

- هل تذكر إن كانوا إناثًا أم ذكورًا؟

- لا يا سيدي لا أذكر.

- هل كان بينهم أطفال؟

- نعم، سيدي. أعتقد أنه كان بينهم أطفال، يا سيدي.

- هل وفّرت أحداً منهم لحقل الألغام؟

- لا، يا سيدي، لم أفعل ذلك.

- ألم تشهد بأنك تلقيت أمراً بالإبقاء على بعضهم لحقل الألغام؟

- نعم، يا سيدي فعلت.

- لِمَ لَمْ تُبقِ على أحد منهم لحقل الألغام؟

- لقد ألغى الكابتن مدينا ذلك الأمر وطلب مني أن أبيدهم جميعًا، يا سيدي.

- وماذا قال الكابتن مدينا؟

- قال لتذهب تلك الملاجئ إلى الجحيم. اقتل جميع من فيها واخرج بجنودكَ من هناك

- والآن، ألم تتوقف لحظة لتفكر في شرعية وعدم شرعية تلك الأوامر؟

- كلا، يا سيدي.

يهيمن على بهاء ظل اعتقادٍ: من السخف والعبث أن تحول فكرة أو عقيدة دون المتعة. عليه أن يمضي بهذه اللعبة العابثة حتى المضاجعة. لكن كيف؟ ذاكرته في لحظة انسلاخه عن هذا المشهد المزري الذي يبدو فيه، تعرّضه إلى نوبات فكرية، أخطر ما فيها

غموضها. يقفز إلى عمق ذهنه بشكل فجائي، مشهد حاد الوَقْع والمؤثرات؛ هو شهادة أحد الضباط الأمريكيين في محاكمته العسكرية عن مذبحة 'مي لاي' في فيتنام، يستنجد به طلباً إلى الانعتاق من أسر هيجانه الجنسي، يلجأ إلى ما يقذف به خارج دائرة الرغبة. يكتشف بهاء أنه أمام مكيدة لا شعورية ترمي إلى بطلان ظهوره وهيفاء في مشهد التجاوز الفكري المؤدي إلى انقطاع مشاعرهما المتبادلة. لا صلة فكرية على مشاعر منقطعة عنها. وعيه ينهاه عن التعامل جسدياً معها، لكن جسده متهيّج وثائر على وعيه، يأمره بالرغبة فيها. لا ينكر أن كرامته الرجولية المطعونة، تطالبه بالثأر لها، لكن ذكورته تنحو نحو التعامل الجنسي المحض مع الموقف. الجنس للجنس، نعم الجنس للذّة وليس لأي شيء آخر، لا لأجل الإنجاب وليس لتقييد جسدين بقيد عقد الزواج- النكاح، الجنس للجنس ليس إلاّ. الكرامة قيمة لا قيمة لها بالتقويم الذكوري. جسد مكتنز الرغبة فيه، مطلوب إزالة الحواجز الفكرية والدخول فيه. كيف وهي التي أجلت كل القُبل عن فمها لتحوله إلى مأوى لتلك الكلمات المرفوضة والضالة عن أفواه الرجال.

يجده في وضع ذكوري حرج، عليه التخلص من هذه الورطة. جسده متهيّج يصرّ على احتوائها، وخطرات ذهنية تلوح بخطورة المَسّ بكبريائه، النيل من رجولته واعتزازه بنفسه. إنّ كل ما حوله يبدو سخيفًا لما لا يكون هو سخيفًا أيضًا. يتأكد منه أنه الآن ليس سوى طقم وقميص وربطة عنق وعطر يشي بحسين المرغوب فيه. هي تريده كذلك. لِمَ لا يكون حسين مادام هو المرغوب فيه، ويفوز بالمواقعة. أليست هذه رغبة مفضلة من طرف واحد، طرفها طبعاً؛ لكنه يرفض أن يكون أداة لاستمنائها الذهني. يرفض .

يتوقف قليلاً، ليراجع شَرْط الرَفض، لا يكفي في حال كهذه، ولا يكون الرفض رفضاً إن كان من أجل الرفض وكفى، يحتاج إلى إسناد حاسم من استعداد نفسي وتجربة عامة، لا رفض بلا تجربة. جسدها المشتهى لايقاوم بفكرة، يتعذر الانسحاب من سِحْرِه تحت سِحْر أية فكرة.

لكن كيف تسربت كل هذه الأفكار، وتراصت لتشكل جِداراً يحول دون اتصالهما الشعوري ومن ثَمَّ الجسدي؟. كيف قويت دون أن يتصدى لها، أولاً بأول؟. كل شيء

متأخر الآن. المطلوب كيفية الخروج من هذا المأزق الفكري إلى رحاب جسدها. يجب مواجهة وتجاوز الوضع الذي وُضِعا فيه، عبر أفكار تصلح للمقهى، للصالَة، ولكنها لا تصلح قطعاً لغرفة النوم. مطرودة عن غرفة النوم الأفكارُ والمواقف، وموجودة فيها موسيقى هادئة، وردٌّ يسخي بالعطر، ستائر مسدولة، هدوء، بُطء، كأس ويسكي، بضع حبات مُمَلَّحة من الفُستق الحَلبي، رقص، أنفاس عطرة، همسات، رغبة، حِس بالدعابة والمداعبة، إثارة وخيال. هو المعروف عنه مغامراته الجنسية مع حسناوات المنطقة التي يسكن. هذه السُمْعة المتداولة عنه توفر له بعض العُروض الجسدية المثيرة. من عادته لا يقول لا لجسد رشيق تعلوه كَتِفَان ترتفعان برأس، يرتقي بوجه متألق الملامح. يُضاجع الوجه قبل الجسد. الحسناء مغفور لها هفواتها ومفضلة سذاجتها

لا يحسب أنّ شهوته الجامحة ستطاوعه على الفرار من هذا الجسد المكتنز باللذّة، وجرها خائبة إلى زاوية سِرّية مُعْتِمة لشحذ الخيال الجنسي المطلوب في عملية الاستمناء، ربما سيجده مضطراً بالنهاية إلى الاستعانة بتخيلات عن جسدها في حالة مُوَاقعة، لإتمام هذه العملية. تُوَاتيه فكرة قد قرأها في أحدى الصحف: (الندم على فعل خير مِن الندم على عدم فعله). مضاجعة يندم عليها أفضل من الاستمناء الذي يتلظى به.

كيف يُنْهِي الموقف. دمه يسخن في عروقه على لهيب الرغبة. جسد يرغب فيه ونفس ينفر منها. دخل عليها طلباً للدخول فيها، وها هو على وشك الخروج منها مجرماً. كل ما فيه يرتعد ذُعراً منه وغضباً عليها. يزوغ نظره من هذا الظلام الشفيف المتكاثف على عينيه، ستائر غامضة اللون يَحُول انسدالها بين الوُضُوح والرؤية. ضوء شمس يتسلل من النافذة، يتضاءل إلى بصيص يَحُث الخُطَى نحو ارتكاب فعل مجاور إلى الجريمة. يطوف فيه، ينقّب عن أداة، لا سكين لا مسدس هنا. هناك فخاريات وزجاجيات تداعب وجهه المتجهم بانشراح ألوانها وبساطة زخارفها، لكنها مع ذلك تصلح إلى أن تكون أداة لوضع نهاية مأساوية لهذه المهزلة المُشْرَعة.

لا يقوى بهاء على مقاومة فتنة جسدها الذي يشرع بالتعرى المتعاقب. الفستان يتراكم ككومة بيضاء متكورة كفيما اتفق حول خصرها الدقيق. ما هو عارٍ من جسدها يبوح بسر

إثارته. يترنح بهاء حول جسدها مخموراً بالرغبة. عريها يشدّه إليها، يكسر نفوره الفكري منه ومنها. جسده صفيح ساخن يغلي بالشهوة. تتآمر أعضاؤه عليه برعاية الانتصاب وقيامه. سيخ ساخن يستشيط شهوة يكتوي به. يجتمع كله عليه مجمعاً على جماعها. يُصرّ قضيبه بلباسه الداخلي بقوة. يحاول ثنيه عن انتصابه عبر استحضار أفكار مجردة مرة ومرة فاجعة، لعله يردع رغبته ويخرج صحيحاً وبريئاً. وينتهي الموقف لمصلحة كبريائه المجروح وكرامته المطعونة. غير أن جسده يتنامى احتقانه، لا يوافقه على فكراته، فيوظف كل فكرة مهما استقامت أو انحرفت لمضاعفة انتصابه والإمعان في التزمت إلى الشهوة والمطالبة بها. والقذف به في تيه عملية جنسية منقوصة.

تأخذه في قبلة طويلة لاهبة: (قبلني حسين، فمي العطش لا يرتوي إلاّ بقبلة منك، خصبني) تردد ذلك. يتجاوب بهاء معها تقبيلاً. تنفصل عنه، تخلع حمالة النهدين، ترمي بها بعيداً. نهداها منتصبان يرتفعان وينخفضان بليونة تبعًا لحركات جسدها. تقحم حلمة أحداهما في فم بهاء الفاغر. ثم تبتعد بنهديها عنه. لكنه لا ينسحب منهما بنظره.

(لقد تجاوز العمر عليكِ بأربعة وعشرين عاماً. لا يجوز أن تتركني إلى الزواج. ذلك سوف يسيء إلى سمعتك ويلحق الأذى بنا خصوصاً ونحن لا رجل بيننا يحول بيننا وبين أولئك الطامعين بنا. من سمعة المرأة تأتي مكانتها. ترفضين كل الرجال الذين تقدموا منكِ على هيئة مشاريع أزواج. لا تزالين مترددة بشأن الأخير، ما به؟ هو ضابط وينتظرك وإياه مستقبل زاهر قوامه الحماية، الوجاهة والقوة. كوني صريحة معي يا ابنتي هل فقدت غشاء بكارتك في لحظة طيش أو إغواء. إن شرف المرأة يشبه عود الكبريت لا يشتعل مرتين، كما يقال في الأمثال)، تناشدها أمها.

- هذا ليس مثلاً يا أمي وإنما حوار جاء في فيلم مصري على لسان الممثل يوسف وهبي.

- على أية حال أما تزالين عذراء؟

- نعم.

- شكرًا للسماء على رأفتها بنا.

- وبغشاء بكارتي.

يحضر حسين إلى دار أمها. يرتدي طقمًا أسود؛ قميصًا أبيض وربطة عنق زرقاء، لم ترها سابقًا. عطره يمهد لقدومه، جميلاً يبدو لها. يهمين على اهتمامها ويشغل مساحة تفكيرها. يخطو نحو سعادته بثقة الآن. بعد التحية على أمها يأذنها للتحدث مع هيفاء على انفراد. كما يكون حسين يجب أن تكون. سعيدة على سعادته، سرورها وقف عليه. تدّخر فرحاتها المحسوبة عليها. (سلفيني فرحة يا أمي لأبدو بها، تداعب أمها، نسينا أن نطلب من أبيك قبل رحيله عنا، أن يترك لنا فرحًا نَقوى به على حزننا عليه، ترد أمها عليها) تفسر رغبة حسين في أن يخصها بالحديث، ليس دون أمها وإنما دون البشر جميعًا، وخصوصًا ذلك النصف المؤنث منه، فهذه إشارة إلى عمق الصلة بينهما. أما على انفراد، فهذا دليل على ثقته العظيمة بها.

- أحضر لكَ شيئًا تأكله؟.

- لا شكرًا، أكلت.

- أحضر شيئًا تشربه؟.

- لا شكرًا، شربت.

- أتريد أن تستريح قليلاً؟.

- لا شكرًا أنا مرتاح، لقد نجحت بتفوق.

- مبروك.

- غدًا سيكون حفل التخرج، بعدها سأقيم حفلة في البيت.

- دعوت بعض الأساتذة وعددًا من الأصدقاء والصديقات إلى الحفل، بهذه المناسبة، أريدك أن تقومي بإعداد الطعام وتنسيق البيت ليبدو ملائمًا ولائقًا بمكانة الأستاذ الجامعي.

- الأستاذ الجامعي؟.

- نعم الأستاذ الجامعي، سأحدثك عن هذا الموضوع فيما بعد.

- وهل سيكون بعض الرفاق من بين المدعوين.

- لا طبعًا.

- اسمعي رزمت جميع الكتب الشيوعية.

- العظيمة

- العظيمة، في صناديق، اقتنيت كتبًا أخرى بدلاً عنها، بعضها على طاولتي والبعض الآخر على السرير، نسّقيها على ذوقك على رفوف المكتبة، لأنه في الواقع لا وقت لدي للقيام بذلك، فعليّ البدء بإجراءات التعيين في الجامعة

- حاضر رفيق حسين.

- لا أستاذ حسين من فضلك.

- حاضر أستاذ.

- إلى اللقاء.

- مع السلامة.

تودع الأستاذ حسين على أمل اللقاء به في الغد في الحفلة. ستأتيه أنيقة، تفكر بتأجير فستان وحقيبة غاليتين واستعارة بعض المصوغات الذهبية. ستجهد في توفير عطر غالٍ. ستشاور المرآة حول صلاح مكياجها وتناسق ألوان أثوابها. ستكون نجمة مضيئة إلى جانب قمر منير هو حسين يبزغان في سماء الحفلة. لكنها امرأة نجمة في زاوية. ستغيب عن العالم والحضور ولا تبزغ إلاّ بإذن ضوئي من قمرها المتألق بها. تتمرن على النظر، الصمت والإقتصاد بالكلام. هذه أول مناسبة عامة تختبر بها أنوثتها. يعد هذا الظهور الأول كامرأة، ظهورها السابق اقتصر على كونها عاملة، زبونة، عابرة أو امرأة صالحة لمشروع زوجة. لكنها ستخوض الآن تجربة ظهورها كامرأة مع رجل تحبه وسط غرباء لا تجمعهم سوى مناسبة الحفل. امرأة عن قرب. تخطط على إسعاده وستعزز شعوره بالارتياح والسعادة. نعم، ستحل رقيقة خفّاقة بعذوبة في حفلته. تمنعها عن الأكل وعن الشرب، تشبع من النظر إليه وترتوي من بقائها بالقرب منه. نعم، يشرفها حسين بمهمة

الإعداد لحفل عظيم من تنظيف، طهي، وتنسيق كتبه على الرفوف. خدمته قضية وجودها. دورها ينحصر في إرضاء هذا الرجل الذي أحبته بصمت. حب يتعذر التصريح به. حقيقة حبها أو وهمه سيان، فالحب هو الهامش الوحيد الذي يؤكد على وجودها حية. تسترد به أنوثتها المسحوقة في هذا العالم الذكوري الفَظّ. العالم هذا زوراً يدعى عالماً. (لا يستحق أن أدعوه عالمي، صدقني، عالمي هو حسين، معه فقط أشعر ما معنى أن يكون الكائن الذي هو أنا امرأة. لا عالم للمرأة سوى رجل تنطوي عليه وتطوي حياتها به. تصور غير مرة، أصحو مذعورة على لزوجة داخلية تنشأ عن احتلام، لا يتنكر له الواقع، بل يجرّمه بعدد لا يحصى من المحرمات، المرأة وجود محرم، تهمة كونية مطلوب دوام نفيها. جسدي يذكرني مرة واحدة في الشهر على كوني امرأة. فيما أمي لا تراني سوى غشاء مهدد بالتمزق. المرأة كائن أوهي من غشاء البكارة. كنز الفتاة بين فخذيها. تحرس أمي كنز ابنتها بالأدعية، النصحية، النهي والتحذير. ولا تراعي أحلامي في الحب والانعتاق).

تضم هيفاء بهاء إليها بقوة. تضغط لتضع ساقه اليسرى بين ساقيها. ثم تضغطهما عليها. يشعر برعشة لذيذة. يسري فيه خدر، يتداعى على سريرها. تخرج لسانها تلعق شفتيه خطفاً. (يكتسب كل عضو من أعضائي مُبَرِّره من خلال حاجته إلى أي عضو من أعضاء حسين. أنا قطعة مُهْمَلَة تكتسب قيمتها من خلال حاجة حسين إلى استعمالها).

تخرج هيفاء من الحمام مبلولة تّقْطُر ماءً، تفوح منها رائحة الصابون. تدخل غرفة لتخرج منها، سيدة بفستان أزرق، تطوق عنقها قلادة ذهبية تتدلى أعلى نهديها المضمومين. مطيبة بعطر غالٍ. تطلي فمها بطلاء شفاه أزرق فاقع. يوسع عينيها كحلهما، يزيد بياض عينيها من سوادهما. تمشي بتأن على كعب عالٍ. تشاطرها المرآة شعورها بجمالها وثناءها على تناسق أثوابها.

تتجه إلى حسين الذي يأتيها لتوها من حفلة التخرج. يجتازها دون التعثر بها، ينظر إليها ولا يراها. يختصر سلامَه عليها وشكرها على جهدها المبذول في إعداد الطعام، التنظيف، تنسيق الكتب، وتهيئة البيت للاحتفال. يعبر بحركاته المتلاحقة عن انهماك،

ويعطي إنطباعاً عن مشاغل كثيرة تتربص بوقته وجهده. يحرص على استتباب الهدوء ومعالجة الضجة. يفتعل الحاجة إلى سماع الموسيقى ويصرح عن تفضيله للموسيقى الكلاسيكية وموسيقى الجاز. يدعو إلى الانضباط بالوقت وتطبيق النظام، ويحمّل الفوضى والتسيب مسؤولية التخلف اجتماعياً كان أم اقتصادياً.

تلاحظ ميله المفاجئ إلى الصمت والاقتصاد بالكلام وتفادي الدهشة. لم تبدُ على وجهه ولا على فمه علامات المفاجأة وعباراتها.

تحاول غير مرة لفت انتباهه إليها، امرأة أنيقة، أنثى جميلة ومثيرة. لا عطر، لا همسة، لا صدر ناهد، لا ساق يقصر عنه فستان، لا شيء فيها يستدرج فضوله الذكوري. لم تبقَ محاولة ولم توفر حيلة إلاّ ولجأت إليها عساها تفوز بنظرة منه إليها. حواسه في غيبوبة عن الحس بها. توقّف فقط بالرد على إعدادها الجيد لطبق -(الدولمة من أجلكَ، كما تطلق عليه)- بإيماءة شاكرة من رأسه الذي تدخل حركته هذه كعنصر جديد في أسلوب المخاطبة. لم يثنِ عليها بالعظمة كعادته. تدرك أن مفردات ونعوتاً تطرأ على تعبيره مثل: (لا أعتقد، هذا شيء رائع، على ما يبدو، أمر مؤسف للغاية، لا عليك، لا جديد تحت الشمس، دع القلق وابدأ الحياة). كأنه في حالة تمرين على أسلوب محادثة جديد. (لماذا لا تنعت الآن ما تفضل وتحب بالعظمة، تسأل. لكل مرحلة ضرورتها ولغتها، يجيب. وناسها طبعاً. وهي واحدة من أولئك الناس المحشورين في ذاكرة مرحلة تم تجاوزها، إما بالنسيان أو التنكر. ماذا ستفعل بالكتب الشيوعية المرْزومة، تسأل. سوف أحرقها، يجيب. لماذا خوفاً أم تنكراً، تسأل ولا يجيب).

يتفقد حسين الصالة. يتأكد من عدم تسلل بعض الكتب الشيوعية إلى مكتبته عن طريق السهو أو القصد. يتذوق الطعام، يثني برأسه عليه. يضع لمساته على ترتيب البوفيه. يعطي إذناً إيمائياً بصلاحية وجَوْدَة ما هو معروض. (كل شيء جاهز وبانتظار أن يحين موعد الحفلة ويحضر الضيوف). يدخل الحمام فجأة دون استئذان. تحدس هيفاء حاجته إلى الاستحمام. فتحضّر الحمام سلفاً، تُعَطّره وتحضر غياراته. على خرير ماء الدوش، تسأله ويجيب بصوت عالٍ مشوب بالحنق.

- هل أنا مدعوة إلى الحفلة أيضاً.

- لا طبعاً.

- ولماذا لا طبعاً.

- لا، لأنك ستكونين غريبة وطارئة على وسط المدعوين، وطبعاً لأنك تعبت كثيراً وتحاجين إلى الراحة، وينتظرك يوم عمل طويل في مصنع المناديل الورقية.

- المعطرة من فضلك.

تُسَلِّم على حسين مودعة إياه. قبل انصرافها عنه توصيه: (لا تُفرط بالشرب، اعتنِ بنفسك، كنْ جميلاً، الجمال أمانة كونية، يجب ألا نعرضّه إلى قبح أو سوء. كنْ نجمَ الحفلة، وأنا واثقة من ذلك). ثم ترفع وتيرة صوتها، اذكر هيفاء عندما تجد (طبق الدولمة من أجلك) لذيذاً.

تغادره غريبة حتى عليها. تشق زحاماً. يتحكم الطريق بوَقْع قدمها ووجهة خُطَاها. لأول مرة تشعر أنها وحيدة ومشردة في عالم يكتظ بالبشر والأمكنة. لفحات هواء ساخنة تخدّش وجهها، وتعبث بشعرها غير العائبة الآن بتسريحته. يصغر على روحها جسدها. تصعب على صدرها أنفاسه. الأضواء المتلألئة تُشَهِّر بملامحها المهزومة. عيناها المتألِّمتان تشاطران وجهها الحزين بالدموع. توكل كفها المرتعشة لمنديلها الأبيض - المطرز برسمات لوَرْدَات صغيرة وردية اللون- بالتصدي لتمادي دموعها على ملامحها والعبث بمكياجها. صرخاتها المكتومة تتقهقر إلى أعماقها فتحدث دوياً ينذر بحَدَث سوف يقصرها إلى جسد منزوع الروح. وسوف يتحول العالم بأسره إلى مصنع اجتماعي كبير، دورها فيه ليس سوى آلة هامشية مهمتها الخدمة والمتعة وربما الإنجاب

مِنْ أين لي منديل

أمسح به ملامحي

تصرف حسين الأستاذ ينطوي على تنكُّرٍ متدرج لحسين الطالب. يَرْزم ماضيه وذكرياته في صناديق يودعها دهاليز رطبة منسية. يساورها القلق من حسين الجديد عليهما معاً. ينعطف عن مسار الزمن الرتيب، فيطفر بعيداً عنها. تشهد هيفاء على تضاعف المسافة بينهما. عاملة في خدمة أستاذ جامعي. تحالفهما الطبقي من أجل الاشتراكية مهدد بالانهيار، إنه سينتمي إلى طبقة أخرى، الطبقة البرجوازية المتسلطة التي أعطيا الحق لهما في مناضلتها وبررا لهما الحقد عليها. (تلطفًا أسميناه: الحقد الطبقي المشروع والمقدس). كانا خلية واحدة مناضلة، سوية في صف واحد في عرفهما الثوري؛ الطالب كالعامل لا يخسر شيئًا في نضاله سوى أغلاله. أما الأستاذ الجامعي البرجوازي الصغير سوف يخسر امتيازاته وكرسيه الجامعي الوثير، يصعب عليه أن يؤثر عليه التشرد، النفي أوالاعتقال من أجل حلم بات بعيداً حد التلاشي. حلم كان يدعى الاشتراكية

يكسبها حسين الطالب إلى حزبه. يبلغها في أوقات يجدها مناسبة على تدرجها في صفوفه. يحصِّل منها تبرعاً، ومن ثَمَّ اشتراكاً شهرياً كبدل عضوية في الحزب. يحمل إليها ثناء الحزب عليها. تقتطع بسعادة من راتبها القليل مبلغاً وتقدمه لحزبها. تعتقد أنها تساهم مادياً بخَلاصِها من وضعها البائس، ساعات عمل طويلة، انعدام ضمانات صحية وأوضاع معاشية تسوء. تقاوم ضغوط انتمائها إلى حزب السلطة. هذا الحزب في نسائه ورجاله حالة محمومة من التعقب والملاحقة، وُحُوش كاسرة كامنة للانقضاض. إن امتناعها عن الانتماء لهذا الحزب يحرمها من بعض حقوقها ويعرِّضها إلى التمييز، الأذى، والملاحقة.

الساعة تشير إلى وقت متأخر. الشموع تقرّ بانقضائها. ستائر تُنهي عرض النافذة. على الطاولة عشاء بارد. هناك قرطان ثقيلهما أذنان. هنا حذاء مرفوض من قدم يرتمي على الأرض. خصلات شعر تهفهف على وجه غاف، ملامحه تَشِي بجماله. ابتسامة ناجية من فم غارق بالنوم. يعود حسين متأخراً. تستيقظ هيفاء على مداعبات أصابعه لخصلات

شعرها. يجيء سكرانًا. يتمايل كغصن منذور للريح. حين يسكر، لا تراه إلاّ طفلاً جميلاً ومشاكساً. تتجه بحبها إليه ورضاها عنها، تتلقى مشاكسته بالدلال والعناية. ينفخ على وجهها، تفوح من فمه رائحة الفودكا.

- هيفاء أيتها الوردة الحمراء في آنية الحزب العظيم.

- الرفيق حسين العظيم.

- لنا المجد سوف ننتصر الاشتراكية على الباب.

- لِمَ لم تدخل معكَ، أليست هي الأخرى سكرانة وتحتاج إلى النوم.

- لا مزاح مع الاشتراكية.

- من فضلك لا تغضب.

يحمل عليها، يطلب منها أن تكون جادّة ومُقدّسة في تعاطيها مع الاشتراكية: (إياك والاشتراكية، الاشتراكية أُمُّنا) يبطل على فرحها وحزنها الحق في أن يمسا الاشتراكية، إنها حالة جادة لا تقبل المزاح. الاشتراكية حلمهما المقُدس الذي يحملها التاريخ من أجل خلاصهما والبشرية جمعاء. يعيد عليها تلاوة وصية الحزب التي تقضي بالنضال من أجل الاشتراكية، النضال ثم النضال ولا شيء غيره. ينهض وتنهض معه. تسند بيدها وقوفه المتداعي. يلقي عليها خطاب يضمنه تعاليمه الثورية، (إن الثوري أول من يُضَحِّي وآخر من يستفيد، وطلائع البروليتاريا-العمال المهرة الذين يقفون وراء الآلات هم المرشحون لتحقيق حلم البشرية في الاشتراكية).

تحاول تهدئته. على الطاولة وجبة العشاء الذي أعدته لهما، توهُّمًا منها على أنهما سيحتفلان معاً بمناسبة ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. يعترض على أفعالها ويخالفها في أقوالها. يوبّخها على تجرُئها على إنسانيته بطلبها تناول العشاء. لا يتعشى ما دام هناك بشر قد ناموا جَوْعَى. زاده مبادئُه. يتداعى على الصوفة، تجلس إلى جانبه. يثني عزم يدها عن العبث بشعره، شعره غطاء لرأس يضم دماغًا كلفته العناية به ليكون متطوراً ومفكرًا، كاتبًا كتباً عديدة وتأملات طويلة.

- هل قرأتِ شيئًا اليوم.

- نعم قرأتُ في كتاب (القاموس السياسي).

- إلى أين وصلتِ.

- إلى حثالة البروليتاريا.

- العاهرات وعُمال الخدمات.

— نعم، وهناك مصطلحات كان بوُدي أنْ أسألك عنها.

يسقط حسين من بين يدي هيفاء في غيهب النوم، مخلفًا إلى يقظتها حلماً به. تخلع حذاءه وبقية أثوابه، تلقيه على السرير، تغطيه وتطبع قبلة على شفتيه المنغلقتين على قبلة طالما اشتهتها منهما، وعبارة كم تمنت أن تقولاها (كم جميلة أنتِ). كَذَّبَت الذي يراها جميلة عداه. جميلته هو إن كانت جميلة حقًا. منْ يثني على جمالها أو يعبر عن إعجابه به، تصفه بالمنافق أو المتزلف، غرضُه أنْ يطول جسدها بشهوته. ليست جميلة مادام حسين لا يراها جميلة، وغير محبوبة مادام حسين لا يُحبها. جميلة به ومن أجله. كم انتظرته أن يهز وجدانها وقلبها بوقع كلمة (أُحِبُكِ). هذه الكلمة، منها تكون وتكَوّن، بها تضع العالم المترامي على مرمى خطوتها. ها هو ينام بأحلامه بعيداً عنها. تاركًا إياها إليها، هي المحاصرة بها، تريد أن تهرب منها إليه.

تجلس على حافة السرير، تضع يده اليسرى على خدها اليمنى وتمضي إليه، إلى النوم، حيث حلمه. تحرسها النجمات الساهرة عليها بالضوء. لعلها تعثر عليه صاحيًا وفرِحًا بها، يراها جميلة ويهمس فيها 'أحبكِ' ثم يضمها إليه تقبيلاً وعناقًا.

سيأخذ
بيدي الليل
لنطوف معًا
في أرجاء النوم
عسى أن تعثر
عليّ أحلامي

تستقبل أمها الضابط. يدخل عليهما حاملاً بطيخة، قطعة قماش، قلادة، كيساً مملوءاً بالكعك وقنينة من عصير. (إنه عصير برتقال مركّز وطبيعي، هذه القنينة على صغر حجمها، يمكن أن يُصنع منها أربعة وعشرون قدحاً من الحجم الكبير، تصوري عمتي، مخاطباً أمي) من جهتها أمها تحيطه بحفاوة مبالغ فيها، تفرح بحضوره. تُفْرِد له مكاناً في صدر الصالة. تعدّ له كأسين من العصير المركّز. تستطيب الطعوم من أجله. تضحك بقهقهات عالية على طرائفه التي لا تجدها هيفاء طريفة بالمرة. لا ترى منه غير صوته. كتلة دابة ناطقة أكثر مما هي مرئية. التحَاس معه لا يتعدى سماع صوته ليس إلاّ، كائن لا حضور له، يعنّى كي يُلتفت إليه. مهمل غير مقصود من كلمة أو نظرة. غائب في حضوره وغيابه. يكتسب أهمية من القماش الكاكي الذي يشكله على هيئة ضابط تلتمع على كتفيه نجمتان ذهبيتان. أهميته من رتبته دونها لا يراه ولا يفتقده أحد سوى أمها التي يبسطها وجوده وتعبر عن سعادتها به. تثني على ذوقه باختيار نوعية قطعة القماش وتطلب من هيفاء أن تكون هي أيضاً مرحبة ومنشرحة بحضوره، وتتقبل منه القلادة الذهبية بتعبير واضح عن سرورها بها.

ترتدي هيفاء فستاناً أسود. تشدّ شعرها الأسود المرفوع بشريط أحمر. يتدلى من أذنيها قُرطان دائريان. تطلي شفتيها بأحمر فاقع يشكل هالة لمّاعة حول فمها الذي تحوّم عليه ابتسامة. تقصد حسين تحمل إليه قنينة عطر؛ هدية تخرجه من الجامعة. هدية غالية عليها، ثمنها أجرة ثلاثة أيام عمل. ستكون سعادتها غامرة إن غمرها بقبول هديتها، وسيضاعف من بهجتها استحسانه لنوعيتها واستطابته لعطرها.

تضع الأشياء جانباً وتدخل المطبخ تعد الشاي، ثم تأتي به مع صحن من الكعك الذي جلبته معها. يطل عليها حسين بروب أبيض حريري طويل. يبتسم بصعوبة وتكلف مُرَحباً بها. يعتذر عن شرب الشاي. يضعها في صورة التغيّرات التي طرأت على برنامجه اليومي والمسائي منه، في هذا الوقت، يفضل تناول الكاكاو وتدخين الغليون. أما بشأن الهدية يعتذر عن قبولها بفظاظة. يصف فعلها هذا بالتبذير. يحاسبها على تقصيرها في متابعة تطورات الوضع السياسي الراهن. يَحْمِل على ضيق أفقها السياسي. أما على الصعيد

الشخصي يلومها على إهمالها لبناء مستقبلها، يرى كأنها تُكَلِّف مجهولين مهمة العناية به، وتنيط أشباحاً مسؤولية تدبيره. يلفت نظرها إلى أن الأيام القادمة ستحمل مفاجآت غير سارة وتقلبات مريرة.

ترجع دموعها المذروفة عليها وتعلق الشعور بجرحها منه. تصحبه إلى المطبخ بناء على أمر منه. يُعدّ الكاكاو بنفسه بطريقة تعليمية، يشرح بصوت مبالغ به، كل خطوة من خطوات تحضير الكاكاو. لا يريدها أنْ تحمله إلى طاولته، يحمل هو إليه. يحرمها من متعة خدمته. يجلس ويأذن لها بالجلوس. يتمرن كيف يكون رئيساً، أما هي لا يهمها ذلك، وُلِدت لتقضي عمرها مرؤوسة معاقبة على فعلٍ وذنبٍ لم تقترفهما. كل أيامها من صعب إلى أصعب.

ما الجديد، تسأله. يبدو هادئًا ومتأنياً. يسكت عند إنتهاء كل فقرة من فقرات الحديث، يأخذ رشفة من فنجان الكاكاو ونَفَساً من الغليون. يتوجه إليها بالحديث: (إن الوَضْعَ حُبْلى بالرِدَّة. قامت السلطة الحاكمة بغتة بإعدام عسكريين غير موالين لها. إنه أمر مؤسف للغاية. بدأت السلطات بشن حملة اعتقالات عشوائية طَالَت قوًى سياسية، منظمات أهلية، أفراداً وجماعات تنحدر من فئات اجتماعية ومن طوائف وقوميات مختلفة. حَمْلَة ترويع احترازية لا يُستثنى منها أحد. (رَوِّع العامة تَعْتَبر الخاصة). إن إشاعة الإرهاب رهانهم السياسي على سقوط الهدف ذاتياً دون تحمل أعباء مهاجمته. كما يلاحظ أنَّ هناك تصعيداً لنبرة العداء للإمبريالية. وكلاهما السلطة الحاكمة والقوى الإمبريالية بحاجة إلى تصعيد كهذا للاستفادة منه سياسياً إقليمياً ودولياً. مما لا خلاف عليه، هناك رعاية مقصودة لدوام الشعور بالإرهاب عَبْرَ تسريب قصص عن فظائعه، ودَسٍّ شائعات عن سقوط سياسي لقادة ومثقفين. سيواجه الشعب الأعزل قدره العُنْفِي، على ما يبدو. لا أحد يُضحّي بمصالحه تضامناً مع شعب لا يكون شعبه. المصلحة فوق أي اعتبار. المصلحة معيار الموقف من الآخر والحدث. المصلحة هي الأخلاق. ألاحظُ أن هناك تَخَبُّطًا سياسياً يسمى تكتيكًا، الانبطاح أمام الخصم والتراجع عن المبادئ بحجة الحفاظ على مكتسبات التحالف الجبهوي، حتى وإنْ تَطَلَّب ذلك إراقة دماء الشوعيين أنفسهم. الإرهاب يتصاعد، وتكميم الأفواه جارٍ. كما هي عليه

الحال بالنسبة للاعتقال التعسفي والتعذيب الوحشي. إن التحالف الجبهوي قد انهار على الأرض فعلاً، والرهان على دور للاتحاد السوفياتي لإنقاذ الموقف رهان خاسر. العراق سُوق جيدة، يُسَوِّق السوفيات فيها بضائعهم، أسلحتهم ومواقفهم الدولية. نقلتُ قبل أيام معلومات عن مصدر موثوق تفيد أنَّ هناك توجهًا سُلطويًا لشن حملة إرهابية شاملة، لتحجيم المد الجماهيري للشيوعيين، كخطوة أولى لإنهاء وجودهم السياسي والانتقال إلى مرحلة اجتثاث أي وجود معارض ومشكوك بولائه السياسي. فَرَدَّ عليّ المسؤول الحزبي -الذي كان نظيفًا وأنيقًا وهادئًا أيضًا- لا ينبغي التطّير من أخبار مشبوهة تذيعها أجهزة إعلام صفراء ويروج لها أعداء التحالف الجبهوي. ينبغي ألاّ يَنَالَك الشَكُّ حول الحَتميّة التاريخية للاشتراكية، إنَّ منطق التاريخ يقضي تَوَجُّه البشرية جمعاء نحو الاشتراكية، أمَّا ما نراه ونتعرض إليه ولا نخافه طبعاً هو مجرد عوارض طارئة ومؤقتة، التاريخ من جهة ونضال البشرية من جهة ثانية كفيلان بإزالتها. فتحالف الطبقة العاملة والطبقة الفلاحية وبقية الشرائح الاجتماعية من طلبة، نساء، حرفيين، وجنود هو الضمان التاريخي على انتصار الشعوب. ثِقْ يارفيق، خذها مني -ويأخذ هو من فنجان الشاي رشفة- إنَّ حزبَنا كالعشب كلما قُصَّ نَمَا ثانية وازدهر. مزهر رغم الجراح. (تاريخ حزبنا يؤكد على ذلك).

يأخذ حسين رشفة من فنجان الكاكاو ونَفَساً من الغليون. لا يزال على هدوئه، غير عابئ بما تحدث عنه. لم يفسد عليه طعم الكاكاو ولا مُتعة التدخين. بَدَا غير غاضب ولا منفعل مما أتى على ذكره في سياق حديثه. يجلس على كرسيه الوثير كحكواتي يحكي حكاية خُرافية تدور في مكان مُتَخيَّل وتُصور مصائر مأساوية لأبطال غرباء لا تربطه بهم أية علاقة. مُعبًّأ بروبه الحريري الأبيض، محفوظ من تقلبات الأنواء وتجاوزها عليه ببرد أو حر. يُودِّع مستقبله بعيداً عن تغيّرات الحاضر.

- (على فكرة، هل كويتِ قميصي الأبيض). يقطع مسار حديثه فجائياً، بسؤاله عن كي القميص. لا يريد أن تتطور مُدَاخَلته عن الوضع الراهن إلى نقاش يدور بينهما. يسلخها عنه، لا دور لها في مشهده ولا موضع لها. وفي وضعه الجديد يقلص حضورها في

حاضره، ويصفيه في مستقبله. يقطع الطريق على خطوها نحو حياته الجديدة. يدرك أنها ستبقى تراوح مكان انتمائها ولا تغادر ذكرياتها. تفهم أنَّه لم يعد يهمه رأيها، ولا يرغب بالاستماع إليه، كما لم يعد مَعْنِيًّا بتطور وضعها الثقافي ومتابعة آرائها.

- القميص على السرير.

ينهض من السرير عاريًا. يقرر بهاء قتلها. يَسْتَل سيجارة من العلبة. يُشعلها بانفعال. يتجه نحو النافذة. يأخذ نَفَسًا عميقًا، ينفث الدخان عاليًا. يتفادى النظر إليها، يوهمها بإستماعه إليها. لا يعتقد أنَّ دافعًا يعوزه إلى قتل هذه المرأة. هيفاء تحريض مؤنث لحمل النصف الذكوري من البشر على اقتراف الجُرْم. لا ليست امرأة بل دافع جريمة. أعضاؤها دواعي موقوتة للارتقاء بالذكر نحو الجريمة.

يرتقي عاليًا بِنَظَره. عندما تفكر بالقتل يجب التعامل مع المؤثرات الخارجية كدوافع داخلية إلى الفعل. يُعيّن أداة ويأخذ بمراقبتها كهدف غامض ومُعَاد، يكبح أنوثتها عن التمادي بالاثارة الجنسية. يشرع بالقتل، يبحث عن أداة ويَتَرَصَّدُ الضحية. ينتفض عليه، هذه ليست ضحية، إنَّها جلاد في هيئة ضحية. يَجُوب بأفكاره العالم البشري الواعي يجده شبكة معقدة من دوافع بسيطة للقتل. دوافع القتل مشاعة وأدواته متاحة. كل شيء قابل أن يتحول إلى دافع جريمة أو أداة. الفخاريات، الزجاجيات، السكاكين، والشوك. تَطَرّف الشمس بالحرارة. خيانة الهواء وتحول رياحه إلى عواصف ثلجية. مواصلات مأزومة، قطار يتخلف موعده. ضجيج يعبث بالهدوء ويأتي على التأمل. صرخة طفل تمزّق الرُكُون إلى سكينة. زحام يكتظ بالتذمر. ظلام يقتاد الضوء إلى المجهول. وحشة تعتقل الألفة. دولة لا تَنهى الطبقات عن صراعها. طبيعة مفطورة على التمييز الجمالي. كَوْن يتنكّر لصحة الجسد بالمرض، المرض نية الطبيعة السيئة حيال الجسد. القتل غير منبوذ، هو كلمة ثقافية مألوفة، محفوظة في ألواح التاريخ وكراسات المدارس. ويعطي القانون والعُرف الحق فيه. إضع ظلاً أحمر على أية جماعة بشرية؛ أطفال، نساء، ورجال. فجِّرهم بتفجيرك نفسك، حولهم إلى أشلاء، سيقودك حُور العيون بالقُبَل إلى قصرك في الجنَّة، ويطوف غِلمَان مُخَلَّدُون عليك

بالأباريق). العنف، التكفير، والقتل أفعال مقدّسة وسابقات قومية. خُضْ حرباً، اصنع فظاعات، خلّف دماراً وضحايا. هكذا يَرْفد التاريخ بملاحم بطولية. البطل القومي قاتل شرعي. البطولة قتل مشروع. لِمَ لا يكون بهاء ذاته بطلاً عرف التاريخ وخَبُر البشر. ما أيسر من هَدْر دم ومُصادرة حرية. يُصدر فتوى، يحلل فيها هدر دم هذه المرأة، نعم دواعي قتلها متوفرة؛ شيوعية كافرة، زوجة خائنة، امرأة خارجة على تقاليد جنسها بثقافتها وموقفها من الآخر ومخالفة دوره الطبيعي في الفكر، والتَنَكُّر للإنجاب. يُشَيِّد الأبطال المَدْرَسيون صروحَ مجدهم بإقدامهم على فعل القتل والإبداع فيه. دوافعهم تشبه دوافعه. القتل هو القتل مهما تعددت تعريفاته. تعريف القتل تسويقه. ارفع شعاراً عقائدياً وامْضِ بشعب إلى الهلاك. كُنْ قومياً وافعل ما تشاء. كُنْ عقائدياً وأكْرِه على معروف، واقتل على منكر. إرث البشرية الواعي يُيَسِّر العنف. تاريخ الأمم يحض على العنف ويشجع على الكراهية. المسوغات يمكن إيجادها، بوسعه التنكر لهزيمته الجسدية بدعوى الانتصار للفضيلة. يحجب جسدها بقيم تبطل تأثيره الأُنثوي على ذكورته. يُلَقِّح جسده بأفكار رجالية ضد التعرض للتأثير الأنثوي. يَنحل عنها. يفسر وجوده عارياً لدواعي الاستحمام أو السباحة. بما أنّه قد ولِد عارياً، يحق له الاحتفال بولادته العارية.

ينساق نفسياً خلف الاستجابة غير المشروطة لشرط القتل. يُقَوّي فيه استخدام السيدة هذه المُهين له، ووقع كلماتها التي تَنْفُذ إلى أعماقه كأمواس جارحة تخلف نُدُوباً لا يُدملها أسف ولا اعتذار. يصعب السكوت على بقائهما معاً. المطلوب زوال أحدهما عن الآخر ليبطل مفعول التأثير الجنسي على جسديهما، ويقوم الدافع جليًّا للقتل.

(سأقْدِم على قتلها. أشدّها من شعرها، ألصقها بالحائط تمثالاً حيًّا أنثويًّا عاريًا يواجه قدر تحطيمه، أضرب رأسها بالحائط ضربات متتالية حتى يتحطم وتتحطم فيه الأفكار التي لا تكف عن التعبير عنها حتى هذه اللحظة؛ لحظة الشروع بالقتل. الأفكار التي حالت دون تواصلنا الشعوري وتلاحمهما الجسدي. إنها ليست أفكاراً، بل دوافع إجرامية. إنَّها جريمتي الوُجُودية، تُطَوِّق عنقي كقلادة من أحجار كريمة أتحمل وزرها

وحدي، لا شريك لي فيها. أُقْدم عليها بلا ندم ولا أسف، مثلما لم أختر ولادتي، لِمَ لا أختار موتي، (دعني أختار موتي وموتها معاً).

لا يريدها أن تنزف دماً، يُرهبه مَرْأى الدم، الدم لون الإرهابيين المفضل. يريدها أن تنزف أنينها حتى تسقط هامدة تحته. يريد أن يرى أفكارها شظايا متناثرة حول رأسها المحطم. جسدها هذا المشتهى لا يقاوم، (لا مفرّ منه إلاّ بالهرب إليه).

يرفع الستارة قليلاً، يتنهد ثم يطلق زفرات قوية لافتة. دمه الساخن يَغْلي في عروقة، يصعد إلى أعلاه، فيتأثر وجهه بحرارته وحمرته. يرفع يده، يشدّ قبضته، يرفعها إلى الأعلى. تسرع هيفاء إليه تشدّه من ذراعه تجذبه إليها: (ماذا تفعل يا أحمق، إنْ رآنا أحد، فسيُحِل قتلنا رجماً. تراجع ودع الستارة مسدلة)، تقول.

- هناك لا أحد غير طيور محلقة، يقول.

- ومنْ يحلق غير الطيور، تقول. وتضيف بصوت أنثوي لاهث ومِغْنَاج: (الطيور جواسيس السماء، فيما النجوم أزهارها). (بدلاً منْ أنْ تجد مخرجًا لورطتي تنشد عليّ الشعر. لِم لا تتخذ من الشعر دافعًا نحو تلاحمها الجسدي. تسوغ فلسفياً عبث أنوثتها بجسدي. كيف تقوم فلسفة وينشأ شعر، والفعل الجنسي منهار، متداعٍ ومنعدم. يا لها من متجبرة حسناء).

لا ينكر عليها ميلوديا صوتها الذي لا يفقد موسيقاه حتى في أشدّ الحالات غضباً أو صخباً. عبر شفتيها وخلال صوتها يبدو التعبير عن أعظم الأفكار وأحطها جديراً بالاستماع ومرشحاً إلى القناعة. ما الذي سينتهي إليه. جسده لا يزال مُسَمّراً على صليب رغبته فيها. ينتصب كتمثال ذكوري، عريه مجرد من إهتمامها ومن شدّ نظرها. التفاتة جنسية منها تبعث الحياة فيه. تفك وَثَاق أعضائه. فينطلق ذَكَراً يمرح في رحاب أنوثتها. يشهد بهاء على جسدها الذي يتعرى فيعُرِي الرغبة فيه. تصوغ فعلها الجنسي صياغة رمزية أو واقعية مبتسرة. لا يجد مسوغًا إلى الرمزيات أو الشكليات، يرفض كل هذه التأجيلات، لِمَ كل شيء مؤجل وعَصِي على التحقيق. تتمنع فخذاها اللينتان المكتنزتان اللتان تنفرجان دون طلب فعل وتنضمان بأسف. جسد جاحد ينكر استحقاق

الرغبة فيه. يريد أن ينتهي إلى تفريغ رأسه من شحنة الأفكار ويسقطه خفيفًا حدّ البلادة بين فخذيها. يتوقف به عنده. ما الذي ينتظره. إنه ليس سوى وسيلة ذكورية لغاية لا تكون هو. تكلفه هي بمهمة إكمال عملية صنع الحب نيابة عن حسين الذي تقاعس عن إتمامها. يرشحه لهذه المهمة شبهه الخارجي به، أما فرقه الداخلي عنه لا يثير عنايتها. تأخذه قاربًا لتبحر به نحو ضفاف لا نجاة له عليها. تغرق هيفاء بهاء في بحر ماضيها ثم تنتشله كـ"حسين" لتسعف بنجاته ذكريات توشك على الغرق وتشرف على النسيان. تجده أداة عارية طيّعة تحقق به ما أخفقت بتحقيقه مع حسين.

تقف إزاء الباب. يعرضها إطار الباب لوحة أنثوية متناسقة، نهدان منتصبان. خصر دقيق. لباس داخلي يثني بشفافية على ثنايا حوضها. أنثى غجرية الخواطر تهم على الهبوط بجسدها عليه. لكن ما الذي يضيف إلى سجل ذكورته وتاريخها الحافل بالأحداث الجنسية. حدث جنسي جديد. خيبة سوء استخدامه، مساهمته هو شخصيًا بإهانة رجولته. وهل تساوي متعة المضاجعة ما خسر من كرامته وما لحق بنفسه من خجل، خوف واضطراب. تضغط عليه حاجته إلى التبول، تشل حركة تفكيره بالفعل. يشعر أنّ عدم التخلص الفوري من البول يعرض تقنيات القتل إلى الارتباك.

- هل أستطيع الذهاب إلى التواليت.

- نعم.

تتقدم هيفاء أمامه. اهتزازات جسدها اللينة تتجاوب مع وقع حذائها العالي الكعب. ظهرها أفق مندّى، تتطلع قطراته الناضحة إلى لمسات الشهوة. ترشده إلى التواليت. هناك يواجه صعوبة بالتبول. يحتاج إلى وقت واسترخاء كي ينتقل تدريجيًا من وضع التوتر الجنسي إلى وضع آخر يسمح بالتبول. تحثه عطور المنظفات من زهر الليمون وزهر الياسمين وكذلك بلاطات الجدران السيراميكية الزرقاء الصقيلة على التأني وإعادة النظر. وقوفه يستغرق وقتًا أطول مما يجب. هدوء معطرّ ومفتقد يلتف حوله، ثم يسري مهدّئًا إياه. جرت قطرات حنقه، وتسرّب سيل غضبه مع جريان بوله. لكنه لا يزال يواجه بقية حالة نفسية متخلفة عن حاجة التخلص منها أو من هذا الموقف.

يجد بهاء هيفاء مستلقية على السرير. ساقاها منفرجتان. تومئ إليه بالاستلقاء عليها. يقوم بذلك فوراً. لكنها لا تعبر عن رغبة صريحة في المضاجعة الآن. يتحسس جسدها بجسده. يضغط بصدره على نهديها. يقبلها في توقفاتها و شرودها. يحاول أنْ يُوقع بها، أكبر عدد من القبلات واللمسات. يزداد شهوة إليها وهياجاً عليها. يحاول الدخول فيها، تضم ساقيها بتمنع خفيف وغنج رقيق.

تخلع هيفاء الجديّة والصرامة عن حسين الذي يبدو عليهما. تقاوم الإصلاحات التي يجريها عليه: تغيير قصّة شعره. طقم أنيق غالي الثمن، حقيبة طبيعية الجلد والغليون. كما يقوم بحملة تغييرات على محيطه، يقدم لها فلسفياً بأنّ ظرفه ووضعه قد تغيّرا، الإنسان الحاذق هو الذي يدرك التغيير بوعيه ويعبر عنه بسلوكه. العقل يعني القدرة على التغيّر الذي هو ميزته. تشمل حملة التغيير هذه التحول من المقهى إلى النادي. تبديل الأصدقاء القدامى بمعارف جدد. اتخاذ التاكسي واسطة نقل عوضاً عن الباص والمشي. نقل عنوان سكنه إلى حي آخر ليبدأ مشواره الحياتي الجديد من هناك. ينصح هيفاء بالتقليل من الظهور وإيقاف الزيارات وتحاشي لقائه، نظراً لحساسية ظرفه وخطورة الوضع السياسي العام. تصبح مظلات انتظار الباص محالاً للقاءاتهما المتباعدة والسريعة. يُعيد في هذه اللقاءات القصيرة عليها نصائحه: تقليل الظهور، الامتناع عن زيارة معارفها، وتجنب لقاء القدامى منهم. ﴿الوضع لا يزال على خُطُورته والظَرف لم يزل حساساً﴾ يتظاهر بالانشغال ويبدو بالانهماك. يحمّل مشاغله تبعة انشغاله عنها وعنه. ﴿لا أرى أحداً، بما فيهم أنا، صدقيني﴾. تأبَى عيناها أنْ تَرَيا حسين بهذه الهيئة المصطنعة، ينتحل رصانة ليبدو بها. ينفصل عن المرح وخِفة الدم ويستهجن النكات. يشبه ممثلاً هامشياً جاداً في مسرحية وُجُودية هزلية. حواسها مُضْرِبة عن التَحاس مع نسخة حسين الجديدة والمُنَقَّحة. في لقائهما العابر والقصير، تنزع عن حسين أرديته، تُحَمِّمه بنفسها، ليخرج مغسولاً مما لحق بجسده من غبار المرحلة وما علقت بروحه من شوائب الوعي. تُلبِسه أثوابه الجميلة عليه وبه. تُجلسه في حِجْرها تمشط شعره. تُعدّ سندويتشاً له، تهيأ حقيبته. تَطبع عليه قبلاتها وتُودع فيه أمنياتها. ثُم يخرج حسين من حضنها إلى العالم تلميذاً ذكيًّا مرحاً ومشاكساً. تريده كما هو في حلمها عنه وعنهما معاً

ليصبح متحفًا إنسانيًّا آمنًا تكتنز فيه آثار حبها الغابر، مصوغات أحلام، ومشغولات ذكريات، وتحف من مصاطب لا غبار عليها ولا نسيان. تريده صحيحاً من علل بعد أن تفسده قد تودي به.

قلت لي:

الصحيح مَنْ يقدر

على تصحيح نفسه

ثم اعتذرت قائلاً:

مَنْ صَحَّح نفسه فَقَدَها

بعد التدقيق بهويتها واستجواب قصير من الحرس الجامعي عن غرض زيارتها والتعريف بهوية الشخص المطلوب لقاؤه، والتوقيع على ورقة وإعادتها إلى مكتب الحرس بعد انتهاء زيارة المكان في الوقت المحدد؛ تتمكن هيفاء بعد اجتياز هذه الإجراءات التي ليست بالقصيرة أو السلسلة من الدخول إلى حرم الجامعة. تخترق انتشار الطلبة بالزي الكحلي والرصاصي. لا تعبأ بأنظار الطلبة التي تخترق فستانها الخفيف البيجي المطرز بورود برتقالية متناهية الصغر، ولا تُعيرهم نظراً. تشمل الطالبات بنظره المستطلع، بينهن مَنْ ترد على نظرتها بالنظرة أو الابتسامة الماكرة. تتخيل كل جميلة منهن لها قصة ما مع حسين. تستطلع وجوههن وتقرأ أفكارهن. ترشح أجملهن للاشتباه بعلاقتها بحسين، أما الطالبة التي لا تَثْبت عليها تهمة ارتباطها الغرامي به، تشكرها كثيراً على معروفها وتحتقرها جداً على قلة ذوقها، تلوم جمالها عليها وتوآخذ جسدها على إخفاقه بالرغبة وتحاسب قلبها على التقصير عن الشعور بحب حسين.

تخترق صفوف الطالبات الفاتنات المحتشدات على الطريق إلى حسين. يُثير ظهورها غير المتوقع في رِواق الجامعة حَرَج حسين الظاهري وغضبه الداخلي عليها. يرحب بها بطريقة غير لافتة. يقودها إلى مكتبه الفاره. يُرشدها إلى الجلوس، يأخذ هو مكانه وراء طاولته الكبيرة. يضغط على جرس يدخل على أثره الآذن.

- نعم سيدي.

- اسأل الآنسة عن طلبها، عفواً ما اسمك لم أحفظه؟

- هيفاء يا أستاذ.

- عفواً آنستي، مشاغلنا كثيرة ومسؤولياتنا جِسَام حيال الجيل الصاعد.

- شاي بالحليب مع سكر زيادة.

- وقهوتي تعرفها أنتَ طبعاً.

- نعم يا سيدي.

تجاهل اسمها يثير حنق هيفاء، لكنها توثر التماسك وترجئ التهور. يرفع رأسه، يرسل نظره إلى جهتها، بلا التقيد بجزء ما. لم يرَ عينيها الذاويتين شوقاً إليه، وتَغَضُّنهما على غِياب مَرْآه عن رؤيتهما. تَبْرَع في تصميم مظهرها وانتقاء إكسسوارته، حسب خبرتها بذوقه لتبدو عليه وِفْق ما يُفضل ويتذوق. أما هو كما هو يثيرها بأناقته ورجولته النافذة فيها، يحفظ شعورها ويعيد عليها انطباعها الأنثوي الأول عن ذكورته. سرعان ما ينصرف بها شعورها عما يطرأ عليه من تصاعد دخان غليونه، ديكور المكتب، والإكسسوارت الزائدة وملابسه المبالغ بأناقتها تؤهله إلى لعب دور شخص آخر ليس هو، دور مدفوع له مقابل أنْ يلعبه. يُعطي حسين هيفاء انطباعاً أنَّه متفضل عليها بالوقت، فما بين يديه وما ينتظره لا يسمح له بالجلوس واستقبال الزُوَّار. يُلَمِّح إلى أنَّ النظافة، التنظيم، التقيّد بالنظام، وإحترام الوقت، وإجراء اللقاءات بمواعيد متفق عليها سلفاً كلها من عناوين البلدان المتحضرة وسمات الشعوب الراقية.

يدخل الآذِن حاملاً الطلبات. يشكره حسين بإيماءة متعالية دون أنْ يكلف عينيه عِبء نظرة. يفسر حسين لها سبب تنكره المقصود لاسمها، كان من قَبِيل الحذر من الآذِن. يقف حسين نصف وقفة مستديراً، يُصَوِّب نظره إلى الأعلى ويشرع بالحديث بصوت هامس: إنَّ أجهزة الأمن ناشطة في تجنيد أفراد من مختلف الفئات المهنية والشرائح الاجتماعية. الوضع السياسي لا يزال خطيراً، والظَرْف غاية بالحساسية. هناك توجهيات بالشروع بتنفيذ مشروع أمني يطلق عليه الأمن الاستراتيجي، وبموجبه سيكون لزاماً على

كل عائلة أنْ تُرشح عُضواً منها ليكون عُنصراً استخباراتياً، يتلقى تدريباً على حِرفية التجسس وأسلوب الوِشاية، مهمته باختصار تقديم تقرير مفصلٍ عن نشاط عائلته ودائرة علاقاتها. على فكرة عناصر المخابرات يفضلون الإسهاب والتفاصيل المملة. لا يستثنى الأطفال طبعاً 'الجواسيس الأبرياء'، 'جواسيس النوايا الحسنة'. قد بدأ فعلاً تطبيق إلغاء النشيد الصباحي في المدارس والاستفادة من الوقت المخصص له في عقد جلسات دردشة، كما يطلق عليها، يستجوب المعلم فيها طلابه طالباً طالباً على انفراد عما حدث في بيوتهم وما قامت به أسرهم مساء اليوم الفائت. هناك تَوَجّه يأخذ حيز التطبيق وهو تحويل المرافق العامة والخاصة إلى أوكار مخابراتية وأقسام أمنية).

يخطو خطوات بطيئة نحو النافذة، يرفع الستارة ويسدلها بسرعة. (تجري أبحاث لكشف الضمور المخابرتي في الشخصية والعمل على تنشيطه وإبرازه). يعود إلى كرسيه، يأخذ نفساً عميقاً من غليونه، عضلات وجهه لا تتأثر بما يتفوه به.

تأخذ هيفاء رشفة من فنجان الشاي. تمدّ لسانها الوردي الصغير لاعقاً طعم حلاوة علقت على شفتيها. شوقها إليه وحيرتها تحمّلانه مسؤولية تغييب حسين الذي اعتادت عليه. تجمع قوتها، تعقد ذراعيها حول صدرها، تطلق تنهيدة. (هل هناك نشرات أو بيانات يوضح فيها حزبنا موقفه من الوضع الراهن؟ وهل هناك آفاق لإيقاف الحملة الإرهابية؟ ما هو موقف القوى المعارضة حِيال هذه التطورات؟ وإلى متى يبقى السكوت على الانتهاك الصارخ للإنسان؟ ما هي أساليبها في التصدي؟) تسأل هيفاء.

يقف حسين، ثم يتجه بسيره نحوها، هامساً: (إنَّ للجدران آذاناً، كل شيء يمكن أن يستخدم كأداة للتجسس النافذة، ماسورة الماء، الأطباق وغيرها. علم التجسس يتطور أكثر من علم الطب). يطلب منها السكوت أو الحديث همساً (ليس بمستطاع الهيئآت الدولية والقوى المحلية الضغط تجاه تغيير الوضع. هناك إرادة عالمية في تشجيع هذا التوجه. وتفسير ما يحدث على أنّه شأن داخلي).

يضع يده على خدّه يتأمل نسخة للوحة مائية تجريدية لبستان كَرز معلّقة على جدار مكتبه. (يتم معاقبة العراق على حضارته بتحويل شعبه إلى قطيع خائف ومذعور. خنوع شعب

صواب موقفه ودليل اعتداله). يهز ساقه اليمنى. (تسربت معلومات عن تخفيف الإجراءات الأمنية على المعابر الحدودية لتشجيع أكبر عدد من أنصار الحزب الشيوعي وأعضائه على الهرب والسفر، خطة منهجية لإفراغ الساحة السياسية منهم من جهة، ومن جهة أخرى التحايل على الاحتجاج الدولي على انتهاكات حقوق الإنسان وتفريغه، الإرهاب يسود ويتعقب الجميع لا خلاص منه إلاّ بالهرب، الإنتحار أو التسليم به. إنّ الظفر بالحياة والحرص على مستقبلها مأثرة شخصية كبيرة).

تقف منتفضة عليه. يعتري هيفاء شعور أنّ حسين ليس سوى جسر لتمرير أفكار الإرهاب وتسويغه. يتحدث كمحامٍ خاسر عن حق الدولة في إرهاب مواطنيها. تنظر إليه كأداة جيدة لبث الشعور باللا جدوى وبطلان الفعل وعبثيته. يتحول إلى داعية للإحباط، وتسويق اليأس، وتصوير الهرب أو الموت كأنهما مخرجان مُتَاحان لا ثالث لهما.

- خوفك لا يُبَرِّر لك نشر الخوف بين الآخرين.

- أنا أحذّر.

- هذا ليس تحذيراً إنّما طريقة مُغْرِضة لإشاعة الإرهاب وتعميم الذعر منه.

- اهتمي بمستقبلك.

- مستقبلي هو الاشتراكية والانتصار لها قضية حياتي، أنا عضوة قديمة في الحزب، أريد أنْ تصلني برفيقٍ غيرك لأعرف منه حقيقة موقف الحزب من هذه التطورات، أنا شيوعية.

- أنتِ لستِ شيوعية ولا عضو في الحزب.

- كيف؟ ... تبرعاتي، اشتراكاتي وثناء الحزب عليّ.

- ذلك ليس ثناء الحزب بل ثنائي أنا.

يود حسين المَبَالغ المُحَصَّلة من هيفاء؛ تبرعًا كان أم اشتراكًا؛ في حساب 'صندوق توفير البريد'؛ لأنها ابنة خالته ويهمه مستقبلها وسمعتها، كما أخبرها. تصف هيفاء تصرفه بالخَديعة والضحك عليها. توبّخ نفسها لعدم إصرارها المُبكر للتعرف على موقعها

في الحزب. كان عليها أن تطلب تقديمها إلى الحزب وتصرّ على إشراكها فعليًا بنشاطاته بدلاً من أنْ تكون صلتها فردية وظيفية، يطوف عليها الحزب عبر أحلام حسين ورؤيته. لم ترَ أحداً ولم تعرف غير تلقينها ثقافة الحزب وترديد شعاراته. لم يقدمها إلى رفيق آخر. {لو قدمتكِ إلى رفاق لصنعوا منك أي شيء يرغبون فيه إلاّ أنْ تكوني مناضلة. حرصت على مالك رافضًا أنْ يتحول إلى أثمان تذاكر سفر ومصاريف جيب لخلوات الرِفاق بالرفيقات تحت شعار وحدة الجنسين على السرير ومعًا على الشواطيء ضد الرأسمالية والبرجوازية الوطنية}.

تجد هيفاء نفسها طرفًا في جلسة ترويع يعقدها حسين ليسوغ لها تسليمه بالإرهاب وإنقاذ مستقبله بكرسي في جامعة.

- ليس مهمًا دناءة الوسيلة، الأهم هو نبل الغاية.

- الغاية النبيلة لا تبررها وسيلة دنيئة.

يخرج من حقيبته دفتر الحساب. لا تقوى عينها على النظر فيه ولا يدها المرتجفة تطاوعها على استلامه. يصعب عليها الاحتفاظ بدليل خداعها وتبديد حلمها في النضال من أجل الاشتراكية. عاشت على وَهْم كونها شيوعية وتحققت به كائنًا من وعي وشعور. لا تريد المساهمة بالإبقاء إلى ما يشير إلى زوال وهمها. هذا ليس حساباً مصرفيًا بل رشوة مدبرة للسكوت والمساهمة في تصفية وجودها الواعي وإنهاء وضعها الفكري الذي شهد تطوراً ملحوظًا بشهادة حسين الحزبية.

توقع حسين أنْ يكون مشكوراً على تصرفه، لكن هيفاء تجده تصرفًا غير أخلاقي. {ومتى كانت الخديعة تصرفًا أخلاقيًّا}، تقول. {الظروف القاسية تبيح كل شيء}، يقول. {نعلّق على مشجب الظروف سفالتنا، هزائمنا وسقوطنا}، تقول.

يجلس قبالتها لا يزال يمارس تأثيره الروحي عليها. ينال الصمت من حسين. يحدق بها. على سطح الطاولة المكتظ بالأدوات والملفات تشتبك أصابعه ويفك اشتباكها بحركات متعاقبة ناقرة برتابة. إبتسامته كيفما تكون وتحت أي ظرف ومناسبة تداعب شيئًا فيها،

وتحث عليها الهدوء. شعورها نحوه لا يعبأ بمظهره الغريب عليها وغليونه المقترح الناتئ من مظهره. يقدمه شعورها رجلاً مثيراً وجذاباً. لسانها يتبرأ من أي لفظة تسيء إلى حسين وتمس كرامته. اللسان حليف القلب في التعبير عن الحب. يخالفها لسانها بصمت، لا يتجرأ على شتم من يحبه قلبها. الحب شاغل القلب ودافعه على النبض، أما السياسة والفكر فهما ملف ينظر فيه العقل. كلماتها التي يمتنع لسانها على التلفظ بها، كأنها كرات حديدية ساخنة تتدحرج حارقة في أعماقها. تخرج منه حاملةً دليل خديعتها، وتحللها من وَهْمٍ كان هو حقيقتها.

ترفض تصديق حسين وتعدم فيها تأثير دليله عليها، ستبقى حزبية على طريقتها ومناضلة حسب طاقتها. لكنها تأبى أنْ تُصنف كمناضلة موسمية تبعًا لظرفٍ، وجريًا وراء مصلحة. حسين يقفز إلى مصالحه التي تصادف وقوعها في الجهة الأخرى، الجهة المعادية. (دع القلق وأبدأ الحياة)، يقول. (ليس لي حياة لأبدأ بها أو أقلق عليها. ممتلكاتي حفنة من ذكريات وطنية قديمة يتم بيعها بسعر زهيد بالمزاد السياسي. لا خوف على مستقبل المرأة ما دام هناك طلاب زواج)، تقول.

حسين الموازي إلى شعورها، يبتعد كثيراً عن وعيها ويسعتصي على فهمها. ها هو يجلس أنيقًا وهادئًا يسوق لسقوطه ويشجع عليه. الرفيق السابق يستقيل من الحزب الشيوعي، ويقدم تقريراً مفصلاً عن نشاطه السياسي وعن رفاقه. يصطحبه عناصر من المخابرات مهانًا في سيارة، يرشدهم إلى أماكن وجود بعضهم وأوكار البعض الآخر. يتم اعتقال مَنْ اعترف عليهم. تعذيبهم وإعدام بعضهم لرفضهم التبروء من عقائدهم والتنكر لأفكارهم. بذلك التقرير وهذا التعاون المخزي يقوي به حسين موقعه في صفوف الحزب السلطوي الذي انضم إليه كشرط مسبق لحصوله على وظيفة أستاذ جامعي.

لم يأتِ حسين على ذكر اسم هيفاء في تقريره المفصل، ليس لإنها هيفاء، وإنما كونها ابنة خالته، والاشتباه بأقاربه يؤثر على مستقبله المهني ويضرّ بمصالحه. لكن هيفاء لم تتلقى تأكيده على عدم ذكرها في تقريره بترحيب كما تمنى، تجده استمراراً لنهجه

المخادع، نهج الخيانة الطبقية والسقوط السياسي. هي الآن ليست سوى رفيقة حزبية مخدوعة بعضويتها. ليته درج اسمها لتكون مطلوبة، على الأقل هناك شبهة تحوم حولها مصدرها نشاط ما. تهمة تبرر بها لنفسها فخرها بها واعتزازها بتلك الأيام التي قضتها في التثقيف الحزبي والحلم الاشتراكي. الآن لا فرق بين كونها مطرودة أو مستقيلة من حزب حسين الشيوعي المزعوم. (براءتي دليل قاطع على إدانتي، لِمَ أكون بريئة من تهمة انتماءٍ إلى قضية رهنتُ وراهنتُ بحياتي عليها. براءة مُخجلة، سأبحث عن إدانة أُوقِرُني بها).

يُسعد بهاء حدّ الإثارة الحديث عن الجوانب الفاتنة من هيفاء. يؤيد ما تم التوصل إليه. إن جسدها المكتنز بالإثارة، لا يرشحها أنْ تلعب دوراً نضاليًّا في التاريخ إنّما دوراً مثيراً في غرفة النوم. إنها امرأة سريرية. يمر بهاء باللمسة والنظرة على جسد هيفاء المترامي الأعضاء. هيفاء التي لا تزال تقص عليه خيانة حسين الطبقية. (تناسق أعضائها وتآلفها قامت لا لتصنع من هيفاء بطلة أو مناضلة، بل قحبة أرستقراطية. أتكون هذا السرّة وذلك الوجه لمناضلة. أيجوز أنْ ينطفئ وجهها المنير بالجمال في عَتمة زنزانة قبيحة، وجسدها البَض يتآكل من الخوف أو يتفجر في مهمة قتالية. يمكن أنْ يصنع منها أي شيء مرغوب فيه، عدا أن تكون بطلة خالدة في ملحمة تاريخية). يرى أنَّ أعضاءها المثيرة هي مؤهلاتها، تنافس فتيات الإعلان، وتتفوق على الموديلات النسائية الفوتوغرافية بجمال وجهها وفتنة أعضائها وتناسقها.

تبلّ هيفاء ريقها بقطرات ماء من كفها المبلولة المرفوعة، وتبلل شفتيها بلعقة خاطفة من لسانها الوردي الصغير. يأخذ بهاء رشفة من إبريق الماء الشفّاف. ثم يدخن سيجارة يشعلها وينفث دخانها. يلاحظُ أنَّ جميع الممثلات مهما تفاوتت مواهبهن -وتحديداً الجميلات منهن- يبرعن بلا استثناء في أداء دور القحبة.

يمرر بهاء راحته ملامساً سرتها. صممت هيفاء طبيعياً إلى الرقص، أو لتنضح عرقاً. حتى تأوهاً فوق أو تحت رجل من ألم المضاجعة ولذّتها. أما أنْ تبحث عن أدوار أخرى

فهذا لأنها غافلة حتى هذه اللحظة عن تأثير جسدها على القسم الذكوري من البشرية. يتعرض بهاء إلى نوبة خيال، لا يجد أنّ الوقت مناسباً لها: تنحدر هيفاء من طبقة شائع عنها غناها وجاهها. هيفاء الجميلة، أنيقة، ومترفة. تكمل دراستها. يتكاثر حولها طلاب الاقتران الشرعي. لكن كونها فقيرة عاملة وجميلة، ظهورها في الخارج يعرضها إلى خياريّ: القحبة أو العشيقة. مما يدفعها إلى جري هاربة بجسدها ونفسها ممن يلاحقونها بكبتهم ونقودهم. تدخل أول باب شرعي يفتح لها. يؤدي الباب المفتوح لها على بيت ينغلق عليها، بيت يطلق عليه بيت الزوجية، ترتضيه على عدم سعته على راحتها وضيقه على أحلامها، وبغضّ النظر عن توافره على شرط وجودها الحي.

يلومه على خيال كهذا حري به أنْ يستثمر استلقاءه إلى جانبها بتصعيد الاحتكاك. تقع يده على مؤخرتها الناعمة الطرية. (أهذه مؤخرة مناضلة، أجيبوني؟). يندس فيها حاكّا جسده بجسدها. يتململ تحت الغطاء. يصحو على رفع أذيال قميص نومها إلى مستوى سرتها. يفرج زوجها فخذي حرمه المصون، بلا لباس داخلي تصبح بناء على أوامره التي يصدرها إليها قبل الإيعاز بالنوم. يرفع هو أذيال جلابته. يلقم نهدها بفمه. يداه تدعكان جسدها بطريقة تبعث على الألم. يولج قضيبه فيها. (يحق له التصرف بي والوصاية على جسدي بموجب 'عقد النكاح' الشرعي المبرم بيننا ولقاء الثمن المدفوع لأمي كصَدَاق. يجوز له شرعاً الدوام على اغتصابي). يُسقط عنها حق الشراكة الجنسية المتكافئة. المرأة سرية المتعة. يخامر الزوج شعور بالخزي والخجل بمجرد التفكير بحق زوجته بالتعبير تأوهاً، رَهْزاً ونخراً عن متعتها، أو تكشف عن ميلها إلى المداعبة، عليها التكتم على رغبتها والتحفظ على بلوغها ذروة المتعة الأورغازما، إنْ حدثت طبعاً.

من جانبها تتمرن المرأة على كتمان سرّ لذائذها، خوفاً عليها من تهم السقوط والانحراف. التأوه، المداعبة والقذف من خصائص العاهرة والفاجرة وليس من صفات الزوجة الفاضلة. تتعرف عبر القراءة السرية أنّ عملية الجنس ثنائية. لكنها في الواقع العربي، ثنائية السرير وأحادية الغرض، إذ يبلغ الآخر دون الأخرى ذروة لذّته

الجنسية. تقوم الـ'هي' بدور الأداة الحية للبلوغ بالـ'هو' إلى ذروة القذف. لا ثقافة عربية متواترة تُقِر بنصيب المرأة من المتعة في الشراكة الجنسية. الجنس، كما قرأت، عملية ثنائية يقوم بها جسدا اثنين، تجمعهما إليهما الشهوة ويوحد الحب قلبيهما.

تقف هيفاء شامخة على السرير. تطلّ على بهاء المنخفض إلى مستوى قدميها، يتطلع بتحرق إلى أعضائها المتربصة برغبته فيها. يستلقي بهاء على ظهره مُتَوسِّداً ذراعيه المعقودتين تحت رأسه. توسع هيفاء من فتح ساقيها، تشير بسبابة يدها اليمنى إلى فِرجها. (يخلعون لقب الشرف عليه، لعلهم يرفعون عنهم وِزْر حِطَّتهم له، نعم الفَرْج هذا الرمز الأخلاقي والكشف الذكوري التاريخي الأثير، شأنه كشأن الجسد، فكلاهما ملكية ثقافية عامة لا يجوز التصرف بهما بلا تصريح شرعي ودون إشهار. الرجال قوّامون على النساء الخانعات، تقول هيفاء، وتضيف بأسًى ملحوظ، نعم إنَّه زوجي ولكنه ليس رجلي).

يقوم زوجها على جسدها الخانع، فيما تُبقى روحها طليقة هناك بعيدة عن أسر الضابط. تُواقع حسين الطالب في صومعة الحلم المفروشة بالذكريات المرغوبة. بعد كل حفلة اغتصاب شرعي تنهض هيفاء ثم تتجه نحو النافذة، تفتحتها، تطلب من النسائم الصباحية بين الخفيفة والباردة أنْ تُزيل عنها رائحته، وتطيب مزاجها. بعد حمامها النسائمي تتجه إلى تَهْيئة حمامه، يغتسل الضابط من قذارة المضاجعة. (لا يجوز بشرعه عدم التطهر من رجس الجنس) فيما تنقي هي روحها منه وتطهّر جسدها من تراكمه عليه وتنظفها من نطفته المقذوفة بين فخذيها.

يعطي الضابط للراديو أذنه. يستمع إلى نشرة الأخبار الأولى. حين لا يسمع موسيقى المارشات العسكرية وألحان الأناشيد الحماسية. ويتأكد أيضاً من عدم إذاعة البلاغات والمعروف منها بـ(بيان رقم واحد الذي يكشف الانقلابيون العسكريون فيه عن هويتهم ويعلنون عن تمكنهم من الاستيلاء على الدولة بمجرد احتلال الإذاعة). يطمئن الضابط الصاحي لتوه على نظامه القائم من عدم سقوطه بانقلاب عسكري كالذي حمل قادته

ذات فجر على متون الدبابات إلى سدّة التحكم بالشعب العراقي الذي كان لم يزل نائماً. كما عليه الإنصات في إجازاته إلى الإذاعة الرسمية والتأكد من عدم ورود بلاغات توجب على العسكريين الالتحاق الفوري بثكناتهم. زوجها ضابط أمضى خدمته العسكرية في فرقة خاصة مهمتها تعقب المعارضين العراقيين وتدمير قراهم ومدنهم بحجة معارضة النظام والتعاون مع أعدائه الذين هم بالفرض الرسمي أعداء العراق أرضًا وشعبًا. يختصر العراق حضارة برأس النظام السلطوي. الرئيس هو العراق ولا عِراق دونه، يُجيِّش الجيوش لحماية نفسه أولاً، وحاشيته ثانياً من ثورة الشعب لتحرير الوطن من محتلٍ معتوه يقامر به حد التدمير والخراب. النصر كما يفهمه هذا المحتل الوطني 'الرئيس' هو كسب الوقت من أجل البقاء على كرسي التحكم.

- الوقت ساعة متأخرة من الليل. الستارة تطوي النافذة. شموع تتنازل عن لهيبها إلى الظلام الصاعد، تقول هيفاء.

- لا ليل يرخي سدوله، ولا شموع توهجت ثم انتهت هامدة تحت جنح الظلام، يقول بهاء.

- حسين تخيّل بلا خيال ولا حلم لا كون يكون.

- أنا بهاء ولست هو.

اخرس واصغِ ساكتًا، أنتَ هو حسين بعينه ذلك الانتهازي الجميل. دعنا نكمل عملية حب لا تزال ناقصة بسبب غرور ذكورتكَ وحطّكَ من أنثوتي، اذهب وقِف عند الباب الآن.

تأمر هيفاء بهاء الذي سرعان ما يمتثل على مضض لأمرها. فيما تستلقي هي على حافة السرير.

- أنا أغفو على الصوفة. أرتدي فستانًا أسود. شعري مرفوع، قرطان متدليان من أذنيّ. تتقدم مني. تداعب بأصابعك خصلات شعري. أصحو عليكَ، أراكَ غُصناً منذوراً للريح والرغبة. تدنو مني، يسركَ مرآي غافية على الرغبة فيكَ.

على وجهة ميل سبابتها يميل بهاء بخطاه إليها، ينتهي إلى القرب منها.

- تقرّب فمكَ، تنفخ على وجهي، تفوح منكَ رائحة الفودكا. تتسع عيناي بألق مرآكَ ياحسين، تسود بحضورك الآسر عليّ.

- هيفاء أيتها الوردة الحمراء في آنية الحزب العظيم، تقول.

- حسين العظيم، أقول.

- هيفاء يا أجمل امرأة أحببتُ، تقول.

(الظلام يتعاون معنا. يتغاضى عن تسريب ضوء مصدره القمر. تقف أنتَ. تمد ذراعيكَ أفقيًّا). تطلب منه أن يحاكي صوتها الآمر بالفعل والحركة، يحاول بهاء القيام بما تطلبه منه. لكنه تبطل حقه في المناقشة.

- اخرس يا حبيبي، نفّذ ولا تناقش البتة. افعل بلا لغو فارغ أو تأخير. (ترتمي على ذراعيه، يتذمر بهاء من ارتمائها).

- قبلني (يقبلها بلا تذمر).

- توغل حسين فيّ.

- أنا بهاء وليس هو.

اخرس حبيبي وإنصت بفم مقفول، أنتَ يا حسين الذي ضبطته متنكراً ببهاء. قبلني بلا تردد. (تسمح له بفتح فمه من أجل القبلة وليس للكلمة، يقبلها بلا تردد).

- حسين ما بكَ؟، أينك مني الآن (تغمض عينها). لا تنسَ أني جميلتكَ وأنتَ جميل الكون عليّ، وكلمة 'أحبكِ' منك تبعثني حية بين أحضانك، أحضان الكون، ثملة بماء ريقكَ. (تمسك بشعره وتشده إليها). إنها ليلة تلاحمنا الجسدي وتوحدنا الفكري. لا تدع العالم يتجرأ بصبحه المغشوش عليها.

- الوقت لا يزال ضحى.

- اخرس يا حبيبي. مثلما أتقنت التنكر ببهاء وأجدت الانتهازية، كن حاذقًا بالخيال، تخيّل. أنتَ هو. حسين الذي أكوّنه. إنْ خالفتني، أحرمكَ مني. ليس إلاي مَنْ تبعثكَ،

أحررك من أسر ماضٍ، لتكون طليقًا في حاضري. أنتَ حسين وستبقى كذلك بمشيئتي. أما بهاء مجرد اسم تنكر به اسمًا أرتبط باسمكَ، هو اسمي. هكذا، بضع سنوات من عمركَ، تغيّر تصفيفة شعركَ، تقوم يا حسين، نعم، بتغييرات عليكَ لتبدو لي حسين آخر يُدعى بهاء. تموّه كيلا لا يهتدي إلى حاضركَ ماضينا الذي نتناصف بلا إنصاف الذكريات فيه. أنتَ -حسيني لي وحدي- الآن. ستبقى أنتَ طالما بقيتُ أنا. لن أتخلى عنك إلى حزب فاشي أو لامرأة لا تكون أنا أو لا تكونني (تذهب إلى النافذة دون أن تزيح ستارة)، يتراكم على الحديقة خطوك. يمرح العشب تحت قدميك. تحملكَ الخطى إليّ. يطوي قربك مني بعدكَ عني. يلوح وجهكَ باسمًا. تأخذ ضوء القمر قميصًا والهواء سروالاً (تتجه هيفاء إلى الباب وتعود مسرعة منه إلى السرير، تستلقي على حافته، تأمره بقصد بابها وملازمته وقوفًا). ادبِر عن نساء الكون وأقبِل عليّ (تصرخ به، فيسرع بهاء إليها). أغفو على الصوفة. أنتَ تعود إليّ من حفلة الحزب بذكرى ثورة أكتوبر العظمى. تغادر الجميع شوقًا إليّ وحبًا بي. (يقف بهاء ثم ينحني عليها، ينفخ على وجهها كما توحي له). آخذكَ تحت ردائي أضمكَ إلى جسد انفصلت عنه عنوة. جسدكَ المتغلغل بجسدي، يشعرني بعودة أنوثة غابت عني منذ فجر التاريخ وحتى غروب البشرية. تستحوذ عليّ الرغبة فيكَ. لا شعور يضاهي لحظة شعور احتوائي عليكَ. نتلاحم ونسقط نحن الاثنان لنقوم واحدًا. أقصيني عن تفكير يجردني منكَ، حرماني منكَ، تجريدي مني. وأنا لا أكون بلا كونكَ. أنكر عينًا لا تراك كما عيني. تتحسس نهدي النامي برضعكَ ولمسكَ، تأخذ حلمتي المرتعشة بفمكَ. ارضع يا طفلاً لَمْ أَلِده. تنمو في أحضان غرفتي وتترعرع بين أحشائي.

يتحسس بهاء نهديّ هيفاء ويرضعهما خضوعًا لأمرها وبالطريقة التي ترغب فيها. لا تهم، كيف تكون الطريقة مادمت تؤدي إلى لذّة، طريقة هيفاء تحمله على اللذّة، لمَ ينكرها. تتنهد، تلهث وتتأوه بنشوة مجترة. (كم أنتَ رائع. هيفاء اسمي أسمعه يتردّد على فمكَ يا حسين العظيم. أنتَ أول منْ قال لي: -كم جميلة أنت- وآخر منْ أسمعها منه. لم أعرف أنّي جميلة إلا منكَ ولا أريد أن أعرفني من سواكَ. تشرفني بأعجابكَ وتشرف

جمالي باعترافكَ العظيم به. (تنحني على بهاء الراضخ إليها، فتأخذ فمه بقبلة عميقة لكنها قصيرة).

- أحبك يا هيفاء، قلها (تأمره بصرامة).

- أحبكَ يا هيفاء (يقول بهاء)

- أخيرًا قلتَ لي يا حسين 'أحبكِ'، كلمة لم تكلفكَ غير نطقها، فيما أنا تكلفني حياتي. انتظرتها ليالٍ طوال ونهارات شاقة. ما أسعدني بها الآن. أجدني محبوبة منكَ. لا يهم متى، كيف وأين قيلت المهم أنَّها قيلت وكفى.

تضع بهاء في ألق نشوتها وذروة الإحساس به كشريك حالة حب استثنائي. يتحمم بهاء بجسدها الناضح عرقًا وشهوة، يندس فيه مداعبًا أعضاءها ومقبلاً إياها. (في نومي تطوف كلمة 'أحبكَ' عليّ مرة على هيئة امرأة عجوز تولول، كيف أموتُ وأنا التي لم تحيا بعد. ومرة تراءت لي على هيئة رجل تنشق حياته عنه، لتلاحق بسنواتها المبعثرة موتًا يهرب أمامها نحو تحطم طائرة، إنقلاب باص أو حرب مشتعلة. وها هي تظهر الآن شاخصة أمامي على هيئة رجل جميل أحبه يدعى حسين. أذوب فيه حتى لا يبقى عضو مني عداه. يا حسين لا تبتعد عني. انكشف سر ابتعادكَ عني. كنتَ تشاطر أمي خوفها على غشاء بكارتي من التمزق غير الشرعي. لا تخف تمزق ما تخافه وتخشى عليكَ من عواقبه. لا تخف. حفظ قلبي حبكَ. ما يشي بالقلب غير الحب. لا يشغلني إلاكَ حتى في غيابكَ الإرادي عنه. ادخرّتني لأجلكَ. اقترب يا حسين).

يقترب بهاء منها. تضطجع على بطنها وتصعّد مؤخرتها إلى مستوى حضنه. (لا تأخذني مما أخذني غيركَ منه ظلمًا. خذني مما حفظته عفيفًا من أجلكَ، لكَ مني ما لم يطأه غيركَ). تجثو على ركبيتها، تقوّس ظهرها، تومئ إلى بهاء أنْ يرتمي عليها. تحكُ مؤخرتها في قضيبه، تضغط بظهرها على بطن بهاء صعودًا ونزولاً. تتصاعد أنفاسها ويتعالى صراخها ويرتفع بكاؤها. جسد هائج يتلاطم شهوة وحبًا. (دِشني حبيبي. يتغلب الشعور بإرضائك على الإحساس بالوجع. إنها لذّة الألم التي اكتشفها معكَ بمتعة. وجودي لا وجود له دون إنوجادكَ فيه. لا معنى للذّتي إنْ لم أتألم لتقوم لذّتكَ. الآن

نشعر أننا كُلٌّ واحدٌ. إنَّكَ فيّ الآن كُلكَ وليس جزءاً منك فقط. تعلن وحدة جسدينا عن صيرورة توحدنا الأبدي. أريد أن أحتويكَ إلى الأبد. خصّبني إقذف فيّ، ليسري دمكَ الأبيض ساخنًا في أعماقي. إنَّها المادة - الهيولى- الأولى التي سأترعرع منها وأكبر بها. أريد أن أحتفظ بعروقي ما يسيل منكَ﴾.

ينسحب بهاء منها. يلتقط أنفاسه. يطلق تنهيدات وزفرات متلاحقة. يتناول عدداً من المناديل الورقية الحمر المتناثرة. يجفف بها ما هو رطبًا. يرتدي ملابسه بسرعة. فيما تستعيد هيفاء هدأتها. أنفاسها تعود إلى انتظامها بعد تصاعد لهاثها. تجمع أعضاءها في جسدها، تجلس بعد انبطاح. تنتصب على حافة السرير. أثوابها مبعثرة. تلبسها المواقعة الجنسية قميصًا شفافًا ولماعًا من الماء الناضح. تحتفظ بحبيبات العرق، وقطرات البلل وسائل الإفرازات من الهواء، المناديل والمناشف. طبقة سائلة من الثناء الرطب تثني على جسدها الملتذّ. تغطس في بحر الماضي، تنقذ مواقعة جنسية كانت غارقة في قيعان النسيان. تُمنح شهادة مختومة بالسائل المنوي على تجاوزها مرحلة جنسية طالما أخفقت بها. جسدها الندي والناضح يتظاهر التماعاً واسترخاءً. تمرح على وجهها سيماء الرضى، ها هي تسترجع الماضي المغتصب بالجحود مكللاً بالمتعة. تلف خصلة من شعرها على سبابتها. يجتمع جسدها بكامل أعضائه على سرير لذّتها. تبدو مزهوة بها، سعيدة بخيارها في اجترار نشوة وسرقة لذّة كانت مسروقة منها. نشوة يقاوم بقاؤها زوال اللذّة عنها. تفرد ذراعيها وتمدّ ساقها. تشمل بنظرها الأشياء التي انفصلت عنها الوحشة فعادت إليها الألفة. يعرض كل شيء عليها وداعته.

ينتهي بهاء من ارتداء ملابسه. يكبر غضبه عليها، يسخط عليه، حنقه المتزايد يذهب بانبساط ملامحه. يرمقها بنظرة يزدريها بها. يتأفف أسفًا. ترد على نظرته بنظرة أنثوية تتراوح بين الشعور بالنشوة والرضى. تحاول إقناعه بسعادتها بفعلهما ورضاها عما انتهيا إليه من وفاء لذيذ إلى الماضي الذي يُسيء إليه الحاضر بالإهمال ويخونه المستقبل بالنسيان. ﴿رائع حسين الذي كنته حقًا، حدثتني بلغته، رأتني بعينيّه. أحببتني بقلبه. حسين الذي فيكَ ظهر ليسود علينا بجماله وحبه. أليس كذلك يا حسين العظيم؟﴾.

- اللعنة عليكِ وعلى حسين وعلى الفلسفة والجنس.

يُخرج بهاء من جيبه ورقة نقدية من فئة خمسة دنانير، يرميها بها، يعبر عن احتقاره لأدائها الذي تستحسنه، يرد بها، يثأر لكرامته من سوء استخدم رجولته من قبلها. تجهش بالبكاء. تلطم على وجهها. تستشيط غضباً. تستعير على عجل من ذاكراتها مصطلحات من القاموس السياسي وتحولها بسرعة إلى عبارات نابية، تشتم بهاء بها، بحرقة وألم تصرخ: (اخرس. يا برجوازي صغير. يا عدمي. يا انتهازي. يا سلفي. يا رجعي. يا منشفي. يا منشق. يا ساقط سياسياً. يا حثالة البروليتاريا، يا سطحي. يا رأسمالي مبتذل). تستشيط غضباً عليه وحِنقاً منه. تبحث عن شيء تضربه به. تهتدي إلى مزهرية فخارية. تتبعه بها، تقذفها بقوة. لا يحاول بهاء إبعاد رأسه، الأمر سيان. لا يعرف رأسَ مَنْ يحمل؛ أرأسه أم رأس ذلك المدعو حسين. أيهما هو، وأيهما المطلوب تحطيمه، كلاهما غير مأسوف عليه. ثم لا يريد أنْ يعرف كيف تحطمت وما حطمت المزهرية. يتحسس رأسه، يأسف على سلامته، ثم يتوارى.

يخاصم الكلام فم هيفاء. تصاب بالصمت الذي يغدو حديثها. مهووسة بإصغاء إلى كلام لم يقل بعد. تنحاز إلى الصمت ضد الكلام. يشيع عنها صمتها. يتضاءل ظهورها. يتراكم عليها النسيان. يسميها الأهالي بـ'العاقلة المحتجبة' كنية من شقين؛ شق الشفقة، وشق السخرية.

ذات صباح تضبطها أم بهاء متخفية فيها، تحييها بصمت مكين ونظرة مبلولة. تومئ بأصابعها بحركات تشير إلى أنّها سوف تنتقل إلى حي آخر. لكنها تتكتم عن الإفصاح عنه بإيماءة نافية من رأسها. تجهش أمه بالبكاء على هيفاء الباكية هي أيضاً بصمت. تتمنى لها إقامة مرضيًّا عنها وجواراً جديداً يحسن إليها. ترد عليها هيفاء بإشارة رأس شاكرة. متصومعة فيها لا تغادرها.

غسيلها منشور على حبالها من دونها. السطح لا يأسف على صعود بهاء إليه ولا يحفل به. يشهد بهاء واقعة رحيل هيفاء. النهار ينتصف. الشمس تتسلق السماء، ريح لاهبة. بأبواب مفتوحة. ستائر مُزاحة يعبث الهواء بها. رؤوس متدلية، وجوه مكنمشة الملامح.

أفواه فاغرة، عيون تحدّق: امرأة مَسْبِيَّة؛ حانية الرأس، محدودبة الظهر، يقايض الزمن وداعة وجهها بتجاعيد متوحشة. ويكره حياتها على تقبل أعوام لم تعشها. شعرها أشعث معقود عليه منديل قاتم اللون. أثواب تهجرها الأناقة وتفرّ منها الألوان. تجر أذيال خيبتها بسواها. شاحنة تنطلق بعفشها، قافلة تفرّ بغنائم. تقتفي أثر ضابط ينتصر عليها، يقبض عليها ويلقيها في عالم عسكرته. العالم معسكر إعتقال بشر غدر الزمن بهم، فألقاهم في غياهب الضيق والمحنة.

أنا الناطق الأوحد
والنادم على نطقي
سأجمع كل ما قلته
من أذن الهواء

يذهب بهاء بنظره صوب البحر الذي ينحجب عنه بلونه، ليبدو متلألأً باشعة فضية مستعارة من نجوم غير مشغولة بما يشغل الأرض. يشاكس نقيق الضفادع و صفير المساء السكون المرغوب فيه هذه اللحظة. يتوجه بالصرخة وجهة البحر. هكذا يجده مطروداً من يابسة الحاضر، يبحر في الماضي بقارب معطوب وشراع مهلهل. لا مفر من الإرساء على شواطئ ذكرياته. ويرى أنَّه من العبث الالتفاف على الماضي بالماضي ذاته. أو بحاضر لا يبادله الاعتراف بالذكريات. لكنه لا يزال على ثقة، بوجوب الاعتذار إلى الماضي بحاضر لا يدعونا إلى الاعتذار عنه. ومن المفيد أنْ تكون أفكارنا ناضجة شريطة أنْ نحفظ على مشاعرنا مراهقتها، هكذا يرى.

يحاول الاتصال بهيفاء لتناصفه حمل ذنب لا يسعه حمله بمفرده، هي المتفضلة عليه بالمساعدة والتسامح. هذا الرجل البائس الذي فيه، يفتخر بمنجزاته النسائية، لكنه عاجز على الاستمرار في لعبة خداعه والتنصل من تبعة ما فعله بها. لِمَ يدينها وحدها على ما حدث. يخدع بلعب دور حسين ليطول جسدها جنسياً. تتوهمه هي حسين لتستأنف وهماً حالة حب عالقة وموقوفة. هيفاء التي لم يرها في تلك اللحظة سوى جسد يمكن

الدخول فيه عبر اللجوء إلى خديعة، وهي ترى شبهه الخارجي كفيلاً ليكون حسين بعد تعبئته بذكرياتها وشحنه بأفكارها ومواقفها منه. خديعة وتوهم يتم الاتفاق على تبادلها، أملاً في أنْ يبلغ كلاهما ذرى لذّته بعيداً عن رغبة فيه.

من العبث البحث عن شرعية للفعل في عالم تكون فيه الأفعال غير المشروعة مشروعة. يرمي بحر الصويرة وراء ظهره. تهب الريح الشمالية باردة ورطبة، توقظ روائح يعتقد أنّها خلدت إلى النسيان. تبادر حواسه دون رغبة منه إلى تأويل حنينه. فينحسر عنه الماضي، ليعلن من جهته عن قطيعة مؤقتة. ينقلب عليه مزاجه، فيتمكن الحزن والخوف منه. يحمّل الريح الشمالية تبعة تدهور مزاجه. وتمكين القلق منه. يسير كرجل مخلوع عن كرسي غروره الذكوري.

لا تواضع مطلوب منه، ولا غرور مطروح عليه. ينصبه الخذلان سيّداً عليه. يضطر إلى تغليط حياته كيلا يركن إلى صواب. بالخطأ وحده يكون البقاء بين البشر محتملاً. والوجود ليس سوى وجهة نظر.

تنوء قدماه بحمل جسده الثقيل بالإنهاك والشرب. يتجه مثقلاً إلى الفندق، لا يرى كل مَنْ رآه، لا سمع مِنْ كلمه. يتخفى فيه منه ومما هو معلن عليه. يستقبله في غرفته عطر تخلفه امرأة غائبة. على الطاولة كيس بلاستيكي، يحتوي على صحن 'كسكس' بارد. تشدّ إليها ورقة مفتوحة: {عزيزي بهاء سرقتُ وقتاً من العمل ومن العائلة، أمضيته بانتظارك. أينكَ. أسقطتَ عني الحق في البحث عنكَ. كُلْ الكسكس بـ'الصحة والراحة'. على فكرة، لا تنسَ أنْ تُفَرّش أسنانكَ. اشرب حليباً. زجاجة حليب طازج في الثلاجة. الحليب صحي، لا يحتاج تذكيركَ بفائدته. لا تشرب كحولاً كثيراً. لا تتهور بالشرب. كُنْ شارباً من النوع المتعقل. لاحظت تكاثر قناني مشروبات روحية يصعب على عقلي فرزها. لا تفكر، دع عنكَ التفكير. اقرأ قصة مسلية عليكَ، أو عُد إلى ذكرى مثيرة داعب بها خيالكَ. إنْ احتجت الليلة إليّ؛ أنا رهن رغبتكَ ستجدني في أول حلم يأذن نومك بزيارته. نَمْ، تصبح عليكَ بهيجاً. صديقتك السعيدة بك، سعيدة}.

- صباح الخير.
- صباح النور. كيف أصبحتِ؟
- أحسن من الأمس قليلاً وأفضل من الغد.

تضع النادلة فنجان القهوة السادة وكأس الماء البارد على الطاولة. تنصرف عنه، بعد أنْ تخلف وراءها إعجابها بأناقته، وتثني على تناسق تدرجات البنفسجي عليه. يُلقي حانقًا بالجريدة. {شيء يبعث على الغثيان والخجل. كَفَّ البشر عن إنتاج متعة وفائدة. ليس في العالم سوى ساسة صارمين وإرهابيين ناقمين. مثلما احتل الساسة كراسي الحكم وأروقة القرار، ها هم يحتلون وسائل الإعلام بصورهم وأخبارهم، لا خبر ولا حدث دونهم. أمام زحف قصصهم يتقهقر الحديث عن منجزات العلم، الطب، الفكر والفن. ألقوا بغيرهم أسفل سلم الاهتمامات. إنّهم نجوم عصرنا المتألقين في سماء تاريخنا. هم مخلفاتنا الحضارية وإنجازاتنا العلمية نهديهم إلى التاريخ. التاريخ الذي يصمت عادة عن الشعوب ويتحدث عن الحكام حدّ الثرثرة. ليس هناك ما يدعو إلى القراءة}.

يظهر رجل فجأة، تحول قامته الطويلة دون بعث رسائل بهاء البصرية إلى سطح البحر المتموج، وأفقه الذي يتقرب إلى نظره بالأشرعة. الرجل في العقد الخامس. يتناوب البياض والاحمرار على بشرة وجهه. شعره، شارباه ولحيته خلطة لونية من أبيض، أصفر وأحمر. شعره الطويل يخالف توجيهات الهواء. يغرق في بياض عينيه العميقتين بؤبؤ أزرق وأخضر اللون. يرتدي طقماً بنيًّا وقميصاً أزرق. يتقدم نحو المقهى قاصداً بهاء. يقف إزاء بهاء الصاعد بنظره إليه.

- من فضلكَ، أين يقع فندق 'رياض المدينة'؟
- صباح النور.
- عفواً، صباح الخير.
- الأخ عراقي؟

- على ما أعتقد.

- الفندق ليس بعيداً من هنا.

- أنا لا أسأل عن المسافة وإنما عن الموقع.

- لكن تداخل الأزقة...

- أنا أسأل عن موقع الفندق، وليس عن مسح جغرافي للموقع

- نعم، عفواً.

- إنْ تعرف أينه أجب بـ'نعم' . إن لم تعرف فأجب بـ 'لا'، 'لا' الغالية والرخيصة، نغليها في تصويت وفي منع قرار. نرخصها كأداة للتهرب والتنصل. 'لا' تلك الأداة المتمردة، مطلوبة تاريخياً من 'نعم' المتواطئة، 'لا' ترتفع بكل رافض و'نعم' تحطّ من كل موافق.

- شكراً على تفضلك بتوقير الـ'لا' وتحقير الـ'نعم'، دعنا نتناول القهوة معاً، ثم أو صلكَ بنفسي إلى الفندق، إن لم يكن لديك 'لا' على هذا العرض.

يسحب الرجل الأصهب كرسياً ويحلّ جالساً قبالة بهاء. يشرع بهزّ ساقه اليمنى. يتلفت دائرياً، يبحث بنظره عن النادل. إثر صفقة خفيفة من يديه، تقبل النادلة عليهما منشرحة بوجودهما. ومستعدة بفرح جاهز لتلبية طلباتهما.

- نعم.

- فنجان قهوة من فضلكِ.

- حاضر.

يدقق بهاء بهيئة جليسه الرجل الأصهب. يجده مشغولاً بدوران رأسه لرصد الجهات الأربع. يُخَمِّن من أسلوب حديثه أنَّه ليس حديث السفر عن العراق. لهجته إسوة بلهجة بهاء تخالطها اللهجة الشامية فتجعلتها أكثر ليونة. يخرج الرجل الأصهب علبة سجائر، يقدم سيجارة. يشكر بهاء ويعتذر عن قبولها كونه يدخن صنفاً آخر. لكنه يضطر إلى سحب اعتذاره وقبولها بعد الإصرار الظريف من الرجل الأصهب.

تضع النادلة فنجانين كبيرين من القهوة وكأسين من الماء مع كاسة نحاسية مملوءة بمكعبات السكر. تقدم النادلة فنجانًا ثانيًا إلى بهاء بعد أنْ لاحظت أنَّ فنجانه الأول أو شك على الخواء.

- كم قطعة سكر؟
- لا شكرًا.
- لماذا هل أنتَ مصاب بالسكر؟
- لا، أنا أفضل القهوة سادة.
- هل أنتَ في مأتم، ضع سكرًا.
- أُفضل مرارة القهوة على حلاوتها.
- هل أنتَ تعيس أم أنّكَ تحب التعاسة.
- أنا تعيس فعلاً، لكنّي لا أسعى إليها.
- التعاسة تتمسك بالتعساء. فيما السعادة سرعان ما تتخلى عن السعداء. لا علينا. أنا شخصيًّا لا أرى سببًا، ليس هناك مأتم ولا مرض سكر. ضَع سكرًا وحلّي مزاجك.
- المزاج الحلو يُطيّب الأيام.

يتلقى بهاء مزحة الرجل الأصهب برحابة. يعتريه فضول غير عاجل، لو يطلعه جليسه على عراق الناس والأمكنة. هناك حيث يودع ذكرياته، كلما أقصاه الزمن عامًا عنها، راح الهدم يتربص بها، وأخذ النسيان يلوح بالقضاء عليها. علامَ تجديد الأمكنة مشروط بخيانتها لقديمها. يتساءل بهاء وهو يرقب من بعد طفولته الراقدة على ذكرياته. كهولته هنا وطفولته هناك، تتنكر لمراراتها وتعاساتها بالغبطة والحنين. يفكر في دعوة الرجل الأصهب إلى تناول طبق عراقي من الأرز ومرق البامية في أحد المطاعم الشعبية، لتقوم شعائر الحنين وتلاوة الذكريات.

تناول الرجل الأصهب المتأني القهوة، ينم عن عمق استمتاع ودرجة ذوق. لا يبدو قلقًا بقدر ما هو مُترقب وحذِر. يتعقب بهاء بنظره مَرَّة ومَرَّة يهرب به من مجهول إمَّا يترصَّده أو يتقدم منه بالرجاء. يتذكر بهاء صديقًا، يظنّ أنَّ نيران الحرب قد التهمته.

رغم اعتقاده بزواله، لكنه يؤجل إعلان موته، كيلا ينتحر فيه واحدٌ من أهم مسوغات حلمه في العودة إلى وطنه الأول. يهمس صديقه هذا: إنَّ العراقي يحتاج إلى أربع عيون يصوبها نحو الجهات الأربع. يذهب في القول إلى أنَّ الحُكم الاستبدادي قد قلَّص نشاط الحواس. كما ألغى التنوع وحذف التعدد. والألوان قصرت إلى لون واحد. الأحلام جرى اختصارها إلى حلم واحد (حلم الموت على سرير وليس في زنزانة أو جبهة قتال). يتم القبض على طرائق التفكير والاستيلاء على وسائل التعبير. (أنت تفكر، إذن أنتَ مشبوه). العراقي الجيد هو الأرهف حِسًّا بالخطر، هو البارع في استخدام حاستي النظر والسمع في مغامرة ظهوره اليومي المكره عليه. نعم عليه، أنْ يُرهف السمع ويحدّ البصر ليكفل عودته سالمًا وبريئًا إلى مأواه. مع الزمن الاستبدادي ستستطيل الأعناق، تتسع العيون وتكبر الأذان. أمَّا الحواس الأخرى كالذوق، الشم واللمس، ستنقرض تلقائيًا من تقلص العروض وانعدام الاستخدام. نعم سوف تنقرض، ومَنْ يرغب في الاطلاع عليها سيجدها في متحف البيولوجيات أو في ألواح التاريخ المُعَفَّرة بالتراب والمطروحة على النسيان.

يعرِّج على طروحات صديقه الحي فقط في حلمه عنه. يذهب صديقه إلى الصفات التي تعرف بـ' الأخلاق الحميدة' مثل الصدق، الأمانة، الشرف والشهامة. فإنها من حسن حظ الفئات الشعبية المُهَمَّشة والمعدمة لا تزال محفوظة في حكايات ألف ليلة وليلة، بالطبع مسموح بقراءتها، لكن ممنوع الاتصاف بها دون إذن رسمي، صفات لا تتعارض مع المصالح الحكومية. الصفة والقيمة تقررهما الدولة.

لم أُعد قامتي للسجود
ولا قدمي للهرب
لم أختر الجسد
للروح منفى
مَنْ لا يرى وجهي
لا يراني

مَنْ لا يعرف اسمي
لا ينا ديني
مقامي جسدي
جلسائي أطرافي
الجسد تِيه الأعضاء
رأسي البائع
السوق جسدي
والبضاعة أعضائي
أيها الجسد
سأتركك نائماً
وأهرب

يتعقب الرجل الأصهب أناس الطريق بتوقعاته، ينتهز بهاء الفرصة، يعود إلى صفحة غير مطوية من ذاكرته، يراجع ذكرياته القرائية، يوقفه مقطع (أصغر ما فيَّ جسدي رأسي). يعدِّله إلى (أثقل ما فيَّ أثوابي) يجده ملائماً لمناخ القسوة السائد في العراق، فيكون (أغلى ما فيَّ أثوابي)، نعم الإنسان أرخص من أثوابه.

يضحك بهاء في سرِّه، يسخر من فلسفته، أليس هو القائل: أنَّ الوعي جلّاب الأسى. التفكير يحمل الحاجبين على التقطيب ويدفع الملامح إلى الانكماش. يتوصل إلى أنَّ الحزن نشأ عراقياً ثم أخذ العالم أحزانه عنه. يعود استنتاجه هذا عليه بالاسترخاء. يدقق في وجه الرجل الأصهب، يعفيه من الشبهة الأمنية. يحدس أنْ تأنيه وهدوءه يعبر عن ترفع عن الحياة، فالحياة أقصر من أمسٍ قد انقضى. إنَّها الأمس وليس اليوم أما الغد فهو صنف من التكهن. مستقبل الكون ماضيه.

كل شيء
من الأمس وإلى الأمس
كل شيء يعود

تمر أربع نساء على مرأى منهما. تلتف جلابيبهن الفضفاضة حول أجسادهن النحيفة. يعهدن لواحدة منهن برمي كلمات هامسة، فيما ينصرفن إلى النظر والقهقهة. يسلم الرجل الأصهب على مضض حذاءه إلى دَهَّان الأحذية الصغير السن والمِلْحَاح. يعلق بهاء مؤقتاً التعامل مع أي فرحة مصدرها ليس عراقياً.

يحيط الرجل الأصهب نفسه بالصمت الغامض، ويتكئ على الكلام المقتصد يفسر بهاء ميله هذا، ربما توقياً من الوقوع في مطبات لا يخرج منها إلاّ بأسف يصعب عليه إبداؤه الآن أو بعد قليل. يرجئ بهاء طلبه في التعرف على اسمه وعلى عنوانه في العراق، يوقف إلحاح الفضول عليه. كونه يدرك أنَّ في ظروف تنامي وتائر القمع وشمولية الخوف، يتدرب الخائفون على الحذر من الآخر والميل إلى الاقتصاد بالكلام وادّخار المعلومات. يعلم بهاء أنَّ من الرعب أنْ يكشف العراقي عن اسمه ويصرِّح بعنوانه. (النجاة في الصدق). لا نجاة في الصدق. الصدق قيمة أخلاقية تربوية ومدرسية مشكوك فيها هي أيضاً. قيمة تجسسية، تستخدمها الدولة كوسيلة قمعية لإضفاء الصفة الأخلاقية على الممارسات غير القانونية في انتزاع المعلومات والاعترافات. يعتذر الصدق عن وعده، فيعهد إلى الكذب مسؤولية نجاة الصادقين.

يعود إلى الرجل الأصهب حذاؤه مدهوناً، فيطلب من دهَّان الأحذية الصغير أنْ يدهن حذاء بهاء أيضاً. يسلم بهاء حذاءه إليه. تساهم رغبة بهاء في دفع أجرة دهن الأحذية في ظهور تغيير مفاجئ على ملامح الرجل الأصهب، يتراجع بهاء عن الدفع الذي يتولاه الرجل الأصهب. تراجع بهاء عن الدفع مشروط بدفعه ثمن طلباتهما.

- ضيف السيد بهاء ضيفنا، ولا يجوز على الضيف الدفع.

يمنح بهاء نظرة شاكرة إلى النادلة المزهوَّة بخدمتها الكلامية. يدفع الحساب ويكرمها كعادته. فجأة تظهر ابتسامة أقرب إلى الضحكة على فم الرجل الأصهب الغاطس في شعر الشاربين واللحية. الرجل الأصهب جليس لم يُبدِ الكثير من الكلام هذا الصباح. فقد انكمش كلامه عند الدمع، تتحرك أكفهما منطلقة في هواء مرح يتلطف بنسائمه.

ينهضان. يتقدم الرجل الأصهب على بهاء بخطوتين. يومي بهاء إلى النادلة مودعًا إياها. يتفاديان بصعوبة الاحتكاك بالوجود البشري المنتشر بكثافة على الأرصفة، يواجهان صعوبة تقاربهما أثناء المشي. هناك آخر يحول دائماً دون تقارب.

- حضرتكَ اسمكَ بهاء؟.

- نعم.

- ولا تزال؟

- ماذا تقصد.

يردد اسم بهاء بغنج غير مرَّة، (إنَّه اسم ناعم، اسم ولادي لا يناسب رجلاً كهلاً، تصعب منادته به. اسم في أفضل استخداماته، يمكن أن يطلق على حلاق نسائي، جامع فراشات أو منسق زهور. اسم لا فرقَعَة فيه. منْ يسمع اسمك يستضعفك ويؤنثك قبل أنْ يراكَ، الاسم هو عنوان المرء والدليل إليه). فجأة، يضع يده على كتف بهاء، يسحبه إليه، ثم يديره نحوه، يتفحص بهاء بنظراته من الأعلى إلى الأسفل، ثم يرفع رأسه إلى الأعلى، بعد تأمل قصير، يتوصل إلى اسم يطلقه على بهاء وهو بهاء (اسم مناسب وعلى قياسكَ) يطلب بالنظر من بهاء ألاّ يتأخر بضحكه على ضحكه الذي انطلق لتوه من فمه. بهاء الضاحك يجد أنَّ طرافته تنم عن ذوق.

- عفواً، ما أسمكَ؟

- سمني أنتَ.

- أنا لا أطلق أسماءً.

- تطلق أحكاماً إذن.

- أنا أرجئ الأحكام، ليس هناك حكم إنَّما تجربة.

- على أيَّة حال. اسمي ربّان وكنيتي البحر.

- ربان البحر، تشرفنا.

تشق الجُموع البشرية الغامرة صف بهاء وريان البحر. تدافع يعرقل تحقيق مصافحتهما. تفشل محاولاتهما وهما يقهقهان في تحقيق المصافحة. يدفعهما فشلها المتكرر إلى التريث وتأجيل عملية المصافحة حتى ظهورهما في مكان مناسب. لا يؤثر انغمار الشارع بالمارة على متابعة حديثهما. لكنه يصعّب الإصغاء. في فجوات الصمت يشتغل النظر مستطلعًا ومستكشفًا. يتبادلان توجسهما من أولئك العابرين الذين بينهم وبين العراق شراكة السِحْنة واللهجة.

يلفت عناية ريان البحر رفيقَ طريقِه. بهاء كونه معروفًا مِنْ قِبَل بائع الكتب المفروشة على الرصيف ومن قِبَل بائعة محل التصوير، هذا فضلاً عن الابتسامات التي يزخر فمه بها والنظرات التي تسخى عيناه بها، ويكون للنساء النصيب الأكبر منها. لكن ما يثير حفيظة ريان البحر هو انفكاك بهاء عن الإصغاء إليه، والميل إلى مداعبة طفل برفقة أمه، يتضح أنَّه يداعب الأم قبل طفلها، هذا ما يفسر فارق السعادة لجهتها. يندفع ريان البحر إلى الإمساك بيد بهاء والسير به بسرعة أكثر.

- يفيض فمكَ ابتساماً وعينكَ نظراتٍ. كأنَّك 'الفيس برسلي' هبط في مدينة الصويرة. يقوم بنشر البهجة في قلوب معجباته. ما سر هذا الاستقبال البَسَّام للمقبلات منهن، أتحلم أنْ تصبح عُمْدة نساء الصويرة.

يداعب استنتاج ريان البحر الطريف شيئًا في رجولة بهاء. يتوقف بهاء بهما. يشير بيده إلى باب فندق. (هو ذا فندق رياض المدينة) يشهر يده إلى المصافحة. يتمنى لريان البحر حظًا سعيدًا. يطلعه على أنَّه زبون صباحي لمقهى مراكش، سيكون سعيداً برويته مرة أخرى. يستأذنه بالإنصراف. يتمنى ريان البحر عليه البقاء معه. كما يعبر عن خالص إرتياحه وسعادته بلقائهما. يدعوه إلى تناول طعام الغداء معًا بعد قضاء مهمته في الفندق. يقبل بهاء الدعوة ويبادله الشعور بالراحة والسعادة بلقائهما.

ترحب موظفة الاستقبال في فندق 'رياض المدينة' بهما، يدنو ريان البحر منها، يسألها بصوت خفيض. يتراجع بهاء قليلاً. ينتحي زاوية لا تكون موظفة الاستقبال مِحجُوبة فيها

عن نظره إليها، يترصدها، يتوقف عند ابتسامتها، ينشغل في البحث عن تعريف لها، يصاب بصدمة رقيقة حين يتوصل إلى تصنيف ابتسامتها بـ' النوع الأخوي' أو ' المهني الصرف' ، فهذا الصنف من الابتسامات غير مثير ولا رغبة فيه من قِبَل السُوَّاح الذكور. لا تضيف ابتسامتها إلى جمالها ولا تَسْحب منه، وجهها أسمر هادئ الملامح. فجأة، تعلق نظرات بهاء على صدرها الناهد والمتوثب خلف الجلابة البيجية اللون واللّماعة، يفسر شموخ نهديها على أنّه مناورة مكشوفة تقوم بها حمالتهما، لكن تفسيرًا كهذا تنقضه الحقيقة العددية لعمرها الذي لا يتجاوز العشرين. عمر كهذا لا يحتاج إلى خداع لاستدراج النظر إليه والإيقاع بالرغبة فيه. ينصرف عنها إليه، يحاول معالجة مزاجه الذي تدهور فجأة. يلومه على وعيه، ينسب تعاسته الوجودية إلى وعيه التاريخي. {نحن لا نعي أفكاراً بل آلاماً}. هكذا يعي، وعيه يحدّ من خياله، يُلقي فيه في مطب تحليلات لا واقع يقع بها. يحاول إيقاف واقعية تدهور مزاجه بالخيال. يسرح على صدر موظفة الاستقبال، يعتذر إلى نهديها عن إسقاط جمالها على حمالة النهدين. ينطلق من نهديها إلى فضاءات مجلة الـ' البلاي بوي' خصوصًا تلك الأفلام التي تنتجها تحت عناوين أبرزها ' فَنْطَازيا' .

يُخرج دفتره الأزرق الصغير ويشرع بتدوين ملاحظاته النقدية لها، أمّا ملاحظاته الفلسفية تساهم للأسف في الحدّ من إثارته، هذا ما لا يرجوه ولا يسعى إليه البتة. يرى أنّ هناك تصميماً مُوَحّداً للنهد، للسُرة، لقصة الشعر الداخلي وللساق، من هذه الأعضاء المصممة تتشكل أجساد مختلف النساء المصورة فيلمياً. يترك هامشاً غير جدير بالملاحظة، مثل اختلاف طفيف في ملامح الوجه وتسريحة الشعر. يتم حظر الميل بالبشرة إلى لون السُمْرة الفاتح أو الغامق. يعتقد بهاء أنّ مَنْ يقف وراء عملية تشقير وتبييض بشرة النساء، إمّا أنْ يكون رجلاً أسود يعاني من الشعور بالنقص أو رجلاً أبيض مصاب بعُقْدَة التفوق. إنّ الإقرار بظاهرة المُساواة الجمالية هذه لا ينفي الظنّ حول باطنها. يتطلع بهاء إلى أنّ يتفوق جميع البشر جماليًّا. يحلم بالكائن الجميل الذي يعلق عليه الأمل في خلاص الكون من القبح، يراهن على الدور التاريخي المنتظر لعلم الاستنساخ في تأمين الجمال وإشاعته. الاستنساخ يعتبره خطوة نحو المساواة

الجمالية، المساواة الجمالية مقدمة لظهور عدالة اجتماعية. الجمال حَلُّه المطروح لمشاكل البشر المتفاقمة قبحاً. الجمال هو الحرية، قوتها الرغبة واللذّة مطلبها. لا ينكر بهاء دور هذه الأفلام وسواها من الجماعات الإيروسية في مساعدته على التوصل إلى وضع أسس نظريته؛ (التنافس الجمالي). ينقسم المجتمع بنظره إلى طبقة رجالية وأخرى نسائية، يقوم التنافس بينهما على أساس جمالي، يوجب أنْ تكون الرغبة محور البشر وتجميل العالم غرضهم. الكل جميل بآخر يحسن النظر إليه. الجمال انتخاب طبيعي. انكباب بهاء على الكتابة في هذه الزاوية وفي هذا الفندق، يثير فضول امرأة مغربية، ترتدي بنطلون جنز لاصق وقميصاً أبيض. تتحيّن أنْ يرفع رأسه، لعلها تناقشه بصرياً عن دافع انعزاله وظهوره منهمكاً في خط كلمات رمادية اللون على ورقة ليست نقية البياض. تضع نقوداً على فاتورة موجودة تحت صحن فنجانها. في طريقها إلى الخروج، تتوقف عند رأس بهاء.

- ماذا تكتب، بربك قلّي؟

- نقد.

- نقد أيش.

- نقد رأس المال.

- اللعنة على المال وعلى رأسه، لو أنَّ للمال رأساً لجَنَّنَه ولع الناس به.

تذهب حانقة على بهاء وعلى المال الذي يضع الشقاء شرطاً مُسَبَقاً للحصول عليه. ينصرف بهاء ضاحكاً إلى مزاولة بحثه: التفاوت الجمالي يمهد إلى صعود نزعة الملكية. يرى أنَّ غياب الجمال كفعل عن مسرح التاريخ، يوفر الفرصة لصراعات مشبوهة، لا يمكن تبرئة الساسة منها. يتهم الفكر الفلسفي بالتواطوء مع المشروع السياسي. الفلسفة مطية السياسة. يهدف المشروع السياسي إلى مصادرة الثروات والهيمنة على الأفكار. يرى أنَّ المرأة والرجل مجرد آلتين منتجتين تقليديتين في المصنع الاجتماعي العريق. لا يثق بهاء بالتاريخ البتة، التاريخ هو تاريخ النُخب الحاكمة، أما تاريخ الشعوب لم يُكتب بعد. التاريخ مقاطعة يحتلها الأقوى، الأقوى هو مَنْ يصنع الحقائق ويُشَيِّئ الاحتياج إلى

الآخر. يُقر بهاء في بحثه ضرورة اللجوء إلى الكفاح الجنسي اللذّيذ لتحقيق العدالة الجمالية. يقدر عالياً التضحيات الكبيرة التي تقدمها الجماعات الإيروسية. (يدون وهو منفعل) يدين العسف ضد السيدات العاهرات من جراء نشاطهن في توفير المتعة، نشاط مدفوع الثمن للأسف. نشاطهن أملته الضرورة البيولوجية لاحتواء الكَبت وتأمين المتعة وكسر الإحتكار الطبقي 'الأرستقراطي' للجمال الأنثوي. النشاط الإيروسي دعوة إلى مَشَاعيّة الجمال وجعله شعبياً، بمتناول الجميع، والسعي إلى تكريس الرغبة وإشاعة اللذّة والدعوة إليهما.

يومئ ربان البحر إلى بهاء، يتوقف عن تدوين ملاحظاته يتقدم منه، يطلب منه أنْ ينتقل إلى كافتيريا الفندق والجلوس بعض الوقت فيها لا يعطي ربان البحر إيضاحات حول سبب الانتظار، مكتفياً بالقول إنَّ المهمة التي قصد الفندق مِنْ أجلها، تتطلب شيئًا من الوقت

يطرأ تغيير على ملامح ربان البحر أقرب إلى التوتر. يعود إلى موظفة الاستقبال. يقف إزاءها يدخن ويهزّ قدمه اليسرى. تتلفن مرة من أجله ومرة أخرى تتصفح سجل الفندق الإلكتروني. يأخذ بهاء كرسيًّا في كافتريا الفندق، يجعل موقعه في مواجهة موظفة الاستقبال التي تزوال أداءها الوظيفي وتمارس تأثيرها الأنثوي، تتبادل وإياه نظرة بإبتسامة. تبادل خَاطِف يخلف رغبة في تكراره. تهبط على بهاء هواجس أمنية، هو المسكون بالشعور بالخوف من الملاحقة المخابراتية. لا يزوال وجوده كحي، بل كمشروع قتيل.

يتوجس من غرض زيارة ربان البحر إلى الفندق. يلومه على بقائه. يقرر المغادرة، والاعتذار عن وجوده بورقة. لكنه لا ينكر أنَّ ملامح ربان البحر توحي بالطمأنينة. خوف بهاء لا يكف عنه. بهاء الجالس على مضض يناشده الحيطة والحذر.

ابتسامة أخرى تصدر من جهة وجه موظفة الاستقبال، تقابلها نظرة وابتسامة من جهته، من خطا نحوك خطوة، أخطُ نحوه خطوتين، على حد قوله. الحسُّ بالتواصل معها يجعل الانتظار مسوغاً.

يعود ربان البحر بصُحبة عامل الفندق حسن، بناء على أمر من موظفة الاستقبال، يرشدهما إلى طاولة أفضل. الموقع الجديد لحسن حظ بهاء لا يزال على مرمى النظر إلى موظفة الاستقبال. تقع الكافتيريا في فناء الفندق. المقاعد مُنَجَّدة بفرش مغربي. يُخرج ربان البحر منديلاً ثم يشرع بتجفيف وجهه، يجفف وجهه بطريقة كادت إمَّا أنْ تُبخر جميع ملامحه أو تمسح بعضًا منها.

موقع كرسي بهاء الوثير يفوِّت الفرصة على الأعمدة البشرية والخشبية في حَجب الجمال عن مرآه وعلى الأخص الجانب الأنثوي منه. يتأمل بهاء فناء الفندق الذي يبعث على الاسترخاء. نباتات متسلقة ومزهرة. ظل بارد يرد حرارة الشمس ويأذن بقدر من ضوئها المنعكس من أعلى الفناء المفتوح على السماء. شرفات طوابق الفندق الثلاثة، أَسْيِجتها مشبكة على هيئة نجوم ثُمَانية الشكل. يُطلّ عدد غير قليل من النزلاء الغربيين برؤوسهم ونظراتهم على فناء الفندق. زجاج النوافذ ملون، الأبواب زرقاء، الجدران بيضاء. الأزرق والأبيض لَوْنا مدينة الصويرة. تُحدث عملية الجلوس شروخات بالهدوء عبر الصوت المنفر الناجم عن سحب الكرسي والجلوس عليه. حفيف الأوراق الهامس لا يخرج على الصمت المهدد بصيحات مباغتة أو قهقات محتملة من نزلاء منتشيين.

يقدم ربان البحر سيجارة إلى بهاء فيقبلها شاكرًا. يرصد ربان البحر جبهته الخلفية. يطمئن على سلامتها. بعد استطلاعه هذا يتوجه بتركيز نظراته صوب موظفة الاستقبال، يتوقع مفاجأة منها، تضع حدًّا لانتظاره. يصفق بيده صفقة خفيفة، يقف النادل بين يديه باسمًا وجاهزًا لإملاء الطلبات. يقترح ربان البحر على بهاء كأس كونياك. يعتذر بلطف، يضعه بهاء في صورة اعتذاره، لا يميل إلى شرب الكحول قبل الساعة الواحدة زوالاً. يتقبل ربان البحر اعتذاره، يطلب فنجان قهوة وكأس كونياك له، ولبهاء قنينة كولا يعالج بها شعوره المتنامي بالحَر. يظهر انفراج على ملامحهما ويهتدي الكلام بعد الابتسامة إلى فاهيهما. يصب الكولا في كأس بهاء، يدفعه نحوه، يوجه كلامه إلى بهاء، فيما نظره متعاقب على متابعة تطورات موقف موظفة الاستقبال منه.

- لا أعتقد أنَّك لا ترفع كأساً قبل الساعة الواحدة بغض النظر عن السائل الذي يكسر خواءها.

- لا طبعاً، في صحتك.

- هل تقيم في هلسنكي؟

- لا، لماذا؟

- صوتك يميل إلى الانخفاض، وجهكَ ينحاز إلى البياض. البياض سمة العصر وسمة شعري أيضاً، وجهكَ يوحي على انزياح أشعة الشمس عنه.

- إني أقيم في الدنمارك.

- في الدنمارك

ينهض بلا مقدمات يتوجه نحو بهاء الذي ينهض بدوره على نهوضه الفوري. ترتج الطاولة وما عليها. تحفّز بهاء ونهوضه المتأني، يحفظ السوائل من خطر التبديد والزجاجيات من التشظي. يعانق ربان البحر بهاء، ويلف ذراعيه حول صدره، يضيّق التنفس عليه. يوقف ذهول بهاء الناتج عن فورة الاعتزاز الفُجَائي عن ملاحظة التفاصيل الناشئة الأخرى. يهنئ ربان البحر بهاء على الدنمارك. يثني على ذكائه باختيار بلد الرفاهية منفًى أو ملجأ. يكرر تهنئته باِسْمِه وباسم كل العراقيين المشردين في بقاع وطنهم الضيّق عليهم. بعد انتهاء جولة العناق والتهنئة الحارة من قِبل الأول والباردة من الثاني. يعودان إلى كرسيهما، الأول مغتبطاً فيما الثاني حائراً.

- الدنمارك بلد الرفاهية. هنيئاً لكَ الإقامة فيها و صحتين على قلبك زبدتها.

يجد بهاء نفسه في وضع حرج. يريد أنْ يُطلع ربان البحر على معاناته من الوحدة التي تنفرد به هناك. يعيش على إعانة مالية من البلدية. يلتقي دورياً بمشرفة اجتماعية، تصغره في السن عادة. توبخّه على إخفاقه في الحصول على عمل، تقذف فضلات النصائح على وجهه. النصائح غير المطلوبة سباب. لا تعترف بنشاطه، مثل قيامه بتظاهرة خطابية لإطلاق سراح مثقف إيراني، يتهدده الإعدام في زنازين بلاده. أو حملته الشهيرة لجمع

التواقيع ضد حروب التطهير العرقي من البوسنة. كما دعا في مذكرة منشورة في جريدة الرأي العالمي للضغط على الجهات ذات العلاقة لفتح ملفات حقوق الإنسان المَسْكُوت عليها لأسباب اقتصادية. مشرفته الاجتماعية غير الهادئة وغير السعيدة بلقائه، تحمّله مسؤولية التلاعب بوقته وضياع وقتها، لا تعترف لوائحها بالنشاطات وبالجهود التي لا تتكلل بالمال. المال هو كل شيء في منطق قوانيها. تطالبه بالسعي إلى إعادة تأهيله مهنيًا، ليكون مطلوبًا في سوق العمل. تضيّق عليه توسعه بالحديث (لا مهنة لي سوى الكتابة في الفلسفة. الفلسفة مهنة المتسولين. تتوعدّه بقطع الإعانة المالية عنه إنْ لم ينخرط في دورة دراسية أو تطبيقية. (أنتَ بالغ، تنهي فقرات كلامها)، كلمة 'بالغ' كلما سمعها منها، تحسس قضيبه. أمَّا إذا راقت له ترجمة الكلمة ذاتها من بالغ إلى راشد، فإنه يتحسس رأسه متأسفًا على وعيه. هكذا يخرج منقوعًا بالإهانة منها، يغتسل روحيًا منها عبر وُلُوجه في أقرب ماخُور، والتعرف من عاهراته على عروضهن للأوضاع الجنسية، يستمع بشهوة إلى المفردات الإباحية من خطابهن الجنسي. الحاجة إلى محادثة عاهرة تُلح عليه كلما سمع خطابًا سياسيًّا أو خطبة وَعظية. يجده غريبًا على الثقافة الدنماركية، لم يرثها ولم يعاصر تطورها. يصعب التجنس الثقافي عليه. يعتقد أنَّ المرء يمكنه أنْ يكون عالميَ الثقافة في وطن آخر غير وطنه. لكن يتعذر عليه التصرف كمَحَلي الثقافة في غير بلده. عالمي في التفكير ومحلي في التصرف. يتطلع بهاء إلى أنْ تتحول العواصم إلى مدن عالمية متعددة الثقافات ومنفتحة على الآخر. يرى أنْ الحاجة الثقافية تُملي أنْ تكون العواصم مُدُنًا عالمية. نعم، يجب أنْ يكون للعالم في كل بلد عاصمة تؤلف بين ثقافات بشره.

يأخذ رشفة من كأس الكولا. يوفر انشغالُ رُبان البحر في التعقب البصري لموظفة الاستقبال الوقتَ لبهاء في تدوين لملاحظاته. نعم، ما دام هناك ساسة واقتصاديون سيبقى العالم ممزقًا إلى بلدان، تجرح العالم بحدودها، الدم النازف عليها يُؤكد على أنَّها جروح وليست حدودًا تحدّ من نزفه. نعم إنَّها جروح وليست حدودًا. كل بلد يسعى إلى اكتساب أهميته من قوة دفاعه عن وجوده المهدد من عدو مُخترع، أو تهديد مفترض، تسقط كل الأفعال العدوانية والمنحطّة على العدو، نعم العدو منحط دائمًا.

(العدو لملمة الأمة بعد تضعضع أخلاقي). يلاحظ بهاء أيضًا أنَّ الثقافة المحلية تتعرض للتصدع في زمن التغيير، (التغيير حالة دائمة، وليس طفرة). يقيم في غرفته الواقعة بين الدنمارك والعراق، يؤسس مشروعًا ثقافيًا لشعب متعدد قوامه هو. هو وحده ثقافة منطوية، الانكسار باعث الانطواء. يشعر أنَّه مجرد أفكار وأوهام، أو وحدة ثقافية مخترقة، يتألم على حاجة الآخر إلى التعلق به، أو رغبة الأخرى في التجانس معه. حي تستغني الحياة عن خدماته الوجودية، عاطل عن الفعل، لا ليس ميتًا بل عاطلاً عن الحياة. يتم اختصار الحياة إلى ساعات عمل. العمل القناع الأخلاقي للولع بالمال. مَنْ لا يعمل لا حياة له، (دولة ترفع شعاراً: مَنْ لا يعمل لا شرف له). يحتقر العمل، يَعدّه المسوغ المتواضع عليه قانونيًا وأخلاقيًا لابتزاز الإنسان وانتهاك حُرْمة جسده. هذا الإنسان الذي حياته هي فرصته الوجودية الوحيدة، يتناهها العمل، العوز، الإحباط والحرمان، ثم يأتي دور المرض ليؤهل الجسد إلى الانقراض. حين يدهمه الليل، يقاومه بالنبيذ، الدخان والحلم بامرأة. نعم في الليل، تتحول غرفته إلى دهليز طويل موحش بالبرد والعتمة، يقطعه نومًا أو يقظة وصولاً إلى فجر آخر، يشهد بالضوء على عدم زواله. يحاول في كل فجر شتوي، أنْ ينقذ الضوء الواهن من صبح هالك بالعتمة.

يغبط ربان البحر بهاء على رفاهية لم ينل منها سوى الوحدة وإعانة البلدية. (الدولة مُحسنة والرعايا متسولون). نعم، يغبطه صديقه على زبدة فقدت طعمها مع المرور المر للأيام. بالزبدة وحدها لا يحيا اللاجئ، كما يتهكم، ينكمش كلامه وتنحسر لغته، يزاول كلمات في لغة باردة مخلوعة عليه، يفكر بالعربية ويتحدث بالدنماركية. لغته تتقلص يوميًا، تقتصر على مفردات معدودة تعامليّة الغرض. يشعر أنَّه كيان فكري بلا لغة تُعبِّر عنه. يتنصل بعض معارفه الدنماركيين تدريجيًا من العلاقة معه. لا أحدَ منهم يشاركه الأهمية والرغبة في التحدث عن أشياء حميمية أو يتخذ مواقف سياسية من القضايا الدولية المُحْتَدمة والحساسة في الحفلات الترفهية. (انشرح يا صديقي، يهمس أحدهم) (إنَّها حفلات ترفيهية وليست مؤتمرات تعقد لإصدار بيانات واتخاذ مواقف). يتنادى البعض إلى حفلة، يحمل المدعو منهم زجاجته وطعامه، يحدث اللقاء في مساءات أيام السبت أو الجمعة. ذات حفلة وقع جلوس بهاء بين اثنين أمضيا الوقت بالحديث عن

المطبخين الإيراني والتركي، اختلفا على أيّهما أجود وأطيب، لكن كلاً منهما احترم حق الآخر في اختلاف مذاقه. في حفلة أخرى بعيدة عن سابقتها، انغمر الحضور في نقاش فاترٍ عن جداول الضريبة، وحديث ساخن عن تقلبات المناخ. لكن التلذذ بالطعام واستطابة أصنافه عاد بهما إلى الحديث عن مطابخ العالم المختلفة وخصوصاً المطبخ الشرقي الذي أخذ نَجمه يتألق وشعبيته تزداد، فصار للشاورما ملوك وللفلافل شيوخ في شوارع كوبنهاجن. ينجح بهاء في فشله في تحويل الحفلة إلى جلسة لشجب الحروب واتخاذ مواقف منها. (ينجح بهاء في فشله، ويرتد إخفاقه عليه). يتكرر إخفاقه في حث المحتفلين على إدانة انتهاك حقوق الإنسان في زائير أو ناميبيا. يتنامى شعور لدى الآخرين، بأنَّه لم يعد مرغوباً فيه في حفلاتهم الترفيهية. يعزيه، يبقى المرء محذوراً منه ما دام آخر أو غريباً. يعثر بهاء عليه وحيداً ينوء بأسئلة وجوده. يشهد تَراجُعَ الرومانسية، تَقدم البرمجة، وبيع الوقت بثمن بخس أو غير بخس في المزاد اليومي لسوق العمل. كما يتم إحكام المؤامرة المرئية على القراءة، يحقق تداول الكتاب تراجعاً باهراً. كما يُمكِّن الناخبُ الحزبِ السياسي من سوء استخدام صوته في الحملات الانتخابية وحملات التراجع عن الوعود الانتخابية. يحقق الإنسان المعاصر أكبر قدر من التهميش، ويتواطأ على اختزال وجوده إلى آلة حية في المصنع أو آلة مستهلكة في السوق. يلوذ بهاء في غرفته مطروداً من شارع، مقهى وسوق عمل. (لا عمل له سوى صيانة الذكريات وترميم المتداعي منها). غرفته تصغر على أشيائه الصغيرة هي أيضاً. غير مكترثة بأثاثها بما فيها بهاء ذاته، يتبادل هو والغرفة فراغهما، لكنها لا تكف عن طرح الأسئلة عن خوائهما، ليس من الآخرين وإنَّما منهما معاً. لم تشهد غرفته حدثًا أو ذكرى. مُلقًى وحيداً ومُسْتَوحداً غير مشعور به، غير مفتقد إلاّ من قبل دائرة الضريبة، المؤجر، شركة التلفون، إدارة البلدية التي تذكره بين عامين و أربعة في حقه الانتخابي. يجيب على رسالة أحد معارفه بقوله: لا أقيم في العالم الآن، إنَّما في الدنمارك، لا أقيم في الدنمارك، بل في كوبنهاجن، لا أقيم في كوبنهاجن، بل في غرفتي. يفرّ من غرفته المنطوية إلى الكتابة. يُدَوّن يومياته الخاصة وملاحظاته العامة عن العسف الجمالي الذي

يتعرض إليه كلا الجنسين. يجمع آماله كلها ويعلقها على الكتابة مَخْرَجه الضيق من أزمة وجوده الحرجة.

أنا

سليل غرفة

تنهي سلالتها

بي

- الغرفة ثوبي الحجري. يضع ريان البحر ثقته بالزبدة لتحقيق الرفاهية. أيُدركُ كيف يكون المرء حين تحوله الرفاهية إلى مجرد قالب زبدة متروكة على طاولة مهجوره من ناسها ومن متذوقيها. يعتذران إليهما؛ ريان البحر عن شروده، وبهاء عن انخراطه بالكتابة. يطوي بهاء دفتره ويضعه في جيبه، فيما يتنهد ريان البحر.

- آثار الزبدة بادية عليكَ، تعرف، الدنمارك يمكن أنْ تقود العالم بمذاق زبدتها وفتنة نسائها، الزبدة والنساء أمضى سلاح.

- النساء؟

- نعم، النساء، تصفحت مجلة، توقفت عند صورة حسناء دانماركية، جمالها قادر على إسقاط أيّة حكومة في دول العالم الثالث بغض النظر عن عدد النجوم على أكتاف حكامها العسكريين. إذا أردت أنْ تقوى على قوم اعرف نساءهم. النساء لغة العالم الجميلة. لو أنَّ هتلر احتل الدنمارك بنفسه، وذاق عسيلة أحدى نسائها الحسناوات، لتخلّى عن برنامجه العسكري لاحتلال العالم، وقضى حياته إلى جانب تلك الحسناء، في غرفة النوم يواقعها وفي المطبخ يغسل صحونها.

- ربما لم تقع بيد هتلر المجلة ذاتها التي وقعت بين يديكَ، ربما لم يكن الجمال معروفًا على أيامه، وهذه الحسناء لم تولد آنذاك. وهتلر وقتها لم يكن رجلاً بل عسكريًا. ومن الجائز أيضًا أنِّي لست رجلاً بعد.

- وراء كل رجل عظيم امرأة جميلة وقالب زبدة.

- وراء كل عنف وعدوان عقدة جمالية، حب مصدوم وجنس مكبوت.

تنجح الكولا في التغلب على طعم قهوة الصباح ومرارة ذكريات الرفاهية في بلاد الزبدة، يشعر بطمأنينة على العالم، بسبب تخلف الدنماركيين عن إدراكهم لأهمية جمال نسائهم و مذاق زبدتهم واستخدامها في احتلال العالم والتحكم بمصائر بشره. لكنه يعود إلى نظريته بعد أنْ فشل الرجال في قيادة العالم، وخلَّفوا آثارًا تُمَجِّد حروبهم، وشواهد تُبَجِّل عنفهم، وتركوا الأراضي الكونية خصبة لنمو الكراهية وترعرع سوء الفهم. يرشح المرأة إلى إدارة العالم على شرط أنْ تبقى امرأة تلقائية فخورة بأنوثتها، وليست رجلاً في هيئة امرأة. أمله هذا لا يحدّ من تشاؤمه حيال المرأة التي في طريقها إلى التنكر لأنوثتها. يعتقد بهاء أنَّ منْ تتنكر لأنوثتها تخفق بالحب. الإخفاق بالحب يؤدي إلى أزمة. من غرفته النائية عن العالم، يدعو بهاء إلى تشكيل قوة انتشار كَوْنِيّة لحفظ الجمال ورعاية الحب، وإنهاء الكراهية والعنف. ملاحظاته تندرج في سياق السعي لإعادة الاعتبار إلى الحواس وإنهاء وصاية العقل عليها. يُحمِّل العقل مسؤولية التطرف، التطرف خاصية عقلية بشرية. العقل دعوة إلى تنحي الإنسان عن فطرته الحيوانية. يصرخ بهاء، لا لستُ إنسانًا، لا لستُ حيوانًا، أنا بما أحس فأحب، يعدّ بهاء العقل إساءة واعية للذات وتنكر ظالم لفطرية الحيوان الذي انشق الإنسان عنه بتطوره الواعي المزعوم. يدحض بهاء ادعاء الإنسان بأنَّه أفضل الكائنات، يطعن بشرعية حق الإنسان في السيادة على الكائنات والكون. يقتنع أنَّ الإنسان مبكر على كونه وإنسانيته. الإنسانية مشروع واعٍ طارئ على الحيوانية الكونية. يعتقد أنَّ العقل فخٌ نصبته الطبيعة لتصفية الإنسان.

- العقل خدعة الطبيعة.

يباغت ربانُ البحر بهاءَ بنهوضه. يترك إليه أسفًا على الذهاب المفاجئ، وعفوًا عن زلزلة أدّت إلى تبديد الكولا وما سال منها على بنطلون بهاء الذي كان ساهمًا بأفكاره. تتجه موظفة الاستقبال برجلين؛ أحدهما يَنْسبه لباسه إلى المغرب، وآخر لا يفصح قفاه إلاّ عن جاكيت وبنطلون رصاصي اللون وشعر أبيض يلتهم الصلع جزءًا منه، تضمهما إلى رجل غربي يأخذ من أبعد زاوية في بهو الاستقبال مكانًا لانتظاره. يتبعهم ربان البحر

مسرعًا. يستل بهاء من العلبة مناديلاً ورقية ويشرع بتجفيف الطاولة وترتيب محتوياتها. ثم يأخذ حزمة أخرى، يضعها بين ساقيه، ثم يبدأ بتجفيف ما سال على حضنه. تديم عيناه النظر إلى امرأة، تمنح وجهها إلى النوافذ العالية، وتترك خلفها ظهرها يستنجد بالضوء، ليروي عبر الجلابة الأقرب إلى الشفافة قصة لباس أصفر يحتضن حوضًا مكتنزًا لا يكف عن التحرش بالرغبة.

تنتبه موظفة الاستقبال إلى بهاء، فعله يخيّب ظنّها فيه، في مكان عام يداعب ما بين ساقيه أولاً وثانيًا على امرأة لا تكون هي. تسخط عليه. تسبّه بنظرة حادة وتوبّخه بعض شفة. يستغرب بهاء تصرفها، ينتبه إليه، يضحك عليه، يشاركها سوء الظّن، من بعيد تبدو حركة تجفيف حضنه كمداعبة لما بين ساقيه.

تتحامل موظفة الاستقبال بصريًّا عليه وتحذف أيّة ابتسامة من فمها له نصيب فيها. بعد ربع ساعة. يأتي ربان البحر متبوعًا بكأسيّ ويسكي بقطع الثلج، شرائح من البطاطا المقلية وخيبة بادية. لا هو يجيب ولا بهاء يسأل عن طبيعة علاقته بهؤلاء الرجال الأممين، المُنشق كل واحد منهم عن أمته بتطلعه إلى سواها.

تنتهي إلى الفشل جهود بهاء البصرية إلى تحسين صورته عند موظفة الاستقبال، يعاتب عينيّها على سوء الظنّ فيه وإساءة النظر إليه. لكنها تبقي على تواصل بصري محسوب مع ربان البحر.

يستغرب بهاء ترقب ربان البحر إلى موظفة الاستقبال، تَرَقُّب منحرف لا يستقيم بالسقوط في متاهات الإعجاب بجسدها. لا يُبدي مبادرة إعجاب قد تؤدي إلى التفاوض حول الرغبة. لا ينوي التعرف على المرأة التي تكونها بالقياس إلى الرغبة فيها. كما يلاحظ تضاؤل فضوله الذكوري. يظهر على خلاف الكثير من الرجال الذين ظهروا على بهاء في سفراته. كانت رغبتهم تحدد غرضهم، غرضهم هو أنْ يقوم بهاء بفضح نساء الدنمارك. تتكون الثقافة الدنماركية، كما يجزمون، من انطباعات إباحية، وأفعال جنسية، ذكورة مطلوبة وأنوثة متاحة. (تعرية النساء تعري الرغبات) يريدون بهاء إباحيًّا في تعاطيه

الجنسي مع المرأة الدنماركية، في بار، مقهى، صالة أو عربة قطار. يتحلقون حوله، يجدّون بإصغائهم إليه. ينتظرون أنْ يسقط بهاء الثوب عن المرأة الدنماركية، يطرحها على سرير الخيال، منفرجة الساقين، ثم يدعو جمهور المستمعين إلى الاصطفاف في طابور مع مراعاة الهدوء والنظام في انتظار دورهم إلى الدخول فيها. حين يخالف رغباتهم الإباحية ويتجه بالحديث نحو دور الدنماركيات الاجتماعي وتطلعاتهن الحياتية ومعاناتهن الوجودية، (الرجل معاناة المرأة). يتصدون إليه، وينظرونه كغير مرغوب فيه. يُتهم بالخيانة القومية والتخابر مع العدو الغربي الإستعماري. في حالات أفضل، يتم الطعن برجولته، ونعته بالميل إلى الذكور. يوآخذ على دفاعه المحترم عن نساء ساقطات بإرادتهن. (التحلل صفة الحضارة الغربية). يتدافعون على استعراض ثقافتهم من القراءة إلى التجربة، من النظرية إلى التطبيق، لعلهم يساهمون في إنارة بهاء من عتمة جهل بنساء يعيش بينهن: (الدنمارك رفاهية، جنس ومال، عشب الحدائق العامة سرير جنسي أخضر، تمارس النساء عليه الجنس جهاراً، الشواطئ تحولها النسوة الشبقيات إلى مسارح رملية ومائية مفتوحة للعروض الجنسية العلنية. تحب الدنماركيات الجنس على الطبيعة. عري وعراء. نسبة النساء أعلى من نسبة الرجال في الدنمارك. الرجال لا يغطون حاجة النساء إلى الجنس، تعاني الدانماراكيات من الشحة في الجنس. رغبة وفيرة وجنس شحيح. في الليل تنتشر عصابات نسائية، تقوم بخطف الرجال، تقودهم تحت تهديد السلاح إلى أقبية حمراء سرّية، هناك يجردن الرجال من أثوابهم ويتجردن هن من ثيابهن أيضاً، على دخان الحشيش، يشرعن باغتصابهم. في الصبح يقمن برمي الرجال المغمى عليهم على الأرصفة إلى جانب حاويات القمامة. لا ليل بلا جنس. يحاسب الأهل بناتهم على إضاعة ليلة بلا جنس. هنيئاً لك على المال، الخطف والاغتصاب). يتدخل رجل آخر يتمنى أنْ يتحالف حظه مع ظرفه فيسقط ضحية إغتصاب امرأة له، لن يقاومها ولن يقيم دعوى قضائية ضدها. يغمز بالكلام إلى بهاء. (الجوز للذي لا أسنان له، يا حسرتي).

يعود بهاء إلى ربان البحر يعتقد أنَّ شيئًا ما يخطفه منه، لا يفكر بالزبدة التي تنال مذاقه الآن ولا النساء اللواتي يستحوذن على رغبته فيهن. لا يتسم حديثه عن الدنمارك بشهوة

إلى نسائها أو شهية إلى زبدتها. يتحدث عن النساء كما يتحدث عن مجلات جميلة طريفة المواضيع وجذابة الصور.

- هل تعرف منْ أنا؟

- ربان البحر أنتَ.

- ومنْ أكون أنا؟

- لا أعرف، لكنّي أوّد التعرف إليك، أنتَ رجل لطيف.

- وأنت أيضًا، سأحدثك عني، أشعر بنمو الثقة بك.

- يشرفني ذلك.

- في المساء سنقيم طقس تلاوة الذكريات معًا.

- هذا ما أتمناه.

- هل تشعر بالجوع؟

- نعم.

يُكمل النادل على مرات وجبة الغداء المحجوزة مسبقًا. يفاجيء ربان البحرُ بهاءَ بسرور طلبه المسبق لوجبة من الدجاج المشوي مع شرائح بطاطا مقلية وسلطات. وقنينة نبيذ أحمر. يستهل بهاء الأكل بتمني شهية طيبة، فيما يذهب ربان البحر إلى استعراض الفروق بين الدجاجة المغربية والعراقية. {الدجاجة المغربية نحيفة، كأنها تفعل رجيمًا، كأنّي أسمعها تهمس في أذني، عفاك، عفاك، لا تأكلني. أما الدجاجة العراقية تتقدم منكَ نائمة بثقة على الصحن، ضامة ذراعيها، رافعة صدرها وفاتحة فخذيها، صارخة فيكَ، ماذا تنتظر كلني كلي، كل لحمي ومصمص عظمي. الدجاجة العراقية ناصحة ومربربة}. يمثل ضم الدجاجة لذراعيها ورفع صدرها ويقلد صوتها.

محاكاة ربان البحر للدجاجة المستلقية، تفتح ضحكًا كان مطويًّا، يريدان أنْ يضحكا. ينصح بهاء ويصحح: {إنّ الإنسان حيوان ضاحك وليس ناطقًا، كما شاع مفهوم مغلوط عنه. النطق ملكة مؤسفة، فضلاً عن كونها خطرة وخادعة. الضحك ميزة بشرية. النطق

مصدر بلاء وريبة. الإنسان الناطق هو الأكثر عرضة إلى المساءلة والتعنيف. الكلام أول هزيمة وجودية. بالضحك وحده يقوى الإنسان على حزن يتقوى به عليه. وراء كل ضحكة بريئة حزن مُدان. اسخر من حزنك بالضحك عليه. متْ ضاحكًا ولا تمت خائفًا أو حزينًا. تخلَّ عن حياة تتخلى عنك إلى موت لا يتخلى عنك).

يشكر ربان البحر بهاء على نصائحه الكريمة. ويتقدم بنكتة على أية مفاجأة فكرية جادة من طرف بهاء، قد تفسد نزوعهم إلى اللهو والمعابثة: (إنَّ رجلاً أراد التزوج من طبيبة، قبل أنْ يدخل فيها، قالت له: عقّم فتراجع عنها. فقرر الزواج من محامية، قبل أنْ يدخل فيها، قالت له: رُفعت الجلسة؛ فتراجع عنها. فنصحه صديق له بالزواج من طالبة، لما دخل فيها، قالت بالراحة عليّ، فهّمني ، أنا طالبة والدرس هذا جديد، ثم انبطحت تحته قائلة، أعدْ الدرس، ادخل ثانية فيّ، لم أفهمه بعد، فهّمني، فهّمني). يضحك بهاء ويضحك معهما بعض ممن هم على مسمع منهما. فيما تَلَقّى بعض آخر ضحكهم بإمتعاض. لا ليس هذا آوان الضحك، عصر الضحك لم يحن بعد، لكن، متى كان للضحك وقتًا وللحب عصرًا. لا وقت للعابسين لإضاعته بالانشراح والمباسطة. هناك ما هو أهم من الضحك الآن، ألا وهو تنكيد الكائن وتكدير الكون. وتعكير صفو المزاج باستدعاء حزن، الحزن لا يتأخر عن دعوة ولا البشرية تكف عن صناعة الحزن وتصديره. ها هما يتفوقان على أصلهما البشري، فيستدعيان أسبابًا تكون نتائجها ضاحكة. يُبدي آخرون احتجاجًا بصريًا عليهما، كونهما قررا ضحكهم على غيرهم. نعم ربما يكون حزن هؤلاء جليلاً لا يضحى به إكرامًا لضحكة. تسنح لموظفة الاستقبال فرصة جديدة لتصعيد حملتها البصرية المناوئة لبهاء. فيما تُبقي حال بصرها مع ربان البحر على ما هو عليه.

- لماذا حصلت الطالبة على الدرس ذاته مرتين؟
- طلبًا للمتعة.
- لا، طلبًا للعلم، العلم فريضة على كل طالبة.
- طبعًا. المتعة فريضة على كل كائن وكائنة.
- بصحتك.

إنَّ الحدث العظيم يتطلب ضحكًا أعظم. ليس حدثًا بل سابقة أنْ يلتقي عراقيان على الضحك ويتفقان على الفرح، وليس على جلد ذات أو جلد آخر. بينهما الآن لا غائب مذموماً ولا مؤامرة تحاك. ينقذان قيمة توشك على الانقراض؛ هي الضيافة، الغرباء ضيوف على بعضهم. يدحران الظنّ بالآخر ويقبلان عليهما ببهجة وترحيب، لم يعد أحد منهما غريبًا على أحد. ها هما يتبادلان الطمأنينة ويصعدان بهما إلى أعالي الثقة. يضحك بهاء ويُضحِك من حوله، ينشر الثقة ويعمم الطمأنينة.

نسمات باردة تداعب شعر ربان البحر. حزمة ضوء تستقر على وجه بهاء. تحلق العصافير عاليًا، تخلف وراءها سقسقة خفيضة يصاب ربان البحر بالخيبة، تباغته القنينة بخوائها. لا يأسف بهاء على قنينة خاوية. يلح ربان البحر بعرضه تناول المزيد من النبيذ. (النبيذ منقعة الضحك). يعتذر بهاء عن استئناف الشرب، يريد التوقف بالسكر عند هذا الحدّ. نشوة الخمر تشي به، فيما تفضحه رائحته. يخشى أنْ يعيبه أحد على سكر. يُوآخِذ العابرون الثَمل على ترنحه وثقل لسانه، يخافونه فيُشهَرون به. هناك شريب خمرٍ يعيب سواه على الشرب جهاراً. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ بهاء يريد أنْ يوفر بعضاً من طاقاته للشرب المسائي، النهار لا يزال في منتصفه. هناك تفاصيل نهار ومفاجآت ليل، تحتاج إلى استعداد، صحو وراحة.

يصف ربان البحر إلى بهاء مسكنه وموقعه. يتمنى عليه، أنْ يأتيه خالي اليدين من الأشياء، كل شيء متوفر. ما يهمه هو حضوره على الموعد ومشاركته طقس تلاوة الذكريات. تمر أعوام على ذكرياته وهي حبيسة ذاكرته، لم يعثر على مَنْ هو جدير كي يطلقها إليه. ذكرياته ثروته. غنى المرء من تعدد ذكرياته. (ذكرياتي أسراري، بوحها لامرأة شيء لذيذ ولرجل شيء قد يدعو إلى الأسف). يؤكد على أنَّ ذكرياته لم يُعر ذكرى واحدة منها لأي رجل. لكن أغلى ذكرى وأقربها إليه تلك التي لم تحدث.

يأخذ ربان البحر رشفة من كأس النبيذ. يتنهد، يسحب نفساً عميقًا من سيجارته. ينظر إلى الأعالي. (عشتُ فترة من مراهقتي على تأجير ذكرياتي، لكن أغلب الذكريات التي

يطلبها المستأجرون هي التي لم تحدث). يضحك واعداً بهاء بالتوضيح والتوسع بهذا الموضوع في جلستهما المسائية. سيدعوه إلى التطواف في ذاكرته، هناك يسمح له باقتناء أجملها على نظره وأعزها على نفسه. ذكرياته ستكون هبة لبهاء وليست استعارة. يعبر بهاء عن امتنانه، سيحسب ذكرياته هدية نفسية لا ثمن يساويها إلاّ الثقة والمحبة.

تنكمش ملامح ريان المنشرحة إثر ظهور مفاجئ وخاطف لرجل عبر باب الفندق الزجاجي الكبير. يسرع إلى النهوض ويحث الخطى، يترك يد بهاء عالقة وشاغرة من المصافحة. تتساقط كلمات من فمه، ينظمها بهاء تباعاً في جمل متفاوتة النبرة، تفيد في مجملها على سعادته به، وضرورة حضوره على موعدهما المتفق عليه هذا المساء. ثم يتوارى متعقباً رجلاً متوارٍ هو أيضاً. يعيد بهاء يده إلى جيبه. آسفاً على مصافحة فاشلة.

اختفاء ريان البحر الفجائي يخلف فراغاً، سرعان ما تشحنه الهواجس والمخاوف. يعبث الخوف والشعور بالملاحقة بهدأته به وسكونه إلى حديث ريان البحر المغادر. تلوح نذر بيولوجية إلى سقوط متوقع في الكآبة. تشنج في عضلات صدره وضيق في تنفسه. شعوره بخدر في ساقه ويده اليسرتين. ينهض متخفياً فيه، حاملاً إياه بعيداً عن السمع والنظر. يحجبه حجاب وهمي، لكنه ليس خادعاً. يترك البهو مغادراً الفندق يحمله جسد ثقيل على قدمين مرتبكتي الخُطى. ستار شعوري غامض يسدل على ما هو حوله. تتوقف القدرة على الإهتمام بالرد والتجاوب بصرياً أو كلامياً. يهمل موظفة الاستقبال ويتجاهل سواها من بشر الأرض. علاقته مع الأشياء الجامدة والحية تتداعى فجأة. يلومه على عدم تناوله كأساً من الخمر، كي يُهَدّئ من روع هذه الأفكار الجامحة التي توشك على الإطاحة به. يقطع طرقاً، يتعذر على آخر أو أخرى أنْ تقطع على هذه الأفكار انفرادها به. يبحث عن صفائه بين كل هذه الركام من الخواطر والهواجس التي تلمّ به. تشدّه إلى الوراء. ما وراؤه يغدو أمامه. ما فيه يثني عزم خطاه عن السير به نحو سلام كينوني مفتقد. يريد الانضمام بسلام إليه. سلامه المنشود لا يعرفه البشر. السلام ليس طبعاً بشرياً. الأرض التي برز عليها سينضم إلى أعماقها بعد هذا الغياب الإجباري الذي يُدعى ظلماً الحياة. أرض بظاهرها وباطنها لا تحميه من خطر الانقراض ألماً.

تزحف العتمة الأبدية عليه، نعم ستأتي عليه وما يتبقى منه ليس سوى رميم سيتحول إلى سماد، لا يفرق في أنْ يغذي جذر زهرة أو شوكة. (عش حياتكَ بلا ندم ومت بلا أسف عليها) (البشر ولدوا جلادين وضحايا وما بينهم ليس سوى الحقد والانتقام). تموت الضحايا بؤساً ويحيا الجلادون على بأسهم. الحياة ليست هبة طبيعية، بل غنيمة بشرية. بهاء هذا العراقي البائس ينقب بين الأنقاض البشرية عن أذن خربة، لعلها تُؤوي صوته السائب. يخلد إلى صمته. الصمت قيلولة الكلام. يتراكم عليه ليهجع فيه. معزول يكتب عن عزلة. تتحجر حجرته عليه. تحجره عن الاختلاط بغيره، تتداخل ذكرياته وتضطرب مشاعره. جسد يحمل روحاً مغمًى عليها، يبحث عن يقظة من أجلها.

يدخل الفندق مسرعًا، يخطف المفتاح من يدٍ -على ما يذكر- كانت ناعمة، ملمسها ليس غريبًا على كفه. ترتقي قدماه سُلماً وتنعطف بخطاه نحو ممر. يقف حيال باب يبتلعه إلى جوف غرفة ثم تتقيّؤه على السرير. الكون نفق طويل، تتطفل على نضج وورع عتمته الأبدية أضواء الكائنات الصبيانة المتهورة. (من العتمة جئنا وإليها سنؤول. لا تمت قبل الأوان ولا بعده. نولد لنموت لا لنحيا). الآن يتمنى أن يطفئ الكون أنواره ويخلد إلى العتمة، مؤقتة أم أبدية. يتوسد ذراعيه، يصد تداعي صدره بركبتيه المضمومتين. تشيع العتمة جسده إلى النوم على إيقاع أنين ضحايا وتردد استغاثات.

- توقف لستُ امرأة أنا.

تساقط قطرات من شعر أسود طويل مصحوبة برائحة جسد رطب. ظهور أنثوي عاطر ومبلول يُنهي كابوساً، يروّع نَوْمَةَ هادئة. رطوبة مرغوبة تعقب تساقط قطرات ماء على وجه بهاء. رائحة أخّاذة، تسعى إلى تنشيطه من كسل يلمّ بها. وجه دائري ينحاز إلى السُمرة، يشرق على عتمة مسائه بابتسامة. امرأة تنبثق عليه. تضمها إليه. يحيطها بذراعيه، تنسدل الأجفان على العيون، تعلق الشفاه الابتسامة، استعداداً لحدوث قبلة ستنطبع على وجهيهما. لمسات تغطي وجهه، وأخرى يقبض عليها بكفه. تنشأ قُبلة عميقة بعمق الشهوة إليها. تتراقص الشفاه المتلاحمة على إيقاع أنفاس لاهثة. تحاول سعيدة المُنغمرة فيه، أنْ تُهَرِّب إلى داخله هُدوءًا كَوْنِيًّا، يخرج الخارج بعبثه عليه. الأعماق

الجُوانية مهددة هي أيضًا باجتياح الخارج وتحويل آمانها إلى خوف من مجهول وقلق على معلوم.

- تستكثر عليَّ: كيفكِ؟
- كيفك، سعيدة.
- كيفكَ أنتَ؟
- عفواً. نالتني كآبة.
- فلَمْ أنَل منكَ تحية أو ابتسامة.

يسخر المساء بعتمته من شموع جادة بالضوء. على الكرسي قميص وسروال، يتفاوت اللون البنفسجي عليهما. موسيقى هادئة مصدرها راديو. على الطاولة تفاحة مقضومة. على المخدة المدعوكة خصلات شعر. على السرير تجلس سعيدة مكشوفة الساقين، تَنحنِي على قدمها اليسرى، تُطلي أظافرها باللون البنفسجي، لون بهاء المفضل، تذوب رائحة بللها بعطر باريسي أهداه بهاء إليها، يريدها به، هي بالذات وليست غيرها. لكل سيدة عطرها. توشك خصلات شعرها على الجفاف.

لا يزال صوت تساقط ماء الدوش في الحمام. يستغرق استحمام بهاء وقتًا أطول مما هو مأمول. يصاب فنجان القهوة بالبرودة ويندفع الماء إلى الحرارة. تحاول سعيدة جاهدة المواظبة على إعداد قهوة بهاء المسائية، رغم الصعوبة والمخاطرة. تنهض، تتجه إليه، تستقبل بالمنشفة بهاء العائد من الحمام إليها. تشرع بتجفيف جسده. (قهوة المتأخرين دائماً باردة وماؤهم فاتر).

يتناول قهوته الباردة وماءه الفاتر. تكوي بنطلونه. تنوبه بفرحه بلقاء شخص عراقي، تتمنى لهما طول الصداقة وعمقها. (لا صديق لي بين العراقيين). تأمره بقضاء كل الوقت معه. (صداقة الرجل للرجل ضرورية، مِنْ صَديقك أعرفك). (الوقت مع الرجال مفيد بالخبرة، لكنه يضيع مع النساء بالثرثرة). (ثرثرة النساء، حكمة جنسية، يرد بهاء عليها، لكن في سرِّه). تنهاه عن تعدد العلاقات النسائية: (العلاقة بالنساء تعرض الجسد إلى

الهُزَال والسمعة إلى السوء. لا تقترب منهن، فالعاهرات مرض جسد وتبذير مال وسوء سمعة). تقف حياله، ترفع أذيال فستانها القطني، تدور حولها راقصة: (أنا نساؤك ما دمت ضيفًا على بلادي، بلادي جسدي).

تقترح عليه أنْ يحمل باقة ورد إلى صديقه. تُذكِّره بضرورة التقليل من الشرب والتدخين، توصيه بأنْ يهتم بصحته (صحته مسؤوليتهما) تريد أنْ تعيش حتى تراه عجوزًا أشيب الرأس، حاني الظهر ماشيًا على عكازين أو متنقلاً على كرسي. يرميها بالوسادة، لكن رمي الوسادة لا ينتج عنه تناثر قطن أو تطاير ريش، مما يخالف ذلك الصورة التي طبعتها الأفلام السينمائية في ذاكرتيهما. يتأسف كلاهما على سقوط وسادة بلا تمزق قماش ولا تناثر قطن أو ريش عليهما، هما المَرِحان بوجودهما معًا. تعهد سعيدة إلى أنثوتها مهمة العناية المثيرة بذكورته. بالرقص تلطف مزاجه. وبالقُبلة تُصلِح الفم الخَرِب بالكلام. تقف أمامه، تعدِّل هندامه. عينها مرآته. يراه جميلاً في عينها. تتأكد من تناسق ألوان أثوابه. تهيِّئُه إلى الظهور رجلاً أنيقًا. تقبِّله، تترك دمعاتها الساخنة تبرد على خده. (ضع نهاية لهذه الدمعات المتمردة على العين بمنديلك أو بباطن كفك أو دع الهواء يتولى حسم وجودها. الدَمْعَة التي تغادر، لا تعود ثانية. العين وطن الدَمْعَة).

- تأخرتُ كثيرًا.
- شكرًا على الوقت الجميل.
- لا شكر على واجب.
- سترانا لاحقًا.

الفصل الثاني :

الفرح الحزين

عندما يظهر بهاء قاصداً مكاناً لا يعرف موقعه، يميل إلى سؤال الجميلات من النساء عن الطريق إليه. يريد معرفة إلى أين تقوده خطاه من النساء فقط. على الرصيف يعترض سير امرأة بلطف باد، يعتذر إليها سلفاً عن تطفله على وجهتها بسؤال. (عفواً، أين يقع شارع....؟ أو لطفاً، أين يقع مبنى....؟). ترحب بسؤاله، تنفي برقة تطفله عليها، على العكس، ترى، مادامت الحاجة مشروعة فالمساعدة واجبة. تعبر بسعادة واضحة عن استعدادها إلى القيام بفعل مساعدة الآخرين، خصوصاً الأغراب منهم. تقف أمامه تدس أصابعها في خصلات شعرها، أو تحك بأناملها الناعمة جبينها. تجمع تفكيرها، تحاول تذكُّر موقع المكان وأيُّ الطرق أقصرها إليه. حينما لا تكتفي بوصف موقع المكان والإشارة إلى الطريق إليه، وتُصرّ على توصيله بنفسها إلى غايته. عندها يتبدل موقفه ورغبته تتغيّر، فتتحول هي إلى غاية وليس المكان أو الطريق إليه. يرجوها أنْ تختار مِن الطرق أطولها ومِن الخُطَى أبطأها، من أجل أنْ يتوفر الوقت ويتسع المدى، كي ينهل مِن حديثها العذب وينقّي بمرأى جمالها ما يَعْلَق برؤيته من قبح، يعبر لها وهو منحني الرأس، لكن عينه تبقى عليها. (الوقت لنا ما دمنا نحن لنا، لا حي يظفر بالوقت، الوقت من نصيب الأموات). على وقع قدميها تخطو قدماه. يلقِي نظرة تلو أخرى على قوامها الناهد الصدر والمكتنز الساقين، حلوة كلُّ مَنْ تحلو له. (إطلالتكِ تحمل الشمس على الشروق، تدفع العالم إلى التمسك بالجمال وتدعو إلى النفس السكنية، أنتِ تذكين العطر في الوردة، يا وردة أهداها الكون إلى الكائنات بصيغة امرأة). تتعالى

أنفاسها لاهثة، خجلان، تجفف بمنديلها عرقها الناضح. جمال كلامه فيها يجعل الكلام يتعثر على شفتيها. يفتعل صمتاً ويبالغ في رقة، ينتظر ردها على إعجابه بها بإعجاب أفضل منه، لكنها ترد باقتضاب عليه: (أنتَ رجل رائع، آه، لا، أوي، أوف، أخجلتني)، فقط لا غير. يخيب اقتضابها إسهابه. يزوّر سروره بقولها. قبل أن يقدم شكره على المساعدة وتمنياته لها بأطيب الأوقات، يدعوها إلى تناول فنجان قهوة معاً، إن لم يكن الآن ففي وقت آخر يتفقان عليه.

لكن ظهوره هذه المرة، وفي هذا المساء بالذات، يحاول أن يأخذ الطريق متوحداً به. يتجنب أي احتكاك قد يؤدي إلى حديث. يوثر الصمت على الكلام، يسير خافضاً بصره. يحاول جمع مما هو متاح قدراً مقبولاً من الهدوء. يترك وجهه المتجهم يعالج ابتسامة معروضة أو نظرة مقترحة. يحتاج إلى وقت يتوحد به، لعله يعالج الاضطراب الذي يعتريه الآن، لا يعرف مصدره. قلق متوحش ينبش خوفاً دفيناً. تعينه ذاكرته عليه، تداعبه بالتفاصيل الناشئة عن لقاء سعيدة. ها هي سعيدة، تقف في أعماقه الخفيضة، تتعرى إليه من خصلة شعرها حتى أظفر قدمها، تشاكسه لعلها تنتزعه من كآبة تحيق به.

يخفق في الوصول إلى مسكن ربان البحر. لم يهتدِ إليه. رأسه وعاء متصدع لأفكار مشتتة وتركيز متعذر. تلتوي الأزقة الضيقة به، محال مغلقة، أبواب تعلق تواصلها مع ناقر. نوافذ تُسَرِّب نشوة بشر ظافرين بوجبة عشاء. هدوء يقاوم صخباً. تنعطف الأزقة به وتلتف عليه، ثم تلقيه خائباً على ناصية الشارع الرئيسي. يقف، يضطر إلى شحذ جواب على سؤاله المتسول. أين ذهب منزل ربان البحر؟، لِمَ لَمْ يعد قائماً هنا، كما أعتقد.

يتأخر الوقت. يُنذر المساء بالعَتمة ويصعد من الوحشة. يحظر الليل ظهور النساء الشابات والجميلات، مما يدفع الغرف إلى التحفظ عليهن حتى طلوع الشمس. تظهر من حين إلى آخر نساء متروكات من ربيع ومفرغات من جمال. يشهد الليل على انتشار فئة أخرى من الرجال، رجال سُمر السحنة، هزيلو البنية. يتوقفون فُرادى على ناصية

شارع أو في طرف ساحة. لا يحملون أسماءهم. يتكتمون على ملامحهم. يأخذون العتمة قناعاً. لا يدعون وجوههم سافرة على تعرّف، أو مطروحة على تدقيق. كأنّهم فارّون من القبض عليهم. فئة رجالية ليلية سرّية، تتشح بالعَتمة والسر، حَذرة أكثر مما هي خائفة. تعرض على العابرين بضاعتها؛ الليلة الممنوعة من جنس وحشيش. تزيّن عليهم نساءً تُدفئ فراشهم، أو ترغب في حشيش يطيّب أمزجتهم. يتهرب بهاء من ملاحقتهم له بعروضهم غير المطلوبة منه. (فراشي دافئ بلا امرأة ومزاجي رائق دون حشيش). يشتمون بهاء بالفرنسية والدَارجَة، يردُّون بذلك على رفضه لأي عرض من عروضهم. يتصدى بهاء إلى شتائمهم بالصمت والإهمال. يأخذ طريقه مثقلاً. تدهور مزاجه ينذر بكآبة وشيكة.

يخفق في الوصول إلى منزل ربان البحر، كأنَّ هناك مَنْ طوى الشارع على منزله وهرب به. الضوء الواهي لا يهتك ستر العتمة. في الليل تنحو الأشياء إلى التشابه والتوحُّد. تجرف العتمة فوارقَ شيَّدها الضوء، لا فرق بين الطُرق والأبنية. لا فَرق بين بشرة سمراء وأخرى شقراء إلاّ بالضوء. الضوء أبو الفَوارِق والعتمة أم الأسئلة.

يتوقف، يتلفت، يضطر آسفًا إلى أنْ يسأل رجلاً وليس امرأة. منذ وجوده في مدينة الصويرة، هذه هي المرة الأولى التي يسأل بهاء فيها رجلاً ذكراً وليس امرأة أنثى عن عنوان. يتقدم على مضض من رجل، يقف عند ناصية زنقة. تحجب العتمة نصفًا منه، فيما يُعَرِّف الضوء بأوصافه، أسمر السحنة، متوسط القامة، حاني الظهر. ملامحه السمراء الطاعنة تتشرّب بابتسامة عتيقة. يدندن بصوت خفيض وينفث دخان سيجارته عاليًا.

- هل تعرف أين تقع زنقة الصيادين؟

- تقريباً، أعرف أينها؟

- ماذا تعني بـ(تقريبًا)؟

- تقريباً بالدَارِجة تعني أكيد بالفصحى.

- هل تعرف الفصحى؟
- تقريباً.

يرمي سيجارته القديمة ويطلب أخرى جديدة من بهاء. يقدم سيجارة له. (لماذا لا تدخن، ألا تحب التدخين؟)، يقول الرجل. (لا أرغب في التدخين الآن ما أرغب فيه هو الوصول إلى المكان، سريعاً)، يدندن الرجل. (تعرف أسوأ ما في الكون، هما الزمن والإنسان، الزمن سريع والإنسان متسرع، هيا يا سريع).

يقطع وبهاء زقاقاً، يتوقف، يتفحص منازل الزقاق، يبحث بينها عن المنزل المطلوب. ثم ينطلق إلى زقاق آخر. يُصر على معرفته بالمدينة أزقة وأبنية، بشراً و شرطة. دون مقدمة، يقفز إلى الجهة المقابلة، يُوقف عابراً، يحادثه بالدارجة مرة ومرة بالفرنسية. يلتفت إلى بهاء: (أعرف المكان تقريباً) يتمنى على بهاء أنْ يلاحظ فمه ولا يدعه خاوياً من سيجارة. يعرض على بهاء قضاء ليلته في أحضان امرأة، يقسم بشرفه، كم هي جميلة ، يعرف رجلاً يعرف رجلاً آخر يعرفها. (نَم معها، لماذا لا تنام مع امرأة؟ ، ألا تحب الجنس؟ يقول الرجل). يتحجج بهاء بعدم صعود الرغبة.

يجتازان ساحة صغيرة ومنها يدخلان إلى زقاق ضيق. يتوقف عند محل. يخلع حذاءه، يفرغه من حصوة كانت فيه. المحل هو بار (بار متنكر في محل) يطلب إلى بهاء الدخول وتناول زجاجة بيرة، ستكون لذيذة بين فتيات شبقات النظر. (لماذا لا تشرب البيرة، ألا تحب الخمر؟) يقول الرجل. يعتذر بهاء عن الشرب الآن، ويرجوه أنْ يسرع، (أسرع يا مُسرع، علامَ نسرع، دعنا نحيا ببطء ونموت بسرعة).

أحاديث الرجل وحركاته البهلوانية لا تثني إصرار وجه بهاء على التجهم. لا وقت لديه الساعة تناهز الثامنة مساءً. يَعد بهاء الرجلَ بدفع ثمن زجاجتين إليه لقاء أنْ يسرع. يشكره لكنه يحب تناول البيرة معاً. يلوم الرجل بهاء على صمته وتجهمه. (الحياة أسمى مِنْ أنْ نبخسها بالحزن، اضحك، الحياة نتيجة لأسباب مضحكة، اضحك، كل شيء يدعو إلى الضحك من الولادة إلى الموت). يزم الرجل فمه على السيجارة بسرعة. يُوبَخ

بهاء على تأخيره في دعم فمه بسيجارة. ينقر على الرصيف المرصوف بالصخر ببوز فردة حذائه اليمنى. يدخن بعمق، يشير بسبابته إلى القمر {ينير من أجل الضاحكين والفرحين، لا تعبس بوجه قمر منير. الضوء ضحك القمر. اضحك، أسرع إلى الضحك يا مُسرع}. يلقي الرجل شيئًا من الهيبة عليه، يضع بهاء في صورة موقفه الكوني. {استلم كل صباح هدية. هدية ثمينة تُدعى الحياة. لا زالت حيًّا، يا لسعادتي، الشمس تشرق، العصافير تزقزق والبحر يهدر. أحيا على حلم، أجمل ما فيه تعذر تحقيقه. احملني إلى عمل يؤمن لي علبة سجائر والقليل من قناني البيرة. لا أطلب أكثر من سندوتش ألجم الجوع به. هذا هو أنا وقوتي، ما قوتكَ، بالمناسبة، هل تعشيت}، يتساءل الرجل. {لا، لست جائعًا}، يجيب بهاء. {لِمَ لا تتعشى، ألا تحب العشاء؟ }.

- هل أنتَ سوري؟

- نعم.

- أنا أحب ممثلة سورية تُدعى نورمان.

- هل تحب فنها؟

- لا أحب جمالها. هل تحبها أنتَ؟

- لا.

- لِمَ لا تحبها، ألا تحب الجمال؟

لا يكشف بهاء عن جنسيته العراقية إلى العابرين. يتجنب الاصطدام بأولئك العرب المولعين بجلاد العراقيين، يهتفون بحياته، دون أنْ يعيش أي منهم لحظة تحت نظامه. ينكرون عذابات العراقيين الذين ساقهم قدرهم الجغرافي إلى بقعة يحتلها الجلاد، يشيع القتل وينشر الخراب. عندما يجيب بهاء بـ{أنا سوري}، لا يطالبه سائله سوى مشاركته إعجابه بممثلة أو مسلسل تلفزيوني، أما حين يقول: {أنا عراقي}، يتوقف سائله، يعتريه حماس مفاجئ، يرفع يده، يهتف بحياة {سفاح العراق}. ثم يطالبه السائل بمناصفته إعجابه به ومشاركته الولاء له. يتدرب على عدم الكشف عن عراقيته كيلا يفسد وقته ويتكدر مزاجه.

ينعطف الرجل إلى زقاق تالٍ. يضع بهاء كل وقته في سلة هذا الدليل المهرج. يجوب الأزقة، لا يتوقف عن الكلام ولا يكف عن القفز في الهواء. يقطع الأرض ويبدد الوقت. يصرّ على الادعاء بمعرفته العنوان. جهله بشيء قد يحسب عيباً عليه. أما الاعتذار فيعدّ شبهة جهل. هذا ما لا يقبلها عليه. لا يعتذر عن خدمة نجاحها مسألة وقت لا أكثر. ما مِنْ أحد يخسر الزمن، فالوقت متوفر لكن الأيام شحيحة.

يتوقف الرجل عند ناصية زنقة، يمنح الظلام نصفه ويترك الضوء يتصرف بنصفه الآخر. يطلب علبة سجائر، ثمن سندوتش وثلاث زجاجات بيرة. يرمي بهاء بورقة نقدية حانقاً عليه. يدس الورقة النقدية في جيبه، يخرج يديه ثم يفركهما، فرحة غريبة تعير ملامحه للتعبير عنها. (اسرع يا مسرع).

- لماذا أرجعتنا إلى ذات المكان الذي وجدتك فيه؟

- لأنه ذات المكان الذي تسأل عنه، هذه هي زنقة الصيادين وذاك هو المنزل رقم٢١، يسكنه عراقي مهاجر ألم أقل لك تقريباً أعرفه.

- لِمَ قطعت بي أزقة وبددت وقتي، إذن؟

- قمت بعملي، هذا هو عملي، بيّاع كلام، لست أنا الوحيد مَنْ يبيع كلاماً، الساسة والفقهاء يتاجرون بالكلام أيضاً. نعم، أبيع كلاماً لأشتري بثمنه سجائر، بيرة، وسندوتش، كما طمعت بالحصول على مال أكثر مقابل امرأة أقدمها لك، لا نور أنور من جسد امرأة يشرق عارياً عليك. لِمَ لا تضاجع امرأة، ألا تحب الجنس؟

- نعم أحب الجنس؛ الجنس البشري

يأتي بهاء متأخراً بعض الوقت. يستقبله ربان البحر أطول وأضخم مما تركه نهاراً. صَرْح بشري هائل يسدّ إطار الباب. يرحب ربان البحر به، يجده جسداً ملفوفاً بقماش أبيض متعدد الطيات. يعمم رأسه بقطعة قماش زرقاء. يدعوه إلى تسلّم موقعه على الصوفة، ليقابله جلوساً على كرسيه الفاره. يتوقع حضوره. لا يحسب أنّ اختفاءه المفاجئ من جِلستهما النهارية، سيحمل بهاء على إلغاء موعدهما المسائي من طرفه. ينشئ ربان

البحر وطنًا بحجم حجرة، يحجر عليه خوفًا من منفى. الشموع تتقدم من النظر بالضوء. موسيقى تأتي هادئة من عمق الغرفة. اللون الأزرق المتدرج يهيمن على الأشياء وينال من الجدران والستائر. هناك في الزاوية يوجد عدد من الأباريق النحاسية وبعض من كؤوس زجاجية ومعدنية. {أخرج من كل بلد بإبريق، كأس وامرأة}. على الجدران تتوزع بعناية صور فوتوغرافية لحسناوات تعذر عليه ممارسة الحب معهن. أمّا النساء اللواتي يمارس الجنس معهن يضع صورهن في ألبومه الكبير، المصنوع من جلد طبيعي أسود اللون، معقود بشريط أزرق لمّاع عليه.

لا يجلس على جلوس بهاء إلاّ قليلاً. لا يستكين، يوثر المشي على الجلوس. يختفي ويظهر. يحمل صينية نحاسية عليها زجاجة عرق وكأسين صغيرتين. يضعها بعناية على الطاولة الخشبية الصغيرة. يسعد بهاء مرأى العرق ويحنّ إلى طقس تناوله النادر في المنفى. يعرض بهاء عليه المساعدة. يعتذر ربان البحر عنها. {اليوم أنت ضيف، وغداً صاحب بيت}. يقدّم ربان البحر الأشياء بنفسه إلى الشخص الذي يحلّ ضيفًا عليه لأول مرة؛ حفاوةً به واختباراً له إنْ أحسن إلى حضوره باللطف وتصرف كضيف بهيج، وخلف وراءه شوقًا إليه، سيرشحه إلى دعوات أخرى، يشاركه في جلب أشيائها ويطلب خدمته من تحضير المائدة إلى غسل الصحون.

يتجه إلى المطبخ ليعود حاملاً صحنًا عميقًا من سلطة اللبن، الخيار المفروم والثوم المعصور {الجاجيك}. يردفه بكاسة من الحمص المسلوق المملح والمفلفل {اللبلبي} مدعومة بكاسه أخرى من الفول المسلوق المملح والمفلفل أيضًا، تطفو على سطحيهما قطرات من زيت الزيتون. {جلسة عرق عراقية} يلفت عناية الضيف إلى أنّ فحص الأشياء أو النظر إليها أو لمسها غير مسموح دون إذن مسبق، يمنحه عندما يكون مزاجه رائقًا ومستعداً إلى الخوض في مسألة الإطلاع وإرضاء الفضول. يشير بسباته إلى لوحة متحركة، كتب عليها بخط عربي جميل: {إن منحتكَ تواضعي فلا تسلبني اعتزازي بنفسي}.

يتقبل بهاء التوجيهات بصدر منشرح، يعاني هو أيضًا من طبع تواضعه. تواضعه الذي يترك انطباعاً لدى غيره على أنَّه ضعف. هناك مَنْ يَعتبره سوء نية مُبَيّتة. فيما يرى آخر تواضعه وسيلة واضحة لغاية غامضة. الآن يعرف متى يكون متواضعاً وأين يكون مغروراً. لا يغيّر شيئًا فيه، كيلا يكون غريبًا عليه. لا يعبأ مع تقدم العمر إنْ كان مقبولاً من هذا أو مرفوضًا من ذاك. هو الذي يقرر قبوله ورفضه وليس سواه.

تحلّ الساعة العاشرة مساءً، يجعل ريان البحر الصمت سائدًا، والهدوء مهيمنًا. يسحب قطعة قماش سوداء شفافة ويتشح بها. تكتسب هيئته جلالاً وملامحه وقاراً. يتجه نحو النافذة يزيح الستارة. يعكس الشارع حزمًا ضوئية متباينة يختلف فيها الأصفر والأبيض على الأحمر. يبقي الباب على إغلاقه. يبتعد خطوات ثلاث، ظهره إلى بهاء المترقب بدهشة. يقف حيال النافذة، يتجه برأسه المرفوع والناظر صوب القمر. يقف دقيقة صمت حداداً على يوم انقضى بلا سبب. الزمن يغتال الأيام. يلوح بالغد للتمويه على جريمة سقوط اليوم إلى أمس. (الغد خزانة الأماني المتعذرة). يشيع اليوم كأمس قريب إلى مقبرة الماضي البعيد.

يخلع ريان البحر وشاح حداده. يسدل الستارة، تعود حزم الضوء الممنوعة إلى الشارع، لتمارس أفعالها المضيئة. تعود الموسيقى هادئة كما كانت. يقبل منشرحًا على بهاء المنقبض خوفًا من كآبة وشيكة. يتلاشى انقباض بهاء بالانبساط الذي أقبل به ريان البحر عليه. يصب العرق في كأسين ويضيف إليها الماء، يتحول العرق الشفاف إلى مزيج أبيض. يطلب من بهاء تهيئة ملعقة سلطة اللبن والخيار ملآنة وجاهزة، لتعقب شرب الكأس الأولى مباشرة، حيث ينبغي الانتهاء من شربها دفعة واحدة حتى كعبها، أي إلى آخرها.

- صحة، للكعب يا شباب.
- صحة، للكعب يا شباب.

عبارة شباب لم تعد مجرد كلمة عابرة، أو كغيرها من الكلمات. ترديدها يشبه تحصناً ضد شيخوخة داهمة. أو تعويذة من شر أيام طاعنة في المجهول. لا ليست عبارة ترويح أو لازمة كلام. إنّها تداعي معنى على مرحلة عمر أصبحت مجرد كلمة: شباب عبارة تلفظ معناها. في رحلات التداعي على الماضي، تنصب عبارة شباب كشرك لفظي لاصطياد تلك الذكريات الحبيبة الغاطسة. الذاكرة جزيرة عائمة على بحر الماضي. الماضي لا قرار له، وليس لهما غير تلك الذكريات المنتشلة من طوفان النسيان. تتسبب الكأس الثالثة بنشوة مرغوبة من عرق محبوب ومنتظر.

يدعو ربان البحر بهاء إلى التعاون الإصغائي لأداء طقس تلاوة الذكريات. ينهض، يتخذ من زاوية موقفاً له. ينادي 'أبو نواس'، يتقدم بضع خطوات إلى الأمام. يقف قبالة موقعه السابق. ينحني 'نعم سيدي'، يعود إلى سابق موقعه 'أأنتَ الشارع؟'. يقفز إلى الموقع المقابل 'لا يا سيدي أنا الشاعر'، من موقعه السابق 'نحن أردنا الشارع وليس الشاعر، ما صدقت أذناك أنّ هناك مَنْ ينادي عليك فبادرت إلى الظهور فوراً'. يعود إلى الموقع المقابل. 'الشاعر لا يعتذر عن دعوة، يا سيدي'، من موقعه السابق. 'احضر لنا الشارع الذي يحمل اسمك، شارع المقاهي، المطاعم، الحانات، شارع السكارى، الشعراء والعاهرات. شارع الليل، الدخان، الصياح ورائحة الشواء. شارع العراقيين البسطاء بأحلامهم العظيمة. نعم، ليس شارع القتلة والأوغاد الذين جعلوا من محاله أوكاراً مخابراتية ومن منازله دهاليز للتعذيب. جعلوه شاهداً على تصفية الجسد ومكاناً لمعاقبة بشر على شروعهم بالفرح'. تقمص ربان البحر شخصيتين في آنٍ واحدٍ ينكأ فرحاً حزيناً، وضحكاً مؤقتاً مختلساً من حزن مستديم.

يتفق ربان البحر وبهاء على اللقاء في بداية شارع أبو نواس ليقوما بجولة فيه. يأخذان شاياً في مقاهيه ويبكيان على ميلوديا الأغاني العراقية الحزينة. يشربان كأس عرق في حاناته ويقرآن على غيرهما الشعر. يركضان فرحين يلتقطان الضحكات الساقطة منهما ومن سواهما. يعابثان السكارى على الأرصفة. يعتذران إلى المثليين بلطف عن عدم الذهاب معهم حدّ المواقعة. يجريان خلف العاهرات اللواتي تَلُذن في مداخل الطرق

والأبنية المستورة بالعتمة. يساومانهن عليهن. يصعدان بعاهرتيهما إلى أعلى غرفة من بناء العالم، سقفها السماء ومصابيحها النجوم. عُراة في أحضان أمهم الطبيعة الحانية عليهم بغطاء شفيف من العتمة. مضاجعة فراشها الأرض ولحافها السماء، أربعة تؤلف بينهم وحدتهم على متعة. كل منهما يدخل في عاهرته حدّ القذف عليها. ينتهي الاسترخاء إلى توتر، رضاهم عن أدائهم الجنسي يتحول إلى سخط على عدم دفع الثمن. لكل شيء ثمن، الشيء الوحيد الذي لا ثمن له هو الإنسان، يرخصه لتغلى عليه مبادئ وقيم من وضعه. الإنسان لا يساوي قيمة ولا يضاهي مبدأ، قيمه ومبادؤه أعظم منه وأقدس. كل القيم الخالدة والمبادئ العظيمة وضعت من أجل الإنسان لا ليستفيد منها بل ليضحي بحياته من أجلها. قيَم الإنسان أتت على قيمته.

- ادفعا لنا.

- لا نملك شيئًا عدانا.

- أعطيانا أي مبلغ، أجرة تاكسي، ثمن علبة دخان، ثمن مناديل ورقية نمسح بها نتانتكما على الأقل.

- ليس لنا إلّانا وإلّاكما.

- كيف تمارسان جنسًا لا تمتلكان ثمنه.

- الجنس للجميع زائد اثنين هما نحن.

- المضاجعة للغني والاستمناء للفقير. اسمعا لِمَ لا ترتديان ملابسكما وتنزلان معنا إلى الشارع نمتص كبتًا ونلتقط رزقًا، سوية.

تحشرهما العاهرتان عاريين في زاوية. تصبّان عليهما أحط الشتائم. (عديما الأخلاق، معدمان، شحاذان، تافهان، لوطيان، نتنان، ابنا الزفرتين، ولدا القحبتين). يهمس ربان البحر بأذن بهاء (بشتيمة العاهرة يكرم الرجل ذكورته). تجففان ما استقر من المياه الذكورية بين أفخاذاهما. تشم كل منهما لباسها الداخلي بتأفف، ثم ترتديه. تندبان حظهيما العاثرين وتلعنان ليلتهما السوداء. لكن جمال الشابين، سماحة وجهيهما ولطف معاملتهما، تُهدّأ من غضبهما وتحول دون سوء المعاملة. يتراجع الأسف ويتقدم

الرضى. تضحك العاهرتان. ثم تنخرطان في أداء أغنية تندب حظًا عاثرًا. تمضيان بأقدامهن الخائبة نحو عتمة تقلهما من هناك إلى جهة مجهولة على غيرهما.

يفرّ ربان البحر وبهاء منهما إليهما. يلقيان بهما على موقعي جلوسهما. يأخذان رشفة من كأس العرق ثم يعقبانها بملعقة من 'اللبلبي' على دندنة أغنية: {آه يا حلو يا مسليني، يلي بنار الهجر كاويني، أملى المدام، يا جميل واسقيني، من كثر شوقي إليك مابنامش، آه يا حلو}. يدخل ربان البحر إلى المطبخ ويعود منه بطبق من قطع لحم مشوية مع بطاطا وعصير الطماطم. يقدم الطبق مع الرز، السلطات والخبز. يأخذ رشفة من كأس عرق. الوجبة اللذيذة، {نفس طيبة} يضع يده على صدره. {خلطة بهارات متقنة} يوجه إبهامه إلى المطبخ، {آكل يعرف طعم فمه} يثني على بهاء بوضع يده على كتفه. يطلب من بهاء الضحك بلا سبب. اللا سبب هو أقوى سبب للضحك. يتذكر بهاء مهرجه. {القمر ينير من أجل الضاحكين والفرحين، لا تعبس بوجه قمر منير. الضوء ضحك القمر. اضحك}. يضحكان حدّ القهقهة. يجد ربان البحر حكمة وخبرة في كلام دليل بهاء المهرج. يشير على بهاء أخذ قسط من الطعام والتعامل مع الأقساط المستحقة الأخرى كمقبلات، ترفد تناول العرق. جلسة عرق عراقية بطريقة شامية. يؤكد توخي الحذر والتزام الصمت. حين يذوق طعامه، وإنْ يحدث ما يمنعه من مديحه على طبقه، عليه، التزام الصمت والتبسّم. يريد أنْ يكون مشكوراً وممدوحاً اعتباراً من هذا المساء ولمدة ثلاثة أيام لاحقة. {امدحني أرجوك ولا تتوانى في شكري}.

- بصحتك.

- بصحتك.

يتجه ربان البحر صوب النافذة لا يزيح ستارة. لا يثني بابه عن إغلاقه. يتجه به إليه. ينظر إلى بهاء كعشبة من أعشاب عراقية برية. اقتلعها طوفان الإرهاب من تراب وهواء عراقها، ليلقي بها على أتربة منافٍ، هناك تواجه خطر بقائها بالتكييف مع تراب يجهل جذرها وهواء غريب على غصنها. يقفان إزاءهما. تنطلق موسيقى إيقاعية. يشرع ربان البحر بالرقص. يتوضأ بالرقص ويشطف فمه بالصمت من كلام مأسوف على نطقه. الصمت، الموسيقى والرقص، شعائر الدخول إلى طقس تلاوة الذكريات.

ينظر ريان البحر إلى بهاء، تكبر ثقته فيه. يعلوهما إصرارهما على إعادة تأهيل ذاكرتيهما المتصدعتين. قسوة المنفى تتلخص في نفي ذكريات المنفي عنه، وتحويله إلى كائن غريب على ذكريات كان منها. يطلب ريان البحر الإنصات وعدم المقاطعة. يرجو بهاء ألاّ يغامر بطرح سؤال لا جواب عليه. يذهب إلى خزانة يخرج منها دفتراً متوسط الحجم عديد الصفحات، يدون فيه يومياته وتأملاته عن الوجود. يلاحظ فيه صوراً وقصاصات ملصوقة. يأخذ رشفة من كأس العرق. يطلب إلى بهاء المبادرة سريعاً بإنهاء حاجاته. طقس تلاوة الذكريات يتطلب احتواء مصادر التوتر والضيق والاستعداد الروحي التام غير المشوب بالتوجس.

يعلق ريان البحر الموسيقى عن الاستماع، يضاعف عدد الشموع طلباً للإحاطة الضوئية باللحظات التالية. يهيئ كأسين من العرق. يعود بهاء من الحمام مباشرة إلى موقعه. تبدو عليه علائم الاسترخاء والقبول. يدخنان، يستدعيان ضوءاً خافتاً وهدوءاً. يعم الهدوء. يتمكن منهما الاسترخاء ويرتفع بهما الاستعداد للخوض في مياه ذكريات لم تعد راكدة أو مشروع بُخار. يقطع الغرفة ذهاباً ومجيئاً بين واقف وجالس. يشرع ريان البحر بتلاوة ذكرياته على بهاء الذي تحول إلى كتلة صاغية إليه.

يتجه حصان جامح نحوي. يتوقف أمامي. يصهل بحزن. يرفع حافريه الأماميتين إلى الأعلى، ثم يضرب بهما الأرض. يعنيني بالصهيل، يستدير عني، يتقدمني بخطوة. أبقى في مكاني مذهولاً. يتراجع، يستدير نحوي، يعيد عليّ صهيله ويكرر حركة حافريه. يجثو على الأرض. يفهمني دعوةً إلى امتطائه، أمتطيه. يجري بي. يقطع طرقاً ملتوية بين أشجار الغابة. الشجرة تسقط ولا تفسح طريقاً. ينبش صفير الغابة وحفيف الأوراق خوفاً مطموراً. فيما البحر يحمّل الريح هديره. تحاول أشعة شمس المساء البرتقالية إلى تفكيك العتمة وطرد الوحشة.

ينتهي الحصان الجامح إلى شاطئ بحر هادر. يتوقف ويشرع بالصهيل. تظهر فجأة امرأة تتشح بالسواد، تحمل فانوساً ينير وجهها وطريقها، تتوكأ على عصا. (تَرَجَّل، أيها

الفارس)، تأمرني، أترجل مأموراً وأتبعها مذهولاً وخائفًا. تخوض وأخوض أنا في الماء أيضاً. استجابة إلى إشارة تصدر عنها. أتوقف على توقفها. بناء على إيماءة وهمهمات، تتخلى الأمواج عن صخبها وتتخلى عن أسر فتاة جميلة عارية تتقذف بمساعدة الريح العاصفة عند قدميّ المرأة ذات الرداء الأسود، تنحني ملامسةً رأس الفتاة المبلول. على الفور تنهض الفتاة، فيما تهدأ الأمواج وتتحول العاصفة إلى نسيم. (إنَّها فتاتك، يحتفظ البحر بها من أجلك. إنَّها رهينة الحب الذي لم تعرفه ولم تذقه أنتَ بعد. اعرف منها الحب وبالحب وليس سواه ستعرف مَنْ تكون أنتَ. أحببها، فسيرعاكَ البحر برضاه وينشر حولكَ الإخلاص. ابحث فيها عن وطنكَ، لا تبحث من أجلها عن وطن. هي وطنكَ المنشود. أنَّى يكون الحب، يكون الوطن).

تطفح شهوتي إلى احتواء جسد الفتاة البضّ المشرع بنعومته على نظري. أتقدم منها. تحول السيدة ذات الرداء الأسود دون تماسنا. تلمس رأسها ثانية، فتعود الفتاة ثانية إلى غيبوبتها التي تضاعف من تأثير جمالها على نظري وجسدها على شهوتي. تومئ إلى الأمواج التي تعود إلى صخبها أنْ تعيد الفتاة إلى قلب البحر المنزوعة عنه. (ابحث عنها في قلبكَ، فستجدها في أحضانكَ. اصغ إليّ. أنا حكمة البحر المتشحة بالسواد حداداً على مساوئ اليابسة، تقول) ثم تهب نفسها هي أيضاً إلى البحر فيستقلبهما بقلبه الهادئ وسطحه الغاضب علينا. نحن سكنة اليابسة العاقين. أسقط مني، أجثو على ركبتي قبالة البحر الصاخب الأمواج. الريح العاصفة تذرّ الرمال عليّ. تجتاحني الرغبة في احتواء فتاتي المسلوبة ويستحوذ عليّ الإحساس بمرارة الخيبة. أقف نادباً حظي العاثر وباكياً مصير فتاتي وحبي المجهولين. أجري فتلتقطني إلى عمق سحيق عتمةُ بئرٍ. (انهَضْ، أنْهَض) تتناهى نداءات متتابعة متفاوتة الارتفاع، تخترق العتمة.

- انهضْ، أنْهَض.

تتلاحق النداءات، تنتشلني صوتيًّا من باطن عتمة إلى ظاهر ضوء شمس واهن يقربها من غروبها. نداءات مصدرها أبي، يحثني بها على النهوض والالتحاق به. أنهضُ مفزوعاً من كابوس ألَمّ بي. أجمعني فيّ بعد تشتت. أستعيد طمأنينة بعد خوف كاد يقضي

عليها. {كن رحيماً بنا أيها البحر، أقول}. {ستكون نهايتكَ على يد البحر، نهاية بحريّة، يقول أبي}. يطلب الإسراع بالنهوض وضرورة الالتحاق به في الصالة، للتحدث معاً حول موضوع هام ومصيري لا يقبل التأجيل، كما يقول. أنهضُ على مضض. أذهب إلى الحمام. أغسل وجهي بماء بارد وأبلل شعري. أضع المنشفة على كتفي واتجه نحو الصالة.

- أنا هنا في المطبخ.

أذهب إلى المطبخ، أي أحد مشغول بإعداد المقبلات. يقطّع الخيار إلى قطع صغيرة ثم يضعها في صحن مقعر. يسكب عليها اللبن وقليلاً من الثوم المعصور والملح. يدس ملعقتين صغيرتين في الصحن. يطلب إليّ أنْ أحمل الصحن وكأسين صغيرتين إلى الصالة. فيما يحمل هو زجاجة العرق وقنينة ماء شبه متجمدة، كان قد أخرجها من مجمدة الثلاجة. نضع ما نحمله على الطاولة. يطلب إليّ الجلوس. ويتجه هو إلى آلة التسجيل ليشغلها على أغنية للمطرب المصري صالح عبد الحي: {ليه يا بنفسج بتبهج وانْت زهر حزين}.

أتردد في قبول فكرة تناول الخمر في حضرة أبي، جرياً على تربيتنا التي تقتضي الاحترام ووجوب الطاعة، لا بل أبعد من ذلك، إذ لا يجوز أنْ أجلس واضعاً ساقاً على أخرى بحضور أبي. ينبغي أنْ أنهض عند قدومه وأجلس بناء على أمر منه. في أغلب الأحيان تكون أمي واسطة مباشرة لحديثنا غير المباشر. لا أقترب منه بطلب أو مخاطبة دون تصريح منه. أقف بين يديه، عاقداً ذراعيّ، حاني الرأس، وبصوت منخفض أطرح على حضرته طلباتي بصيغتي الرجاء والتمنيات. أضطر إلى المقابلة المباشرة غير مضمونة النتيجة، إثر فشل وساطة أمي بيننا، أو اعتذارها عن القيام بها.

أبي ليس قاسياً كالآخرين من الآباء. لكنه حازم وصارم في مواقفه. عندما بلغت عامي الخامس عشر أعفاني من فروض تقبيل يده اليمنى والتبرك بها. قوله: {أنتَ رجل الآن، أنتَ خليفتي}، أخذتُ على سماعه منه في الأعوام الأخيرة، هذا القول الذي يتحول

إلى فعل، يقلل من الحرج ويخفف من صرامة التصرف. يفضلني أبي بامتيازات منها، زيادة في مصروف الجيب، السماح بالتأخير ليلاً، رفع المراقبة وتعليق التحقيق الذي يعقب كل تأخير ويسبق كل خروج. كما سمح لي، بدعوة الأصدقاء إلى البيت ودخولهم إلى غرفتي. قوله (أنتَ خليفتي)، يوطّد ثقته فيّ ويرفع من شعوري بالمسؤولية حيالي، إلى درجة تحولت فيها، أنا شخصيًا إلى رقيب عليّ، مما يضطرني إلى الكذب عليّ واللجوء إلى الخديعة للتهرب مني.

يصب أبي العرق في الكأسين. يشغل العرق نصف الكأس ثم يشغل الباقي الماء المضاف. يتخلى العرق عن شفافيته التقليدية إلى المزيج الأبيض الحديث الصاعد.

- في صحتكَ.

- في صحتكَ، أبي.

نرفع النخب على هدى تعاليم تناول العرق. (خذ رشفة منه، ثم أردفها بملعقة من سلطة اللبن (الجاجيك). أقومُ بتأدية فعل التناول تحت إشرافه. بعد أنْ يتأكد أبي من إتقاني لعملية تناول العرق، يشرب هو بدوره مسترخياً ومطمئناً.

- هذه هي المرة الأولى التي تشرب فيها خمراً، أليس كذلك.

- نعم، يا أبي.

ينتظر أبي مني جوابًا كهذا، لا جواب غيره. يفضل أنْ أكذب على أنْ أكون صريحًا. صدقي غير المرغوب فيه، قد يضعه في موقف، يواجه فيه حقيقة محرجة، تعني أنَّه في غفلة عما يدور في بيته. إنَّ الكذب المرتجى الآن يريحه ويجعله أكثر استرخاء وتركيزاً، ويسقط عنه تهمة التقصير في التربية وعدم رعاية ومتابعة ابنه الوحيد.

في الواقع أنني أشرب البيرة بعيداً عن البيت. هناك في الحانات. حيث يدفع ثمنَها أولئك الراغبون بالاستماع إلى مغامرتي النسائية. يزداد عدد القناني المدفوعة الثمن بازدياد عدد المغامرات ونوعية وجمال المُغامر معها. أتقن مع الوقت والتجربة سرد

المغامرة بطريقة تداعب الرغبة الجنسية والحاجة الجمالية لدى الراغب بالاستماع إليها، وتنشط ملكة خياله. توجد نساء مرغوبات فيهن من عدد غير قليل ممن أعرف. وهناك مَنْ يسعون إلى التعرف عليّ لهذا الغرض. فقص المغامرة معهن لا يقتصر على دفع ثمن عدد من قناني البيرة وإنما يشمل أحيانًا وجبة من نصف دجاجة مشوية مع رغيف من الخبز العربي فضلاً عن السلطة والمخللات. من بين أولئك شخص يدعى طه، وأنا أدعوه (طه أسفل السرة). ينفق طه الكثير من المال، ويقضي وقتًا طويلاً في الاستماع إلى مغامرة جنسية. نعم مجرد استماع. لكنه يغضب ويتضايق، عندما أسهب بالوصف في ما يطلق هو عليه (أعلى السرّة)، بأنفاس لاهثة، وحمرة تعلو وجهه، يحتج عليّ. (انحدر، انحدر بنا الآن إلى أسفل السرة، لا شيء يعلو على أسفل السرّة) يعرض طه عليّ مبلغًا سخيًا لقاء سرقتي اللباس الداخلي لامرأة مشهورة بجمالها تدعى (معزّز)، تلك المرأة التي يمضي حياته حالماً بها ومستمنيًا عليها. يدفع حياته فداءً، ليس نظير مضاجعتها، بل مقابل أنْ يراها عارية، أو على الأقل في مايوه، مستلقية على شاطئ بحيرة، أو عائمة في حوض سباحة.

أشتري لباساً داخليًا نسائيًا أحمر شفافًا. أرتديه من وقت إلى آخر ليبدو مستعملاً، بعد أنْ أتأكد من بدوه كذلك؛ أبخّ عطرًا نسائيًا عليه. أُبخّني أنا عادة بعطر نسائي نفّاذ قبل الذهاب إلى موعد عقد لقاءاتي السردية، للإيحاء أنَّ هناك دليلاً أنثويًا عاطرًا على حدوث مغامرة جنسية. لكن التنبيه إلى وجود العطر لا يحدث سلساً، قد يتطور إلى شم العطر، لكنه في بعض الأحيان يؤدي إلى عناق أنفر منه.

ذات مساء أحملني إلى طه. يرحب بي ويدعوني إلى غرفته. يستأذني للذهاب. ألاحظُ على الجدران صور حسناوات الممثلات يرتدين المايوه. يعود طه بكأسين، يسكب ماءهما على أرضية الغرفة الإسمنتية. ثم يقترب هامساً. (هذا ليس أوان الماء، يا صديقي، إنَّه أوان البيرة). يرفع صوته مدندنًا (يا صديقي هاي. هوْ. هاو، هاي. هوْ. هاو). يخرج من تحت سريره قنينة بيرة، كانت مخبوءة بشكل حذر. يعتذر عن كونها ليست باردة. يقترب مني هامساً. (بصحتك) (بصحتك) أهمسُ. لا يريد لفت انتباه ذويه

إلى تسلل الخمر إلى بيتهم. (إنّه بيت عائلة وليس خمارّة مشردين). يحمل طه على الرقابة الرسمية والأخلاق الاجتماعية، كونهما بحرمان جمهور الذكور من مشاهدتهن عاريات، وهو يشير بسبابته إلى الصور، ثم يقترب بإصبعه الوسطى من القطعة السفلية من مايوه أحداهن. (الماء رداء المستحم). يريدهن عاريات حقيقة وليس عاريات بالفرض الخيالي. يشكو إليّ معاناته من الرمز والرمزية. يعتبرها مؤامرة على الذوق العام. (أريد عُريًا واقعيًا لا سرياليًا ولا رمزيًا، أنا انطباعي النزعة وواقعي الميل، الرمز يهين الحواس، ثق) يعتذر مسبقًا عن كلام لاحق، يتمنى عليّ ألا آخذه على محمل شخصي. يتنهد، يسلمه إلى حزن، يريده عميقًا، يؤسفه، كما يقول، إنَّ أول مَن يطأ غرفته رجل وليس امرأة، غرفته العذراء لِمَ لا تشاركه امرأة في فضّها. يجده أمرًا محزنًا ويدعو إلى الأسف. غرفته أرادها للنساء فقط، نعم، إنّها لنساء طالما حلم بهن، لكنهن لَمْ ولَنْ يدخلنها البتة. أتمنى بدوري عليه، أنْ يتلقى مفاجأتي بسرور. أقدم إليه هدية ملفوفة بورق لماعٍ مُوَرَّد (هدية عيد ميلادك الذي لا تحتفل به) يتناهب طه الفضول والمفاجأة، يسرع إلى فض ورق الهدية ينفض ورق الهدية عن لباس نسائي أحمر وشفاف، تأخذه الدهشة

- ما هذا؟

- إنّه لباس نسائي داخلي.

- أعرف إنّه لباس نسائي وليس ورق آبرو (ورق الأشغال اليدوية المدرسية).

- هدية عيد ميلادك.

- دع عنكَ عيد ميلادي ومأتم مماتي، لمَنْ هذا؟

- إنّه لباس معزّز.

يشم طه اللباس الداخلي ثم يسقط مغشيًا عليه. أصرخ طه، أضرب ضربات خفيفة على خديه. أرُش ما بقي في كأسينا من بيرة على وجهه. يستفيق لاعقًا قطرات البيرة على شفتيه. يأخذني بحضنه مقبلاً وشاكرًا إياي على جميلي عليه. (لن أنسى لكَ معروفكَ عليّ)، يقول واعدًا. يعرض عليّ المبلغ الذي أقترحه. أعتذر عن قبوله، رغم حاجتي الماسة للمال في ذلك الوقت. أطلب منه مبلغًا ثمن أجرة التاكسي فقط، كدين أسدده إليه في وقت مناسب.

أذهب من وقت إلى آخر إلى ساحة (النهضة) أكثر الساحات حركة وازدحاماً في العاصمة بغداد. أقف تحت مظلة موقف الباص رقم (٥٥)، يأتي الباص من الحي الشعبي المسمى بـ(حي الثورة)، حي بشري معروف بفقره المُدقع وكثافته السكانية المتنامية، يقطنه عمال وفلاحون مهاجرون من أرياف جنوب العراق، نزحوا إلى العاصمة هرباً من الفقر، القحط، الاضطهاد والحرمان.

أرقب عبر زجاج الباص المكتظ وجوهاً لفتيات ريفيات، وجوههن محررة من وطأة المساحيق، خطوط ملامح تنساب وتتداخل بليونة. عيون ساهمة تحدّق في البعيد. تسلط القلق، الحيرة والخوف من المجهول، لا يدفع الجمال إلى هجرهن. على العكس، يمرح الجمال على ملامحهن مشاكساً نظرات العابرين. لا يحول إيقاع المدينة السريع إلي ركون ملامحهن إلى الهدوء، كما لا تذهب هموم الحياة اليومية بعفوية جمالهن الريفي و صفائه. الفقر لا يدفع الجمال إلى التقتير. الجمال ثروة كونية، يجب توزيعها بالتساوي، ولا يجوز الاتجار بها. لا شيء يمنع من التزود الجمالي، مادامت هناك حاسة ومحسوس. يشكو الجمال إلى العيون، تقاعس حاملاته عن خدمته. لكنّ وجهاً من الوجوه بملامحه الفطرية الجميلة، يمكنه العزف منفرداً على إيقاع الحاجة إليه. وجوه مترقبة. أرى جمالاً حائراً على وجوه مترددة. هناك وجوه تعدد أوجه جمالها على تعدد الناظرين إليها. أتوجه إلى وجه فتاة بنظرة ثم أتبعها بابتسامة. لعلني ألتحم بصرياً بها. لكنّ المسعى البصري لا يكلل بالنجاح دائماً، أحياناً ترفض النظرة، ويتم التحفظ على الابتسامة. حالات فشل التواصل البصري النادرة، تنجم عن ظهور الوجه الأنثوي تحت حراسة نظرات رجالية مشددة، تصدر من وجوه عابسة. (الأخلاق مدعاة التجهم). يهدد التلاحم البصري الحزن الموروث والمترسب، ويُحمّل الوجه مهمة التعبير عنه. (الوجه واجهة القلب).

أتعرض مرات إلى تجاهل مفتعل ومتدلل تبديه فتاة، تقدم النهاية على بداية لم تتراجع أو تنهزم، تجرى هذه الفتاة في أعماقها الخاوية، لا تعثر على تجربة، لكنها تتعثر بسؤال. ماذا سيعقب اللقاء البصري العابر؟ لا شيء سوى حلم مُحرَّم، (السبب خائب

والنتيجة تعيسة). الخروج إلى النهاية أيسر من الدخول في مغامرة البداية. (البداية دائماً مغامرة). أطلق على جولتي هذه عنوانًا هو (التبضع الجمالي)، أعود منها محملاً بالشهوة إلى الحياة والرغبة في الجنس. أحمل الوجوه المصطفاة إلى عالم نومي الكائن في غرفة. وجوه حقيقية أركبها على أجساد متخيلة. أحيانًا أركبها على أجساد ممثلات أو عارضات أزياء، يمكنني توهم فتنتهن الجسدية، أعريهن، ثم آخذهن كما تشاء رغبتي فيهن. ثم أحملني حيث يكون الحلم.

كَفٌ تسقط منها ضربات خفيفة على كتفي. ألتفت إلى الوراء إنَّه طه. نتعانق ونقبِّل بعضنا. يرتدي طه بزّة عسكرية. تم استدعاؤه إلى الخدمة العسكرية الإجبارية، جندي مكلَّف الآن، توقف هنا وهو في طريقه إلى جبهة الحرب. يدعوني إلى تناول فنجان من الشاي في إحدى المقاهي القريبة. نهتدي إلى مقهى بعد بحث شاق، وبصعوبة بالغة نعثر على كرسيين شاغرين. صوت الراديو العالي يختلط بأصوات هدير محركات السيارات ومزاميرها التي لا تعرف توقفاً ولا عُطلاً. يضاعف الضجيج وحرارة الشمس الحارقة الشعور بالتذمر والضيق يصعّد من نبرة الزبائن وأصواتهم أثناء أحاديثهم. يخترق حواجز الأصوات العالية صوت النادل الأجش الهادر بالطلبات أو الإعلان عن تلبيتها.

- قدحان من الشاي، بسرعة من فضلك.

- لماذا العجلة، في العجلة الندامة، كما تقول الإرشادات المرورية، خفف السرعة. خذوا راحتكم، العالم لا يطير. أقسم لو أنّ العالم له جناحان، لفرّ محلقًا من عجلة البشر الدائرة على السرعة. ستطير الدنيا من عجلة الناس. السرعة أقصر طريق بين الحياة والموت. على أيَّة حال، ما سُكَّرُكُما يا عسلان أنتما؟

- السكر وسط.

يتجه طه نحوي بالكلام. (خير الأمور أوسطها، كما يقال) يتلفت حذراً، ثم يمضي حديثه هامساً. (لكن الحرب أمر متطرف، فأنتَ تقاتل شخصاً لا تعرفه، تطلق عليه

"عدوًا" لكي تبرر لنفسكَ قبل سواكَ شرعية قتله). العدو والصديق بِدْعَتان سياسيتان. إنَّ الإيراني الذي كان صديقًا وحليفًا بالأمس، يتحول اليوم إلى عدو بموجب مرسوم جمهوري. الحرب قذرة، وأسوأ الحروب تلك التي لا تُبرر حتى قذارتها ولا توفر قناعة بوجوب شنها. نحن نهاجم إيران ونحتل أراضيها. نقدم تضحيات بالأرواح والمعدّات، من أجل ماذا؟ ولماذا نحتفظ بأراضي الغير؟ لماذا نحتفظ بها؟ هل لنزرع فيها خياراً نصنع منه سَلطة؟ مَنْ يعِشْ الحرب يدركْ ما معنى أنْ يكون المرء حيًّا. الإنسان أرفع مِنْ أنْ يسقط برصاص شعار سياسي أو بقصف دعوة عقائدية، جهادية. البشر أكرم من الأرض، (الأرض دون بشرها مجرد تراب لا قيمة له) يقول هو. وأقول أنا: (الإنسان مصدر القيمة، تُقَوِّم على الأشياء قيمتها). نتحوط بالصمت من قدوم النادل نحونا، يضع بحركة بهلوانية فنجاني الشاي: (صحة وعافية)، يقول ويمضي. يأخذ طه رشفة من فنجان الشاي، يعقبه بـ(إه) تعبير صوتي عن استمتاعه بمذاق الشاي، (اشرب) يطلب مني. يترصد ما حوله، ثم يمضي إلى الحديث بصوت منخفض. (أنا أثق بكَ، وعليه أفكر معكَ بصوت عالٍ. أعرف أنَّ ما أقوله قد يفقدني حياتي بوشاية منكَ. ثقتي فيكَ قديمة وراسخة. ثم أنا مدين لك بالفضل، لقد أهديتني شيئًا قماشيًا نفيسًا يكتسب جماله من جسد معزز ومعَزَّته من رائحتها).

- (أنا مدين لكَ أيضًا بدينارين أجرة التاكسي في اليوم إياه). أخرج من جيبي مبلغًا قدره دينارين. يرفض قبول المبلغ قطعيًا ويؤاخذني على تصرفي، يعتبره غير لائق به. (أعد نقودكَ إلى جيبكَ. لا لستُ بخيلاً، أما نحن فأكثر من صديقين. أعرف أنِّي ذاهب إلى الجبهة، لكني لا أعرف البتة إنْ كنتُ سأعود أم لا. أنا في الخطوط الأمامية، انظر) يشير إلى صدره. (إنَّه "وسام الشجاعة"، قلدوني إياه، إنَّ موقفًا طارئًا جعلني بطلاً، بنظرهم طبعاً. ظهور مفاجئ لجندي إيراني أمامي، دفعني خوفي منه إلى إطلاق النار عليه. الخوف تحفّظ على عقلي، فوجدتني أطلق النار عشوائيًّا. أنا لست كذلك، أنا الآن قاتل بصفة بطل) أذّكره بقول ينسب إلى نابليون: (منْ يقتل إنسانًا واحدًا فهو مجرم، ومنْ يقتل أناسًا كثيرين فهو بطل، أما منْ يقتل الناس جميعًا فهو إله). نضحك بمرارة وأسًى على جرنا إلى هلاك، لا حق لنا ليس في معارضته، بل حتى في أنْ يكون لنا رأي آخر فيه.

القتل لا يفسد طعم الشاي، مثلما لا يفسد صباحًا، القتل يشاع كالهواء، متاح يتنفسه البشر عبر أجهزة الإعلام، صفحات الجرائد، بيانات الساسة وفتاوى الفقهاء. التاريخ ليس تاريخًا بقدر ما هو سجل حربي. الحضارة تَحَضُّر مبررات القتل، والحداثة تَحَدُّث أدواته. يتم تسويق الحرب/القتل؛ كضرورة وجودية، توحّد أمة وتقوّم أخلاقًا، (العنف طريق الحياة القويم). هكذا يسوّق دعاة العنف.

يشير طه إلى الحقيبة التي يحملها. (إنَّها تحتوي على أمتعة لا قيمة لها بنظري، أشياء قابلة للتعويض وغير مأسوف على فقدانها. لكن بينها قطعة لا تعوّض، تعرفها أنتَ، هذه القطعة هي "قماشة معزز الداخلية"، إنَّها أعزّ ما أملك. أعتقد أنني الآن أقتني شيئًا جميلاً، يكتسب قيمته الجمالية من عائديته. فيما تكتسب مقتنياتي الأخرى قيمتها من غلاء أثمانها أو من منشأ صنعها. قماشة معزز النفسية إنَّها "وشاح الجنس" قلدتني الطبيعة إياه سهوًا، تقديرًا منها على حرماناتي، لا بطولة لذكورتي، أنا رجل ذكورته عبارة عن تضحيات وإحباطات. ليست كذكورتكَ أنتَ الحافلة بالجنس. قدر البشر الذين لا خيارهم يجعلهم طبقتين، الأولى تستفيد والأخيرة تضحي. غفلة الصدفة أم حماقتها، أنْ ينتهي لباس مُعزز إلى يدي. حدثني عن بطولاتكَ الجنسية وفتوحاتكَ النسوية. كن صريحًا، (كيف كنتَ مع مُعزز؟ وكيف كانت هي معكَ لحظة القبض على لباسها؟)

- لا، الوقت ليس مناسبًا الآن.

- الآن فقط الوقت مناسب ومناسب جدًا.

يصرّ طه على أنْ الوقت مناسب، أقرأ في عينيه حاجته إلى التزود بالخيال المحروم منه. (لا تجربة بلا خيال. التجربة والخيال يتناويان على تبادل مصدرهما). يحتاج إلى أداة واقعية هي أنا السارد، لعله يرمم بها ملكة خياله المتداعية تحت دوي الرصاص وهول القصف، ها هو يُوشك على التداعي في جبهتي الحرب والحياة. يأبى أنْ تطويه أيهما؛ الحياة بخذلاناتها، والحرب بنيرانها. لا يريد أنْ تحرق حياته، وينتهي حلمه عن المرأة مُعزّز إلى رماد.

ينتهي من تناول فنجان الشاي. يُصرّ على أنْ أقصّ عليه، المغامرة الجنسية، وكيف انتهت إلى استيلائي على لباس معزز بعد وطئي لجسدها. (حدثني أرجوك) خياله المتضوّر يدفعه إلى التسول عند أسوار ذاكرتي. أتنهد، أُعَدِّل ياقة قميصي. أدخن سيجارة وأقدم أخرى إليه. لا يدخن هو عادةً، يدخّن ويشرب في الشدّة والفرج، لكنه يكثر التدخين ويفرط بالشرب عند استماعه إلى حكاياتي الجنسية المثيرة له. لا بيرة هنا الآن، على طاولتنا علبتا سجائر وكبريت وفنجانا شاي جددا بناء على طلبه.

أُجَهِّز غرفتي لتكون صالحة لاستقبال الحالات الجنسية الطارئة. أُشعل شموعًا. أضع باقة من زهر المارغريت في الآنية. أسدل الستائر. أصب البيرة في كأسين وأحيطهما بحبّات مملحة من الفول السوداني. أشغّل آلة التسجيل على موسيقى رومانسية. الغرفة صالحة لخلوة غرامية. نقرات على الباب. أفتحه على جمال العالم الذي تحوّل إلى امرأة. تدخل دون سماح مني. شعر أسود مرفوع. قرطان متدليان. أحمر شفاه فاقع اللون. فستان أحمر طوله يبدأ من القدمين، ثم يتوقف عند الصدر تاركًا إياه يكشف بحرية عنه. قلادة فضية تلمع على لمعان ضوء الشموع الناضح على المكشوف من جسدها.

هي : مساء الخير.

أنا : مساء النور.

هو : (بصوت هامس) مساء الجمال على الجميل.

هي : أملكَ هنا؟

أنا : لا، إنَّها هناك، تقدم واجب البكاء في مجلس عزاء.

هي : يا لسوء حظي.

أنا : يا لحسن حظي.

هو : أنيقة وجميلة أليس كذلك؟

أنا : نعم، ألا أقدم لك كأسًا من الماء البارد، تبلين ريقكِ الناشف و صدركِ العرقان.

هو : إنَّها خجولة ورقيقة.

هي : آسفة، أحتاج إلى عطش فمي وعرق صدري الآن.

أنا : ألا تحبين الماء؟

هي : لا ليس الماء ما أتوق إليه، بل الأنبوب، ما أجمل أنبوبكَ، (تخرج لسانها، تدببه) أنبِبني

هو : (يضرب على صدره ضربات خفيفة متقطعة، يرفقها بعبارة آهٍ المكتومة، فيما ساقاه المهتزتان، تنضمان إليهما، لتعالجان توتراً ينشأ بينهما). آه، آه ...

أنا : (رائحتها تحاصر العطر في ورده. تأخذ كرسيها إزاء سريري الممهد للقيام بأي فعل جنسي تدعو الحاجة إليه. توسع وتضيّق شقة فخذيها المطروحتين على نظري إليها. يتدلى حذاؤها الأحمر من قدمها، نجلس صامتين) ما أجمل شفتيكِ يا معزز، (أدنو بفمي من شفتيها).

هو : طبعاً، شفتاها جميلتان، وهل يحتاج ذلك إلى سؤال.

هي : (تنطرح على بنطها، تهزّ رأسها وتعضّ على شفتيها). أتعجبكَ شفتاي؟

أنا : نعم، إحمرارهما يلهب رغبتي في تقبيلهما. (تُغيّر وضعها إلى الانبطاح على ظهرها، تبلّ شفتيها بلسانها، تفتح فخذيها وتضمهما، مع هامش بصري لملاحظة لباسها الأحمر الشفاف.

أنا : لباسكِ الأحمر الشفاف لائق على حوضكِ.

هي : تخلع لباسها بسرعة، ترميني به.

أنا : (آخذ اللباس، أدسه تحت المخدة واقترب منها). سأحتفظ بلباسكِ تذكاراً.

هي : ما الذي يعجبكَ فيّ؟

أنا : عيناكِ، شفتاكِ، نهداكِ، جسدكِ المثير، روحك الرقيقة..

تقاطعني : بَلا روحي بَلا بَلوط، خليك بجسدي، استمر. تقولها بمياعة، جمالك الآسر، أناملكِ النحيفة، قدمك الصغيرة... أنتِ ما الذي يعجبك فيّ؟

هي : كلك وسائرك، صافي، خير الكلام ما قلّ ودل.

أنا : هذا الكلام قلّ وليس دلّ.

هي : (تدنو مني هامسة)، علامكَ تسرف بالكلام، أجمل الكلام الذي لا يقال. (تأخذ يدي، تلصقها على فمها المفتوح، تلعقها ثم تدسها تحت قميصها الذي أخذت أزراره تنفصل عن عرواتها. تنفخ على وجهي هامسةً). خذني مني.

أنا : إعط الإذن لأثوابكِ بالانصراف، طال مكوث الثوب على الجسد.

هي : تولَّ عُريي.

هو : آه، (يضم طه ساقه إلى ساقه الأخرى عساه يتحكم بالاضطراب الناشب بينهما لذة أو خجلاً. فيما احمرار بادٍ يعلو تدريجياً وجهه).

أنا : باللمسة والنظرة، أبعد ثوباً أبعدني عن عريها، يكشف صدر معزز عن نهدين صغيرين منتصبين. ألامس بإصبعي المبلول بلسانها خالاً يغفو إلى حلمة نهدها الأيسر.

هو : (يصحح متأوِّهاً ولاهثاً). نهداها كبيران ناعمان وطريان، وليسا صغيرين، دقق النظر وصحح القول.

أنا : خال إلى نهدها الأيسر البض المهتز، (أشمّ إبطها، ثم أنحدر لمساً ولحساً من السرّة إلى ما هو دونها، متأوهة، منبطحة أمامي كزبدة أنثوية مائعة، تسيل عليّ، براحتيّ ألملمها. تجتاز إصبعاي السبابة والوسطى شعرها الداخلي البني الكثيف، ثم تنزلق كفي بأصابعها الخمسة في وادي فخذيها العميق باللذّة، تنبعث رائحة جنسية، تحذر من الاحتراق بالرغبة. أضعني عليها، ثم أدسني كلي بين فخذيها، وأدخل فيـ. . . .

ينهض طه فجأة، يحملق بي، يتصدى منفعلاً. أتوقف عن الحديث مذهولاً. ينتصب واقفاً، يرتجف غضباً، يطغى على وجهه احمرار ينبئ بتهور آتٍ. يمسك بياقتي. (كُف عن هرائك، أيُّها المغرور، أنتَ كذاب وخليع، إذا كان الشرف امرأة فهو مُعزز. سآخذ بثأر كل النساء اللواتي انتهكن منكَ) يُطَوِّق رقبتي بيديه. يضّيق عليّ التنفس. (امضِ إلى نهايتك الآن) أحرر رقبتي من يديه بغير صعوبة. أدفعه إلى كرسيه فيرتمي عليه. هول المفاجأة شلّ قدرتي على تصرف أفضل للخروج من هذا الموقف. أصبحنا فرجة مجانية لروّاد المقهى والعابرين. يتحول الجميع إلى كتلة لا حراك فيها. الأفواه فاغرة، العيون جاحظة. تماثيل بشرية متحجرة بأزياء تقليدية فضفاضة. ينطبع الترقب والذهول على

وجوههم المتجمدة الملامح. يتركون أنظارهم مُصَوَّبة نحونا فيما ينصرفون بأذهانهم إلى حدس النتائج. يثير غضب طه المفاجئ وصراخه دهشة النادل أيضاً، يتوجه نحونا مسرعاً، يبحث عن دور له في فك نزاعنا. يُهدِّئ النادل باللمسة الأخوية والكلمة الحسنة من غضب طه.

- أنتما أخوان، وليس للأخ غير أخيه.

يتوقف طه عن الكلام. يرمق الزبائن بنظرة. يلتقط أنفاسه، ينحسر تدريجيًّا الاحمرار عن وجهه. (لا شيء، مجرد سوء تفاهم بسيط وقد انتهى)، يحاول طمأنة الزبائن المتسائلين، بالنظرة وهزّ الكف. يردد زبائن المقهى الذين تدب فيهم الحركة من جديد. (أنتما أخوان وليس للأخ غير أخيه) بصوت عالٍ، يشبه أداءً كُورَاليًّا، تتفاوت فيه طبقات الصوت بين عالٍ، ناشز، رخيم وأجش. يثنون بنظراتهم على فعل النادل ويقدرون فيه حسن تصرفه، فيعود إلى مكانه مزهواً فخوراً بما فعل.

ينهض طه، يقبل عليّ بوجه ينضح عرقًا وخجلاً. يعتذر عن حماقة تقمصته ليعلب دور المعتوه. أقبل اعتذاره. نجلس بعدها صامتين، نبدد الوقت بالنظر غير العابئ بما هو أعلى من مستوى الجالسين. أغاني حماسية تصدر عن الراديو. يقطع النادل صمتنا بصوته الأجش العالي هذه المرة أكثر مما ينبغي.

- فنجانان آخران من الشاي بسُكَر وسط على حسابي.

يثير صوته العالي انتباه زبائن المقهى، فتدوي عاصفة من التصفيق، ننضم بدورنا مصفقين نحن أيضاً. يرد النادل على جمهوره من المعجبين، بانحناءة مسرحية. نتناول الشاي، يبادر طه إلى الخروج من لحظات الحرج السائد بالحديث. يتحدث بصوت هادئ، وأعصاب تُنكر بتماسكها الحالي تهورها السابق. (عدني ألاّ تسيء إلى سمعة مُعزز، بالحديث عنها، كف من أجلي عن إغوائها. هي الحلم الذي يهوّن عليّ حياتي، بينما تمضي الأيام بي من مِحنة إلى مأساة. تخلَّ عنها. اتركها لي، هي حلمي عنها امرأة

لا رجل لها عداي. إنَّها حقي المطلق، بالخيال طبعًا. اكذب عليَّ أرجوك. الكذب أفضل من صراحة لا أنال منها غير جرحها). يبكي وأبكي أنا أيضًا من أجله.

أعد طه بالابتعاد عن معزز المرأة التي لم اقترب منها يومًا سوى بالخيال الذي كان من أجله طبعًا. سأتركها إليه كما يحلم بها. يتهامس زبائن المقهى 'إنَّهما أخوان، وليس للأخ غير أخيه'، ننتهي من تناول الشاي، ونقرر مغادرة المقهى. يرفض النادل أنْ يدفع أينا ثمن الطلبات. يعانقنا ويقبّلنا راجيًا المجيء ثانية. (المقهى مقهاكما أهلاً بكما في أي وقت، الطيبة سر الحياة) بالأمنية وبالنصيحة وبالرغبة بلقائنا ثانية، يودعنا النادل. كان وداعنا ثقيلاً ومتكلفًا. أغادر طه تاركًا له وعداً بالكف عن التحرش بـ(معزز) والإساءة إلى سمعتها. معزز التي رأيتها من أجله.

يعود طه بعد شهر واحد من جبهة الحرب، ليس في شاحنة ولا في باص، إنَّما في صندوق. ليقضي إجازته الأبدية. يمنع أهله من إقامة مجلس العزاء على روحه. يحرمون من التعبير عن حزنهم عليه. يتم تزويدهم بمعدات الفرح، مكبرات صوت، جهاز تسجيل وعشرة آلاف دينار. توجه الدعوات إلى الأصدقاء والأقارب إلى الحضور بأثواب زاهية ووجوه ضاحكة للمشاركة في حفل (عرس الشهيد) (التسمية الرسمية للمأتم)، تستبدل طقوس العزاء بمراسيم احتفال. بالتطبيل والتزمير تُشيَّع جثامين ضحايا الحرب. يزف طه إلى قبره بأناشيد وطنية وهتافات قومية وفرح غامر. تصدر الأوامر بوجوب الانضباط بالتعبير عن الفرح. تعطى التعليمات الرسمية حول كيفية ظهور المواطنين فرحين في المناسبات الرسمية. أنْ يتحلوا بالابتسامة، يزينوا صالات الاستقبال، ويطلقوا (الأغاني الوطنية) عبر مكبرات الصوت. يوزعون الحلوى والعصير. يعود الأهل راضين بعد أنْ شيَّعوا بأنفسهم ابنهم إلى قصره في الجنة. يُؤمَرون أيضًا بالظهور بفرح يحسدون عليه. حيث فقدوا ابنًا ليس في حادث سير، بل شهيد في ساحة الشرف وجبهة الكرامة. يموت هو وغيره لتحيا الأمة عظيمة باستشهاد أبنائها.

يصطَفّ أهل طه لاستقبال المهنئين بالشهادة. يتوافد عليهم ضباط ومسؤولون حزبيون وحكوميون، يبالغ أهل طه بالتعبير عن الرضى خوفاً من البطش بهم. يتمنون بأريحة واضحة لمهنئيهم أنْ تفقد أسرهم فرداً أو أكثر ليذوقوا طعم السعادة الوطنية وينعموا بالشرف القومي الهانئ. في وقت متأخر من الليل يقيم الأهل مأتمهم، بعد استطلاع المنطقة والتأكد من خلوها من مصادر التهديد والترويع المخابراتيين، ينصرفون إلى إقامة طقس حزنهم السري غير المصرح رسمياً على روح فقيدهم الغالي الذي تم اغتياله. يلعنون الحرب ومشعلها. يتفرغ الرجال إلى صمتهم المرّ وحزنهم العميق فيما تطلق النساء صرخات مكتومة وهن يلطمن على الخد وينخرطن بالنحيب.

الجندي

لم يكن هشّاً حد الكسر

ولا ليناً حد الطّي

يسبح في وحدة موحشة

في الإجازة الأولى:

عاد في شاحنة

في الإجازة الثانية:

عاد في باص

في الإجازة الثالثة:

عاد في صندوق

أرفض بشدّة حضور حفل عرس الشهيد طه. يصعب عليّ كتم حزني عليه وانتقاد قتله. يعرف الجميع علاقتي به. ذات مرة قدمني إلى أبيه على أنّي صديق لا يعرف سوى الوفاء. أحجم عن الذهاب إلى أهله وتقديم واجب الفرح بفقدان طه. يصعب عليّ الإقرار بشهادته. لا أجده شهيداً، بل أسيراً تم اقتياده ومن ثَمَّ تَمَّ إعدامه. سيق إلى حرب لَمْ يُستَفتَ بشأنها. لَمْ يُصوت عليها ولا خيار ولا مصلحة له فيها. يُقحم في حربٍ

لَمْ توطد الإيمان فيها. يفنى البشر من الجنود من أجل تراب يبقى ترابًا، ذرات التراب لا تبرر سفك قطرات الدماء. لا ضرورة لهدر دم من أجل أرض لا تغادر باحتلال ولا تعود بتحرير. الحرب خداع سياسي لتبرير سفك الدم. الأرض للعالم والعالم للبشر. مكشوف الظهر يزحف عليه قدر تصفيته.

الامتناع عن الظهور في عرس طه يعرضني إلى المساءلة. يحسب عصيان علني لأوامر حكومية. أعرف أنْ تهمة قد بيتت في الخفاء، وسيأتي الوقت المناسب لهم لمعاقبتي عليها. التُهم من هذا النوع وغيره متوفرة أكثر من السلع الضرورية الشحيحة في السوق. تُهَم جاهزة يجري البحث وإعداد المتهمين من أجلها. أريد أنْ أقيم عزائي عليه بطريقتي الخاصة.

- الحرب العنوان الحركي للقتل.

تأخذ كرسيها إزاء السرير. تهزّ حذاءها. نجلس صامتين. نقرات على الباب. أطلب إليها الاختباء خلف الستارة بسرعة. أفتح الباب على شاب أنيق. يحمل باقة من الروز الأبيض وعلبة مغلفة بورق فضي. اضطرابه ينعكس على حركته وتصرفه. لا يعرف كيف يأخذ مكانه. رجل تخلّى عنه الصبر إلى التوتر. أطلب إليه الجلوس، لنأخذ كأساً من البيرة. اضطرابه يُشَوّش على رغباته ومنها شرب البيرة. عيناه تُكَذبان عينيّ. تاريخ إخفاقاته يأتي على أيّة ثقة بأي نجاح. أتجه إلى الستارة. أرفعها عنها. ظهورها المفاجئ يُعَرِّض توازنه إلى الخلل. يتعثر بظلها. أقدمها إليه. عيناه تحدّقان. فم فاغر. أخاف عليه من دهشته وذهوله بها. قد يتوقف قلبه من فرح ونجاح لم يعهدهما. أبادر إلى وضع نهاية لهذا الوضع والسير بهما إليهما. تتقدم على تراجعه عنها. يتملى بجمالها. يطيل النظر إليه. يختزنه فيه. يقتات منه في لحظات جوعه إليه. أشير إليهما طالبًا إليهما التوقف أمامهما والشروع بالتعرف عليهما.

- الآنسة معزز.

- وهل يخفى عن ناظر جمال.

- السيد طه.

يبدوان غير غريبين عليهما. يمضي إليها أنيقًا يرتدي أثوابًا غامقة شتاءً وفاتحة اللون صيفًا. يحمل مظلة بيضاء لاتقاء الشمس، وسوداء للتصدي للمطر. يقف مدّةً من أجل أنْ يُلقي نظرة يومية خاطفة على جمالها المتجدد. ينتظر ذهابها إلى العمل على الساعة السابعة وأربعين دقيقة صباحًا، وعودتها منه على الثالثة زوالاً. يرجع منها إليه متزودًا بجمال طالما تحسر عليه، وحافظ عليه بإدامة النظر إليه. أتهيّأ إلى تركهما إليهما ليحققا التحامًا جسديًا طالما توهمه طه. أنصرف عنهما. أغلق عليهما الباب وعند عتبتها أشرع بالرقص. يتوقف بي الرقص الذي اختل إيقاعه بارتفاع صوتيهما المفاجئ. (نعم، أرجوكِ). (لا أرجوكَ. جئتُ إليك لأخلع لا لألبس. مزاج مؤخرتي برتقالي هذا المساء، هل لديك مانع).

أستمع إليهما. تعتذر إليه عن ارتداء اللباس الأحمر الشفاف لكي يراه عليها، هذا اللباس الذي قضى أحلى لحظات من حياته الجنسية مستمنيًا عليه. (لست أنا المرأة ذات اللباسين. ترد عليه رجاءه وتمضي بقولها: إلى متى تبقى ترى العالم من أسفل سرّة امرأة) تؤآخذه. (لو أنَّ الجميع رأى العالم كما أراه، لشاعت اللذّة وانحسر العنف وشارف البشر بالعالم على الحرية والجمال. أنقر على الباب، يفتحه طه نصف فتحة. أجيب عليه. (لا لَمْ أغيرّ رأيي، اطمئن. دعكَ من اللغو الفارغ. أطلعها على رجولتكَ بعد أنْ تتصفح أنوثتها).

يبرز إلى الخارج عاريًا. يعانقني شاكرًا إياي على الهدية الجميلة معزز ولباسها الأحمر الشفاف وعلى نصيحة العارف التي تفضلتُ بها عليه. (أنتَ صديق تُهمه مُتعة صديقه، يقول). أدفعه إلى الداخل وأغلقه دونه الباب. تدعوه إليها تفتح ذراعيها، تُطوِّقه وإلى الأبد بهما، يهمد عليها ويخمد فيه شوقه وحبه إليها. ويعتزل قلبه عن النبض.

- لا خوف من فِعلٍ قُوَامه اللذّة.

بخيالي مكّن طه من حلمه المستحيل. لا برؤية معزز شبه عارية وإنّما عارية. تقوم من أجله جميلة. عارية على رغبته فيها. خفيفة من الحزن. حلمه يتحقق ليس لقاء بذل

حياته. لا حياة له بعد الآن كي يرهنها أو يقامر بها. الحلم الذي تعذر تحقيقه، يتحقق الآن فعلاً، لكن بعد موته. نعم، ليس لديه سوى موتٍ يحمل عنه عبء أمانيه.

أسقطُ في أسًى عميق. إلى الخارج ترميني غرفتي المفجوعة بغيابهما، حزينة غرفتي وموحش طريقي. لا مكان يساعدني على الهرب إليه مني. في الحزن العظيم يشتد هياجي الجنسي، وتتفرع كآبة شديدة عنه. أسير في الشارع مسرعاً أتعثر بوجه طه فأرتطم بي. أخور كثور مجروح يبحث عن بقرة خانعة ليقوم عليها. أتسلل إلى العتمات المتجاورة لعلني أعثر فيها عن عاهرة شاغرة، تحمل عني عبء توتري الجنسي، لأتفرغ إلى الحزن وأقيم طقس الحداد على فقيدي. طه ينحدر الآن من أسفل السرّة إلى قلب الأرض، يستقر على موت، يشكو حياةً إليه، بعد أنْ خذلت أمانيه غدرت به.

يتركني أبي إلى شرودي عنه، فينشغل هو عني بانتقاء عدد من الفكرات التي يعتقد أنَّها مناسبة لطرحها عليّ. يستمد القدرة من تأثير كؤوس العرق التي يتناولها.

- دخّن.

- لا أدخن، يا أبي.

يوحي إليّ أبي بتصديق ما أقوله. لكنه ليس مقتنعاً من أنَّني لَمْ أدخن حتى الآن، يقدم لي سيجارة من علبة دخان (بغداد)، إنَّها من النوع المُحَسَّن الخاص بالتصدير، وليس من النوع المخصص للاستهلاك المحلي، فمصنع سجائر (بغداد) الرسمي ينتج صنفين من الدخان، الأول جيد مخصص للتصدير، والثاني رديء مخصص للاستهلاك المحلي. الجيد للأجنبي والرديء للعراقي. يتم تهريب الصنف الأول ليباع في الأسواق المحلية بثمن أغلى). أستمع بجدية إليه. تؤكد ردّة فعلي إليه، أنني أطلع على هذه المعلومات القيمة لأول مرة ومنه بالذات.

يُعدّ أبي كأسين من العرق. ثم يذهب إلى المطبخ ليحضر شرائح البطاطا الرقيقة المقلية والمملحة، أستغل غيابه لأدخن بحرية، وأريحني من عبء افتعال طريقةٍ موهماً بها إياه

على أنَّها المرة الأولى التي أدخن فيها. يضع طبق شرائح البطاطا على الطاولة. تعقبه موسيقى تتصل بأغنية: (زُروني كل سنَة مرة، حرام تنسوني بالمرة). يجلس أبي واضع ساقًا على أخرى. ثم يسحب نَفسًا عميقًا من السيجارة نافثًا دخانها من أنفه.

- المازوات مسلية ومفيدة مع العرق، بصحتكَ.

- بصحتكَ، أبي.

يطلب أبي مني أنْ أضع ساقي على الأخرى، وأنْ أستمع إليه بجدية، القلق يجعل وجهه جامداً وشاحبًا. في الواقع أنَّني أتعرف على دقائق ملامح أبي عن قرب لأول مرة. وجه يميل إلى البياض، نمش يساهم باحمرار، وجهه السمح يتكتم على عدد سنوات عمره. ملامحه تلمح إلى فرح كان ومضى.

تشغلني عن التدقيق به دهشتي الناجمة عن إصراره على تناول العرق معًا. هذا التحول التربوي والأخلاقي الكبير. لا أدري هل أحسب فعل تناولنا العرق وبهذه الطريقة الأريحية. سابقة عائلية أمْ أنَّها مقدمة تبشر بمشروع صداقة جديدة وجيدة بين الأب والابن. يذهب أبي بعيداً فيه، ليعود منه إليّ. يأخذني صاغيًا إلى أبعاد حديثة.

ترسل سيارات إلى تجار محددين، ينقل سائقوها إليهم دعوة عاجلة من رئيس (غرفة التجارة) إلى حضور اجتماع طارئ للبحث في شؤون الوضع الاقتصادي الراهن في ظل الحرب وهي في عامها الثاني، ومن جانب آخر النظر عن قرب في طلبات الاستيراد الموقوفة. يحدد مكتبه مكانًا للاجتماع. يقود السائقون التجار إلى قاعة كبيرة. ويطلب إليهم الانتظار فيها، ثم تغلق الأبواب عليهم إثر مغادرة السائقين وبعض العاملين. تمضي ساعات على احتجازهم كما يراه بعض منهم (هذا يبدو احتجازاً وليس انتظاراً). يأتي رئيس غرفة التجارة صارم الوجه، حاسم الكلام، عسكري الخُطَى. يعتذر إليهم عن التأخير بمفاجأة مفادها أنَّ الرئيس يشرفهم بقبول اجتماعه معهم والتحدث إليهم شخصياً ومباشرة دون وساطة من مسؤول أو من إذاعة. يتململ التجار بين حائر، متوجس ومتردد. فلقاء الرئيس يحتاج إلى تحضير ديباجة في مديحه أولاً، والتمرين

على إلقائها ثانية، هذا فضلاً عن أنَّ سيناريو اللقاء المعدّ سلفًا، يتطلب وقتًا لحفظه والتصرف بموجبه. كما هي عادته الرسمية في لقاءاته الشعبية. فالزلّة غير مغفورة هنا. يلفتون عناية رئيس غرفة التجارة إلى ملابسهم التي تبدو عملية وليست احتفالية. يرد رئيس (غرفة التجارة) عليهم بصرامة ترتجف منها شارباه الكثّان: (الوطن في خطر، وعندما يكون كذلك، يتحول إلى معسكر والمواطنون إلى جنود. الرئيس جندي برتبة آمر أعلى، إنَّه مقاتل ميداني قبل كل شيء. وسوف يلقاكم بلباسه القتالي، وسيفرحه منظركم بلباس معفر بالغبار وبذرات الدقيق وحبات السُكّر. لا وقت للاحتفال الآن. الوطن في خطر ونحن جنده. لا صوت يعلو على صوت المعركة، ولا لباس أجمل من لباسها. (نحن أوّل دولة في العالم محسودة على قائدها، بصراحة). كلمة بـ(صراحة) يوحي نطقها على أنها إضافة شفاهية منه وليست تحريرية أمليت عليه. يسعده عابساً أنْ يضعهم في صورة أوامر الرئيس التي أصدرها إلى الجهات المعنية بوجوب التعامل مع اللقاء هذا كمهمة ميدانية وليس مجرد لقاء. كما يأمرنا جميعًا بأنْ يكون هذا اللقاء ناجحًا وأنْ نكون أيضًا أفرادًا وهيئات عند حسن ظنّه بنا). هو لا يتحدث إليهم بقدر ما يخطب فيهم.

يتوقف أبي عن الحديث، ليأخذ رشفة من العرق.

- عذرًا أبي على المقاطعة، هل يمكنني الذهاب إلى التواليت؟

- نعم.

تشير الساعة إلى الثالثة صباحًا، النافذة المفتوحة تبشر بالضوء والهواء. يغطي القمر جزءًا منه بوشاح أبيض شفاف مستعار من سحابة غادية، يبدو منحرجًا من الحزانَى، وسعيدًا بالعُشاق، وخجلاً من ممارستهم، ومنزعجًا من السكارى الذين هم ليسوا كما نحن. أبي لا يبدو ضجرًا أو تعبًا، على العكس يزداد حيوية. لا يزال لديه الكثير من الأحاديث التي يودّ قولها. فرحتي بالتعرف على أبي متحدثًا تضاعف الرغبة في مواصلة هذه السهرة الكلامية.

يقتحم ضابط مسلح قاعة الانتظار. ينهض رئيس غرفة التجارة. يأمر جميع التجار بالتوجه إلى خارج المبنى. يطلب إلى رئيس غرفة التجارة ملازمة مكتبه حتى صدور أوامر جديدة. يقود الضابط بوقع بسطاله خط سيرهم. يفسر تاجر همساً الزجر والصراخ بهم على أنّه الأسلوب التطبيقي لخطاب المعركة، فلغة المعارك قليلة الأدب وعديمة الذوق. (عندما يضيع الوطن في حرب وظلم لا تعثر على حق أو احترام) تسحق روح التجار المعنوية ويصغرون بنظرهم. يتحولون إلى مجرد قطيع بشري يساق بعصا الضابط. ينتهي المشي بهم عند رتل من الشاحنات العسكرية، تصطف أمام مبنى (غرفة التجارة) وتُحاط بحراسة مشددة من قبل فَصيل من الشرطة العسكرية. يأمر الضابط المسلح التجار بالصعود على الفور إلى الشاحنات. نعم شاحنات وليست إلى عربات فارهة تليق بضيوف وضيفات الرئيس، كما شطح الخيال ببعضهم. لا عربات كتلك التي يظهر فيها الرئيس وحاشيته في تنقلاتهم وفي جولاتهم. (الشاحنات لنا والعربات الفارهة لهم). تقضي سوء المعاملة أثناء صعودهم إلى الشاحنات على حلمهم بلقاء الرئيس التاريخي والمتلفز. على هامش اللقاء، كما تصوّر بعضهم، سيكافِئهم الرئيس على مديحهم له، ثم يدعوهم إلى مأدبة غداء فاخرة في صالات أحد قصوره، يقيمها على شرف المادحين. تنطلق بهم الشاحنات المُغبرة في قافلة عسكرية تتقدمها سيارة عسكرية تقل الضابط المسلح وعناصر مفرزته. تأخذ القافلة العسكرية طريقاً ملتوياً محروسة ببنادق مشرعة من فصيل مسلح من الشرطة العسكرية.

تتوقف الشاحنات في إحدى الثكنات العسكرية. تطوّق فور توقفها بآليات وأفراد مسلحين ناقمين ومدربين على الاعتداء، الإساءة والاغتيال. أجساد بشرية، تم اختصارها إلى عيون متربصة، آذان متصنتة، وأيادٍ متوثبة للبطش. يبحثون عن ضحية لينقضّوا عليها. يتوزع أفراد الحظيرة على الشاحنات. يأخذون أماكنهم في مؤخرة الشاحنات كدرع مسلح يحول دون محاولات الهرب. يأمر الضابط المسلح القافلة العسكرية بالانطلاق. يرجو بعض التجار السماح إليهم للاتصال بأهلهم وإبلاغهم عن تأخيرهم. يُقَابَل بالضرب والإهانة كل من يتفوّه أو يتجرأ على طلب شيء. يتعرض أحد إلى الضرب المفاجئ والشتم بحجة أنّه قد نوى على الكلام وعزم على طلب شيء. (نحن نقرأ القلوب

والعقول معاً). يتأسف بعض أفراد الحضيرة أنَّ مهمتهم تقتصر على حراستهم وإهانتهم وليس على قطع ألسنتهم أو بعض من أطرافهم، مع العلم أنَّ مهنتهم الذبح والتقطيع، كما يصفها أحدهم صُراخاً. بعد رفض طلب توقف الشاحنات، يضطر البعض إلى التبول في مكانه تحت الضرب والركل. (نقطع عضوك ونسدّ حلقكَ به). الجوع يفقدهم قوتهم ويضعف من قابليتهم على النوم. الرعب يتجسد أمامهم على هيئة عناصر بشرية متوثبة تفتك بأرواحهم وتقضي على رجائهم. تدخل الشاحنات إلى الليل الذي يبسط على العالم ظلامه ووحشته. الصحراء المنتهكة رمالها بطرق البشر وعرباتهم، تنذر بالصفير وتهدد بعواء ذئابها. تشفق السماء عليهم بحزمة ضوء من نجمة وأخرى من قمر. يندَسُّون بينهم، يتكاتفون ضد البرد وطلباً إلى الدفء والرحمة من رعب المجهول. ساعات ويطلق الليل العالم إلى الصبح المأسور بالتَوَجُّس.

تتوالى الساعات على سير الشاحنات الملتهمة للمسافة. تتوقف الشاحنات ويقذف العناصر المسلحة التجار على رمال صحراء حدودية. هناك يعرفون أنَّهم خونة وعديمو الأصل العراقي. بقاؤهم أصبح خطراً على الأمن والحضارة. مواطنون غير مرغوب فيهم في وطنهم. مقذوفون بلا دليل في تيه المجهول، يلتزمون بوجهة يشير الضابط إليها بعصاه. بوصَلَتُهم هي تشبثهم بنجاتهم. تُداهم بيوتهم المتداعية بالقلق على غيابهم وتُصادر محتوياتها. تساوم الزوجة بالترغيب بمكافأة مالية كبيرة، نظير طلاق زوجها المهَجَّر، ويخلع الرئيس عليها لقب (الماجدة) عرفاناً منه على تنكرها لزوجها. كما يمارس الترهيب على مَنْ تُصِرُّ على التمسك بزوجها، عندها يزعل عليها الرئيس، كيف تفضل زوجها عليه وعلى أوامره. يقرر تجريدها من كافة الممتلكات، والمقتنيات والحقوق. يتم حجز العوائل الأخرى المغضوب عليها والزوجات العاصيات الأوامر. كما يتم الاحتفاظ بالأبناء الراشدين وقوداً لحروب الرئيس ومغامراته الدموية. يُعبأ الجميع في شاحنات ويُلْقَى بهم كنفايات بشرية ضارة على أراضي العدو. كل مَنْ يُشتبه بولائه ليس عراقياً.

{ أخي العزيز وصلنا إلى طهران، بصعوبة وخوف. فقدت الكثير من العوائل المهجَّرة معنا بعضاً من أطفالها بسبب وعورة الطريق وقسوة المناخ. هاجمنا جنود وقطاع طرق سلبونا، واغتصب بعضهم بعضاً من الفتيات دون أنْ يكون بمقدورنا نحن الواهنين جوعاً وخوفاً أنْ نفعل شيئاً منْ أجلهن أو منْ أجلنا. نحمل على أكتافنا عبء سلامتنا ونجاتنا. لا تطيق الطبيعة ولا بشرها بقاءنا أحياءً. توقفت قلوب بعض الشيوخ من هول الرحلة. كما وفرت فرقة من الجيش المرابط على الخطوط الأمامية من جبهة الحرب عدداً من نساء، أطفال وشيوخ إلى فتح حقول الألغام. المهم وصلتُ أخيراً سالماً. أسكن الآن في مسجد وأتعيّش على صدقات المحسنين. سأعمل لاحقاً عاملاً في متجر. صحتي ليست على ما يرام، لقد كبرنا. طهران تغيّرت بعد الثورة لم تعدّ طهران التي زرتها في السابق، تذكر كم حدثتك عن زيارتي آنذاك، نال انتباهك إقبال الناس على الحياة. إنَّهم مدبرون عنها الآن. يتفانون من أجل الموت وليس لأجل الحياة. تذكر دور المتعة التي تدخلها مفحوصاً من طبيبة وتخرج منها معافًى بمتعة اتصال فرجي بامرأة أعجمية. أعتقد أنَّك لا تزال تتذكر. إنَّها ثورة على الفرح و المتعة وليس على الظلم والاستبداد. على فكرة تسربت أنباء عن دوافع تهجيرنا وإعدام بعض آخر من التجار كانت خطة منهجية، لا أعرف ما المقصود بـ:منهجية؟ هل تعرف أنتَ ماذا تعني هذه الكلمة؟ نعم كانت خطة لإخلاء السوق منا والتحكم به منْ قبلهم. فبعد أنْ تاجروا بالوطن، الإنسان، الأخلاق والدين. نعم، الدين بضاعة العصر الرائجة. الدين تجارة رابحة. الآن جاء دورهم ليتاجروا بالبضائع ويحتكروا السوق لهم وللتجار الذين يعملون لحسابهم. على أيّة حال ليس هذا ما أردتُ التحدث به معك. أرجو منك الاهتمام بزوجتي وابني الذي لا يزال عسكرياً. ساعدهما دون أنْ تُعَرّض نفسك وعائلتك إلى الخطر. إنَّهم قساة، خبرنا قسوتهم، احترس من عيونهم وآذانهم المزروعة في كل بقعة من بقاع الأرض العراقية، شتلات بشرية تسمم الوطن وتفسد أرضه الخصبة. أخوك المخلص}

ينتهي أبي من قراءة الرسالة التي توصل بها سراً.

- هل أنتَ نعسان؟

- لا، لماذا؟

- أسأل فقط.

يطلب أبي مني التوقف عن الشرب ومازاواته وأتجه بالشهية نحو الكعك. يأذن لي بالسيجارة إنْ رَغبت طبعاً في التدخين. يذهب هو إلى الحمام ومنه ينعطف إلى المطبخ. الوقت لا يزال على مناورته الوضاءة في كشف العالم من حجب العتمة. ينتشل صياح الديكة وانطلاق أصوات المآذن الصباح الغارق في الليل. يعدّ أبي إبريق الشاي ويأتي به. يشعل سيجارة وينفث دخانها من أنفه...

(هذه الرسالة من صديقي الحاج مرزه الذي تم تهجيره والاحتفاظ بابنه عدنان وأبناء المهجرين الآخرين لاستغلالهم في ظروف الحرب. وبعد انتهاء هذه المدة. يُلْقَى بهم كمهجرين ومنبوذين إلى أراضي عدو قاتلوه طلية فترة خدمتهم العسكرية الإلزامية. أما زوجة الحاج مرزة المتوارية عن الأنظار والأسماع تحاول أن تخبئ الباقي من الأموال المُصادرة والمُراقبة. تعرف أنتَ صديقي الحاج مرزه، أليس كذلك؟).

أجيب بنعم إشباعاً لحاجة أبي إلى التصديق. في الواقع لا يُسْمَح لي الجلوس مع ضيوف أبي، وإنْ حدث ذلك، فمطلوب مني السلام على الضيف دون النظر إلى وجهه. لا أذكر شيئًا عن اللقاء سوى أمر تنقله أمي عن أبي: (اذهب وسلّم على ضيف أبيك). أقف بين يدي الضيف حاني الرأس، خافض البصر. (هذا هو ابني قبِّل يدَ عمكَ)، هكذا يأمرني ويقدمني أبي إلى ضيفه مطيعاً وخجولاً حاني الرأسي، أقبِّل يد الضيف اليُمنى وأنصرف شاكراً وليس مشكوراً. كل ضيف يزورنا هو عمي بفرض من أبي. يتكاثرون مع مرور الوقت وتعدد الزيارات عمومتي دون أنْ أتبينهم وأتبين حقيقة العلاقة التي تربطهم بأبي. يجب أنْ أنادي كل ضيف من ضيوف أبي بـ(عمي). رغم أنَّ أبي لا أخ له.

يذهب أبي إلى الغرفة. أشعر بشيء من التعب أنتقل من الكرسي إلى الصوفة، عليها أغير وضعي من الجلوس إلى الاستلقاء. يعود أبي حاملاً خنجراً فضيًّا. أنهض على

قدومه. يطلب مني الإبقاء على الوضع الذي يريحني. {إنّه هدية من الحاج مرزة} يذكّرني الخنجر الفضي ليس بالحاج مرزه، وإنما بقصة الخنجر ذاته.

يهدي الحاج مرزه أبي الخنجر عربونًا لصداقته. {أنتَ صديقي الأوحد، صدقني} يثني أبي عليه، ويعبر بدوره عن اعتزازه بهذه الصداقة الأسبوعية. يلتقيان في مقهى {زيد}. تأخذ المقهى طابع النادي. روّادها أقرب إلى الأعضاء. لا يسمح بالغياب دون إذن مسبق، والمخالف منهم يعاقبه أعضاء مجموعته بدفع ثمن طلباتهم. يرتادها نخبة من سكان الحي. هم معلمون، موظفون، طبيب المستوصف والتجار الثلاثة هم أبي، الحاج مرزه، والسيد نعيم.

أصبحت المقهى مع مرور الوقت وشيوع السمعة حكرًا عليهم. يمنع روادها مشاهدة التلفزيون أو سماع الراديو. يسخر زبائن المقاهي الأخرى من روادها بنعت مقهاهم بـ{مجلس عزاء ثقافي} يتوزع رواد المقهى على مجموعات: {مجموعة طاولة الزهر}، {مجموعة الدومينو}، {مجموعة ورق اللعب- الكوشينو}، ثم تفرعت عن الرواد مجموعتان أطلقوا عليهما: جماعة {طق الحنك- الثرثرة} و{جماعة وجع الراس}. يجلس أعضاء الجماعتين إليهم، بعد تبادل المديح، يتداولون الأخبار المأذون رسمياً بتداولها ويكون مصدرها الحصري الإذاعة والجريدة الرسميتين. تسمح السلطات الرسمية أيضاً بالحديث عن متاعب المهنة وجديدها. لقد تم تأميم الكلام في العراق. يمكن لكل مواطن التعرف على حصته اليومية من الحديث عبر بلاغات الإذاعة ونشرات الجريدة. ربما يحدث غلط يكلف حياة. قد يمتدح أحد صديق الأمس الذي أصبح اليوم عدوًّا، أو عدوًّا أصبح اليوم صديقًا فأوقف الشتم عنه وأُطلق المديح عليه. هذا قد حدث فعلاً مع السيد موحان الذي قام بمدح الصين على موقف في إحدى جلسات استراحة الغداء. مما دفع ضابط أمن الشركة التي يعمل فيها إلى استدعائه وتعنيفه.

- الصين أصبحت عدوًّا.

- متى، أمس الأول كانت صديقًا ومدحناها على مواقفها

- نحن أبناء اليوم وليس أمس الأول.
- بالأمس كنتُ مريضاً ولم يتسن لي الاستماع أو الإطلاع.
- لكن الوطن والنضال متعافيان، يمارسان فعلهما في ضمائر الشرفاء.
- عفواً.
- اقرأ الجريدة واستمع إلى الإذاعة لتعرف عدوَّكَ من صديقكَ.

يعفو ضابط أمن الشركة السيد جبار عن السيد موحان على سهوه؛ بوصفه الأول، ويتوعده بعواقب وخيمة في حال تكراره ثانية. (الإنسان لا يخطئ مرتين، الأولى سهو والثانية حماقة. الأذكياء يخطئون بإرادتهم). يقف السيد موحان متأخّراً بعض الشيء على وقوف السيد جبار المفاجئ. (لقد انبَحَّ صوت الرئيس من نصحه لهذا الشعب غير الجديرِ به. شعب جاحد حافٍ. الرئيس أول من أدخل الحذاء في قدم الشعب العراقي الذي قضى تاريخه حافياً. لقد قَنْدر شعبه. شعوب المنطقة تتمناه لها وتحسدنا عليه مثل: المغرب، موريتانيا، تونس، فلسطين، الأردن اليمن وصعيد مصر. كلهم إلاّكم يقسمون بحياته. يرفعون صوره. يطلقون اسمه على مواليدهم، ما اسم ابنك؟) يرجّف الخوف جسد السيد موحان الواقف بصعوبة. (عليان يا سيدي) يضرب بقبضته على الطاولة حانقًا. (شفت كم أنتَ جاحد بالقائد أيها المواطن، غيّر اسم ابنك فوراً. اعتبر هذا الأمر مهمة قومية. اغرب عني، حرقت دمي). يشكر السيد موحان السيد جبار ضابط أمن الشركة على عفوه وعلى كلامه الجيد، يعتبره درساً في التثقيف والوطنية. (إنَّه درس بليغ وليس إهانة بذيئة) قبل إغلاق باب مكتب السيد جبار دون السيد موحان، يلتفت إليه متسائلاً فيما إذا كان مأذونًا له أنْ يمدح فرنسا. (لا أعرف لماذا خطر على بالي مدح فرنسا) يتنهد السيد جبار، يعقد ذراعيه على طاولة مكتبه الفارِه. (فرنسا صديق من الآن وحتى إشعار آخر. لكن إذا احتجت إلى إشباع غريزة المدح فيكَ، فيفضل الآن مدح كوبا، امدح كوبا) يذهب السيد موحان في إجازة إجبارية ويعود طائعاً إلى عمله، يشهر وثيقة تثبت إطلاق اسم الرئيس على ابنه.

يضع زبائن مقهى زيد عداهم من الزبائن الطارئين أو الأغراب في موقف حرج لدى جلوسهم فيها. يجدّون في تكريس شعورهم بالغربة بينهم، يذكرونهم بالكلمة والحركة غير المباشرتين بتطفلهم على مقهاهم. يتقصدون الحديث بصوت عالٍ عن علوم الفلك وأخبار البورصة. يصغي زيد إلى روّاد مقهاه. يفخر بنوعيتهم. يومئ برأسه عن إعجابه بحديث لا يُفهم شيئًا منه. ولِمَ يوسع آفاق فهمه، ما دام في العالم فاهمون؟ لِمَ لا يحصر نشاطه الذهني في إتقان حساب الطلبات وإجادة تحضير المشروبات الساخنة؟.

يأتي التجار الثلاثة ظهيرة كل جمعة. فيما الباقي من الروّاد يتوافدون على المقهى مساءً. يلعب أبي والحاج مرزه (الدومينو). يتدهور مزاج الحاج مرزه في حال خسارته أمام أبي. يعزي خسارته إلى إصابته المفاجئة بمغص معوي وشعوره بالحموضة مما أفقده القدرة على التركيز والسيطرة على مسارات اللعب. (الدومينو حظ قبل أنْ تكون كفاءة ومهارة) يخفف أبي من وقع الخسارة عليه. يغادر الحاج مرزه المقهى مهمومًا، يتوهم وهنًا وارتفاعًا مفاجئًا في درجة حرارته. يجتاح ظلام مجهول المصدر أقاليم فرحه. تتقلص شهيته إلى الطعام، يأخذ دوشًا ويأوي إلى الفراش باكرًا. قَبل أنْ يخلد إلى النوم، يرسل ابنه عدنان إلى منزلنا لينقل لأمي رغبة أبيه باستعادة خنجره الفضي دون ذكر الأسباب. أمّا في حال فوزه، يكون سعيداً ويميل إلى المرح. (لعبة الدومينو تتطلب لاعبًا بارعًا ومحترفًا، طبعًا، وليس هاويًا، اذهب تعلّم اللعب، ثم تعال والعب). يرفع يده إلى مستوى أنفه. يهزّ كتفيه. يحرّك رأسه. هزّات وحركات متتالية راقصة مع دندنة بأغنية شائعة. (ادّلع يا غسيل على وجه الميّه. إمسك شعري وإمسك إيدي. على وجه الميّه)، ثم يباشر على الفور بإذاعة نبأ فوزه على الداني من الجالسين والقاصي من العابرين. يذهب إلى البيت مرتاحًا، يميل إلى المرح، يضحك بلا سبب ويتصنع أحاديث مسلية وطريفة. يُقبل بشهية على تناول طبق سمك بالبهار، الثوم، البصل وصلصة الطماطم، يُحضر الطبق في البيت ويُشوى في فرن المخبز القريب. يأخذ حماماً. يتربع على الصوفة في الصالة. قبل أنْ يخلد إلى النوم يكلف ابنه عدنان بإعادة الخنجر الفضي إلى أبي مشفوعًا بأرق تحياته وأطيب تمنياته بحظ أوفر.

أعرفُ قصة الخنجر الفضي من أمي. تمازح أبي لدى عودته من المقهى، هل أهيئ الخنجر لأنّ وجهك يشي بالفوز.

- هل خسرت أمامه آخر مرة؟

- لا، على ما يبدو أنَّ أمك لا تخبئ شيئًا عليكَ.

يكلف أبي خالي الأخ الأكبر لأمي بالقيام بمراسيم دفن أمي، وأنْ يشرف على إدارة مجلس العزاء ويقف في صدر المجلس يتقبل التعازي نيابة عن أبي وعن العائلة بأسرها. يتحمل أبي كافة النفقات المالية. فيما ينصرف هو إلى جهة لا يكشف عنها. (هناك أقيم طقس حزني على رحيلها) يترك أبي لي الخيار في الطريقة التي أريد أنْ أعبر بها عن حزني على أمي. أفضل الذهاب إلى منزل خالي حيث تنصب في شارعه خيمة شعر سوداء كبيرة. تُفْرَش بالسجاد. يبث القرآن عاليًا عبر مكبرتي صوت توضعان على سطح المنزل. يتم استئجار طاقم يتألف من طباخ ماهر، بضعة مساعدين وعدد من قدور كبيرة وأطباق متفاوتة الأحجام. يعمل الطاقم الغذائي على تأمين طعام راقٍ يسد حاجة العشرات من المُعَزين.

- البقاء في حياتك.

- حياتك الباقية.

يتوافد المُعَزّون على مجلس العزاء من مختلف الجهات القريبة والبعيدة التي يتطلب حضورهم منها قضاء يوم أو يومين. تقدم إلى عموم المعزين ثلاث وجبات على مدى ثلاثة أيام. يتطوع رجل عجوز بإعداد القهوة المُرَّة البدوية الأصل ويقوم بتقديمها بنفسه. يتم تناولها أثناء الفترات الفاصلة بين وجبات الطعام. يأتي المعزون بأزياء مختلفة، تشي بأمكنتهم ومكانتهم. استعراض فلكلوري، كامد اللون ومتنوع الأزياء. مدنية، ريفية وأخرى بدوية لإحياء حفلة العزاء. يأخذون أماكنهم في الخيمة حسب المكانة، الجاه والقرب من أهل الميت. مختلفون يوحدهم حدث الموت. يمكن أنْ يحدث في جو المأتم تعارف بين أشخاص، يسمعون عنهم دون يرى بعضهم الآخر. يساعد عمق

الحزن على غموض المصير الإنساني في تطهير النفوس من براثن السوء، ويميل بها نحو الطيبة والنقاء. (دنيا توفر أحياءها إلى الموت. أنتم السابقون ونحن اللاحقون).

يسود جو من التسامح، وتظهر الحاجة الروحية إلى تقويم السلوك والترفع عن الصغائر. ينخرط أشخاص في عملية عتاب، يعاتب أحد بلطف غيره على موقف كان قاسياً فيه. يبادر الشيوخ إلى إقامة مصالحات بين متخاصمين. يقوي الميل إلى طي صفحة الماضي المؤسف وفتح صفحة بيضاء في حاضر جديد. (نحن أبناء اليوم، ورثنا بغضاء، لِمَ لا نورث محبة؟).

يبلور حدث الموت الجليل دعوة إلى إصلاح الأحوال الذاتية والعامة والإعراض عن دناءات الدنيا. (كلنا على هذا الطريق، إيهٍ، دنيا فانية، يزول الإنسان وتبقى أفعاله الصالحة تطيّب ذكراه. الفعل الطيب علامة الخلود). يتدافع كثيرون -الكريمون منهم والبخلاء- على تحقير البخل وازدراء البخلاء. يتفه الطمع وتسفه الشراهة. (لا ينهي عين الإنسان عن الشراهة غير التراب. إيهٍ، دنيا خادعة، لا أحد يحمل مالاً ولا جاهاً إلى قبره، الأفعال الخيّرة شموع تضيء عتمة الزوال) يحطّ من التسرع ويرفع من شأن التأني، يتطوع آخرون إلى التخفيف من وطأة الشعور بفاجعة المصير الذي سيؤول إليه الإنسان. (الحي أبقى من الميت) يتحول مجلس العزاء إلى مناسبة لإعلان وفاة الطموحات وتشييع الرغبة في الحياة إلى مثواها الأخير: القبر. يقوى الإنسان على ضعفه في مواجهة الموت بالحكمة، الصبر والتسليم بقدره. (الأفعال الخيرة أقساط دنيوية، يقدمها الحي إلى الموت، ليحصل مقابلها على حوريات حسان وغلمان مخلدون يطوفون عليه في قصره الكائن في الجنة)، هكذا يمني رجل رجلاً آخر، يأتي اليأس على أمله. أمام عظمة الموت تتجسد ضآلة الحياة، الإنسان عظيم بضعفه وليس بقوته. العالم ليس لنا، لا ليس للأحياء منا ولا الأموات. إنّه للموت فقط، الحياة مصنع لتغذية الموت بالأموات. الحياة وجود لاهٍ وعابث بالمصير. الزمن جلاد الكون، يسوق الكائنات إلى حتفهم واهنين ومرعوبين، لا نرث عن الوجود غير فاجعة العدم.

رأيتُ أنَّ الموت غيلة
رأيتُ أنَّ الموت في كل شيء ومن كل شيء
رأيتُ أنَّ الحياة تعد بالموت وتتوعد به
رأيتُ أنَّ مَنْ ضاقت حياته اتسع موته
رأيتُ أنَّ الحياة تتخلى عني إلى موت لا يتخلى عني

يتابع المتطفلون أخبار الموتى عبر صفحة الوفيات ونشرات المآتم، فينتقون مجالس العزاء في الأحياء الغنية، تكون هدفاً دسماً لإشباع بطونهم. يتقمصون دور الحَزانى والمفجوعين بوفاة الفقيد. هناك شخص متطفل، بدين وضخم البنية يُدْعى (قاسم الحصان)، يعيش على فضلات مجالس العزاء. تميل بشرة وجهه إلى الاحمرار، أصلع. يضطر إلى الحضور مشياً، كي يتجنب فضول الآخرين ومضايقتهم له وسخريتهم من بدانته. يلاحقه أطفال الحي الذي يقيم فيه بأصوات منغَّمة. (دبّة حميسة - دب سمين). تخذله بدانته في التصدي لهم والحدّ من إهانتهم. تذهب شكواه وتذمره منهم عبثاً، فأهل الأطفال يسخرون منه هم أيضاً. يترك غرفته مبكراً ويعود إليها متأخراً. يعتقد أنَّ جو الحزن في مجالس العزاء يحفظ عليه قَدْراً من كرامته المستباحة طوال ظهوره. يحضر في وقت جيد، يسلم على الحاضرين، يرفع يده طالباً منهم قراءة (سورة الفاتحة على روح المرحوم). لكنه سرعان ما يستدرك بلمحة خاطفة على وجوه المعزّين المستنكرة، أنَّ المتوفى امرأة وليس رجلاً. فيعيد قوله مصححاً بصوت أعلى من المرة السابقة. (الفاتحة على روح المرحومة)، لعله يسرع إلى إزالة آثار زلّة لسانه.

يمضي 'قاسم الحصان' أيامه عاطلاً عن العمل، ينساه العالم، لكن الزمن لا يغفل عنه، فيرشد من وقت إلى آخر المرض إليه. المرض والحزن لا يضلان طريقهما، فيما الفرح سرعان ما يضيع الفَرِحين، فيعثر الحزن عليهم. أمَّا الموت ذلك المتربص لا يغفل برعبه عن أحد. يقضي 'قاسم الحصان' زمنه معزولاً ويمضي يومه مهاناً مقابل الحصول على وجبات ليست دائماً ثلاث. يُسمح له حضور مجلس العزاء والجلوس في مدخل الخيمة بين ركام أحذية المعزّين المخلوعة. ينتظر بلعاب يسيل انتهاء الجميع من تناول

الطعام، لتقدم إليه بعد ذلك فضلاتهم. هناك مَنْ يحسن إليه بقطعة لحم أو مبلغ زهيد شفقة عليه.

يجمع المعزّون في أحاديثم على (حسنات المرحومة)، أمي المتوفاة أفضل وأكرم من أمي عندما كانت عائشة. هؤلاء المجتمعون في خيمة مأتمها، يجمعون على أنّ الجنة مأواها، مكان طبيعي ترثه عن حياة أمضتها بالأخلاق الحميدة. لا أعرف سرّ ظهور الأموات على أنّهم خيّرون وطيبون. يستبشع أي حديث ينطوي على إساءة إلى ميت أو انتقاد فعلٍ من أفعاله. (اذكروا محاسن موتاكم، هكذا يتردّد) إذا كان الأموات طيبين والأسلاف صالحين، كيف ورثنا عالماً بشرياً متدهوراً وطبيعة سيئة. أحتاج إلى التأمل، لعلني أدرك سرّ إجماع الأحياء على محاسن الأموات ومنهم أمي. هي تلازم المنزل لا تغادر إلاّ لتقديم واجب العزاء أو المواساة على فجيعة. تقدّم عوناً معنوياً وليس مادياً. (تسخى على المحتاج بالدعاء، وتشير على السائل بالتوجه إلى السماء وليس لها. لا أحد يدين لها بشيء. تُقدم أحياناً نصائحاً، لكنها تالفة، أتى الزمن على صلاحيتها. تقاطع الفرح البشري وتصفه بخفة العقل. العاقل مَنْ يجد بالحزن. على قدر الطلب يأتي الحزن) تجدها في حزن وتنكرها في فرح. لا فرح لها، وإنْ فرحت، فذلك من أجل غيرها، وغيرها لا أحد سواي. تعتبر حضور حفلات الزفاف والختان مضيعة لوقتها الثمين بالحزن والانتظار. تتشح بالأسود حداداً على حياة تقضيها بانتظار الموت، وانتظار بلوغ الطفل الذي تمخّض عنها رجولته. (يوم سقط غير مأسوف عليه من مفكرة أيام الانتظار) تحذف أياماً لعلها تصل إلى اليوم الذي تراني فيه رجلاً ناجحاً وزوجاً سعيداً ينجب لها حفيداً. حتى تحقق أمانيها هذه. تقضي على الوقت بإعداد الطعام، تنظيف البيت ونشر الغسيل. تتملق نوماً متمنعاً لعله يمنّ عليها بحلم أكون أنا بطله. (أنت حلمي ومسوغ بقائي على قيد الحياة، تقول أمي وتنخرط بالبكاء).

ذات يوم يأتي أبي حاملاً ألم وهم خسارة صفقة لبيع الألبسة النسائية الجاهزة. يفشل حزنه في التوسط بينهما وتقريبهما منهما. تنكر حزنه عليه. تقتصد بمواساتها. تنهال باللوم عليه، تؤآخذه على غفلته وقلة حيلته.

- لا يجوز لكَ المقامرة بمال ليس لكَ الحق فيه، إنّه مال ابنكَ.

يقبل أبي عليها في مناسبة أخرى منشرحًا حاملاً علبة سوداء مخملية، يقدمها إليها كـ(حُلوان) عن ربحه في صفقة تجارية. تبخل عليه بكلمة شكر، ترخص هديته الغالية، تلقيها في أسفل درج من خزانتها، لم تكلف نفسها حتى فتحها والنظر إليها بحضوره. تتركه يتناول عشاءه مع فرحه. فيما تنصرف عنه إليّ. تدخل إلى غرفتي فرحة، تحمل طبقًا من الحلوى. تبشرني بفوز أبي بصفقة من أجلي. تجلس إليّ تقاسمني فرحة لا دور لي في صناعتها. تحدثني حالمة باقتراني بأخرى، ترجو أنْ تحبني كما تحبني هي، تخطط لإقامة حفلة العُرس في صالة فندق كبير. ثم يقوى حلم آخر، فترى أنْ يأخذ الحفل طابعًا آخر، على أنغام فرقة موسيقية تزفني وعروستي إلى محطة القطار. (سأتخلى عن الأسود إلى الأزرق وأرقص من أجلكَ، سأشهر زفافكَ، ليعلم الجميع به، وخصوصًا هذه جارتنا الحسود 'أم خليل' سليطة اللسان. سيعرف الجميع منْ يخلف ويُحسن التربية لا يموت أبدًا، ثم نودعكما أنتَ وعروستك لتأخذا القطار إلى البصرة، هناك في أفخر فندق، تمضيان شهر عسلكما). تهديني منديلاً أبيض، أحتفظ به وأعود به إليها وعليه بقع من دم غشاء بكارة عروستي المفضوض. تشهره إلى العالم وإلى جاراتها كدليل على عِفة ورفعة أصل زوجة ابنها.

ترشح أمي عددًا من الفتيات للزواج. تُصنف النساء إلى ثلاثة أصناف. صنف يصلح للزواج، صنف يصلح للدعارة وصنف يصلح للمُعابثة. أضيف لها صنفًا آخرًا مفقودًا يتم التآمر عليه اجتماعيًا إما بالدعارة وإما بالزواج. صنف نساء منذورات للحب. صنف نادر لكنه موجود يمنح الوجود بُعدًا جماليًا ويقربه من الحرية. تتجاهل أمي هذا الصنف الذي يوجع القلب ويقلق النوم. تطالبني بتجنبه. تحذرني من المرأة التي لا هوية لها. المرأة المشكلة من صفات منتحلة من الأصناف الثلاثة. تخاف عليّ من المرأة الملتبسة الصنف، وهن كثيرات وحاذقات كما تزعم. أما المرأة العاشقة موجودة فعلاً، لكن في الحلم، الشعر والقصص، (كن واقعيًا يا ولدي ولا تهدم بيتكَ فتتداعى عليك حياتكَ، تقول أمي).

أخرج إلى الصالة من تحت عباءتها محروساً بالأدعية والصلوات. يتربع على كرسي أبي غيابه. يخلف سؤالاً صامتاً. لا تتفضل أمي عليه بسؤال أينكَ. عشاؤه متروك على الطاولة، معروض على البرودة وفساد الطعم، يطوي جسده ويحمله بعيداً عنّا. يغادر منزلاً ضاق بسعة فرحه.

تتصاعد القصص عن فجائع الحرب. يتزايد عدد الذاهبين إلى جبهات الحرب والعائدين منها بصناديق. أخذت الحرب ابناً من كل أسرة. السواد والحزن يشغلان منازل غائب عنها أحبتها. يتزايد قلق أمي وخوفها عليّ. (الحرب لا قلب لها، لأنها لم تكن أمّاً ولن تكون. أبناء الحرب آباء شرعيون للخطيئة. تقول أمي) يحولها القلق على مصيري إلى صفيحة بشرية محشو أنا فيها. أطوف عليها، نعشاً محمولاً على الأكتاف أو جريحاً نازفاً مبتور الساق. أحيل حلمها إلى كابوس. في نوم وفي يقظة تجدني مهدداً بالقتل أو الإعاقة. قصص الحرب وأخبارها تصوّراني إليها قرباناً مسفوح الدم على مذبح الحرب.

يقدم المعزّون مبلغاً من النقود، كل حسب قدرته. نسميه في عرفنا (العذر)، تعبير مالي عن المشاركة الجماعية في تحمل أعباء نفقات الدفن ومراسيم العزاء عموماً. يحسب هذا المبلغ المقبوض ديناً آجلاً، يتم تسديده في مناسبة مماثلة. يعدّ خالي الدنانير المقبوضة من المعزّين. يدون أرقاماً أقل من إجمالي المبلغ المقبوض. بعد انتهاء مراسيم العزاء يقدم خالي تقريراً مغشوشاً إلى أبي. كون أبي هو المسؤول عن دفع استحقاقاتها. ظهوري غير المتوقع يربك خالي شيئاً ما: (هل تعشيت يا ابن الغالية) يعب ماءً في جوفه، يتوقف عن الكتابة، يفتل طرفي شاربيه وهو يسألني. أقف أمامه بملامح تنكر دهشتها: (لا شهية لي في الطعام، يا أخ الغالية. يأتي خالي من وقت إلى آخر بمبادرة منه أو بطلب من أمي، يطلقان على لقائهما (جلسة ذكر)، يتذكّران معاً أباهما وامهما الراحلين.

تعد أمي حلوى تسمى (حلوى الفقيد)، تصنع من التمر المفروغ من النوى المقلي بالسمن والمخلوط بالسمسم. تقسم الحلوى هذه إلى قطع على عدد من أرغفة الخبز.

ثم تطلب أمي مني القيام بتوزيعها على الجيران. يأكل خالي الحلوى وغيرها من المأكولات بشهية لافته، يتلمّظ ويمطّق. لا يفقد شهيته تحت أي ظرف، يؤمّن عليها ضد تقلبات الأمزجة. خالي بدين يربو على الأربعين. يلهث دائماً وينضح عرقًا صيفًا وشتاءً. يشرب الماء باردًا، ليس بالكأس وإنما من الابريق رأسًا. ثم يدس يده في الإبريق يبلل أصابعه ويبخّ ماءها على وجهه وعلى رقبته، مُهَمْهِمًا، 'لاه، لاه، أفيش، يالطيف، بردوة'.

تلعب أمي دوراً في زواجه من فتاة يتيمة الأب تعمل أمها منظفة في إحدى المدارس. جمالها اللافت مرشح لإلغاء الفارق الاجتماعي. يحتوي خالي فارق السن بينهما بالمال. (لا تحتاجين إلى شيء، منزل مؤثث، مال وفير ورجل مهنته سمسار عقارات معروف في الحي وفي دائرة التسجيل العقاري الرسمية، هو صديق شخصي لرئيس الدائرة ويشرب الشاي في مكتبه كل ضحى يوم ثلاثاء. يلازم منزله، شغوف بعمله. لا يخرج إلاّ إلى مكتبه ودائرة التسجيل العقاري، ويعرف الأصول، تجدينه حزينًا في مأتم وفرِحًا في عرس. شعاره (ابعد عن الشر واسكت عليه). ماذا تريد الزوجة الصالحة بالإنجاب أكثر من ذلك. لا شيء فوق الجاه، المال والزوج الصالح بالعمل). بهذا الوصف تقنع أمي الفتاة ووالدتها.

يثني خالي على فضل أمي في مسألة زواجه. أمي من طرفها تحب أنْ تسمع ثناءه عليها دائماً. تطلب أمي إلى خالي أنْ يتقصّى فيما إذ يكون أبوهما مدينًا لأحد بمال أو أي شيء آخر، لتقوم بتسديده؛ كيلا يُكوى بنار الجحيم ويُعذب في مماته كما تحسب أمي. (صدقيني، أقسم لكِ بشرفي العزيز وشرفكِ الأعز، أنَّ أباكَ ينعم بالفردوس الآن يتخذ من أجمل الجواري لباساً ومن أملحهن غطاءً وفراشًا. وحياتي عندكِ. ما أنْ ينتصف النهار حتى يفض أبوك بكارة مئة عذراء من الحسان اللواتي يشتهين قلبي وز... . أنظرُ بعقلي إليه، انظري أنتِ بعقلكِ أيضًا، ها هو يلوح لنا باسمًا، يطوف غلمان مؤنثون عليه بكؤوسهم وكاساتهم. انظري، كيف يخوّض عاريًا في نهر اللبن، يلحس العسل من كاسة ويلُق الخمر من كأس).

- لا تسيء لأبيكَ، إنَّه رجل مؤمن لا يقرب الخمر.

- الخمر حلال في الآخرة.

- كيف يكون الخمر حلالاً في الآخرة وحراماً بالدينا.

- تلك حكمة إلهية لا ندركها نحن البشر الفانون.

- ما هذه الحكمة المخمورة.

يحجم خالي عن شرب الخمر في الدنيا لأنه غالٍ وحرام من جهة وأغلبه مغشوش، كما يزعم. ينتظر حتى يموت، كي يشربه هناك في الآخرة بالمجان وبالحلال فضلاً عن كونه خمراً إلهيًّا لا تطوله يد البشر بالمكرويات والغش. يغطِّس هو وأبوه نصف جسديهما في بحيرة اللبن، يتناولان الخمرة الإلهية، تحلق من حولهما الحسان من الحوريات ويطوف عليهم الملاح من الغلمان. يرد على حرمانه بالتمني. لا يطيق أبي خالي. يتهرب من لقائه ويستاء منه خصوصاً عندما يحدثه في موضوع ما ويبدأ قوله يا صِهري أقسم لكَ بشرفي العزيز وشرفكَ الأعز. يقاطعه أبي دعكَ من شرفي فهو مشغول بما هو أهم، ابقَ في شرفكَ الشاغر للقَسم.

أتقدم من خالي، أضعه في صورة رغبتي العاجلة في مغادرة مجلس العزاء الآن. حزني عظيم، وعندما يكون حزني هكذا، يشتدّ هياجي الجنسي وينشط ميلي إلى التهكم والسخرية. أنصرف عنه. تنتابني مشاعر متضاربة وغريبة. هل يمكن أنْ أختار نهايتي بنفسي وعلى مزاجي، لماذا لا أنتزع المبادرة في موتي. لماذا أموت بإرداة غيري من قدر ومرض؟ لماذا نسيء إلى الموت برعبنا منه؟ أليس الموت فعلاً كفعل الولادة؟ لماذا نرهبه؟ لماذا نخاف من العودة إلى عدمٍ جئنا منه؟ الموت الفعل الوحيد في حياة لا تستحق منا الفعل، أليس الموت خلاص من حياة لا حياة فيها ولا خلاص منها إلاّ بالموت؟ وأذهب إلى أبعد من ذلك: من المؤسف أنْ يكون الموت خاتمة لحياة في طور النشوء. الموت لا حياة تشغله، فيما يشغل الموت الحياة. الحياة تقوم على دواعي الموت. فيما الموت يقوم عليَّ بالموت وليس على الأموات.

أسير، أشعر أنْ جسدي فضفاض على روحي التي تضيق. تتراجع أصوات المعزين ومكبرات الصمت عن متابعتي، صمت يتقدم ليطويني فيه. أوقف سيارة تاكسي.

- إلى شارع النضال، من فضلكَ.

أجلس في المقعد، يتركني التفكير لحظة، أخلد إلى مشاعري المضطربة. ينطلق سائق التاكسي البدين بالسيارة. يضع على رقبته الناضحة عرقًا منديلاً، أذهب الحر والرطوبة العرق ببياضه. تترهل طبقات شحمية على عنقه. تجتاز السيارة شوارع مزدحمة. إشارات المرور غير المبرمجة بدقة تضاعف الازدحام وتعرض الشوارع إلى الاختناق. يطلب مني مضاعفة الانتباه وتشديد النظر. يشتعل الأحمر، يتوقف ويتحرك عند اشتعال الأصفر فالأخضر. بعد قطع مسافة قصيرة يصطدم بالأحمر. (أهلاً بالأحمر. تصور يا سيد هذه هي حالنا اليوم من أحمر إلى أحمر). يتخذ المقود كدُفٍّ ويشرع بالنقر عليه بيده اليمنى فيما تمسك يده اليسرى بالمقود. (أحمر يا احمراني، مين قسّاك عليّ، يغني ساخراً) يضحك متهكماً. أخذ على كراهية الأحمر، الأصفر والأخضر. يضع هذه الألوان على قائمته السوداء. لا يكتفي بتحريمها بل يذهب إلى لعنتها. (ألوان ملعونة)، يوقف تعاطيها في منزله وحياته عموماً. يحجم عن متابعة نشرات الأخبار بسبب الاستعارة اللغوية للإشارات الضوئية كأدوات للدلالة. (خذ أمريكا أعطت الضوء الأخضر لإسرائيل. ليبيا اجتازت الضوء الأحمر في تعاطيها مع الأزمة. هذا الإعلان بمثابة ضوء أصفر. تصور يا سيد عشر سنوات وأنا أقود سيارة تاكسي، لَمْ أرتكب مخالفة واحدة. سجلي أبيض كالحليب وكبياض أسنان الأطفال صدقني، لكنّه ازداد سواداً ومخالفات بعد تشغيل إشارات المرور الضوئية. نرفزة الشرطي وعصاه البيضاء ولاّ هدوء الإشارات الضوئية وتكنولوجيتها). يمضي بالحديث معلقاً على تكاثر السائقين غير المؤهلين أخلاقيًّا لقيادة السيارات. (القيادة فن، ذوق وأخلاق، طبعاً، يا سيد القيادة فن، ذوق وأخلاق) يتهكم على لافتة، فيحورها إلى (أسبقية المرور للأحمق). أسمعه ولا أستمع إليه. (تصور يا سيد) يعتقد أنَّ السائق الماهر ليس الذي لا يخالف قواعد السير، فالمخالفة غدت شائعة في هذه الأيام، بل الذي يبعث السرور في نفس

الراكب. إنَّها خبرة. يطلب مني التصديق عليها. يحسدني على حظي الذي جمعني إليه، (يا لكَ من محظوظ) صمتي المحايد وكلماتي المقتضبة مثل: (صحيح - أنت على حق — فعلاً) تشجعه على المضي بالحديث، يطفئ الراديو في الوقت الذي يُعلن فيه عن نشرة الأخبار. يخترق حزني ويقتحم صمتي برويه نكتة. (ذات مرة سمع أحد الأزواج أنَّ زوجته على علاقة مع رجل آخر تمارس الجنس معه في غيابه. جاء إليها فأخبرها أنَّه على سفر. ودعته باكية. خرج وكَمَنَ في مكان ما. استغل خروجها إلى السوق، فتسلل إلى غرفة النوم واندس تحت السرير. عادت زوجته إلى البيت بصحبة عشيقها. استلقيا على السرير عاريين. أثناء دخول عشيقها فيها، سألها فيما إذا كانت ترتاح معه أم مع زوجها، فردت على عشيقها، ارتاح مع زوجي أكثر فخرج الزوج من تحت السرير مبتهجًا صائحًا، لقد ظهر الحق، حقًا أنتِ بنت حلال- زوجة مخلصة يعتذر إليها عن ظلمه لها ويشكر العشيق الذي كان أداة لمعرفة حقيقة الوفاء).

قوة قهقهات سائق التاكسي تهز كتفيه ويهتز المقود معهما، أطلب منه الانتباه إلى الطريق. يقطع ضحكه. (صحيح أنَّ مخالفاتي كثرت لكن ثق بشرفي يا سيد، ليس بينها حادث اصطدام أو دهس) ثم يواصل الضحك الذي أوقفه للإدلاء بهذه الملاحظة المعلومة. فأضحك على ضحكه. (رأيتكَ حزينًا فأردتُ إدخال السرور إليكَ. في العراق من البساطة أنْ تكون حزينًا لكن من الصعب أنْ تكون فَرِحًا).

أطلب منه التوقف. يتوقف أساله عن ثمن الأجرة. (المال ليس مشكلة. الإنسان هو الأساس والمشكلة. الناس للناس، كما يقال) أشكره على لطفه. ثم أترك على المقعد مبلغًا أكثر بقليل مما يشير العداد إليه. ثم أمضي بي بعيدًا عنه.

أهتدي بصعوبة إلى المنزل السري الذي تجعله القَوَّادة (عناق) ماخوراً. أعرفه من خلال وصف أحد معارفي له، هو موظف حكومي كان يتردَّد عليه قبل زواجه، مرة واحدة في الشهر، تحديداً عندما يقبض مرتبه، يخصص مبلغاً لشراء الكتب وممارسة الجنس. أحاول تذكر تعليماته، كي أطبقها حرفيًّا. تطبيقها يفرض عليّ تعليق الحزن والإنطلاق بالتركيز. عملية بحث كهذه، لا يُسْمح الغلط فيها البتة. الغلطة تعدم الفرصة. أضغط

على الجرس. يسألني صوت نسوي من وراء الباب المغلقة بإحكام مِنْ أكونُ. (أنا الخيط الأحمر، أجيبُ). أتذكر شفرة الدخول هذه في اللحظة المواتية. تفتح الباب امرأة محتشمة. لا أرى منها سوى ظهرها غير اللافت للانتباه. تقودني إلى داخل المنزل. (خذ كرسيكَ في غرفة الانتظار). ديكور المنزل وترتيب أثاثه لا يختلف عن المنازل الراقية الأخرى. على الجدار صورة سيدة حسناء شابة الوجه. ليس في هذا المنزل ما يوحي إلى الشبهة بالدعارة. بينما أنا ساهٍ، توضع على الطاولة قنينة بيرة و صحن صغير من الفول السوداني المُملَّح. أرفع رأسي، يتصدى إلى نظري ظهر المرأة ذاتها غير اللافت للانتباه. أسكب البيرة في الكأس. أرفعه إلى فمي (بصحتك) أسمع صوتًا نسائيًّا طاعنًا، يمهد إلى قدوم امرأة مكتنزة في الخمسينات من العمر. ترتدي فستانًا عاري الكتفين. تضع على كتفيها وشاحًا شفَّافًا، أرمقها بنظرة. على وجهها أطلال جمال قد انقضى، لكن يصعب على الزمن محو أثره. المكياج يكوي ثنيات الوجه الناشئة عن تجاعيد متطفلة. العينان خضروان وواسعتان. الوجه مستدير يميل إلى الحُمْرة.

- أنا القوَّادة الحالية والعاهرة السالفة (عناق).

- تشرفنا.

- مرحبًا بكَ في رحابنا.

تسكب البيرة في الكأس الثانية. ترفع الكأس إلى مستوى شفتيها وتسدد النظر إلى عينيّ. (نخبكَ) أحاكي حركتها. (نخبكِ) (يبدو عليكَ الإرتباك. هل هذه هي المرة الأولى التي تقصد بها ماخوراً، أليس كذلك، تسألني) أحاول الاختصار بالإجابة قدر ما يُمكن. (هل أنتَ مقبل على زواج وتسعى إلى التزوّد بالخبرة، إذا تكون كذلك فأنصحك بالعاهرة (حنان). إنها بارعة وفاتنة. تخرج من بين فخذيها أزواج محترفون، تؤهلهم بكفاءتها ليس لخوض غمار الليلة الأولى وإنَّما كل ما في العمر من ليالٍ. أنصحك بها. إنها خبيرة عرسان وأزواج. كثير من الأزواج يقصدونها. تعرف فوراً من الطريقة التي يستلقي بها رجل عليها، فيما إذا كان متزوجًا أم لا. لا بل تذهب إلى أبعد من ذلك، إنَّها تحدس عُمْر زواج الزبون من مجرد ولوج عضوه فيها. تعرف أيضاً حجم تقصير امرأته بحقه

الجنسي، فتعوضه على قدر تقصيرها وفوقه قبلة. صدقني، لا توجد متعة تضاهي متعة منْ بمقدوره أنْ يُمتع أحداً. مهنتنا نحن هي إمتاع الرجل. أنا سعيدة بكوني عاهرة سابقة وقوّادة حالية؛ ترفع أصبعها النحيل المنتهي إلى أظفر طويل مطلي بلون وردي، تشير إلى الصورة المعلقة على الجدار.

- تعرف منْ تكون هذه الحسناء؟

- لا طبعاً.

- إنَّها المرحومة أنا.

تمضي بالحديث مراهنة على إصغائي إليها الذي لا يتعكر بتعقيب أو ملاحظة تعيق استرسالها بهز ترفض عروضاً مغرية وأخرى رهيبة في أنْ تكون سيدة لها شأن في الحياة العائلية والاجتماعية على حد سواء. بين مَنْ تقدموا لها ضابط كبير يشغل الآن منصباً مرموقاً. لكنها رفضت وسترفض. لا تتذكر بفعل تقادم الزمن على مهنتها عدد الرجال الذين مروا على جسدها، لكنها تتذكر جيداً أولئك الرجال الذين أمتعوها.

- الآن أخبرني ما رغبتكَ؟

- أريد أنْ أفضّ بكارة عذراء.

- إنَّه طلب نادر وغالٍ في الوقت ذاته.

- لا يهم.

- كم معك من النقود؟

- عشرة دنانير.

- مبلغ غير كافٍ.

أمضي بمساومتها، أعرض ساعتي الذهبية عليها، تبيقها كرهن قابل للاسترداد إلى حين يسدد الباقي من المبلغ المطلوب. في الواقع أنَّ هذه الساعة غالية جداً عليّ، قدمها أبي لي كهدية على اجتيازي المرحلة الثانوية. (اصغ إليّ لدي فتاة بكر، لكنها عنيدة، معقدة وصعبة. تأخذ عن الجنوب الذي تنحدر منه، مقومات جماله وسحره. أتى بها قوّاد،

عثر عليها ضالةً في محطة القطار. هربت من بيتها احتجاجًا على تصرف أمها حيال ابنها الهارب من جبهة الحرب. لم تشي الأم، لكنها بلّغت بحسن نية عن ابنها الهارب من الحرب. كانت تظنّ أنّها تقوم بخدمتين. الأولى لابنها الذي يقضي أيامه متخفيًا ومشردًا، والثانية للوطن عبر تعزيز جبهته الحربية بجندي يدافع عنها. اعتقدت أنّ بتصرفها هذا سوف تخفف على ابنها عقوبة الهرب. لكن الذي حدث لا الوطن قَبِل بخدماته الدفاعية ولا هي احتفظت بابنها على تشرده. وكنظير لوشايتها، لإبلاغها، خلع الرئيس عليها لقب: (الماجدة)، مشفوعًا بعشرة آلاف دينار، ناقص ثمن الإطلاقات التي أرْدَت ابنها قتيلاً أمام عينيها في متنزه حارتها الذي حوله العسكر إلى ساحة إعدام. الحرب والظلم يجتمعان علينا. إنّها الحرب التي لا قَرار لنا فيها أو عليها، لا توجّع رأسك بالأفكار فيصعب عليكَ الانتصاب. فكرّ بأيرك، ياولدي. في النزل نساء أجمل منها، لكنهن لسن عذروات. إنْ بقيت على الإصرار الذي فيكَ، بفض بكارة عذراء، سأتركها لك، أنتَ وشطارتكَ وحظكَ، إنْ أخفقتَ سأعيد لك الساعة والمبلغ ناقص دينارين غرامة على سوء حظكَ).

تطلب مني أنْ أتبعها. ترتقي بي سلمًا مفروشًا بالسجاد الأحمر. على الجدران صور عن لوحات زيتية لمناظر ونساء في أوضاع أخلاقية جدا. موسيقى هادئة تصاحب صعودنا. نتوقف عند باب مغلق. تنقر عليه، يأتي صوت الفتاة. (لا أفتح دعيني أموت حزنًا وغيضًا). تبعد القوادة "عناق" بقولها عن الفتاة شر الموت. تؤكد عليها، أنّ الأحياء أولى بالحياة. تنصحها أنْ تحذو بفهمها لحياتها حذو أغنية. (الحياة حلوة بس نفهمها، الحياة غنوة ما أحلى أنغامها). كما يقول المغني فريد الاطرش.

(افتحي فقط، لدي مفاجأة سوف تسرّكِ، صدقيني) تفتح الباب. تدفع بي إلى الداخل وتغلق دوني الباب. أجدني في مواجهة فتاة جميلة سمراء اللون. وجه مبلول عرقًا ودمعًا. عينان واسعتان تضبطان بصعوبة دموعًا متمردة. شفتان غليظتان ملحوستان من لسان وردي. شعرها أسود فاحم، أشعث وطويل حدّ مؤخرتها. نهداها صغيران متوثبان من وراء ثوب أبيض شفاف. تنصرف عني. تلوذ بالسرير مني. تضم أطرافها إلى

صدرها وتتكور متحصنة بالأغطية. أبقى واقفًا أمامها شاخصًا بلا حراك ودون أنْ تعرض عليّ شيئًا.

- مساء الخير.

- نعم، ماذا تريدون.

- أنا لا لستُ واحداً منهم.

- إذن منْ تكون؟

- أنا الذي يدفعه حزنه إليكِ.

- لا شيء أقدمه غير استسلامي لاغتصابكَ لي.

- أنا لست ممنْ يغتصبون.

- أنتَ ممن يدفعون.

- ليس بالضبط. لا يهمني الآن سوى أنْ أفضّ بكارة عذراء ليس إلاّ.

- هذه مهمة أم رغبة.

- لا هذه ولا تلك، إنَّه وفاء بوعد قطعته لأمي بعد رحليها.

- صدقني، إنْ وافقتكَ فذلك بدافع اليأس والشعور بالسخف.

- لا أقوى على التفكير الآن، لا أريد سوى بقع دم من غشاء بكارتك على منديل أمي (أخرج المنديل من جيبي، وأريها إياه).

- هل أنت متورط بعروسة ليست عذراء، لا تبدو عريسًا، إنما تشبه حزينًا مأجورًا. يعود لتوه من تشييع جنازة.

- أنتِ على حق. أنا قِن حزين في مزرعة العالم البشري. أمارس فعل فض البكارة ليس بدافع الرغبة وإنما بدافع الوفاء. ليس إلاّ، بياض منديلها يوبخني على جحودي بها. أريد أنْ أعود بمنديلها مختوماً بدم عذراء.

- أفعل أو لا أفعل، أموت أو أحيا، لا فرق، أنْ تأخذني أو تدعني إليّ. (تفتح ساقيها). تعال أيها الابن الوفي، بقّع منديل أمكَ الأبيض بدم بكارتي.

تعدل عن تمددها. تجلس على السرير. تحسر الغطاء إلى أسفلها. تمسح براحتيها وجهها، تتأفف. {أقبل ذلك نكاية بأمي، تواطأت على أخي، فباعته إلى الموت، لتقبض الثمن نقداً. طالما هناك مال يدفع يغدو كل شيء رخيصاً. ما الفرق ها أنتَ تدفع أيضاً. لِمَ لا أتواطأ معكَ عليّ، كل الأشياء تسقط ليمر المال عليها. نعم كل شيء ينهار أمامه، الأخلاق، الأحلام وأنا، لماذا أبقى على صمودٍ الهزيمة فيه نصر. أهزمني لأنتصر عليّ} تنهض تحزّم وسطها وتشرع بالرقص، ترقص، تحرك رأسها إلى اليمين وإلى الشمال بانفعال. تسحب صينية نحاسية من على طاولة جانبية، تنقر عليها. تدندن وتهمهم، يصدر عن فمها المزموم صوت مثقل بحزن غامض لا يعرفه إلاّها، إنّها رقصة المهزومين، {أنا مهزومة ولست منهزمة} ثم تستلقي على السرير. ترفع أذيال ثوبها، تخلع سروالها الداخلي القصير، تفرج ساقيها، {ها هي بكارتي بغشائها تحت تصرفكَ، أيها الابن الوفي} أفتح سحاب بنطلوني وألقيني عليها، أواجه صعوبة بالانتصاب خصوصاً بعد عزوفها عن التجاوب الشعوري معي. تترك جسدها بين يدي وتفرّ بروحها حيث يكون السلام والكرامة. صدرها يهتز على نشيجها. كفها وعينها عاجزتان عن إيقاف سيل دموعها. أقوم على جسد ساخن بالحزن وليس بالرغبة. تبعد لمساتي عنها وتعيد نظراتي إليها. ترفض التعاون الشعوري من أجل إتمام هذه العملية الجنسية الأولى، نقوم بها ونجربها نحن الاثنان أول مرة. بعد محاولات مجهدة متكررة، أتمكن من فضّ غشاء بكارتها دون مساعدة منها. يسيل دمها حاراً ولزجاً، أمسحه بالمنديل الأبيض، ثم أضعه في جيبي. أطبع قبلة على جبينها. نبكي معاً على زفافنا الحزين، كل منّا يفرح على انفراد، أنا أفرح بوفائي لأمي وهي تفرح بنكايتها لأمها.

أترك السرير، أغلق سحاب البنطلون. أعتذر لها، أرجوها أنْ تتفهم مطلبي. أشكرها على بقع دم بكارتها. تفتح الباب، تدخل القوادة {عناق}. تحمل صينة عليها قنينة ويسكي وكؤوس ومقبلات. تهلهل فرحاً، {فتحتها، لتُفتح بوجهكَ أبواب العالم المغلقة} تعيد الساعة الذهبية وعشرة الدنانير. تدعوني إلى البقاء والاحتفال بفّض بكارة {هند}. أعرف اسم هذه الفتاة أخيراً. أقلب الصينية منفعلاً، أرمي النقود الورقية والساعة الذهبية صوب الجدار. أجري بعيداً عنهما هارباً بي. أجتاز شارعاً بعد آخر. الآن العالم

بأسره مأهول بصوت أمي ومكتظ بذكرياتها، غير عابئ بتزمير السيارات وسباب سائقيها، ولا بنظرات العابرين على جهة سحاب بنطلوني الرطب والمبقع بالدم الذي يختلط بلونه الرمادي.

أقف قبالة دجلة. يتفرغ النهر إلى نظراتي إليه. يُخلي شاطئه من المارة. يُبقي على صفير ونسائم هادئة تلطف وجهي، وتنهي الشحوب عنه. يبدو النهر أكثر بهاءً في الليل. يتشح بوشاح مرصع بالنجوم وموشّى بشعاع القمر. يبسط مداه وماءه واستعداده الهادئ لاستقبال السر المحزون. الأضوية المتلألئة العائمة عليه تقربه مني. ويزيد من غموضه على سواي الآن. أتمنى على النهر أنْ يكون جديراً بثقتي به. أخرج المنديل من جيبي، ألقيه فيه. سرعان ما يتحلل الدم في الماء دون أن يذوب أثره في المنديل العائم. النهر أو في من اليابسة لأنه لا يوفر للبشر مكاناً في أعماقه. أسير بمحاذاة النهر مشيعاً المنديل الذي لم يعد أبيض. تحمله الأمواج الرقيقة بحنو ومودة وتبحر به حيث ترقد أمي الآن بسلام مظنّون فيه.

يميل

الضوء إلى الزوال

لينهمر الظلام

تظهر

أمي برداء أبيض

تتوكأ على عصا

وتحمل شمعة

- منْ ترك دموعه الساخنة على خديكَ؟

تقول أمي، وتتوارى.

ينتصف الليل تهب نسائم باردة. يُجلي النهر البشر عن شاطئه، عن الممر الإسفلتي المحاذي وعن المتنزه المتاخم، أمكنة تخلو من جميع البشر ما عداي. يحتفل بي الصمت ويرعاني السكون، أهرب مني لأعتصم بمصطبة، أجلس قليلاً ثم اتمدد عليها مستسلماً إلى النوم، أنا شده أن يحفظني مني، ويسلمني إلى أي موتٍ قادم لعله يأخذني حيث أخذ أمي. أو يضعني على شرفات حلم أو مشارف صباح.

يربت أبي على كتفي. (إنَّك تغفو عليكَ، اذهب واسترح على سريرك. ولحديثنا تتمة). الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، تصعد الشمس مرحة إلى سماء، تُجلي نجوماً وسحباً لتكون صافية هذا اليوم. ضوء يتسلل عبر النوافذ المرفوعة، يثني عزم المصابيح عن الضوء. تقرّص الشمس بحرارتها وجوهاً ناظرة وأقداماً سائرة تحتها. أترك أبي مستلقياً على الصوفة. دخان سيجارته المتكاثف حول رأسه يحجب ملامحه عني.

تأتي ضحًى زوجة خالي. تُدعى (بديعة)، هي شابة ومرغوبة. تصغر خالي بعشرين سنة تقريباً. منظرها مبلولة بثوب قطني خفيف ملتصق على جسدها يثير من فتنتها ورشاقتها، يوضح البلل والالتصاق دقة خصرها وحلمتيها النافرتين. تقصّر من ثوبها عبر طي وسطه وإدخاله في حلقة لباسها الداخلي المطاطية. تفعل ذلك أثناء قيامها بغسل أرضية المنزل المرصوفة ببلاطات من الموزائيك. تستعمل خرطوم الماء ومكنسة من القش. تبدو دائماً مبلولة الثوب من جهة الصدر والحوض. منظرها المبلول يدفعني إلى ترك المنزل هرباً من هياج محرم وتفادياً لتبعاته.

تقوم بديعة بتكليف من خالي وبموافقة من أبي بتدبير شؤون المنزل بعد أنْ خطف الموت ربَّته الحقيقية أمي، تعدّ الطعام يومياً، مرة تعدّه في مطبخنا ومرة أخرى في مطبخها. تبعثه أو تجلبه بنفسها، لكن تنظيف البيت وغسيل الملابس يجري أسبوعياً. يتحمل أبي بطبيعة الحال كافة النفقات التي أخذت بالارتفاع الملحوظ مند تسلم خالي وامرأته هذه المهام.

نصحو أنا وأبي على صوت بديعة ذي البحّة المغناجة. (تفضلا الفطور جاهز. الساعة تشير إلى العاشرة الآن. لقد تأخرتما)، تصدح بديعة، صوتها أقرب إلى التغريد. (العالم لا يتأخر البَشر هم المتأخرون عنه وعنهم. يرد عليها أبي) يسبقني إلى الحمام، أصحو محملاً بأحلام، يعتذر العالم عن تحقيقها. أتجه إلى النافذة المطلة على الحديقة الخلفية للمنزل. ألقي نظرة على عباد الشمس المتجه دائماً صوب الشمس التي تزداد ضوءاً وحرارةً. أفتح النافذة، أخرج رأسي قليلاً، أطلق تنهيدة عميقة، آه، أف، كأنني أفرغني مني، أنصرف عني إلى آلة التسجيل أشغلها على شريط أغاني السيدة فيروز. (تعال لنتخبى عن درب الاعمار، هم كِبروا ونحن نبقى صِغار، ولو سألونا وين كنتو، وليش ما كْبِرتو انتو، نقلهن نسينا).

نجد على طاولة الطعام وجبة (الباقلاء والدهن)، وجبة فطور عراقية تتألف من فول كبير الحبّة، يُسلق جيداً، يثرد الخبز في صحن عميق وينقع بماء الفول وحباته، يرش بقليل من السمن، مسحوق النعنع الجاف وقليل من عصير النارنج، يعلو الطبق قرص من البيض المقلي. تشكر بديعة أبي على دعوته إلى الأكل معنا. لقد تناولت فطورها، ولا يجوز للإنسان أنْ يتناول فطورين في صباح واحد، كما تقول وهي في طريقها إلى الحمام، تحمل سلّة ملابس وجهاز راديو صغير. تغسل بديعة الملابس في الطست، وهي تستمع بصوت عالٍ إلى الأغاني ذات الإيقاع الراقص. تتوقف مؤقتاً عن الغسل، تنهض، تهز صدرها أو عجزها، حسب ما يملي الإيقاع على جسدها. قليلة الكلام، كثيرة الحركة رقصاً أم عملاً. تحب بديعة أنْ تراها وأفعالها منعكسة في مرآة. دائمة التمري. أينما تكون، تحيل ما يصادفها إلى مرآة، سطح صقيل. سيراملك، زجاج وبقع المياه. المرآة شاهدة على جمالها، تحوّل المرآة إلى كائن مفتون بها.

- ما هذا الوجه الصبوح، يا بنت (تلامس وجها براحتها).

- ويا لهذا الصدر... (تزم نهديها بكلتا يديها).

- ما هذا الـ ... عيب استحي يابنت (تسحب يدها من قفاها بسرعة).

- يا لجمالك، ماذا أبقيت لغيرك من النساء، استوليت على الجمال كله، خليّ لغيرك، الطمع ليس جيداً. الرحمة قبل الجمال. حرام عليكِ، تَكْوين الرجال بنار الرغبة فيكِ، تُحيلين الرجال إلى رماد، مَنْ سيقوم على النساء ومَنْ سيتحكم بالعالم. (تدور حولها بحركة راقصة). كلما تعثر بديعة على صورتها منعكسة، تغمز بعينها لها وتبعث قبلة هوائية إليها، تنغمر بديعة فيها، لا أخرى إلّاها، تدرك أنّ حبها لها كافياً، يشبع حاجتها. عشقها لها وإعجابها بها، شأنها وحدها، سرها المحجوب فيها والمكشوف على المرآة. لا تؤذي بولعها بها أحداً، حبها ليس موجهاً ضد أحد، يشغلها كليًّا، لا يترك فجوة، تُعبّئها بشيء سواء كان محبةً أو يكون بغضاءً. يجعلها الحب هادئة ومتسامحة. ترد على الإساءة أو التعنيف بالبكاء، تأسف على جمالها في عالم لا يأسف على قبحه.

يبدأ يوم بديعة قبل يوم الآخرين، تنهض من النوم، تعانق المرآة بصريًا، تصبّح عليها وتقبل إياها، وتتمنى يومًا سعيداً لها وفطوراً شهيًّا. انبثاق بديعة الصباحي، يعطل ملكة التفكير ويدفع بالرغبة إلى هاوية المغامرة. لا يغادر حضورها الأنثوي بمغادرتها، تبقى بالذكرى الحسية عنها، يظلّ صوتها صدّاحًا، تأبى الأُذن التنازل عنه إلى الإهمال أو تفضيل أغنية أو قطعة موسيقية عليه. أتمرنُ على تحاشي الاحتكاك البصري بجسدها؛ تجنباً لاشتعال رغبتي فيه. في ظهورها أنشغل عنها بالتفكير بمسائل عَصيَّة على الحل من قبيل ما هو الأسبق في الوجود الزمن أم المكان. أو أدفعني إلى عبث الخوض في مسألة (البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة). أجهدني في البحث عن دجاجة أولى لأول بيضة. هكذا أتهرب من فتنة جمالها. الارتماء في أحضان الطبيعة الخلابة أهونَ من الارتماء في أحضان بديعة المشتعلة بالرغبة.

نتناول وجبة (الباقلاء بالدهن) صباح كل يوم جمعة، وهو يوم العطلة الأسبوعية. تؤكل الوجبة هذه عادة باليد مع شرائح من البصل. لكن أبي لا يسمح لنا بأكلها بالأيدي، يفضل أكلها بالملعقة. (الأكل بالملعقة صحي ولطيف)، لا يميل أبي إلى إسداء النصائح الصحية. (أهلاً بالموت إذا أقبل، ووداعًا للحياة إنْ أدبرت، لا أحد يستلف

أعواماً من عمر سواها، ليمدد عمره بها) هكذا يرد أبي على ناصحه الصحي. خلافاً لخالي الذي يعتبر نشرة طبية متجولة ناطقة بارشادات إمّا مغلوطة أو قديمة. يستقبل أبي صباح الجمعة مرحاً، ثم يتدرج مزاجه بالتدهور كلما اقترب النهار من منتصفه، موعد لقائه الأسبوعي، تهجير صديقه الحاج مرزه دفع أبي إلى هجر مقهى زيد نهائياً، كما اختفى السيد نعيم هو أيضاً. يتمشى أبي حزيناً، يدخن بكثرة، يعقد ذراعيه حول ظهره، يتأفف بصوت غير لافت. لم يُخلّ أبي بواجبه حيال عائلة الحاج مرزه. يقدم المشورة النصوحة والمعونة المالية. يتابع أحوال زوجة الحاج مرزه. ازداد وضعها سوءاً وخطورة بعد عصيانها أوامر الرئيس القاضية بوجوب الطلاق من زوجها ذي الأصل الإيراني. هي بنظرهم الإداري عراقية أصيلة، ولا يجوز زواج الأصيلة بغير الأصيل، حفاظاً على الأصول وتكريساً للأصولية. مقاومتها الانفصال القسري عن زوجها المهجّر عرضتها إلى الملاحقة المخابراتية. اقتحموا منزلها، أخضعوها إلى تحقيق لا يخلو من إرهاب. بعد عدّة أيام ألقي القبض عليها، سيقت مقيدة اليد ومعصوبة العين إلى أقبية أجهزة المخابرات. طوّروا التحقيق إلى التعذيب. تم تجريدها من ملابسها وجلدها بالكرباج. ذهبت توسلاتها سدى. (ابني أنا بعمر أمك) يقسو جلادها بالضرب عليها. (اخرسي، يا قحبة الايراني). قضت عدّة شهور في معتقل معتم، رطب وبارد دون أنْ يوجه إتهام إليها، ثم أطلقوا سراحها. التقت أبي سراً. أوصته بابنها عدنان. لا يزال عسكرياً في جبهة الحرب. بعد فترة وجيزة هاجموا منزلها، صادروه. ثم ألقوها بشاحنة، في الطريق أبلغوها أنّ وجودها في العراق غير مرغوب فيه. نقلت إلى منطقة بنجوين الحدودية. هناك أمروها ودُفْعَتَها من المُهَجّرين باستكمال الرحيل إلى إيران سيراً على الأقدام، أشاروا بعصيهم إلى الحدود. وُجهت تهديدات لهم، تحذرهم من عاقبة العودة، سيدفنون وهم أحياء. غامر أبي بحياته، حين اقترح على عدنان الهرب من الجبهة. وتعهّد له، بتدبر عملية تهريبه عن طريق كردستان العراق إلى إيران. هناك يمكنه الالتحاق بأبيه وأمه، ويلتئم شمل عائلتهم بعد تمزقها. تصل أبي رسالة أخرى من الحاج مرزه تفيد أنّ أحوالهم تسير من السيء إلى الأسوأ، لا يزال يتسكع في شوارع طهران بحثاً عن فرصة عمل ووجود. اتصال أبي بعائلة مغضوب عليها يعرض مصائرنا إلى

الخطر. تتطلب عملية الحفاظ على الصداقة وقيم الوفاء حذراً مشوبًا بالرعب. ما دامت علاقة أبي بعائلة الحاج قائمة وسرّية، يبقى الشعور بالخوف من التصفية الجسدية يلاحقنا.

يروّع دوي النقرات الحادة الأبواب الآمنة ومنها بابنا. ضربات بالقبضات والركلات تكاد تخلع الباب. تنشل حركتنا، نغصُّ بالأكل وتتنغص شهيتنا. يدهمنا الرعب قبل المرعبين، يباغتنا شعور بخدر بالقدمين، يتطور إلى ألم بالمعدة. تتعالى النقرات والصيحات، ذهولنا وخوفنا يحُولان دُون فهم ما يحدث حولنا. نتخاطب بلغة بصرية، يلمح أبي استسفاري، يرد ملمِّحاً بما يعني. لا يدري. تنهي صرخة مدوية حالة الشلل المؤقتة. (اخرجوا الآن) يطل أبي من النافذة، يرى عسكرياً من فصيل الشرطة العسكريّة هو الذي يطرق على الباب بهستيرية. ينتاب أبي الرعب والخوف عليّ. (إنّها وشاية، اسمع يا ولدي سوف أسلّم نفسي إليه، إذا اعتقلوني أو أعدموني، اذهب إلى السيد (حسون المضّلع)، سوف يؤمن لكَ طريقًا للهرب من العراق، أنا أثق به، فقط سلّمه مصوغات أمك الذهبية، تعرف أينها، موجودة في الخزانة الكبيرة. لا تقلق بشأني، أنا رجل عاش حياته وعليه أنْ يعيش موته. لم يبقَ إلاكَ ما هو جدير بالعيش أو المغامرة من أجله). تسلّط الرعب علينا فوّت على عيني دمعة، كادت تطفر منها.

تتكرر النداءات بالخروج، نفهم منها أنَّ مصيبتنا قد تم تأجيلها هذه المرة، لكن هناك مصيبة ينزلونها على واحد من جيراننا. تتلاحق النداءات بلا توقف من مكبر الصوت المحمول على سيارة عسكرية، تجوب الشوارع لنشر الخوف. (اخرجوا وتجمعوا في ساحة الرئيس)، ففي كل حي هناك مرفق عام، شارع وساحة تحمل اسم الرئيس. كما يقوم في كل شارع وساحة نصب له أو جدارية عنه. يهرع أهالي الحي مذعورين بما فيهم نحن طبعاً، غبار يتصاعد. يرتطم الواحد بالثاني. يتداخل صراخ النساء بعويل الأطفال. هناك مَنْ يتعثر بظله أو بآخر، فيسقط ولا يعبأ أحد به. أطفال مسحوبون من ذراع واحدة. شيوخ يتوكؤون على عُصيِّهم. يسرع جَرحى الحرب ومشوهوها بكراسيهم النقّالة. يتجمع الأهالي في الساحة. يخيم الصمت المشحون بالخوف

والترقب، فيما يتعالى صراخ الأطفال الممسوكين بقوة من قبل ذويهم. أثواب تَصر أجساداً مرتعدة. وجوه يخطف ملامحها الخوف من الأعظم القادم. نُصبت في وسط الساحة منَصة، يتوسطها عمود خلفه أكياس مملوءة بالرمل، تشبه جداراً خلفيًّا ساتراً. يحتشد على جانبي المنصة عسكريون مسلحون. يتوقف صف من السيارات العسكرية إلى اليمين من واجهة المنصة. يقف رجل وامرأة طاعنان بالسن، يرتدي الرجل قفطاناً أزرق ويعتمر الكوفية والعقال، فيما ترتدي المرأة عباءة سوداء، يتبين أنَّها ترتدي ثوباً أسود. حزينان ومذعوران، لكنهما ممنوعان من التعبير عما يختلجهما. يُمنع الآخرون أيضاً من الاقتراب منهما. يعتلي المنصة ضابط برتبة نقيب، يوعز إلى عسكري يقف بالقرب من شاحنة عسكرية حديدية مغلقة، توجد في أعلاها كُوًى صغيرة مشبكة. يُخرج العسكري مفتاحاً، يفتح باب الشاحنة الخلفي. ينضم أربعة عسكريين إليه، يُخرجون شاباً معصوب العينين، يرتعد ذعراً، لا يقوى على السير، الهلع أتى على قسماته. يحملونه إلى المنصة. يوثقونه إلى العمود، في هذا الوقت يتهيأ عسكري آخر برتبة عريف، يحمل بندقية آلية، يأخذ وضع الرمي وقوفاً في مواجهة الشاب الموثوق. يكمم عسكري واقف بجانب المرأة ذي العباءة السوداء فمها، ثم يلطهما على وجهها، فيما تسيل دموع الرجل المسن بحرقة وصمت. يتقدم عسكري من الشاب الموثوق يسأله عن أمنيته الأخيرة. يتمنى الشاب بصوت مرتجف ومذعور تدخين سيجارة. يحشو العسكري السيجارة في فم الشاب ويشعلها له. يسحب الشاب أنفاساً عميقة متلاحقة، سُحُب الدخان تحجب وجهه. يخيم جو من الصمت والرهبة. يصعب على الجموع المحتشدة التقاط الأنفاس أو حبسها. يتقدم الضابط الذي برتبة نقيب إلى الأمام. يقف بوضع استعداد، يتلو قرار حكم الإعدام. (بناء على القرار الصادر من القيادة العسكرية، ينفذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص حتى الموت، بالرقم (١٩٨٢٥) الجندي المكلف محمد لطيف شنان، لجبنه وهروبه من جبهة الحرب. هذا في الوقت الذي يحرس أبناء العراق وأشقاؤهم العرب الشجعان البوابة الشرقية للوطن العربي في حرب الرئيس المقدسة ضد الأعداء الكافرين بقيمه، ويسقط في معارك الشرف والكرامة العديد منهم شهداء بررة، 'ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون'، صدق

الله العظيم والرئيس المجيد، المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، والخزي والعار للجبناء والخونة من أمثال هذا الجبان الرعديد). ينتهي الضابط الذي برتبة نقيب من تلاوة هذا القرار، يتجه بالإيعاز إلى العريف.

- عندما تكون جاهزاً على هدفك، ارمِ.

يتفقد العريف المزهو بمهمته القومية والأخلاقية بندقيته الآلية، ثم يبدأ بإطلاق النار صلياً على الشاب الموثوق. يخرّ الشاب متشظياً، يخرج من تشقق رأسه مخه. يسيل دمه بغزارة من جسده الممزق بفعل اختراق الرصاص غير المُصوب بدقة عليه. تبرز بعض أمعائه. تتدفق الدماء بغزارة من صدره المخرّم القلب. يخرّ، أسرع من صوت الطلقات. لا يزال يتصاعد دخان سيجارته التي لم تنته بعد. يتقدم الضابط الذي برتبة نقيب من الشاب المعدوم. يسحب مسدسه، يُهيّؤه ويطلق على رأسه سبع طلقات تسمى (إطلاقات الرحمة).

إثر نزوله، يتجه الضابط الذي برتبة نقيب إلى الرجل المسن. (عليك دفع ثمن ثلاثين طلقة بندقية وسبع طلقات مسدس التي أطلقناها على ابنك الجبان. الثمن الإجمالي عشرة دنانير وستمائة فلس). يُخرج الرجل من جيبه النقود بيد مرتجفة، خمسة عشر ديناراً، (ليس لدي صِرافة) يسحبها منه بفظاظة. (هيا خذا جيفتكما وادفونها، لنتمكن من تفكيك منصة الإعدام مساء هذا اليوم، مفهوم)، يأمر الضابط الرجل والمرأة المسنين المفجوعين بابنهما. يتجه إلى عساكره موعزاً بالانسحاب. تجثو المرأة على الأرض نائحة لاطمة، تنزع عصابة رأسها، تمسك بالتراب وتهيله على شعرها، فيما يثقل الرجل المسنّ صمته المُر.

أهرول عائداً إلى البيت، تتصدى بديعة لي. (توقف. اخلع نعالكَ أولاً، الأرضية مغسولة لتوها، لم تنشف بعد). لا أعبأ بندَائها، اقذف النعال من قدمي، الأول يرتطم بالجدار والثاني يضرب بالسقف، ثم يسقطان على مكانين متفرقين من الصالة. تدمدم، تحمل قطعة قماش مبلولة، تتعقب ماسحة البقع التي خلفتها قدماي وفردتا نعالي. أدخل إلى

الحمام، أتقيأ، أشعر أنني أقذف بأحشائي غير المرغوبة فيها، يتصاعد ألم غامض يتسبب بغثيان. أغسل رأسي تحت صنبور المغسلة. أمضي لاهثًا إلى غرفتي، ألقي بجسدي على السرير. أنفاسي تتصاعد. حرارة تشبّ بي، يوشك جسدي على التحول إلى رماد في موقد يدعى السرير. أغمض عيني، أطبق عليهما بباطن كفّي، فأرى مشهد الإعدام أمامي جليًا، أفتح عينيّ، يبدو المشهد كما هو. لا أعرف فيما إذا تكون عيناي الآن مفتوحتين أو مغمضتين، فالمشهد على صورته وصوته المتواصلين، يمارس رعبه عليّ. جسدي موثوق على السرير. عيناي مفتوحتان تحملقان في سقف الغرفة الذي تحوّل إلى شاشة، يستمر عليها عرض مشهد الإعدام بلا توقف. أجدني عاجزاً عن الحركة حدّ الشلل. تأوهاتي تلفت نظر بديعة. فتتبعني إلى الغرفة.

- ما بكَ، أحضر لكَ كأسًا من عصير البرتقال الطازج.

تقترب مني، تضع أذنها على صدري. قلبي يضرب بقوة على جدار صدري، يريد أنْ يقفز عليها منه. تضغط على صدري، تحاول أنْ تعيد عملية تنفسي إلى حالتها الاعتيادية. لكنني مسجّى بلا حراك. تضرب كفًا بأخرى، لا تعرف ما الذي تفعله، كي تبقي على حياتي. تهتدي إلى حل. تقرّب فمها من فمي، تلصقه به. ثم تنفخ فيه. تطبّق عليّ إسعافات الغريق التي حفظتها عبر مواظبتها على مشاهدة الأفلام العربية. تبقي فمها ملتصقًا بفمي. تنفخ، تكاد تخنقني. ينزلق لسانها إلى فمي فيقع على لساني. تتذوقه، فتجده ساخنًا هو أيضًا، ترطبه بماء فمها، تلحسه بلسانها. تدب فيها رعشة خدر، تتصرف بيدها وتتجه بها إلى أزرار القميص، فتفكها، الواحد تلو الآخر. تُدلك عضلات صدري من جهة القلب. تحوّل المتعة المتفرعة عن التصاق فمها بفمي الحركات المساجية إلى مداعبات. شفتاها تقبل ولسانها يلحس. تتحرك يدها نحو البنطلون، تفتح السحاب، تنطلق ساقيّ حرتين من أسر البنطلون المخلوع. تسحر اللذّة الغريبة يد بديعة، تسيّرها من صدري إلى لباسي الداخلي، تفركه، ثم تجردني منه. تقبض بيدها على قضيبي، تزنه بقبضتها وتقيسه بأصابعها. تلعق وتقبّل صدري. تستسلم إلى عنفوان رغبة مفاجئة بلذّة مفتقدة أو معثور عليها. تخلع لباسها الداخلي القطني الأبيض، تلقيه

على أرضية الغرفة، تصعد عليّ، توسع بكلتا يديّها فتحة صدرها، تطفر نهداها المنتصبان الأيمن فالأيسر، تهتز حلمتاهما بلونهما البني الفاتح. عرقها الناضح يعزل رائحة الصابون عنها، فيما يطّيبها محلول عطر الياسمين. تنغمر كليًّا فيها. تلقي نظرة على مرآة الخزانة. تهيم في جسدها، تراها جميلة تشيع الجمال ولذيذة تبعث على اللذّة. تعيد إلى جسدها عريه، تنهي سطوة الثوب عليه. لذّة مغمورة تطفو على رغبتها الجامحة. تصادف شهوتها أول مرة. تعرف جميلة منها ومن مراياها وليس من رجل، تتمنى أن تكون جميلة من أجله. لا يرى البشر منها غير وجهها الصالح لملاقاتهم. تراها جميلة ونظيفة تحس بها. الآن يتعمق جمالها بالشهوة والمتعة. هي امرأة هامشية. يسحب الغطاء عن أسفلها، تُرفع أذيال قميص نومها، توضع بلمحة تحت زوج، يرتمي بثقله عليها، تحاصرها أنفاسه اللاهثة ورائحته. تتدخل بديعه، تخفف من خشونة فعل فصل لباسها عن حوضها. يسقط نهدها في كف ليست رقيقة. تفرج ساقيها، تسهل عملية الدخول فيها، تقلّب على قضيبه، ترشده بيدها، تختصر الطريق عليه إلى ثقبها. تطلب الإسراع، تتحجج بإرهاق مرة وبصداع مرات. تنتظر على مضض لحظة القذف فيها. ينطفئ عليها. يتدحرج كتلة لحمية هامدة، تتصبب عرقًا وتفوح رائحة خانقة. تلملم نومها المنسحق تحت طغيان رغبة ذكورية مباغتة، تحتدّ بلا تمهيد ولا مداعبات. تأنف من الروائح والإفرازات المرافقة للعملية الجنسية. تجر مرغمة إلى مضاجعة بلا رغبة. زوجة منذورة للاغتصاب الشرعي. جسدها المستباح جنسيًا لا يعرف الأورغازما، جسد مفصول عن المتعة. لم تذق متعة الجسد، لم تثقف جسدها على الجنس. جسد ينبطح مرتين في الأسبوع، تختصر كلها إلى أداة مجوفة مسخّرة للإدخال فيها. تقدم متعة إلى طرف واحد، هو الآخر وليس هي. تصنع متعة لا نصيب فيها. لماذا تكون امرأة منبطحة أمام رغبة غيرها فيها. تتبادل هي والمرآة الإعجاب بها. الآن ليست امرأة مهيمنًا عليها، بل أنثى تهمين على ذكر فتي، يناهزها سنًا وجمالاً. تستحم بعرقنا الناضح ورائحة جسدينا. تشيّد على جسدي صرح جسدها الشاهق بالرغبة والعميق باللذّة. تحرر شعرها من مشابكه. تحتضني بذراعيها، تستنشقني وتمرغ خدها بعرق صدري. تتأوه ناخرة. تسعى إلى حملي على الانتصاب، تراهن على القبلة، تأخذ فمي بقبلة طويلة. يندّ عن

فمها ماء شهي عنها. تصعد وتنزل. تحاول غير مرة إدخاله فيها، بالقبل واللحس تحث قضيبي على الانتصاب. يتكرر فشل محاولاتها، تنحسر اللذّة عن سائر جسدها تدريجيًا، فتنحصر في رأسها. تحاول إقناعها بمتعتها الذهنية، ألا وهي امرأة تستعيد أنثوتها، فتضاجع ذكرًا مرغوبًا. شاب جميل يتمدد تحتها. يستفيق وعيها من خدر شعورها بلذّتها وبمتعتها، تعي، أنّها تلتحم بجسد لا يتجاوب معها. بارد على لهيبها. ربما تستنكر أعضائي فعلها، كما تعتقد. تمارس الجنس من طرف واحدٍ طرفها هي طبعًا. هذه ليست عملية جنسية متكافئة، بل استمناء، عملية لا ترتضيها لجمالها ولا لكرامتها. لا تريد جرح أنوثتها بفعل ينتقص منها. يجسّم وعيها جرحها لشخصها كامرأة. تنسحب بطريقة فجائية. تنزل عني ومن ثَمَّ عن السرير. تدمدم وهي ترتدي لباسها الداخلي وثوبها القطني الأبيض الخفيف. تجمع قطع ملابسي تكورها وتقذفها في وجهي.

- يا منحط. قحابكَ النتنات لسن أجمل ولا أنظف مني.

تتوارى بديعة بعيدًا عني. فيما يبقى جسدي مسمرًا على السرير. لا تزال عيناي مفتوحتين، تحملقان في سقف الغرفة لمتابعة عرض مشهد الإعدام غير القابل إلى التوقف. بعد لحظات يسدل ستار أسود سميك على المشهد. أتوقف عن المتابعة فأسقط محمومًا في بئر النوم العميقة. يُطبق النوم عليّ ويسحق أحلامي. أخوّض في مياه سوداء، ينسحب الكلام من فمي. أجدني كتلة هشّة يأتي الظلام والصمت عليها.

- ألستَ أفضل الآن؟ أفتح عيني.

يخطو أبي نحوي، يرتدي ثوبًا أبيض فضفاضًا. يحمل شمعة. هالة نورانية تحرس وجهه. حزمة ضوء تغطس عميقًا، تنتشل وجودًا غارقًا في بحر الظلام. حزمة ضئيلة الضوء تجرح ظلامًا عظيمًا. ينتصب وجه أبي على جسد متلاشٍ. الضوء الخافت يرسم خطوط ملامح أبي على صفيح معتم. ندوب الوجه آثار خوف غابر. ارتباك يحول دون الاستقرار على تعبير. شعاع شمعة آخر مندس يبوحني إلى العالم. وجهي يتنكر بملامح تنكر إثمًا طالما تمنيت وسعيت إلى ارتكابه. أجتمع عليّ، أقوى على النهوض. تظهر يد ترتبط بجسد أبي، تمتد بالمساعدة. قُبلة تنحدر من فمه وتستقر على جبهتي. يتوهج ضوء

باهر فجأة. يحمل عيوننا على إغماضة تلقائية قصيرة. نفخة من فم أبي وتنطفئ الشمعة. تُحَلّق ابتسامة بوجهه. يعود التيار الكهربائي الذي مضى على انقطاعه زهاء أربع ساعات.

- انهض خذ دوشاً. أخاف أنْ يكون الطعام الذي أعدّته بديعة ووضعته في الثلاجة قد فسد بسبب انقطاع التيار الكهربائي لمدة طويلة.

- آه، بديعة أظنّني حلمت بها.

- عساه خيراً، لقد ذهبت مهمومة. ربما قلقة عليكَ هي أيضاً.

- أتمنى ذلك.

أتمنى أيضاً أنْ يكون المستحيل ممكناً، فأستعير قابلية المرأة الجنسية، ليتني كنتها، لحظة تربع بديعه عليّ. أدعُ جسدي يتجاوب مع جسدها فيما تفرّ روحي أنّى تشاء. حزني عليها يعلق التفكير بمشهد الإعدام.

أدخل الحمام. غضب وحنق يحيق بوجهي، كما تدلني المرآة به. أفتح الدوش، انسكاب الماء يحدث خريراً، يشكل تساقطه عازلاً صوتياً مائياً عن لحظات ما كانت لي. الجدران الصقيلة، النافذة بزجاجها الحاجب تُهيِّئ إلى الإستحمام. طقس خفي، لكنه ليس سريّاً. إجماع مائي على مديح الجسد أو رثائه. يسقط حق الثوب في الجسد. أصوات تفرّ من حناجر محجوبة، تهتف بصمت مدوي: يسقط الثوب، يعيش العُري. أقف عارياً أواجه سطوحاً سيراميكية لمّاعة وجريئة. ما الذي يحدث، يعكس الجدار الصقيل جسد رغبة بديعة المُشْرَعة على اللذّة. أعارض جسدي، لِمَ لَمْ يتجاوب مع بديعه، الأنثى اهتدت فجأة إلى لذّة ضالة عن جسدها. يتساقط الماء فاتراً على جسدي، أغمَرَني. أحتجب بالماء والبخار عن ضمير يهدد بالانشقاق عن التأنيب. ليفة سرقتها من حمام امرأة، أسكب سائل الشامبو عليها، أليفُني. توقف إثارة ناشئة عن تلييف الحوض وما بين الساقين، بديعه تنتصب عارية أمامي. يصعب تجنبها، ذهابها يخلف ندماً على عدم الذهاب معها حدّ المضاجعة. ماذا سيحدث لو توفرت إلى الرجل إسوة بالمرأة قابلية التجاوب الجزئي أو الموضعي، فيما يتكفل الطرف الآخر بالرهز وقذف.

ليتني هنداً، تلك التي تفضّلت عليّ بفض غشاء بكارتها، تركتني على جسدها، أمارس فعلي الجنسي، فيما فرّت بروحها إلى ما ترغب فيه. أنْ أكون كما تكون هند. أحتاج إلى عملية مزدوجة من اختصار وتفكيك. أدير ماء الدوش إلى البرودة. أركل الصابون السائل المجتمع على قدميّ. أنْ أكون هنداً، يجب أنْ أختصرني كُلّي إلى جزء، هو قضيب خامل، أفكك المرأة المعنية بالجنس إلى أجزاء. ردفان منفرجتان، سرّة، نهدان وشفتان ملحوستان، أحيط القضيب بهذه الأجزاء الوثابة، أضع الكل تحت جو التأثير والتجاوب مما يؤدي مع زخة من خيال جانح إلى هياج فيفقد القضيب مسوغ خموله فينتفض عليّ. ثم تستعيره منتصباً تولجه فيها كي تبلغ لذّتها. فيما أنصرف عنها تماماً كما انصرفت عني هند إلى حزنها وحنقها. يمكن أنْ أترك جزئي مندسًّا في كلها، أُحلّق بأجزائي الأخرى نحو حديقتي الطائرة. أحوّم على زهورها وفراشاتها. أبحث عن امرأتي الحبيبة، ألوم كونًا لم يكونها بعد. أعالج بالكولونيا والصابون مخلفات بديعة الشهية على جسدي من عرق ومحلول عطر الياسمين.

- هذه حجرة استحمام وليست غرفة نوم. هل نمتَ؟
- الماء أخذني من اليابسة.
- دعكَ من تعقب الأفق وارسَ على بر أقرب شاطئ منكَ.
- لا أفق نبحر إليه ولا شاطئ نرسو عليه.

{مَنْ يركب البحر لا يخشى مِن الغرق} كما تغني السيدة فيروز. يأتي صوتها عالياً من جهة الصالة. أنضم نظيفًا وعاطراً إلى أبي في المطبخ. يحيطه الدخان ويسلمه إلى روائح التوابل. ينتهي من تسخين الطعام، أساعده في ترتيب الأطباق على طاولة الطعام، يضع {عدّة العرق} كما يطلق عليها، تتألف العدّة هذه من قنينة الكحول {العرق}، كأسين صغيرتين، وقنينة ماء مبرد. {اليوم مائدة شامية، حمص بطحينية، سلطة، بابا غنوج، صفائح لحم وجبنة وأخيراً رز ومرق البامية من إعداد بديعة وتقديم حضرتي}.

أطباق صغيرة متنوعة من مأكولات شامية. نأكل منها أثناء شرب العرق. كما يفعل الشاميون في جلسات الشرب، خلافاً للعراقيين الذين يقضون السهرة بالاتفاق اللطيف على الشرب والاختلاف الحاد على المواقف. ثم يختمون سهرتم بأكلة تقليدية، يعتقدون صحيًّا ومزاجيًّا بملائمتها للشرب. (هذا يريد تلك). يتطلب شرب العرق - التشريب- خبز مثرود في مرق الطاطم، البصل واللحم. نأخذ ملعقة من سلطة اللبن الجاجيك، الحمص المسلوق اللبلبي أو الفول. يفضل أبي أنْ تكون مائدتنا شامية هذا المساء. يجلب عادة الحمص بطحينية، البابا غنوج والفلافل من (مطعم الشام) الذي يديره سوري مهاجر. نادراً ما يقيم أبي حفلات شُرب منزلية. يلجأ إلى الشرب في الحانات للحفاظ على مزاجه رائقاً وهرباً من مضايقات أمي وتعليقاتها المتواصلة على أدائه وتعاطيه مع المسكن. تتهمه بهتك حرمته. أبي لا بيت له غير مصنعه ومكتبه والحانة التي يتهدّى إليها مصادفة أو باقتراح من صديق. تعالج أمي الآثار المختلفة الناجمة عن المشروب، مثل الإثم بالصلوات والاستغفار والرائحة بالبخور وبخّاخ عطر الورد الجوري. تختزن أمي (عدّة العَرق) خلافاً لرغبة أبي في خزانة مهملة في حديقة المنزل. تأمره قبل تركه ساخطة عليه، أنْ يقوم بشطف الصحون بنفسه ويعقمها بمادة الكلور. أمّا في حال تعذر عليه القيام بذلك بسبب إرهاق، كسل أو تمرد عليها، فإنّها تصحو مبكرة، ترتدي قفازاً بلاستيكياً، تحتفظ به لهذا الغرض. تضع بأنف ونفور عدّة العرق في كيس قمامة أسود وتغلقه بإحكام، ثم ترميه في صندوق القمامة الكائن في أول الشارع حيث يقع منزلنا، تطلق على فعلها هذا بـ(عملية التطهير). عملية تثير حنق أبي عليها. يتشاجران على الفطور مما يدفعه إلى التهديد بهجر المسكن. (اذهب أنّى تشاء، أنا لدي ولد يجب أنْ ينشأ في بيت طاهر) تردد قولها عليه بصوت عالٍ أقرب إلى الصراخ. لا تتحدث معه بصوت منخفض. يترك أبي المسكن فعلاً لعدّة أيام. لا تُبدي أمي أسفاً على زعل وغياب أبي. تستوقفه قبل أنْ تغلق الباب دونه، مذكّرةً إياه بضرورة أنْ يؤدي واجبه المالي حيال مسكنه، هذا المسكن لولاها لانهار منذ أول كأس شُربت وأول كلمة (بصحتك) قِيلت. تُجزم على ذلك. تثني على فعلها: (لولاي لتحوّل المنزل إلى حانة، نعم) تدعه يتحمل وحده تبعات قراره غير مُكترثة إنْ قضى ليله نائماً على صوفة في مكتبه أو على سرير في

فندق أو أي مكان. تنصرف عنه إليّ فتحضنني. (أنتَ رجلي وعزائي في هذه الحياة).
يعود أبي بعد أيام إلى المنزل، تلاقيه بوجه متجهم، شعر منفوش وأثواب قديمة ومبلولة. ترمي طعامه على الطاولة. وتنصرف إلى استئناف أعمال المنزل من غسيل وتنظيف. يسدد أبي بدل اشتراكه ماليًّا وليس روحيًّا مقابل أنْ تبقى عضويته سارية المفعول في مسكن يحتاج إلى جيبه ولا يفتقده كطرف أساسي فيه. آخر ابتسامة حصل عليها قبل أنْ يجف الابتسام عن فم أمي، كانت عند قدومي إلى الوجود بواسطتهما. تلك المرة وقفا فيها مبتسمين لمدّة أطول بالقياس لمرات ابتساماتهما السابقة. أحلى الأوقات تلك التي يقضيانها معاً بصمت مبين. تدبر عنه عابسة ومتضايقة وتقبل عليّ باسمة ومنشرحة. تعبئ الثلاجة بمواد غذائية عالية الجودة غنية بالفيتامينات. تحذره من الاقتراب منها، (كفى تفكيراً بنفسكَ، فكِّر بابنك قليلاً) عدا عن هدر حقه في الابتسامة. تحرمه من سماع كلمة طيبة فيه. وإذا قدّر ذلك واضطرت إلى مديحه والثناء عليه. رغم أنَّه حسن التصرف وجريء الموقف، لا تُسمعه رأيها فيه مباشرة، تختار وسيطاً ينقل إليه إعجابها أو تقديرها وغالباً ما يكون هذا الوسيط هو أنا، تشترط أنْ ينقل إعجابها به وتقديرها لموقف ما في غيابها.

- بصحتك.
- بصحتك أبي.

بخفة يد يُعدّ أبي كأسين من العرق. يقدم أحداهما لي دون أنْ يسألني عن رغبتي في الشرب. أنا فعلاً بحاجة إلى الشرب والتدخين معاً وفي آنٍ واحدٍ. لعلني أنسى مشهد إعدام الجندي الهارب وأهرب من مشهد إعدام لذّة بديعة وهربها هي أيضًا مني ومنها. أحاول إبعادهما عن تفكيري لأصفو إلى هذه الجلسة. أتمنى عليّ أنْ أكون نديماً مؤنساً وبهيجاً. وألاّ أجتر حزنًا يفسد مساءً، بدأ يعتذر بطمأنينة هدوئه عن خوف وقرف النهار. أجدني على مشارف فرح لعلني أطوله. ولِما لا أطوله. الفرح مسؤولية ذوقية أيضًا. إنَّه حقنا في الحياة وحقها علينا نحن الأحياء. لكن أين هو الفرح الآن؟ في أية أرض يزرع وفي أية بلاد يصنع؟ هل يمكن اقتناؤه كشيء نفيس؟ هل هو متسرب في أشياء مملوكة،

أم أشياء لا نعثر عليها دون مشقة؟، لِمَ ننال الفرح بعد مشقة؟ بمعنى لماذا تُجعل المشقة شرطاً لبلوغه؟ لماذا لا يتعلم الفرح من الحزن كونه لا يتأخر بحزنه على الحَزانى؟ الحزن أقرب إلينا من فرح تفصلنا عنه مشقة ليس يسيراً تحملها أو اجتيازها.

تسرّب

إليّ الحزن

كالمطر الغزير

عبر مظلة فرحي

المثقوبة

- كل حزن شروع بالانتحار.

منْ يضيِّع ماذا؟ نحن الضالون عن فرحنا. الفرح كالهواء يشمل الجميع ليصنع أنفاسهم. نعم. نحن الضائعون عنه، لا يعثر علينا إلا بعد حزن أو بعد فوات آوان. انتبه إليّ، لماذا أرهنني إلى أفكار عاتية، تُلقيني بعيداً عنّي وعن أبي وعن هذا المساء الذي بدأ بمشروع مصالحة كونية بين الكون وبين كائناته و صفوتهما؛ نحن أنا وأبي، نعم. دعنا نصفو بنا وإلينا.

أنفض رأسي، تتناثر الفكرات كقطرات متفرقة، ستجف لاحقًا على حرارة اللقاء وحميمية البهجة. أقترب من أبي. لا أجهدني في البحث عن موضوع للحديث. عليه الحديث ومني الإصغاء. (من فوائد الأبناء أنّهم أصدقاء المستقبل وحماته، إنّهم الضمانة الوحيدة في عالم غير مضمون البشر. الاستبداد يخلف مقهورين ومهزومين معدومي القيم والفُرص. الحرب عدا التدمير والقتل تدمر النفس وتفسد الشراكة، الطرف الخاسر في الحرب هو القيم، تنعدم الثقة ويُوجد الخوف والحذر. يصبح القتل غرضاً مصيرياً ينتحل عناوين مختلفة. في الحرب همّان؛ همّ جمع المال بغض النظر عن دناءة وسائل الحصول عليه، وهمّ الحياة إما التسليم بقدرها كقربانٍ على مذبح الحرب الجاحدة بالإنسان دائماً، أو همّ الهرب بها حيث تكون نجاتها. لا تخلف الحرب غير

كراهية وحقد وتوفر أسباب مفتعلة إلى الانتقام. يأخذ الشيء فيها قيمته وصفته من نقيضه. ينمو في جبهات الحرب المتقدمة منها والمتخلّفة، الأمامية والخلفية وعي عابث يستخف بالحياة، إذ تغدو ذرة تراب أغلى من قطرة دم. يختلط الموت بالحياة، فيُفسد كلاهما.

- نعم كل شيء يُقبل على الخيانة والوشاية.

- الوفاء خيانة قاصرة.

- الخير يخون نفسه بتسليمه بالشر.

يذكرني أبي بخفة المأكولات الشامية على المعدّة. يُبدي دهشة بسحر ملائمتها مع العرق، يثني على البابا غنوج ويشيد بصفحية اللحم. (يا سلام. هذا يريد تلك) تتناهى إلينا أنغام وكلمات أغنية نادراً ما يسمعها أبي: "الدنيا ريشه بهوا، طايره من غير جناحين، إنْ كنا اليوم سوا، بكرى مش عارفين، نكون فين، فين في الدنيا". لا يتمايل أبي مع إيقاعها ولا ينقر بأصابعه أو يردد مقطعاً منها. يستمع إليها بمرحٍ بادٍ.

- كاسكم يا شباب.

(لم يبقَ إلاّ عام واحد على تخرجك من الجامعة. يعني أنَّ جبهة الحرب بانتظارك. أنا لا أتمناك محارباً. الحرب شرعنة القتل، المحارب مشروعان؛ أولهما قاتل وآخرهما قتيل. اسمعني، يحق لكَ السفر الآن. سافر ومن هناك تدبَّر أمر دراستكَ أو عملكَ. فكّر كيف تبقى حيًّا، أمِّن الحياة. والحفاظ هدف بشري راقٍ ونبيل. حياتك أمانة بين يديكَ. نجاتكَ أمنيتي ووصية أمكَ. أنتَ لا تربطني بالعراق وحسب وإنَّما بالحياة كلها. لا تؤجل مشروع موتي بخوفي عليكَ ولا تعجّل به بسبب عدم قدرتي على الحفاظ عليكَ حيًّا هنا في عراق القتل والتدمير. اسمعني، سأعمل على استصدار جواز سفر لكِ في العطلة الصيفية. سافر إلى باريس ومنها إلى مرسيليا. من هناك جرب حظكَ مع البحر. أليس هذا هو حلمكَ)

- أنا أفكر فعلاً بالسفر. لكن كيف أترككَ وحيداً؟

- لن أكون وحيدًا ما دمتَ أنتَ حيًّا، أنَّى تكون أنتَ أكون أنا، فنحن دائمًا معًا.

- حاضر، يا أبي.

- الموت جوعًا وتشردًا أشرف من الموت ذلاًّ. الموت الصريح أفضل من حياة غامضة، والانتحار خير من الموت كمدًا. الوطن يا ولدي يعني الكرامة، وأين تكن كرامتكَ يكن وطنكَ، كرامة الجحيم ولا ذلّ النعيم.

ينال أبي استرخاء طالما سعى إليه. تصدر عن فمه ابتسامة ومع أول نسمة هواء عابرة تتحول إلى ضحكة عالية القهقهة. الوضع المستريح وحالة المرح يفوتان الفرصة على الحزن المتربص باجترار مشهد الإعدام وتكبير تفاصيله الدقيقة. لا يريد أيُّنا الخوض في مشهد الإعدام الوحشي، لكنه يتغلغل فينا فيُظهر غلافًا حزينًا شفافًا بين لحظة وأخرى، يغلف أحاديث مهما ذهب بها المرح وابتعدت بها الخفة. يعُبُّ أبي فيه كؤوسًا عديدة من العرق. تفصل بين كأس وأخرى ملعقة من الحمص بطحينية أو البابا غنوج. فيما أشرب أنا بتمهل بسبب معدّتي غير المستقرة. يبدو هو مرتاحًا لتلك النهاية السعيدة التي آلت إليها قصة مشكلة سفري. يعتقد أنَّ موافقتي عليه نصف الحل وربما الحل كله.

- كُلْ، سوف يبرد الأكل.

آخذ ملاعق متباعدة من صحن الرز الممزوج بمرقة الباميا. فيما تعثر على أبي شهيته الضالة عنه لساعات طوال. يأكل ويثني على مهارة بديعة في الطبخ، يقارن بين جودة طبخها وجودة طبخ أمي، يرجح طبخ بديعة وهذا يتضح من طريقة التهامه لما على الطبق من الرز بالبامية. لكنه يحجم عن إعلان نتيجة المقارنة مراعاة لي ولأمي كونها راحلة ولا يجوز الإساءة للأموات. على فكرة أبي لَمْ يُسئ إليها بنبش أفعالها المؤذية لها، ولا يمدحها على شيء ليس فيها. لكن الآن وبعيدًا عن علاقة أمي بأبي، تردُّد اسم بديعة غير مرغوب فيه من قبلي، يجتاحني شعور حيالها مزيج من الأسف والأسى. لكن الحديث عن طبخ بديعة الجيد واللذيذ أو حتى الحديث عن بديعة الأنثى مشتهاة الجسد. ألذّ وأشهى من الحديث عن العراق الذي أصبح يبعث على القرف والغثيان.

أخاف أنْ تنطبع على وجهي أفكاري فيقرأها أبي بسهولة. ومنها تلك المتعلقة ببديعة. لا يتوقع حدوث اتصال جنسي محرم بيني وبين بديعة. يطرد عنه تفكير كهذا. لا يريد توقع شيء يفرض عليه تصرف حاسم وموقف جريء. وهو الذي لم يعدّ نفسه إليهما. علاقاتي النسائية ومنجزاتي الجنسية تفخر بها أمي. يسعدها أنَّ فحلاً قد انبثق عنها، فحل مرغوب فيه من قِبل النساء. لكن الشعور بالفخر يهدد استقراره شعور موازٍ قد يقوى عليه، هو الشعور المتوارث بالذنب والخطيئة. حكاياتي الجنسية في خيال الآخرين أكثر عدداً، أدق حبكة وأكثر حنكة مما هي عليه في الواقع. من المؤكد أنَّ أبي يعرف الشيء الكثير عنها، لكن لا يحق له التحدث معي بشأنها فأمي تجرده من هذا الحق، وتحتكره لها. (انتبه لعملكَ وتجارتكَ ودع المنزل وشؤونه إلى ربته)، تتصدى لها عندما تشعر أنَّ لديه ما ينبغي أنْ يقوله لي.

- بصحتكَ، كأسكَ بالشامية.

- كأسكَ يا أبي.

ينفرج أبي بعد ضيق حبسه فيه. يبدو عليه الاسترخاء. تدب حُمرة في وجهه لتبدد شيئًا من شحوبه. يضع ساقًا على أخرى ويطلب مني أنْ أفعل كذلك، يسرّه على ما يبدو تجاوبي معه. يتعامل معه كتَفَهّم يَنُمُّ عن نضج فكري وتحمل مبكر للمسؤولية. يسعدني أنْ يجده هكذا وليس مجرد طاعة ابن لأبيه. (لا نفع في أنْ تكون متحدثًا جيّدًا، المهم أنْ يكون هناك من يُحسن الإصغاء).

- جمال الكلام من حُسن الاصغاء.

يطفئ أبي مكيف الهواء. يزداد الليل سكونًا. تهب نسائم باردة من خلال النوافذ المشرعة. صفير يزاوِد على حفيف الأوراق. يشيع نباح كلب بعيد ومواء قطة قريبة ألفة غامضة. نجمات تتضامن بضوئها مع شعاع الشموع التي يميل أبي إلى إشعالها في الوقت الذي يلي الثمالة. يطلق على هذه الحالة: (نشوة الحَلْمَان). يساهم العرق وتجاوبي على حمل أبي إلى النشوة. تفاجئه حاجة روحية إلى سماع الموشحات

الأندلسية. يضع شريطًا ويشغل آلة التسجيل فتصدح الموشحات شجية بصوت السيدة فيروز، ' يا مَنْ حَوَى وَرْد الرياض بِخَدِّه'. تطغى على أبي حالة من المرح والخفة تفاجئني بسرور. وتضيف خطوطٌ لينة بهيجة على صورة وجهه المعهودة وقوراً، جاد وصارم الملامح بالإضافة إلى كونه صامت ومقتصد بالكلام. يسعدني أنْ أتعرف على أبي في شتى صوره. وأميل إلى صورته هذه، الصورة التي يعيد تصويرها عليّ الآن بعفوية وثقة. {أريد أنْ أضعكَ في صورة ذكرياتي التي حدثت خارج أسوار المنزل}. يهيئني شرباً ولطفاً إلى الاستماع إلى اعترافات بصيغة ذكريات. ربما يسقط قناع أو يرفع حجاب، فتقوم الأحكام. يصعب عليّ الوقوف بشخصية أبي على مفترق اثنتين؛ شخصية مثالية يُقْتَدَى بها، أو شخصية مُنْحَطَّة مطلوب التبرؤ منها. يكلف ذكرياته القيام بمهمة الاعتراف عليه. يسبقها برجاءات {مَنْ لا تجارب له لا حياة له. غنى المرء من غِنى أسراره. الذكريات خَمْرة الذاكرة. أسراري وجودي الحقيقي في عالم بشري مخدوع بحقيقة يخادع بها. كُنْ واهماً ولا تعش منخدعاً. لا تتفاجأ، أراهن على ثقافتكَ وتجاربكَ الشخصية كقاعدة في تَفَهُّم ما حدث لي من ذكريات}. أعْتَبِر ذلك تلميحاً إلى حكاياتي الجنسية الشائعة. أغضّ التعليق عليه. يتعامل أبي مع الأحداث على اختلافها على أنَّها ذكريات. لا يعطي صوتاً ولا يمنح ثقة إلى أولئك الأبطال الذي يحتلون حكاياتنا التاريخية، يصنعون أحداثًا مؤسفة ومؤلمة. لكنها تفرض بقوة العادة، التكرار والتلقين كذكريات قومية. يرفض ذلك تماماً {مَنْ ليس مؤهلاً لا يتلاعب بذكريات سواه. عليه أنْ ينصرف إلى حمَّامه؛ يفرش أسنانه ثم يذهب إلى النوم. راحته ومشقته لا يستحق عليهما حُلماً}.

كأنَّ أبي يستعير ذاكرة رجل آخر طالما تمنَّى أنْ يكونه، فيدعوني إلى الاقتراب منه والتعرف عليه. يريد أنْ يوصيني بأسراره كثَرْوَة لا يحملها إلى مثواه الأخير. يسلمها إلى وجداني وينتظر رأيَ ضميري فيها. يقدِّمها إلى شخص ناجح جداً في فشله. حرج الظروف وتقدم العمر تدفعانه الآن إلى الوقوف أمام ابنه ليعترف إليه مراهنًا على حداثة عمر ابنه وظروفه التي سعى إلى أنْ تكون مختلفة عن ظروفه. هكذا يحاول سرد اعترافات في صيغة ذكريات مؤثرة لعلها تكون مقبولة وتحظى بالتفهم، كما يُهيِّأ إلى

التعامل معها كتجارب شخصية عقيمة غير قادرة على التكاثر، أو كأحداث منفردة غير قابلة للتكرار والتعميم.

أتطلع إلى أبي الذي يتناهى به الصغر في قفص يكبر عليه يُدْعَى العالم. نعم العالم القفص الذي صار يصغّر المتهم ويكبّر التُهَم. هذا العالم التاريخي الذي تم تشيده على أعمدة عسكرية، تحرس قِيَمَه المتداعية، حِراب بشرية مشرعة. تاريخ التواتر والتلقين يتعقب الذكريات ليحيلها إلى اتهامات. (كُنْ متفهمًا ولا تُسِئ الظنّ). مقدمات تجعلني حائراً وخائفًا على أبي من حكمي عليه. أبي المعروف عن تسامحه وإخلاصه حد المخاطرة بحياته، لكن لماذا يضعني تقديمه إلى قصّ ذكرياته. الاعترافات في موقف القاضي وليس الشاهد أو المحامي.

يذهب إلى المطبخ. أنتظره على مضض. أجلس مندهشًا، أي فعل ارتكبته فدفعه إلى تهيئتي الغامضة هذه في الاستماع إلى إدلائه. يأتي بزجاجة شمبانيا وكأسين أسطوانيتين. يفتح غطاء الزجاجة تطفر الفلينة وتتدفق رغوة الشمبانيا فوّارَة إلى الأعلى. (أستهل اعترافاتي بالشمبانيا) قَبْل أنْ يشرع بالإدلاء باعترافه. يسكب سائل الشمبانيا في الكأسين، يقدم أحدهما لي ويرفع هو الآخر.

- بصحتك.

- بصحتك بهاء.

يبدو على بهاء وربان البحر الإرهاق. الخمرة وتأخُر الوقت قد فعلا فعلتهما بهما. طرحا عن جسديهما القدرة على البقاء يقظين. تهبط من أعلى العالم ستارة توضح إسدالها بكلمة واحدة: (النهاية) لهذه السهرة الطويلة بوقتها وأحداثها على اثنين لَمْ تمضِ على حياتهما معًا سوى أربع وعشرين ساعة. عُمر قصير تجعله الثقة المطلوبة طويلاً يُطول ببعده ذكرياتهما البعيدة منهما حد الملامسة.

يتراجع بهاء عن دعوته إلى تناول كأس الختام في أقرب بار فندق ومِنْ ثَمّ يفترقان كلٌّ إلى سرير. كلٌّ منهما يطلب نومًا غير مرفوض من حلم. شموع مطفأة. منافض مملوءة بأعقاب السيجائر. قناني فارغة بين مقلوبة وواقفة. أغاني هامدة في شرائطها المحرومة من الدوران. باب ينغلق دون بهاء وسرير ينفتح ليسقط عليه ربان البحر. يختزن بهاء ذكريات ربان البحر ويقوى بها. لديه الرغبة في الاستماع إلى اعترافات أبي ربان البحر. لكن النعاس وتأخّر الوقت حال دون الإدلاء بها. سيلتقيان غداً لمواصلة صداقتهما التي تعرضت إلى عطل بسبب الإرهاق والحاجة إلى النوم.

بهاء يأخذ طريقه إلى النوم. يقصي البشر والأشياء عن الطريق إلى السرير. العالم بيت. الشوارع ممرات تؤدي إلى غرف جاهزة الأسرّة للنوم. يضرب على المعرفة. جاهل لا يعرف غير النوم. يجهل الكل ويعرف جزءً واحداً هو النوم. النوم كله الآن. على العالم بشعوبه المتنازعة على حدود أوطانها لرفع شأنها القومي والتاريخي عاليًا. أنْ يفهم العالم لا خيار أمامه سوى أنْ يتحول إلى سرير لترقد عليه الشعوب. في المقابل وتقديراً منه سوف يتنازل عن بعض أحلامه إلى العالم المُعدم الحلم والفقير الخيال، أو ربما يتجرأ على ربان البحر ويسلّف العالم الخاوي هذا بعضاً من أسراره ليكون لديه شيئًا يتكتم عليه، يخاف عليه من بوح أو انتهاك، ويسقط في النوم من أجله. يقطع الطريق، يتراجع البحر إلى الأفق. السماء ترزم نجومها وتلوذ بالسحب. الناس تماثيل منتصبة قاعدتها الأرصفة المسحوقة بأقدام ماضية. الأضوية ألوان مرئية جامدة في الفضاء. (أنا لستُ رجلاً فكيف تكونين أنتِ امرأة). الطريق المذعور من خطوه يقصِّر من طوله. باب يعتذر عن الانغلاق بالانفتاح على بهاء. يسقط من يدٍ على يده مفتاح. سلم يعلو به. ممر يتلوي به.

- أريد أنْ أنام، أينكِ ياغرفة وأينكَ يا سرير.

تكبر فيها الفرحة عندما تجد المطعم كما هو؛ لكنها تشكُّ في أن تبقى الأسعار كما كانت. الساسة والاقتصاديون لا يدعون الأسعار على حالها. كما تعلمت من بهاء وآمنت هي شخصياً بالتغيير.؛ لكنها تتمنى أن تستثنى الأسعار منه. تريد أن تبقى الأسعار سافلة ولا داعي إلى العلو بها. يستقبلها النادل بترحيب ينم حفظ ذكرى عنها. يختار لهما طاولة تقع تحت ظل كثيف يأمنهما من التعرّض إلى الشمس التي تزداد تعصباً إلى الحرارة. تلاحظ سعيدة التحويرات الزمنية على النادل من قبيل شعره الذي ينحرف عن الأسود إلى الأبيض، وظهور تجاعيد عشوائية على وجهه. أما الديكور لم يتجدد سوى تغيير بضع كراسي وتبديل ألوان شراشف الطاولات النايلونية. تتقدم إلى النادل المرحب ضيفها. تجد أن من غير الضروري تذكيره بواجب إكرام الضيف، ولا هو الذي يقترح عليهما تناول (طبق اليوم). يطرأ على وجهه بهاء تجهم لا بسبب طبق اليوم الذي لم تتعرف عليه شهيته بعد، لا، لا، وليس ما ينسبه عادة إلى الحزن الذي يتعقبه ويقتلع أية فرحة محتملة. لا، لا، وليس المطعم الذي اختارته لتتناسبه مع قدرة جيبها الشرائية، على العكس المطعم لطيف ونظيف ويطل عن بعد على البحر، لا، لا، لا هذه ولا تلك.؛ بل كونه يحجم عن تقديم مشروبات روحية. الساعة تخرج عن الواحدة ظهراً، هذا يعني أن موعد كأسه الأولى قد حان. أما سعيدة فقد تبدو مسترخية إلى حد ما، هناك قلق يستعير ملمحاً منها ليلمّح إليه.؛ لكنها الآن راضية على ملاءمة المطعم ورحمة أسعاره. في الوقت ذاته تتشفّى ببهاء الممنوع من الشرب، تضحك، غالباً ما تضحك بلا سبب. (أحشائي تروي لبعضها نكتة قديمة وأنا أضحك على ضحك أحشائي وسخافتها) يضحك بهاء على ضحكها. (الإنسان الجيد الذي يستطيع أن يكون سخيفاً في هذا العالم القاهر).

تسكب سعيدة في كأس بهاء سائل الكولا (كولا مع الأسف) يتناول بهاء الكولا على مضض، يترجّى أن تصبح الكولا خمراً؛ لكن هذا مستحيل. يحتال عليه، باحثاً عن أدوات فاتنة إلى التملص من نوبة الخمر، يسكّشن حاجته إلى المشروب الروحي بتقصّي أعضائها الباعثة على الإثارة، وتهدئته بفيض جمالها المنسكب عليه. تتخلف عن الدخول إلى فمها قطرات من الكولا، تبقى عالقة على شفتيها فتلطعها بلسانها، تمسك

الكأس بكلتي يديها وتدورها، تشهق بعمق وتزفر بقوة. يتأملها بشهوة. لا يعدّ بهاء زيارته جميلة إلى أي بلد لا يتمكن فيه من تذوق مشروبه الوطني، أكلاته التقليدية ونسائه الجميلات. يحجم عن زيارة البلدان التي تحرِّم تعاطي المشروبات الروحية وتحجر على النساء، مهما تعاظمت مكانتها التاريخية، ومهما تميّز مطبخها بالجودة. (البلد الذي يحجر على نسائه يحجب جماله)

- كل شيء جميل كان في الأصل امرأة.

ابتسامة وتلوِّي تقدم بهما سعيدة لموضوعها الذي تريد التحدث بشأنه مع بهاء. تأخذ رشفة من كأس الكولا، تتنهد قليلاً. المكالمة الأخيرة التي تلقتها كانت مفاجئة. جاءتها من مغربي مهاجر إلى باريس، تعرف عليها في سياق عملها الفندقي، في الصيف الماضي أقام في الفندق الذي تعمل فيه، قدِم من باريس ليقضي بضعة أيام في مدينة الصويرة، انتهز فرصة استلام وتسليم المفتاح وافتعال بعض الأسئلة عن المدينة والخدمات، لكي يقضي أطول وقت متاح في الحديث معها، عبَّر عن إعجابه بأخلاقها وأشاد بسلوكها. يفضل من البشر الإنسان القويم ومن الطرُق الطريق المستقيم، لا يدخن ولا يشرب. (هل تأكل؟ سألته) (قال: بلى) أبدى امتعاضاً من الحداثة والعولمة، يجدهما تقوضان الأصالة وتحطان بالأخلاق. سألها عن اسمها وعن عائلتها. تعرف عليها عن بُعد. كرَّر اتصالاته بها. اتصالات تخلو من أيِّ تلميح إلى عقد عزم ما؛ فيما كانت تسأل عن الحياة العامة في باريس، يقصر هو محادثته على السؤال عن الصحة وعن حالة الجو. ينهي المكالمة بتمنيات تشبه المواعظ. تتوقع مكالمته دون أن تفتقدها، تجد فيها كسراً للرتابة. صوت من باريس يتسلَّل إليها عبر التليفون، يحذف المسافة ويقرب بينهما. صوت يربطها في فرنسا البلاد التي ورثت التحدث بلغتها؛ لكن تقاليدها الأسرية المتوارثة أخذت عن فرنسا اللغة فقط واعتذرت عن قبول الثقافة. لغة فرنسية حديثة وثقافة عربية تقليدية. أما جنوحها -هي وسواها- إلى مزاولة الحداثة هو خروج مؤقت على الثقافة الوطنية أو تمرد سرِّي عليها وتجاوز وقتي لخمولها. تشغلها باريس أكثر مما يشغلها هو، تتذكر صوته وتنسى اسمه، تفتقد مدينة لم تعش فيها ولم ترها.

يقطع عليها تسلسلها في حديثها؛ هزّ بهاء المتواصل لساقه اليمني؛ يضطرها إلى الضغط بيدها على ساقه وتوقيفها. يتأسف بعينه عن تصرُّف ساقه غير المقصود. تعتقد أن موضوع حديثها لم يكن مفضلاً من قبله، فشعر بالملل. ينفي بهاء ذلك ويطلب منها بإلحاح أن تواصل الحديث، كما يجد طريقتها في سرد التفاصيل لطيفة جداً. يوقفهما عن الحديث وقوف النادل حيالها واضعًا أمامهما ما يحمل من صحون يتألف منها طبق اليوم؛ طاجن اللحم باللوز وسلطة الخس بالطماطم. ترصف قطع اللحم في صحن فخاري ومزّين باللوز المقلي، أما السلطة فترتب أوراق الخس في صحن مقعر مسكوب على فوق كل وريقة خس خليط من: عصير الليمون، زيت الزيتون، الكمون قليل من الفلفل الأسود، فلفل أحمر حلو، وقد تزّين الصحن بحبات من الزيتون الأسود، مع سلة فيها قطع من الخبز. يتمنى لهما شهية طيبة. تناسُق محتويات الطبق المغربي وروائح خلطته تثير الشهية. تدعو سعيدة بهاء إلى الشروع بالأكل؛ لكنه يأسف على أن طبقًا طيب المذاق وامرأة مليحة المنظر ألا يستحقان هما الاثنان كأسًا واحدة على الأقل من النبيذ الأحمر المعتق. جوٌّ مشمس رقيق النسائم، طبق لذيذ، امرأة شهية وكأس خمرة غائبة. يعزيه؛ (بهاء حاضر وكأسه غائبة) ترجوه أن يحشد شهيته ويأكل. سعادتها الكونية موقوفة على مدى أكله. سعادتها مرشحة للنمو إن استلذّ بطعم الطبق، ووجد في دعوتها باعثًا على سروره ومشروعًا لإنشاء ذكرى جديدة عنها. السعادة عنوان كبير لتفاصيل صغيرة تدور عن أشياء أصغر.

يعرض المهاجر المغربي عليها مشروع اقتران شرعي غايته تأسيس أسرة تكون بيئة قويمة لنشوء أبناء مستقيمين. يجدها مثالاً يحتذِي به. يشرفها بمهمة إنجاب أطفال وتولّي تربيتهم الصالحة. ينتظر بلهفة أن يعود إلى البيت وسخًا وتعبًا بعد يوم عمل طويل في مجزرة السعادة، لحم حلال. تستقبله نداءات مرحبة صادرة من أفواه بريئة؛ (بابا جاء، جاء بابا) يحمل إليهم الحلوى والخضار، واللحمة إليها. يغتسل ويُقبل بجلابته على مائدة العشاء التي يتحلق حولها أولاده وبناته وزوجته التي تذهب لتحضير إبريق الأتاي. يستلقِي على الصوفة. يشاهد التلفزيون، يستمع بشغف إلى نشرة الأخبار الحافلة بأخبار الموت والدمار والخالية من أخبار الحياة والبناء. يذهب الأطفال إلى النوم، فيما يتابعان

هما بقية السهرة مع مسلسل عربي على سبيل المثال وليس الحصر؛ ' سامحوني ما كانش قصدي' ، ثم يليه فيلم عربي كـ'بين الأطلال اذكريني' . يبكيان على النهاية المأساوية، يمسحان دموعهما ويمضيان إلى الفراش، يجردان من الثياب أجزاءهما السفلية، ويشرعان بعملية اتصال جسدي شريفة القصد، هدفها إنشاء طفل جديد يعززان البشرية به. يختار لها عينة من حياتهما معاً، مساء كمشهد قصير من عرض شراكتهما المتعاقبة الفصول والمتعددة المساءات والصباحات. مشهد تظهر فيه كأداة هامشية ترعى العناصر الأساسية؛ الأطفال وهو. عليه توفير المال وعليها الخدمة والإنجاب. يبرمان عقد إيجار رحم وليس عقد نكاح كما عهدته. هكذا تكرّر أمها وجدتها. تعلمت، قرأت وخبرت عصراً حديثاً لا لتختلف عنهما بالدور والطموح؛ بل لتكون نسخة أحدث عنهما. ها هي الحياة تصفي الفرص وتعدم الخيارات، ليس أمامها سوى فرصة منسوخة تنسخ عنها حياة أمها وجدتها، بغض النظر عن مستوى التعليم وحداثة العصر.

لا تفكر سعيدة بمهاجرها المغربي ومشروع تأجير رحمها ورهن سعادتها؛ قدر ما تفكر بمدينة قرأت عنها وشاهدت أفلام عنها وتدور فيها، تعرف باريس أكثر مما تعرف عن مشاعرها وعن مدينة الصويرة ذاتها. تتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة؛ لكنها تواجه حرجاً، عندما تضطر إلى الجواب بالنفي عن سؤال: هل زرتِ باريس..؟ كم مرة زرتِها..؟ ليس الرغبة؛ بل المال والعُرف يحولان دون زيارتها. تريد أن تحج إلى منبع اللغة الأصلي هناك لتنهل من جديده وتتعرف على ثقافته. تقدم رحمها مقابل الإقامة. نعم تؤجر رحمها، لتعيش من عائداته في باريس المدينة التي تتردَّد على أحلامها. ستحاول من هناك البدء في مشروع البحث عنها أو الضياع فيها، ضياعها فيها عثورها عليها، ستواصل تعليمها وتعالج طموحاتها.

- أعدكَ بذلك.

- أعدي نفسكِ

سيعدة ليس أمامها سوى رجل عابر هو بهاء، لا تعرف عنه غير اسمه وبعض أجزاء من جسده، لا تطويها العتمة و لا تطولها الأثواب. هو أقرب إليها من مهدها وسريرها. لا

تعرف عنه سوى شعورها بالطمأنينة معه. طمأنينة لا تريد أن تفسدها بأداة استفهام لماذا. ردها هذا أفحم وعي بهاء وألهب رجولته في آنٍ واحد، غاص في كرسيه قليلاً، وحاص به شوقه إلى خمرته. يحب بهاء أن يكون ممدوحاً حتى على ما هو ليس فيه وما لم يقم به. أما هي فستعزيها بتوزيع صفاتها على ذوات أولادها في حال عدم تمكنها من الإفلات بطموحها وأحلامها من أسر الدور المرسوم تاريخيًا لها كامرأة. (لكن على ما يبدو أن التاريخ العربي ينسخ مراحله، ويكرر حقبه بمأساوية وإحباط. التاريخ العربي منسوخ بالآلية ذاتها مع اختلاف طفيف بالأدوات.

- التاريخ مستودع الحقائق المسلحة.

لعلها تتفق وبهاء على أن الرهان على نشوء حداثة عربية رهان خاسر. وستبقى المرأة العربية الورقة الرابحة في اللعبة السياسية والعقائدية المحلية والدولية) لا مستقبل للمرأة ككيان شعوري واعٍ في العالم الذكوري، يختزلها الطغيان الذكوري إلى أداة إنجاب وخدمة، مطلوب إبادة الأنثى التي فيها، والتعايش مع توالي القمع لرغباتها، أن تقوم بتحطيم أنثوتها لتشيِّد على أنقاضها صرح امرأة عظيمة. يخلع عليها المجتمع ألقاب: السيدة الفاضلة، الأم المثالية، الأم مدرسة وغيرها، لا خيار أمامها وأمام بناتها سوى النسخ، البنت نسخة عن أمها، نسخة منسوخة عن نسخة فيما ينعدم الأصل.

تعاظم فرحتها بالسفر إلى باريس، تُصغِّر كل ما يعوقه، تؤجل التدقيق بمصيرها وما ستؤول إليه حياتها هناك؛ (لا خيار للفقراء. الفقراء يختارون موتهم لا حياتهم، الفقراء حطب بشري في مواقد الأغنياء التاريخية، هنا يسكن الفقراء في منازل الجوع والقهر، ويقيمون في أحياء الانحراف والجريمة الواقعة في مناطق الإرهاب، هناك في باريس يحيا الفقراء بسويتهم، لهم ممثلون لا فاسدين ولا متواطئين) تقيم هنا فيما تولد أحلامها هناك، تكبر بعيداً عنها، لا وقت، عليها اللحاق بها ورعايتها قبل أن تنحرف أو تنهار قمعاً وتفنى جوعاً. نحن مقهورون لا مخيرون. تنتفض دمعة على قمع عينها، فتلوح بالتمرد، يتصدّى لها بظاهر كفه وبباطن كفها تمنع ظهور دمعة على عيني بهاء. يهرع النادل إليهما، بمحارم ورقية وكأسين من كوكتيل الحليب، الموز والعسل. يرجو ألاَّ

يكون طبق اليوم هو السبب في هذا الحزن المسيِّل للدموع. ما يبعث على دهشته كيف يقضي رجل وامرأة وقتهما في تبادل الأحزان وليس في التناوب على الفرح. النهاية الدامعة لتناول الطبق يعدُّها فشلاً يحسب على مطعمه وتقصيراً في خدمته. يلوذ بهاء بالصمت الحزين. فيما تجدها مضطرة إلى تبرير ما حدث نافية أي دخل للمطعم، الأكل والخدمة فيه. يتمنى النادل لهما وقتًا أفضل مما سبق.

صمت بهاء واقتصاد سعيدة بالكلام، ضيَّع عليهما - كما يعتقد النادل المقتنع به جدًا- فرصة لنصحهم وتزويدهم ببعض من خبراته الحياتية. أراد أن يعطيهم درسًا في كيفية تحضير وجبة السعادة من حرمانات البؤس ولوعات التعاسة. يعتقد أن تدجين قطة أو كلب خير من تربية إنسان، مُعلم الإنسان خسران. تعفي بهاء الضيف من القيام بمهمة مطلوب منها هي وحدها القيام بها، عليها معالجة الآثار الناجمة عن تضحية الدموع ودوافع حزنها النبيل. دموع مخلصة لم تتخلَ عنهما في لحظة حزنهما، دموع غادرت العيون للتعاطف معهما في لحظة حزن، وها هي تواجه قدر فنائها جفافًا أو مسحًا بكف أو بمنديل. تسأل سعيدة بالنظرة، وبالنظرة يجيبها بهاء عن رضاه عن المطعم وعن الأكل الذي وجده لذيذاً. يقبض على كفها بكفه تعبيراً منه، عن إعجابه بحديثها على شجونه.

- الحزن شق الفرح المنشق عليه.

تقف سعيدة. تطلب من بهاء أن يغطي خط سيرها بنظره. تدخل إلى الحمام. وتدع بابه مفتوحًا، تومئْ إلى بهاء. ينهض ويتجها سيراً إليها. تغلق الباب دونهما. (حَلّ بعصير فمي) تأخذ فمه بقبلة مصوّتة، تريق في فمه ماء فمها، تلحس لسانه ويمص لسانها. ينتابهما خدرٌ لذيذٌ مصحوباً بشعور بوهن مرغوب. ينتهيان. تمسح عنه آثار طلاء شفتيها. يرتبان هيئتيهما. تسبقه هي إلى كرسيها ويتبعها هو إلى كرسيه.

- ما رأيكَ بهذا الديسرت؟

- حلو أحلى من الحلو.

يقبل النادل عليهما باسماً، يعرض عليهما قائمة بأنواع الحلويات المغربية والفرنسية. يشكرانه ويعتذران عن تناول حلو ليس نابعاً منهما، ذاق أحدهما الآخر واستحلاه. حلوهما أحلى من الحلو، أحلى من حلاوة الكون، لا كون حلو دون حلاوتهما واستحلاهما لطعم بعضهما. استمتعا بهما. لم يفرطان بحلو طبيعي مقابل حلو صناعي محليٍّ أو مستورد. يقف مذهولاً، هو العرِّيف يقف جاهلاً أمام كلام موغل بالغموض، هذا ليس غموضاً إنما لغواً. كلام لا يكلف نفسه فهمه. (الصغائر ينبغي مواجهتها بالإهمال وليس بالفهم)؛ لكنهما يقطعان عليه ذهوله، يخبرانه بأنهما مكتفيان بهما، ويطبق يده الذي كان لذيذاً يشكرانه عليه مرة أخرى. ديسرتهما هو كلامها الطيب فيهما. الكلام الطيب فاكهة البشر. يستعيد فهمه، رجاحته، ونظره بعده؛ (هذا الكلام المفهوم). يضع بهاء ساقاً على أخرى. يتنهد. تبدو على وجهه أعراض التفكير؛ تتقطَّب حاجباه وتجنح ملامحه إلى الجدية. (وجه الجدية عابس الملامح) يضعها في بعد موقفه الذهني الرامي إلى عدم مشاركة أولئك الغير في ما يذهبون إليه. (كل ما هو مفهوم صحيح) لا؛ بل يرى، (ليس كل ما هو مفهوم صحيحاً).

تتعهد إليها من خلاله أن تعمل على إنقاذ سعيدة الأنا من المرأة الغير، المفروضة عليها أن تلعب دورها النمطي. (لعب دور يتلاعب بها). ستعهد إلى المرأة التي تكونها في تنفيذ بنود عقد تأجير الرحم، فيما تهرب سعيدة إلى حيث تكون، بالأحرى إلى ما ينبغي أن تكون عليه. تحاول ألا يحول دور الإنجاب ومهمة الخدمة من مزاولتها لحياتها الشعورية. ستفكك عالمها وتخبئه. ثم تعيد تركيبه كلما تدعو الرغبة. تلجأ إليها لتكون كما تحب أن تكون. تضع يدها على خدها. تزّم شفتيها. ثم تتطلع إلى ما هو أبعد، تمني من خلاله نفسها. ستكون قريبة من بهاء بوسعها التحدث إليه تليفونياً، من هناك المكالمات التليفونية أطول وأقل تكلفة. كما أن المسافة سوف تقصر بينهما، ستزور كوبنهاجن بناءً على دعوته ورغبته. ستحل عليه ضيفة خفيفة يمكن حملها على كتفيه في جولتهما في غابة أو في نزهتهما على شاطئ. ستتدلل عليه بطلباتها أليس هو صديقها. ثم تغادر كوبنهاجن ضيفة مكرمة وامرأة معززة بالذكريات. تغيِّر جلستها، يعود إليها قلقهما. تدعو بهاء إلى أن يختلف معها على قرار سفرها ويرفض الوسيلة التي يتحقق بها

حلمها هذا. تريد أن يكون لديها ما تندم عليه في حال فشل التجربة، ألا وهو نصيحة بهاء التي تخلت عنها، أما في حال نجاح التجربة سيتضاعف فرحها وتتوطد ثقتها بها؛ لأنها اتخذت قراراً حدث اختلاف على اتخاذه.

- لا لست خائفاً عليكِ كسعيدة، وإنما حزيناً عليكِ كامرأة.

لا يؤثر التعب على استرخائهما ولا على شعور سعيدة بالسعادة، لقد تمكنت من العثور على صدر تودع فيه سرّها وذكرياتها الممنوعة. فيما يلوم بهاء نفسه على شعوره بالضيق رغم بواعث السعادة التي تلتف حوله. امرأة تتعرى من أسرارها. بحر يبحر بحلمه. شمس مقدور على التملص من حرارتها والانغمار بضوئها. ضيق بهاء يعود إلى حاجته الجسدية والروحية إلى تناول كأس من مشروورب روحي معتق، تكون مازته هذه المرة قبلة. يصعّد من النظر على شفتيها، السفلى التي هي أعرض من العليا، عليهما طلاء غامق يدعوه إلى إزالته بفيض قبلة.

- الحساب من فضلكَ.

دفع سعيدة للحساب مسألة محسومة. تضحك وهي تلمح إجمال المبلغ في الفاتورة. تخرج من حقيبتها محفظتها ومنها تخرج المبلغ المرصود لتكاليف الدعوة. تمسك بيد بهاء لتنهضه. يداً بيدٍ تخرج وبهاء ضاحكاً وضاحكة هي. تخلف سعيدة وراءها ألف شكر إلى النادل وبقشيشاً لا بأس به. تعرف أن بهاء لا يحبذ صحبتها في ما يقصد الذهاب إليه؛ حرصاً عليها من النظرات المزدرية. يقف بها عند منعطف يؤدي إلى الشارع الخلفي، تطبع قبلتين على خديه.

- حقيقة أني عاجز عن الشكر.
- لِمَ أنتَ عاجز، حتى الأخرس قادر على التعبير عن شكره.
- شكراً جزيلاً.
- ها، أرأيت أنك لستَ عاجزاً؛ بل قادر على إنجاب ألف شكر.

تؤكد عليه موعدهما الفجريّ. ستخرج عليه من البحر بثوب مبلول لاصق بجسدها، ستنهي تدحرجها حيثما يمكنه التداعي عليها برغباته الندية. يودعهما الفجر، على أمل لقائهما فجراً في المكان الذي تذكرّه بموقعه ثلاث مرات. تؤجل انعطاف بهاء إلى الشارع الخلفي، نداءات متلاحقة من سعيدة العائدة إليه جرياً.

- هل يمكن أن تسلفني درهماً، لم يبقَ معي أية نقود.
- خذي أكثر مائة أو.....
- أرجوكَ سلفني درهماً واحداً فقط ثمن أجرة الباص.
- خذي تاكسي.
- صافي.

تنتزع الدرهم من يده ضاحكة، وتمضي مسرعة معبرة عن شكرها له بقبلة هوائية، ترسلها وهي ماضية في بعدها عنه. ينعطف بهاء ثم يأخذ الشارع الخلفي إلى بائع الخمور الذي ألِف تكرار بهاء عليه.

يصحو بهاء على ضوء يخترق العتمة التي تشير إلى ليل قد خيم. تقع بالقرب من سريره زجاجة نبيذ نصف فارغة، شرائح بطاطا مقلية على ورق، كأس مقلوبة على بقايا نبيذ ناشف، هواء بارد يتسلل عبر النافذة المفتوحة ويتلاعب بالستائر. ينهض، يمشي وسط غرفة الفندق المكتظة بغياب سعيدة الحاضر على الأشياء. مرت ولن تعود. قدمت استقالتها من الخدمة، قبضت راتبها وتحصلت على مستحقاتها. كانت تغامر في عملها وسمعتها في كل مرة تأتيه. نظام العمل يحظر عليها الاتصال الشخصي بالنزلاء ويمنع الدخول إلى الغرف دون عمل وعلم الإدارة، والأخلاق تحرم عليها الخلوة غير الشرعية برجل. ينبغي أن يتحمل أعباء وجوده الفندقي دون اهتمام استثنائي جمالي الطابع. تهيئ هي نفسها إلى السفر إلى باريس والإلتقاء بحلمها المتغرّب عنها.

اعتاد بهاء عليها. تتسلل إلى الغرفة تندس تحت اللحاف أو تطل عليه من الحمام برأسها مبلول الشعر، يفتح عينه على وجهها الباسم، ويلملم قواه المبعثرة وهناً بالنوم،

جسدها يهتز رقصاً وفمها يداعبه بالكلمة والقبلة. في غيابه ينوب عنها خطاب توصيه به، وعطرها الذي يحرسه من كراهية رائحة أو تجاوز فكرة عليه. تلفت انتباهه الساعة إلى تأخيره عن موعده مع ريان البحر. يدخل الحمام ويخرج مغسولاً يقطر ماءً. ينشفه ويعبّئ القسم السفلي من جسده في سروال والعلوي في قميص، ثم يسلمه إلى طريق يأخذ بخطاها إلى المكان الذي يكون فيه ريان البحر، يختار من الطرق أقصرها وأقلها كثافة بشرية، يقطع الطريق الأسمنتي الذي يفصل بين البحر وخط المقاهي والمطاعم. تنبعث أغانٍ، إيقاعاتها الراقصة تشوش على التفاهم مع الحزن المشرئب في أعماقه، يلمّح ريان البحر، هناك عند كثب رملي أمام شجيرة، يقف تحت مظلة سماوية زرقاء مرصعة بالنجوم، يعطي وجهه البحر فيلامسه بكف من نسيم. يجتاز بهاء إغراء عاهرة، ويتعدى غنج غلام يراودانه عليه. يدرك ريان البحر في مكانه، يقف أمامه، يأخذ ريان البحر حجمه الليلي، شاهق ومترامٍ. تتطلب تحيته والكلام الأول معه مراناً واستعداداً سريعين، ينحت بهاء لفظة صوتية؛ (لاموسين)، يعرِّف بها حجمه المتحول (حجم لاموسيني)، ينطوي ريان البحر كي يسهّل على بهاء عملية العناق والتحية ويحفظ القبلات المتوقعة من السقوط على رقبته أو على كتفيه، عن يومه يسأله ويجيبه: رائعاً كان.

يُظهر ريان البحر زجاجة ويسكي صغيرة من جيب معطفه الرمادي الخفيف، يعرضها على بهاء الذي يعتذر عن الشرب الآن، شربَ كمية أسقطته فجأة في هوَّة نوم يعتقد أنها كانت عميقة، يودِّع ريان البحر جوفه بجرعة كبيرة، يُخرج حبة فستق مملحة يقذفها إلى الأعلى ويلتقطها بفمه، يقفز ريان البحر في الهواء، يتأهب، يرفع يديه إلى الأعلى، يثني ساقه اليمنى، ويشرع بالرقص على إيقاع همهمات يطلقها هو، يرغب بهاء في دعوته إلى تناول طبق من الباذنجان، لكن طبقاً كهذا نادراً ما يتطلب بحثاً استثنائياً عنه في كل مطاعم مدينة الصويرة، من غير المؤكد العثور عليه، يتعامل المغاربة للأسف من الباذنجان كطبق ثانوي، يقدم على شكل شرائح مقلية، وليس كمادة لطبق رئيسي. لا يصرح بهاء برغبته هذه خوفاً من عدم العثور عليه، وبدلاً من أن يضمد الجرح ينكأه.

- ألا تشعر بالجوع..؟

- نعم؛ ولكني لا أحسن معالجته الآن.

- دعني أنا أتكفل به.

يتركان البحر ويتجهان إلى اليابسة المحتل سطحها من بشر مطرودين من عمق البحر. بعد دخول سريع وخروج أسرع من مطعم إلى مطعم، يعثران على مطعم يبدو هادئًا. ينتحيان زاوية فيه خافتة الضوء ومعزولة عن الفضول البصري والصوتي. يقبل عليهما النادل بابتسامة وانشراح، يحييهما ويسأل عن حالهما ويتمنى لهما وقتًا طيبًا. يطلب رُبان البحر زجاجة ويسكي، ويعهد بشؤون المقبلات إلى بهاء، فيما يتمنى عليه إرجاء وجبة العشاء والتفكير بها إلى وقت لاحق. ينسحب النادل.

فناء المطعم ينتهي إلى مسرح صغير مهيأ لبرنامج موسيقي. يتحلق الزبائن الأجانب حول الطاولات بأعداد تتراوح بين الأربعة والثمانية، مشاعل موزعة بعناية على أرجاء المطعم، الجدران حجرية تذكّر بجدران الكهوف، السقف منخفض، الأرضية مفروشة بالزرابي المغربية، نُدُلُ المطعم ذكور في ملابس مغربية تقليدية، يأتي النادل بعدّة الويسكي، كأسان مِثْلَجَة تحتوي على قطع ثلج وملقط، جزر مقطع، حبات زيتون أخضر وأسود، ويضاف إليها بناء على طلب بهاء بابا غنوج وطبق من الباذنجان المقلي. يهيئ النادل كأسين لهما، ثم يستأذناه بتركهما يشربان على طريقتهما. يحييهما وينسحب مبتسمًا.

- بصحتك..

- بصحتك..

يقدم ربان البحر سيجارة لبهاء الذي يتمرن على التحول إلى كتلة صاغية. هذا اليوم انحدر كلامه إلى أدنى مستوى له. لم يقل كلمة تستحق أن يبحث لها عن دفتر وقلم يأويانها ويحفظانها من نسيان. الكلمات المستخدمة لدرء ضرر وقضاء متطلب. يحوّل هذا اليوم الفاشل كلاميًا إلى يوم إصغاء. هذا لا يعلق سعادته، على العكس يسعده أن

يجده الآخر محل ثقة ويثير قريحته الكلامية؛ لكنه يفضل ثرثرة النساء على كلام الرجال، ثرثرة النساء بلاغة كما قال سابقاً. وربان البحر رجل بجسده وامرأة بقلبه. بعد أن انتهى من الكأس أخذ نفساً عميقاً. جلس بهاء صاغياً ومحدثاً ربان البحر عن اعترافات في صيغة ذكريات، يمكن أن يتهم أباه بها.

(كنْ متفهماً ولا تسيء الظنّ) ويضيف أبوه: لا تتعجل بالحكم على الآخر، (الحكم تجربة وفن) يرى أن سمعة الآخر أمانة في غيابه. مقدمات أبيه تجعله حائراً وخائفاً من حكمه عليه، يشرع ربان البحر بتلاوة ذكريات أبيه- الاعترافات كما فهم من تقديم أبيه لها- يدشّن أبوه مرحلة الاعتراف بزجاجة شمبانيا، اعتراف مخملي. يسكب سائل الشمبانيا في الكأسين، يقدم أحدهما لي ويرفع هو الآخر.

- بصحتك..

- بصحتك. يا أبي.

تنقلب ملامح أبي على وجهه، يبدو منقبضاً في الوقت الذي يبدو جسده مسترخياً، يعالج بزجاجة الشمبانيا التي أتى على ما فيها، الحرج من إطلاع ابنه على ذكريات قد يكون من المبكر التعرف عليها. الأبناء مهما كبروا فهم صغار بنظر آبائهم وأمهاتهم. يجوز التحدث عن الذكريات مع أصدقاء جرى اختبار صلاحية إخلاصهم وأمانتهم وليس مع أبناء سواء كانوا عاقين أو بررة. تفرض الأعراف مراعاة حرمة البيت وتعاقب على هتكها. يطرد أي فرد مهما كانت عضويته في الأسرة إن أخلّ بحرمة بيت. البيت صرح اجتماعي يقوم على أعمدة أخلاقية. أبي قد هيأني تطبيقياً بسهرتين خبر فيهما تجاوبي معه ولمس تفهماً قد فاجأه، كان تعامله معي يتدرج من الابن إلى الصديق، لِمَ لا أكون ذلك الصديق الذي يأمنه على ذكرياته، يذهب أبي إلى المطبخ يجلب قنينة ويسكي، و صحناً من الفستق الحلبي.

- بصحتك.

- بصحتك يا أبي.

يحرِّر أبي السُكْرُ بالتعاون مع الذكرى والحلم من سطوة عقله عليه. يتماهَى وإياي في كون تمنى أن يكون فيه. كون الاعتراف لا يكون دون آخر، والآخر هو أنا الذي يجلس قبالته، الآخر مبرر الاعتراف أو التكتم. تُداخل أبي حاجة روحية إلى الاعتراف أمامي، ذكرياته الممنوعة ليست حكرًا عليه على ما يبدو، يحتاج إلى من يقاسمه إياها حدوثها الجميل. لا يريد أن تأتي اعترافاته في سياق الشعور بالندم؛ وإنما في إطار الرغبة في البوح. يدرك أبي أن السعادة رهان على الآخر، وسعادته تتوقف على نجاح رهانه على الآخر الذي هو أنا. يمضي محمولاً على ذكرياته، يدعوني إلى التطواف في ذاكرته لنتعرف معًا على ذكرياته. أتعرف عبرها على رجل آخر كانه بلذّة وألم.

يدعوني حسون المضلع إلى سهرة في 'ملهى ليالي الصفا'. تجمعني إليه علاقة عمل نافعة وصداقة حميمة. يعمل وسيطًا تجاريًا لنقل البضائع من بغداد إلى الموصل. يتيح عمله فرصًا إلى التعرف على تجار، ضباط شرطة وموظفي جمارك. يمقت رجال الجمارك ولا يخصُّ كائنًا من يكون منهم بدعوة إلى أية مناسبة. يعتقد أن العالم سيكون أفضل من دونهم. إنه في العقد السادس من العمر، طويل القامة، ضعيف البنية، يرتدي شتاءً طقمًا رماديًا؛ قميصًا أبيض وربطة عنق زرقاء، وفي الصيف يرتدي جاكيتًا بنيًا، قميصًا وبنطلونًا بيجيّ اللون. نواجه مشكلة تتكرر على تكرار لقاءاتنا، نميل إلى حلها بالضحك. يعيق طول قامته دون إتمام عملية السلام كما يجب، أقبِّله أنا من جهتي عنقه، فيما يقبِّلني هو من صدغيَّ. إحفاق القبلة في تحيتنا تحملنا على التفكير بحل، نصافح بعضنا بحرارة ونقبِّل بعضنا هكذا في الهواء. (يقوم أبي بتمثيل فعل القبلة الهوائية ضاحكًا) يقصد حسون المضلع الملهى مساء يوم الخميس، هو اليوم الوحيد الذي يكون فيه مرحًا، ويكون فيه أيضًا على استعداد لتلبية طلبات عائلته بأريحية. يسمي يوم الخميس (يوم الإقبال)، تتكاثف سحب الدخان في أعلى قاعة الملهى، تحاول المرواح السقفية قشعها، يسعد حسون المضلع ليس في كونه معروفًا من شغيلة الملهى؛ وإنما طاولته محجوزة وطلباته معروفة مسبقًا ومهيأة. يتنهد مزهوًا حين يدنو منه نادل: (أهلاً سيد حسون طاولتكَ جاهزة) فيرد عليه بضحكة قهقهاتها متقطعة وخفيضة. تلبي طلباته دون سواه من الزبائن. لا شيء غير موجود ما دام حسون المضلع راغبًا فيه. يؤمن

رئيس العاملين طلباته حتى وإن اضطر إلى جلبها من خارج الملهى مهما كان بعيداً ذلك (الخارج). لا يشرِّف حسون المضلع أحداً بدعوته إلى ملهى ليالي الصفا إلا بعد التأكد منه كنديم جيد ورفيق سهرة ناصح. يعدُّ الملهى مغارته الليلة، يعقد فيها صفقاته السرية والجنسية؛ أما الذين دون مستوى ثقته، يلتقيهم ويخلِّصُ أعماله معهم في المقاهي أو في النوادي. يصنف دائرة تعاملاته البشرية إلى فئات؛ فئة الشاي، فئة العصائر، فئة الحليب المعقم. أمَّا الأرقى والأضيق فهي فئة المشروبات الروحية، يتم الترشيح إليها بعد سلسلة اختبارات نفسية وذوقية. استغرقت ترقيتي من فئة الحليب المعقم إلى فئة المشروبات الروحية عدَّة أعوام، يجرجرني فيها بين محال بيع عصائر معروف هو مَنٌّ مِنْ قبل صاحبه. عندما تدعو الحاجة الروحية ويستدعي العمل لقاءً، يحدد موعداً عند أحد باعة العصير إياهم؛ (كأس حليب معقم للفتى، وكأس المخضرم تعرفه أنت) ثم يضحك بقهقات متقطعة وخفيضة. يأتيه كأس فيه سائل أصفر مع قطع من الثلج، يحضِّره البائع في غرفة المحل الخلفية والممنوع على غيره دخولها. إن الذي يشرِّفه حسون المضلع بدعوته عليه أن يأتمر بذوقه، يقرر هو من طرفه مشروبه، مقبلاته، وعشاءَهُ. يأتي النادل بطلبات حسون المضلع مضافاً إليها قنينتان من الشمبانيا وطبق مشكِّل من أصناف مختلفة من الفواكه.

- لِمَ الشمبانيا وطبق الفواكه..؟

- هذه لتزيين الطاولة فقط، استأجرتها.

إجابة حسون المضلع مزينة بشيء من الاعتزاز بالنفس والثقة بالتصرف. تضفي سلة الفاكهة وزجاجتا الشمبانيا تميزاً حسب ما يعتقد؛ (الشمبانيا أبهة منظرها لطيف، لا كل لطيف يؤكل، ولا كل ما يؤكل لطيفاً. الفاكهة تجمِّل الطاولة وتسرُّ نظر شارب العرق، لكن مذاقها الحلو مع الشرب قد يضرُّ حدَّ الغثيان، تشكيلة تسترعي الانتباه وتثير الحسد لسببين اثنين لا غيرهما، أولهما يعني أن هناك امرأة موعودة والشمبانيا تنبئ بجمالها، ثانيهما توحي بالغنى والجاه. وسمعة الغنى ولا سمعة الفقر، كما يقال) يعتقد أن إثارة الحسد مطلوبة، كرد ضروري على إهمال الآخر؛ أمَّا الحسد فيعبر عن انشغال الحاسد

بالمحسود. يطلب تصديقي على أن من الأفضل أن يكون المرء محسودًا لا حاسدًا. هذه هي حال البشر. لا يطيق حسون المضلع إهمال سواه له، يبدو أنه سعيد باكتشافاته هذه، يدأب على رسم صورته كميسور، قادر وعارف حتى وإن لم يكن هو كذلك؛ لكنه طيب وكريم.

يرتقي عريف الحفل خشبة مسرح صغير تقع في عمق الملهى. بعد الترحيب غير المرحَب به من قبل المرحِب بهم، يُعلن عن بدأ البرنامج الترفيهي: الفقرة الأولى رقصة شرقية. يرفع مستوى صوته إلى الخطابة: (مع راقصة التلفزيون والمسرح والسينما، النجمة اللامعة والفنانة المبدعة نادية أحمد) هذه صيغة تقديم يتعارف عليها مقدمو برامج الملاهي الليلة. يعقّب حسون المضلع على هذا التقديم هامسًا؛: (وراقصة الراديو والمسجِّل) يضحك بقهقهات متقطعة وخفيضة. يتوافد الموسيقيون على الخشبة، يأخذون أماكنهم ثم يشرعون بدوزنة آلاتهم الموسيقية. يعزفون إيقاعات شرقية راقصة، تظهر الراقصة نادية أحمد، تبدو في الثلاثين من عمرها، بشرتها بيضاء،، شعرها أحمر مستعار، خصرها دقيق، حوضها ممتلئ وفخداها مكتنزتان، ترتدي بدلة رقص شرقي حمراء اللون مذهبة. يستقبلها الحاضرون بالتصفيق والتصفير؛ أمَّا النساء المتخلِّعات اللواتي يتوزَّعن على الطاولات لمجالسة الزبائن يلتزمن الصمت السلبي إزاءها، نساء متفاوتات الأعمار ومتباينات الجمال. يتململ حسون المضلع على كرسيه رافعًا رأسه بشموخ؛ (أعرفها، يقول) ثم يصحح معتذرًا: (بالأحرى هي التي تعرفني) ترقص، تهزُّ نهديها، بطنها ومؤخرتها، ترتفع أذيال بدلتها بفعل دورانها الراقص حول نفسها؛ فيظهر جليًا للناظرين لباسها الداخلي الأحمر، يستقبل الحاضرون ظهور لباسها الداخلي الأحمر بالهتاف ويحيونه بعاصفة من التصفيق. يومئ حسون المضلع إلى نادل، يهمس في أذنه، يجاوبه بالإيجاب بحركة رأسية، ثم يتوارى. تضطر الراقصة نادية أحمد إلى تقديم نمرة إضافية نزولاً عند رغبة الحاضرين فيها، تنهى نمرتها الإضافية وقُبلَها الأساسية، تقف، تنحني غير مرَّةٍ للردِّ على تحية الحاضرين لها بالتصفيق والتزمير والنقر على الطاولات.

- بصحتك.

- بصحتك، سيد حسون.

ما أن أخذتُ رشفة من كأس العرق حتى دسّ حسون المضلع ملعقة مليئة بالحمص المسلوق (البلبي) في فمي، أمضغها شاكراً له لطفه. إنه نديم جيد يعرف أصول الشرب. يأخذ هو أيضاً رشفة من كأس العرق فأبادره بملعقة من الحمص بالطريقة ذاتها، يشكرني عليها، يصفني بالشرّيب الحرّيف، نتعانق غير مرة بمناسبة كلمة مني فيه أو كلمة منه فيّ. أحياناً نتعانق بلا مناسبة. (نحن أخوان وليسا صديقين، اعرَفْ مع مَنْ تشرب، فتسكر، النديم قبل العرق..؟، نعم، الشرّيب قبل المشروب)

هالة أنثوية تخترق العيون المحتشدة على النظر إليها، تختار طاولتنا دون الطاولات، ونحن دون سوانا، يثير اختيارها حفيظة ولغط الحاضرين، نبدو محسودين من الغاطّين بالدخان والعتمة التي لا تُسلم بضوء، ننهض تكريماً واحتفاء بإطلالة الراقصة نادية أحمد المسبوقة بنادل يفسح لها الطريق ويتيح لها الجلوس. شعور حسون المضلع بأنه محسود يضفي على ملامحه انشراحاً ويجعله خفيف الحركة والتصرف.

- مساء الخير.

- مساء الفلّ والياسمين يا ربة الحسن.

يدعوها حسون المضلع إلى التكرم بالجلوس معنا. في هذه الأثناء يدسُّ ورقة نقدية في جيب النادل: (نحن في خدمتكَ سيد حسون، يقول النادل) يرد عليه بضحكة بقهقهات متقطعة خفيضة، يسحب النادل كرسيها، تجلس ثم يقدمه إلى الطاولة بمساعدتها. طوق أحمر فاقع مضروب حول ابتسامتها المتلألئة. فستان أحمر عاريَ الصدر عليه وشاحٌ شفافٌ ورديٌّ. يأتي النادل بكأس خاص لها، براحتها مرة ومرة بمنديل حريري تجفف عرقها الناضح، حركة التجفيف هذه لا يفضلها فريق الذكور المبحلقين فيها، انتشار العرق على ووجها، عنقها، وأعالي صدرها على صورة حبيبات وضاءة يخطف

النظر إليها، بللُها البرّاق يحرِّك الشهوة نحوها، تأخذ رشفة، وتدع الكأس على الطاولة، تمسح شفتيها برقة بمنديلها الحريري:

- كيف حال الدنيا معكَ، سيد حسون..؟

- الدنيا مثل الخيارة يوم في فمك ويوم في.....

- الدنيا ليست دنيا حين تكون خيارة كخيارتكَ، دعنا نشوف خيارة غيركَ.

- الخيار واحد.

- صحيح الخيار واحد في النظر؛ لكنه مختلف عندما يكون في الفم أو في......

كلامها الفكهُ الملُغز جنسيًا يحملنا على ضحكٍ، مزيجٍ من السرور والإثارة.. ألتزم الصمت وأمتنع عن الحركة. دوري في الحديث صاغٍ. لم أخفّ أسوة بحسون المضلع في الاهتمام بها. أتامل ما يحدث وأشكر عند الضرورة، يخرج لسانها بحركة دائرية يبل شفتيها المطوطتَيْن، ثم ينسحب إلى داخل فمها الذي يتلوّى برقة على الكلام. (ما هذا الطير الغريب الذي يحطُّ على أغصاننا، أهو من الطيور التي تهجر أعشاشها الباردة طلبًا لدفء أعشاشنا)

- ماذا ستفعلان في بقية السهرة..؟

- بعد أن ننتهي من الشرب سوف نشرب أيضًا.

- هذا يبشر بالتفاهم.

- مساء 'يوم الإقبال' أقصد يوم الخميس، هو الإجازة الأسبوعية المؤقتة من العائلة الدائمة.

- غرّد حسون أفندي.

- طبعًا، نخرج من أسرتنا الصغيرة لندخل على أسرتنا الكبيرة بأحلامنا، أسرتنا الكبيرة البشرية جمعاء.

- كم تعجبني جمعاء (كَ)، اسمع حسون، بلا لغوٍ فارغ.

- هذا كلام علمي مدام، وليس لغوًا، أي نعم.

تنهي الراقصة نادية أحمد على حسون المضلع كلامه بدعوتنا إلى تكملة بقية السهرة في منزلها، وتناول طعام العشاء على شرف عودة الطائر المهاجر، تتوجه إليَّ بالنظر وبالكلام إلى حسون المضلع (أنتَ لكَ وجبة محترمة قوامها فروج محمَّر، سلطة ومخللات، أيكفيكَ أم أن فيكَ الرغبة في المزيد) (كلٌّ ما يجود به الجميل جميلاً وجيداً، يرد عليها حسون المضلع) تغادرنا على أمل أن نلتئم بها في بعد حين.

نقف حيال بعضنا في اشتباك سلمي وودي، نتدافع جديًا على دفع حساب الطلبات، أيُّنا يكلف سواه في شرف ضيافته، نحن ضيفانا في مكان يصير بالكلمة الطيبة والمودة الصادقة عالماً يتسع بنا، يرفض هو وأرفض أنا بشدة.

- أزعل عليكَ..

- أنا منْ يزعل..

- لا زعل بيننا.

- أنتَ ضيفي.

- لا فرق بيننا.

- نحن ضيفان علينا.

- أرجوك، دعني أدفع.

- هذا مستحيل.

- ذلك ممكن.

- النقود وسخ الدنيا.

- مجالستك لا تقدَّر بثمن.

- الصداقة هي الأغلى.

يسترعي تدافعنا انتباه الآخرين، على الرغم من أنه مشهد ذكوري عراقي مألوف. يتكرر عرضه في المقاهي، المطاعم، مواصلات النقل العامة والمحال التجارية، أما النساء وهن جالسات يحسمن الموقف بنعومة؛ (أنا أدفع من فضلكِ. (يوه) ممكن أن أدفع لطفًا.

لا.. طيب (O.K).. (يوه) ادفعي) ثم ينتهين إلى إظهار مراياهن الصغيرة التي تساعدهن في إصلاح ما تأثر بفعل الأكل الهادئ والكلام الناعم. (ينعّم أبي صوته ويرقق من حركته، وهو يحاكي أفعالهن ويفصل بـ (آه، أيوه) بين جُمل حديثهن.

يقبض حسون المضلع على يديَّ التي هي في جيبي، فيما تعمل يده الأخرى على إبراز محفظة النقود من جيبه، أحاكي أنا فعله أيضاً، حركتنا تهز الطاولة ترتطم القناني وتطقطق الأواني، صوتانا يعلوان، يهرع النادل لفض النزاع، (ضيف السيد حسون ضيفنا، هذه إهانة غير مقبولة للملهى، لا يجوز أن تدفع الحساب، إنه محلُّ السيد حسون). يدفع حسون المضلع الحساب وهو يطلق ضحكات بقهقهات متقطعة وخفيضة، يضيف موقف النادل ودفع للحساب سعادة على سعادته بالجلسة التي كان سيدها بحق. يترنح سكرانًا، يردد أغنية: (أي شيء في العيد أهدي إليك، يا ملاكي وكل شيء لديكِ، أسوارًا أم دملجًا من نضار، لا أحب القيود في معصميكِ. أم خمورًا، ليس في الأرض خمرٌ كالتي تسكبين من شفتيك، ليس عندي أعزّ من الروح، وروحي مرهونة بيديكِ) أسنده، يتوكأ حسون عليَّ؛ لكن التفكير بما الذي تخبئه الراقصة نادية أحمد يشغلني عنه.

نهتدي بصعوبة إلى سيارة حسون المضلع. هي من طراز فولغا روسية الصنع. يشغل محرك السيارة، تنطلق بنا، هذه السيارة لها قصة عجيبة كما يرويها؛ (في عصر يوم من أيام شهر من شهور سنة من سنوات الدهر، أقود سيارتي القديمة من طراز (فولكس فاكن هتلر) على الطريق إلى الجنوب، أحدق بين الحين والآخر بالسماء التي ينذر رحيل طيورها بقدوم الخريف، شمس تتراجع عن الدفء وهواء يحرسه صفيره. كلانا يمضي إلى خريفه أنا والعراق. أنقر على المقود أردد أغنية: على بلدي المحبوب وديني؛ لكننا نحن والمحبوب ضائعان في بلد يضيع هو أيضاً. فجأة، تعترض سيارتان سير سيارتي، إلى اليمين يؤشر الذين فيهما، تحاصرانى في سيارتي، يصل رجلان مسلَّحان على دراجة نارية، ضخما الجسدين، عابسا الوجهين خشنا الصوت، أتفحص سيارتي خائفاً من زرع جهاز تنصت وشيَ بغنائي وفضح أفكاري، ألمح في المرآة

الجانبية موكبًا رسميًا، دراجات نارية، سيارات حماية مصفحة عديدة تحيط بسيارة مارسيدس فخمة، أصوات صفارات تصم الآذان، يمر الموكب، تتوقف بالقرب مني إحدى سيارات الحماية المرافقة، ينزل رجلان مسلحان آخران يخيفان بلدانًا، ويسبيان شعوبًا، إنهما وحشان كاسران في هيئة بشرية، يشهران مسدسيهما، أرفع يدي إلى الأعلى رأسًا، يفتح أحدهم باب سيارتي الأمامي من اليمين والثاني من باب السيارة الخلفي، يطلب مني أحدهما العودة بصحبتهما إلى بغداد؛ فيما يصوِّب الآخر مسدسه إلى جهة زجاج السيارة الخلفي، أرتعد خوفًا، لا أقوى على قيادة السيارة، أعتذر متلكئًا، ينزل الرجل الذي بجانبي، يشل الخوف ورجيفه حركتي، بدفعة منه أجدني إلى يمينه جالسًا على الكرسي، مستقيم الظهر مبحلقًا إلى الأمام، يتولّى قيادة السيارة. (إشّ) ردهما الزاجر على أي سؤال قد ينشأ، لا يعرفان من الحديث غير الشتم، يشتمان بلا توقف، يلعنان الكون والكائنات، يستدير بالسيارة، يأخذ طريق العودة إلى بغداد، نقترب من حيٍّ سكنيٍّ لا سكان فيه، تكثر نقاط التفتيش فيه، تجوب شوارعه سيارات عسكرية ومشاة مسلحون، يُخرج الرجل الجالس في المقعد الخلفي منديلاً أسود يعصب عينيَّ به، يتأكد من عدم تمكني من الرؤية، لا أرى شيئًا فعلاً، تنطلق بنا السيارة، بعد استدارات وتوقفات، تتوقف بنا، يرفع أحدهم المنديل عن عينيَّ، أفتح عينيَّ على كراج يضم سيارات مختلفة؛ (مرسيدس، فولفو، فولغا وغيرها)، كلها حديثة الصنع وبموديلات غريبة يندر مشاهدتها.

- اختر واحدة منها.

تُنهي سبابتي المرتجفة إشارتها إلى سيارة من نوع فولغا، هذه هي التي نحن فيها الآن، يقودانني إلى السيارة، يطلبان إليَّ الصعود، أصعد يعصب أحدهما عينيَّ بإحكام، ننطلق بعد استدارات وتوقفات يستقيم بنا السير، تتوقف السيارة، يرفعا عن عينيَّ المنديل الأسود، أجدني على مشارف بغداد.

- غداً تذهب إلى الشركة العامة للسيارات، لتسجل هذه السيارة باسمك.

- أي قسم في الشركة..؟

- تذهب مباشرة إلى ضابط أمن الشركة، وهو يقوم بإجراء ما يلزم
- وسيارتي القديمة..؟

{لقد تعرف عليها الرئيس وهو في موكبه، كان يستخدمها قبل استيلائه على الحكم في نضاله السرّيّ لأغراض حزبية، سيارتكَ تُعتبر إحدى شواهد التاريخ الحزبي، ستُوضع في متحف الحزب} يغادراني مخلّفان رعباً لا يُطاق قد يحتج عليه القلب بالتوقف عن النبض، بعدهما أتفقدني، أتحسسنني، أجدني سليماً لم أفقد عضواً، والأدهى من ذلك أني لا زالت حيّاً؛ لكن من أين أتوا بهذا الرعب. أنطلق بالسيارة، تتراءى وجوه بشر يشاركونني خوفي من المجهول، يستوعب موديل السيارة الحديث خوفي تدريجياً، بعد اختفاء الخوف يبرز الشعور بالأسف والندم. ألومني على اختياري لهذه السيارة، لِمَ لمْ أختر موديلاً آخر أفضل وأغلى، فألعن سبابتي، ومنذ ذلك الحين أشير إلى الحقيقة بإصبعي الوسطى بدلاً من السبابة. الآن سيارتي القديمة موجودة في متحف الحزب، كتحفة حزبية وقومية، أقصدها من وقت إلى آخر، أقطع تذكرة لألقي عليها التحية. قصة سيارتي سوف ترويها شهرزاد في انبعاثها ثانيةً على أرض الرافدين: في الليلة الثانية بعد الألف قد لاح الصباح، وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح}. ينقر حسون المضلع على المقود.

يتوقف حسون المضلع بسيارته عند إحدى البنايات الواقعة في شارع {أبو نواس}، تكاثر الحانات، المقاهي، المطاعم والنوادي الليلية تجعل الشارع المضاء ضاجاً بالحركة. في الوقت المتأخر من المساء تظهر طائفة من بشر يهربون من النوم أو إليه، سكارى يترنحون وعاهرات يتغنجن، وشعراء ينقبون عن إلهامهم الضال، طلاب موسيقى ينصتون إلى سيمفونية الليل يعزفها بشر هائمون ونهر {دجلة} الجاري بأحلامهم، تتصاعد رائحة شواء السمك المسكوف {الشواء على الحطب}، تزمير السيارات وعتب أو لوم يختار صوتاً مرتفعاً للتعبير عنه، تسكن الراقصة نادية أحمد في الطابق الخامس في شقة تطلُّ على نهر دجلة.

تستقبلنا الراقصة نادية أحمد بابتسامة قابلة للتأويل، ترتدي فستانًا أسود طويلاً وعاري الكتفين، مفتوحًا من أسفله إلى ما فوق الركبتين، ترحب بنا، ترشدنا إلى الصالة؛ نوافذ زجاجية عالية، تسدل عليها ستائر غامقة اللون، الأضوية خافتة، صوفة وكرسيان، على الطاولة قنينة ويسكي وعدد من الكؤوس. نجلس نحن؛ فيما تتجه هي لتشغِّل آلة التسجيل على موسيقى شرقية إيقاعية راقصة، تهزُّ نهديها على وقعها، تنادي على خادمتها، تحضر الخادمة؛ فتاة شابة سمراء جميلة، ملامحها ريفية، ترتدي فستانًا أحمر قصيرًا، وتعتمر قبعة خدم حمراء، وكذلك صدرية صفراء قصيرة.

- نعم، سيدتي.؟

- اسقنا.

تقف وقفة جانبية. خاصرتها إلى الطاولة وصدرها نحونا، تضع الخادمة يدها اليسرى على خصرها، ثم تسكب بيدها اليمنى بتأنٍ سائل الويسكي في الكؤوس، تضع برقَّة قطعتين من الثلج في كل كأس؛ فيما تجلس الراقصة نادية أحمد أمامنا تضع ساقًا على أخرى، يتكشَّف مع مرور الوقت وتعاقب النظر المخبوءُ من فتنتها، تخصني بأكبر قدر من النظرات، ثم تتفضل بفضلات نظراتها على ما يحيط بها ويتطلب اهتمامها:

- بصحتك.

- بصحة ربة الحسن.

تنحني الخادمة ثم تذهب إلى المطبخ لتحضير وجبة العشاء بناء على أمر سيدتها، يخرج لسان الراقصة نادية أحمد يبل بحركة دائرية شفتيها المطوطتين، ثم ينسحب إلى داخل فمها:

- كيف وجدتَ رقصي.؟

تخصني بسؤالها، (عظيم، هذا أمر مفروغ منه) يسبقني حسون المضلع إلى الإجابة، يبدو عليه النعاس، فيما أكتفي أنا بإيماءة غير جازمة، تأتي الخادمة بالطعام، شرائح

لحم مقلية، فروجتان محمرتان سلطة، مخللات وقطع من الخبز، (ابن آوى لا يحب الدجاج كما تحبه أنت) تتوجه بالكلام إلى حسون المضلع، (لعلني في الأصل كنت ابن آوى ثم مُسخت إلى رجل، يقول حسون المضلع) ينقضُّ على الدجاجة، يمسك بها وهو يغني لها: ' آكلك منين يا دجاجة' . الدجاجة الثانية ملقاة على ظهرها، تتحسس الراقصة نادية أحمد بإصبعها الوسطى ما بين فخذيّ الدجاجة المرفوعتين؛ (ماذا تفضل، الفخذ، الورك، أم الصدر.؟) أضع إصبعي السبابة على إصبعها الوسطى أتحسسه وأدهنه بما ينزُّ عن الدجاجة: (لا أفضلَ مما تُفضلين). تدس إصبعها الوسطى في جوف الدجاجة وتخرجه مدهونًا، تقربه من فمي تلامس شفتيَّ به وتدسُّه في فمي، (أتفضَّلُ هذا..؟ تقول)، ألعق إصبعها، ثم تخرجه من فمي، تضعه على شفتيها، تخرج لسانها، تلعقه ثم تدخله في فمها وتخرجه، فيما تعلق نظراتها عليَّ. ينشغل عنا حسون المضلع بالدجاجة، يقبِّل القطعة التي ينوي أكلها، يعتذر لها: (المعذرة على أكلي لك يا شريكتي في الأرض)، يشكرها على طعمها اللذيذ، ثم يلتهمها. تتنهد الراقصة نادية أحمد، يخرج لسانها، تبل بحركة دائرية شفتيها المطوطتين، ثم ينسحب إلى داخل فمها، تنادي على الخادمة:

- نعم سيدتي.؟

- اسقي العِطاش.

تضع الخادمة يدها اليسرى على خصرها، تسكب بيدها اليمنى الويسكي في الكؤوس، تضع برقة قطعتين من الثلج في كل كأس، تنحني ثم تنصرف. ينتهي حسون المضلع، يتنهد ويتأسف على عدم استطاعته أكل المزيد، يتمنى عليَّ: (بالأخوة الغالية، لا تبقِ على شيء من هذه الدجاجة، إنها تستفزني باستلقائها، انتصر لي عليها، رجاءً) (خُذها معكَ، تقول له الراقصة نادية أحمد) (لا، شكرًا غدًا سأكون في بيتي، أتناول الأرز مع مرق الباميا مع أفراد عائلتي، يوم الجمعة، لا قوقأة دجاج، ولا صوت يعلو على صوت الباميةِ) يرد عليها حسون المضلع المشغول بالنظر إلى فخذيِّ الدجاجة المرفوعتين أكثر من فخذيِّ الراقصة نادية أحمد المكشوفتين على لباس داخلي أصفر شفاف.

يغفو حسون المضلع في مكانه، يصدر عنه شخيرٌ عاليَ الصوت، تطلب مني الراقصة نادية أحمد مساعدتها على تمديد حسون المضلع على الصوفة. نحاول أن نثني ركبتيه، طوله يزيد على طول الصوفة، تخلع هي حذاءه وجوربيه، تحضر مخدة وغطاءً، تضع رأسه بعناية على المخدة، ينقطع شخيره، فمه فاغر، تلفت نظرنا عيناه اللتان تتطلعان رغم كونهما مغمضتين إلى الدجاجة الباقية. نضحك على وضعه الذي استدعى الراقصة نادية أحمد إلى القول: (حسون ينام وعينه على الدجاجة). بهذا القول تحور المثل الشعبي العراقي الشائع؛ 'الدجاجة تموت وعينها على المزبلة/القمامة'، نعتذر معاً غيابياً إلى حسون النائم على تطبيق هذا المثل عليه، تغطي حسون المضلع؛ فيما يبقى جزء من رجليه مكشوفاً.

تقترح الراقصة نادية أحمد عليَّ التوجُّه إلى الحمام لأخذ دوش، أجد اقتراحها مناسباً جداً، يكون حمامها مجهزاً من قبل الخادمة، آخذ دوشاً بارداً، تنتابني رغبة في الغناء، فأردد أغنية: (الطشت قاللي يا حلوة ياللي قومي استحمي). تفتح عليَّ الباب، أشعر بالخجل ليس من عُريي؛ بل من صوتي، تناولني الخادمة روب الحمام، أجفف جسدي أرتدي روب الحمام، أضع منشفة على رأسي، تنتظرني الخادمة، تسير بمحاذاتي، ترشدني إلى غرفة النوم، حيث تستلقي الراقصة نادية أحمد عارية على سرير فاره، تحرر رأسها من الباروكة، فيعود مرسلاً إلى لونه الكستنائي. شموع مضاءة، ستارة مسدلة، موسيقى هادئة، على الطاولة قنينة الويسكي وكأسان، تطلب إليَّ الاستلقاء إلى جانبها، أستلقي أنا وتُعد هي كأسين من الويسكي.

-بصحتك.

- بصحتك.

تمسك الكأس بيديها تدوره، تتمنى عليَّ أن أصدقها القول: (هل أصلح أن أكون راقصة) ماذا تفعل فهي تميل إلى الرقص؛ لكنها لم تعد تتبيَّن حماس المتفرجين، أهو إعجاباً بفن رقصها أم إعجاباً بفتنة جسدها.؟ تضع الكأس على طاولة السرير الجانبية، تسحب منديلاً ورقياً من علبة المحارم، تضعه على عينها، ثم تبكي، فأبكي على بكائها:

{افعلي ما يحلو لكِ، ثقي بنفسكِ قبل كل شيء، إذا لم تجدي من يُعجب بكِ كما تتمنين، فاعجبي أنتِ بكِ، في الأخير ليس لكِ إلاّكِ}. تبكي وتحضنني، هذا ما كانت تحتاج إلى سماعه، لتتأكد منها وتتوطد ثقتها بها، تسألني عن الذي أحبه فيها:

- أحب الإنسان / المرأة التي فيكِ.

- أنتَ لستَ واحداً منهم.

- لا، أنا لستُ واحداً لا منهم ولا مني.

أمسح دموعها وأقبِّل بللَها على راحتيّ، تقبِّل يدي وتضمها إلى صدرها الذي يحول دون ملامسة نهديه اللحاف المرتفع إلى مستوى مؤسف، تضع كفها البيضاء الناعمة على فمها لتحجب مرأى تثاؤبها، تجلس، يا لظهرها، شعرها الكستنائي مرسلُ الخصلات على كتفيها و صدرها الذي يبادر إلى الكشف عن نهديه، تأخذ بفمها رشفة من كأس الويسكي وتعبّها في فمي مع لحسة من لساني، تسكب قطرات من الويسكي على سرّتها، تطلب مني لعقها بصوتها المتهدج، ألعقها، تكرر ذلك غير مرة أخرى، فأفعل ما تطلبه مني برغبة ولذّة، أشعر بخدر لذيذ يدب فيَّ ويبدو عليَّ.

- هل أسكرتكَ سُرَّتي أم قطرات الويسكي..؟

- سرتكِ طبعاً، سرّتكَ مركز الكون المؤنث.

تطوقني بذراعيها؛ لكنها سرعان ما تستسلم إلى نوم لم يمهلها طويلاً، إنها لا تحتضنني بقدر ما تحتضن نوماً يأبى الاعتراف بحقها فيه، تغطُّ في نومة عميقة، يعود وجهها إلى سلامه بعد صراع مرير مع اليقظة، هي مشردة اليقظة يأويها النوم الآن، متشردة في أرجاء هذا العالم الذي يفرض عليها يقظة ثمنها تعذر النوم وغياب الحلم، طريدة اليقظة تنام أخيراً، أشعر أن هذه هي المرة الأولى التي تعثر فيها على النوم طوال حياتها، أداعب خصلات شعرها وجبينها، عساني أرشد إليها حلمها الضال.

تسيلُ عن عينِ أبي دمعةٌ، هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها باكيًا، يعبُّ كأسًا من الويسكي، يدخن سيجارة، يسحب نفسًا بعمق وينفثه بقوة. يمسح بظاهر كفه عينه، يأخذ شهيقًا عميقًا ويزفره بقوة، يعتذر بنظراته عن الدمعة المباغتة، لا يريد أن يعيقه عن الاسترسال في حديثه أي شيء حتى لو كان دمعة، أشعر بشيء من التعب؛ لكنني غير نعسان، لا يزال هناك ما يشدني إلى التعرف على مشاعر أبي، يمضي في سرد قصة ذكريات الرجل الذي كانه خارج البيت.

طرقات متلاحقة على باب غرفة النوم، الوقت لا يزال مبكرًا، الساعة تشير إلى الخامسة صباحًا، ننهض على مضض، ترتدي الراقصة نادية أحمد روبًا أحمر، وأرتدي أنا روب الحمام، تفتح هي الباب على حسون المضلع، يطلب مني الإسراع في ارتداء ملابسي؛ فيما يظهر هو جاهزًا للخروج، أرتدي ملابسي على عجل.

- أقلقتَ نومنا.

- عفواً مدام.

يشكر حسون المضلع الراقصة نادية أحمد على السهرة الجميلة والضيافة الكريمة. ويخص بالذكر الدجاجتين المشويتين، يخرج من جيبه نقودًا، أتفاجأ، أجدني في موقف غاية في الحرج. في الموقف الطارئ يصعب تقدير التصرف المناسب، الحل الأسلم هو الصمت والتأني. أتمنى ألاَّ يتسبب تصرف حسون المضلع في جرح مشاعر الراقصة نادية أحمد، يذهلني تصرفها هي أيضًا، أراها تحاسبه بجدية على ثمن المشروب والأكل، أقف حيالهما غائبًا عن التصور، كأنهما كائنان من كوكب آخر يتصرفان بغرابة ويتحدثان بلغة غير مفهومة؛ فيما تبدو على حسون المضلع حيرة من نوع آخر، يفصح عنها لاحقًا، تتلخَّص في إغفالها مطالبتنا بثمن الليلة التي أمضيتها أنا معها في فراشها. تستلم المبلغ منه، أعتبرُ تصرفها غير لائق، كيف، تدعونا وتحاسبنا على ثمن دعوتها، فكرتُ بتذكيره، لكنني عدلتُ عن الفكرة وفضلتُ الصمت، تودعنا عند الباب، تسلم علينا، تعانقني بنظراتها، تهمس في أذني: (تعالَ غداً مساءً، هناك ما ينبغي التحدث عنه وتوضيحه) تشكر حسون المضلع عليَّ.

- مع السلامة.
- مع السلامة مدام.

أستفسر منه عن سبب استيقاظه المبكر، "لط ونط" يخبرني بعد ساعة من الآن يحسب عليه مبيتاً خارج المنزل، وهو لا يرغب في ذلك، (ما دمت لستُ مسافراً، ولستُ ميتاً، لا شيء يدعوني إلى المبيت خارج المنزل) سيكون موقفه ضعيفاً بالقياس إلى موقف زوجته القوي والمشروع، تحرص - حسب ما يمليه دورها - في الحفاظ على الشكليات الاجتماعية ومراعاة الصورة العائلية، لا تبدي قلقاً على غيابه أو تأخره؛ لكنها لا تقرُّ بجواز نوم الزوج خارج بيت الزوجية، سوف ينام بضع ساعات ثم يصحو كأي زوجٍ محترم، يرتدي روبه الأزرق الغامق، يتناول فطوره بهدوء ووقار، يرد على أسئلة العائلة المحتملة بإيجاز مع وعد مفتوح بتلبية الطلبات الواردة فيها. يوضح حسون المضلع.

ينطلق بنا حسون المضلع في سيارته على شارع يخلو من السيارات في هذا الوقت المبكر من الصباح. نسائم باردة تهب من نوافذ السيارة نصف المفتوحة؛ لمعالجة رائحة المشروب المنبعثة من حسون المضلع، أعرض نقوداً عليه، يأبَى قبولها:

- أنتَ دفعت لها أيضاً، أليس كذلك، ألم تدس مبلغاً من المال تحت المخدة..؟
- لا، لم تواتيني فكرة كهذه.
- ألم تضاجعها.؟
- لا، لم يكن الظرف مناسباً.

يفرمل حسون المضلع، تقف السيارة رأساً، نرتطم بشدة بالأمام، يبدو عليه الغضب والحنق، يوبِّخني على خذلانه مرتين؛ الأولى مع الدجاجة التي لمْ أمسها، والثانية مع المرأة القحبة التي لم أدخل فيها. فعلان لا يجوزان في شرعه. أحمِّل الظرف غير المناسب والوقت المتأخر مسؤولية فشل القيام بفعل جنسي، يصرخ نافياً عن الوقت والظرف أية مسؤولية أو دخل ليس بما حدث؛ بل بما لم يحدث. (ألم تكونا على السرير عاريين ومتلاصقين.؟ دع هذا يدخل في ذاك. عضوان وُجدا لا ليتحدثا؛ بل

ليفعلا. قرِّب بين الصامولة واللولب وهما يتعشقان تلقائيًا، ثم انصرف عنهما حيث تشاء، إنهما عضوان بالغان وقادران على تدبير حياتهما الجنسية والدخول فيهما بسلاسة، انتهى. نقطة والسلام». يتحدث حسون المضلع بحنق وارتجاف، يرفض الإصغاء إلى أي تفسير أقدمه، يعتبره تبريرًا للخيبة وسوء الحظ، يسهب في شرحه يعرج على الغرض من تعرِّي رجل وامرأة، هل ليلعبا دورين في فيلم طرزان.؟ يحمِّلني مسؤولية حرق دمه والإفساد المحتمل ليومه، يهددني بإعادتي ساقطًا إلى مرحلة الحليب المعقم الابتدائية، أحاول تغيير الموضوع، أذكِّره بضرورة الإسراع كيلا يتأخر وتحسب عليه ليلة خارج البيت. يحرِّك السيارة على وعد ألاَّ أخيِّب ظنَّه في المرات القادمة، يعيد عليَّ ما قاله مع شرح وافٍ؛ «لُط و نُط، يعني تلطها تدخل فيها بسرعة، وتنط عنها تنسحب منها تلافيًا لأي طارئ مؤسف أو موذٍ. يؤكد هذا ما ينبغي فعله مع المرأة العاهرة، إنها خبرة يثني عليها ويطلب مني أن أتعظ بها. أقول حاضر سوف «ألطّ وأنطّ»، وسأعمل بنصيحتك في المرة القادمة. يهدِّئه وعدي بالتطبيق الحرفي لنصائحه والاستفادة من خبرته، يعود الاطمئنان إليه، هذا ما يرجوه مني. تنطلق ضحكاته بقهقهات متقطعة وخفيضة، أطلب إليه التوقف والسماح لي بالنزول من السيارة راجيًا إياه ألاَّ يحمِّل نفسه عناء توصيلي إلى البيت، قد يتأخر هو على البيت، وهذا ما لا أقبله، يقبل هو. أنزل من السيارة، يخرج رأسه ويلوِّح بيده من نافذة السيارة المنطلقة بسرعة، مناديًا تذكَّر:

- لُط و نُط.

الشمس تحيط حول قرصها أشعة ذهبية، تتضرَّر برودة الهواء من الحرارة الواعدة بالصعود، الشارع خالٍ تقريبًا، مرور السيارات المتباعد زمنيًا لا يؤثر على استتباب الهدوء، أتفرغ إليَّ، أقرر الذهاب مشيًا إلى البيت، أعيد عليَّ ما لم يحدث ليلة أمس، أجده أجمل مما حدث؛ لكنه ليس ألذّ. أبحث في خلايا عقلي النائمة عن تفسير لتقاضي الراقصة نادية أحمد أجرًا على دعوتها من المدعوين، لا أنكر أن وصف حسون المضلع لها بالقحبة جرحني قبلها، كنتُ على وشك الرد عليه؛ لكن موقفها أضعف حُجتي،

فأسقطت هي حقها عليّ بالدفاع عنها، إنها تسيء إليها بتصرفاتها غير المحسوبة، يسخطني عليها جنوحها إلى تعهير أشياء غير مسموح بتعهيرها، شعارها على ما يبدو المال مقابل الفعل، تشارف على الانهيار سعادتي بالتعرف عليها، كما ينتكس استمتاعي بلقائها، أتأملها هي وموقفها. الإنسان موقف كوني. أتاملها كامرأة وكموقف، فأخرج بقناعة أنها عاهرة وسوقية لا يشرفني لقاؤها بعد الأمس بتاتًا.

- يبدو عليكَ التعب، أنت بحاجة إلى النوم الآن.

- تصبح على خير يا أبي.

يعلق أبي تعاملاته البشرية، يوقف علاقاته الشخصية والعامة، يلغي لقاءاته، يبقي على الضرورية منها والتجارية التي تستدعي حضوره الشخصي، يزهد بالكلام، يميل إلى الصمت والشرود، يمتنع عن الظهور، يعدم الحاجة المادية إلى التجربة، ينسحب من المدن إليه، يقيم فيه، هو بيته، شارعه ومقهاه، يحمله أنّى يكون، ينطوي عليه، يشرع بتصفية ممتلكاته، يبيع مصنع الألبسة النسائية الجاهزة، يعلن عن بيع المنزل، يشترط تسليمه إلى المشتري بعد التأكد من سفري إلى خارج العراق، يشتري بستانًا صغيراً في منطقة ريفية، تقع على بُعد بضعة كيلومترات إلى شمال بغداد، يشيد فيه ملحقًا سكنياً يتألف من غرفة واحدة، حمام ومطبخ. يضع تصوراً روحانياً عن قضاء أيامه الأخيرة. يعيش زاهداً بين النخيل وأشجار البرتقال والليمون، يصلح مزاجه بالورد البهيج المنظر والزكي الرائحة، يعتني بالبستان الذي أصبح مصدراً هادئًا على إدامة الطمأنينة عليه، يقرر نفيه إلى تلك البقعة الخضراء الصغيرة البعيدة عن تطاول البشر عليها، يستغني عن الكون الذي تجاوز عليه البشر بقوانينهم وإجراءاتهم الاستثنائية في عسكرته. هناك حيث يتصومع فيه، يعيش في عزلة تامة، يشكر أبي بقعته الخضراء، يمنح وقته إلى أشجارها المجنونة بحفيف أوراقها وتغريد عصافير أغصانها، الأشجار أرحم من البشر؛ ربما لأن لا عقل لها، (رحيم منْ لا عقل له ومرحوم هو العاقل) منْ لا عقل له أقرب إلى الرحمة حتى في قسوته. يدرك ذلك أخيراً:

صدقيني

أيتها الشجرة

إن وجودك

أفضل من وجودي

إذ لا شجرة

مهما تعلو أو تنحط

لا تستطيع

أن تحجب عنك الربيع.

تتناوب السماء على رعايته، لأجله تهيّئ شمساً مشرقةً في النهار وفي الليل قمراً منيراً، وتمنّ عليه ببضع نجوم تسخو بالضوء، يتولى كلب حراسته، لا يقايض وفاءه بعظمة، ينخرط بين كائنات لا تضمر له الشر، يختلج أبي صراخ مكتوم: (أنا بغداد وبغداد هي أنا، أنا ذاكرتها، ومن دوني ليست بغداد) هو والمدينة لا يكونان من دونهما. يعدّد أبي محاسن بغداد، يرثي: (بغداد المرحومة). يذهب تفكيره الممنوع من التعبير إلى أن بغداد بلا ناسها لا تستحق تقليدها اسماً هو بغداد. بغداد قيمة وليست اسماً. يمكن تسميتها بشتى الأسماء؛ لكن من العسف أن تحمل لقب بغداد، إنه يحمل معاناته إليه، يشكو حرمانه من حقه في المطالبة ببغداد، هي أيضاً لا حق لها في الاحتفاظ به وبسواه من أبنائها، يتساءل بمرارة: كيف يفرض عليها تبنى أبناء غرباء عنها، فيكرسون غربتها.؟؟ لا وجود لبغداد الآن ألاّ في بطون كتب الرحالة والتاريخ، تتم تصفيتها من الاهتمام، تظهر مشبوهة ومطلوبة للقصاص على جرم اقترفه الغرباء عليها باسمها، تودع ذكرياتها في ذاكرات أبنائها الفارّين أو الصامتين، خوفها عليها من هدم وتجريف. المدينة ذاكرة وذكرياتها أهلها، ينتفض عليه، لا شيء له في بغداد، ولا شيء لها عليه سوى الحنين إليها.

لم تبقَ في بغداد أو في العراق عموماً أمكنة آمنة للظهور والاجتماع، أوكار تنتحل صفة بيوت يتخفى فيها سكانها من خطر مداهمة، قتل يتعقب مناحي الحياة ليصيرها إلى موت حي، تظهر العتمة مخلصة؛ فيما الضوء خَؤون لا يتكتم على أحد. يحثني أبي على ضرورة الإسراع في مغادرة العراق الذي لم يعد وطناً، لا أُفق فيه لطموح، العراق ليس أكثر من معسكر مسوّر بأسلاك شائكة، معسكر لإعداد مشاريع قتلى في حروب كاذبة، دفاع دموي ملفق عن (البوابة الشرقية للوطن العربي). بوابة مفتعلة يُخترع لها تهديد لتبرير القتل والقتل المضاد. ينفض أبي يده من البشر، ما دام هناك عقل هناك ملكية ونزاع. يريد أن يرجع إلى الأشجار، لعله يعود قرداً بعد أن مسخته حضارة العقل إلى إنسان.

أخذ أبي يتردّد على صومعته الخضراء - البستان، لإجراء تمارين أولية على العزلة- كما يسميها- يتغيّب عن المنزل الذي كبر على احتياجاته الآيلة إلى الصغر. أقصدُ أبي في صومعته الخضراء ظهراً، أتقي حرارة شمس الصيف بظلال الأشجار الوارف، لم أجد أبي في الملحق السكني كما كنتُ أتوقع، أسير بين الأشجار باحثاً عنه، يتناهى إلى سمعي صوت مقرئ للقرآن، أشعر بانقباض وضيق صدر، فصوت القرآن خارج الإذاعة، التلفزيون والمساجد ينبئ بحدوث وفاة ويدل على مأتم، يخفق قلبي بسرعة، تضطرب قدماي في سيرهما، أتعقب مصدر الصوت، أدنو، أتوقف متخفياً وراء جذع شجرة، أشاهد أبي جاثياً وباكياً عند قبر حديث التشييد، يتعذّر عليّ قراءة الشهادة لمصادفة وقوفي في الجهة المعاكسة لها. أمامه يتربع مقرئ ملتحٍ، يرتدي قفطاناً وعمامة، يتلو عليه القرآن، يختتم القراءة بقوله: ' صدق الله العظيم' ، يطلب أبي من المقرئ أن يزيده تلاوةً؛ لأنه - كما فهمت- لم ينته من بكائه بعد.

- ما رأيك بسورة يوسف..؟

- هذه ليست سورة، إنها قصة فيلم.

- استغفر الله العظيم، لا تكفر يا ابني.

يخاطب المقرئ أبي بـ"يا ابني" - على الرغم من أنه يصغر أبي بعدّة أعوام-، يشرع المقرئ بقراءة "سورة البقرة"؛ فيما ينشج أبي بالبكاء، أشعر بقشعريرة، أراقب الموقف عن ألمٍ، يتلبسني ذهول وخوف من المجهول، خوف متضخم يشعرني بضآلة وجودي، يختتم المقرئ مرة أخرى بقوله: "صدق الله العظيم". "ارحم أمواتنا وأموات السامعين يا رب العالمين". آمين يقول أبي. يخرج أبي مبلغًا من النقود يعطيه إلى المقرئ الذي يعدُّ أوراقه النقدية ورقةً ورقةً وهو يسبح بحمد ربه.

- على ما يبدو أن الميت عزيز عليكَ.

- فعلاً.

- منْ يكون.

- إنه أنا.

يجمع المقرئ قواه ويلمُّ حاجياته، ويجري مسرعًا يتعثر بأذيال قفطانه، وهو يردِّد: أعوذ بالله من شر الشيطان؛ فيما يضع أبي رأسه على قبره، يتأمل شاهدته، يقرأ بصمت يوم ميلاده ويوم مماته، ثم ينهمر بالنواح والندب، أنخرط أنا أيضًا بالبكاء، غير أني أحاول جاهدًا كتم صوتي، أستجمع قوايَ وأهرب بي من المكان هذا. لا أعرف فيما إذا كان ظهوري سيكون سلوانًا لأبي أم إحراجًا، أستعيد قوتي، وأجري مسرعًا، تاركًا أبي يعزِّي نفسه بنفسه.

أركض إلى الطريق العام، يجتاحني حزن عظيم يصاحبه هيجان جنسي، أنشج باكيًا، تسيل دموعي بغزارة، أتماسك ماسحًا دموعي، أرقب واسطة نقل، لا ظهور لتاكسي ولا مرور لباص نقل عام أو خاص. أوقف شاحنة صغيرة، مقعد السائق مشغول بامرأتين مصرورتين بقماش أسود، اضطر إلى الصعود على ظهر الشاحنة المعبأة بالماعز والأغنام، أنحشر بينها، تواجهني بالثغاء، لم أتبين إذا كان ذلك ترحيبًا أم ضيقًا من وجودي بينها، يتضاعف هياجي الجنسي على تعاظم حزني، أخور كثور جريح، ثغاء من القطيع ونحيب مني، تترك الماعز مؤخراتها المكشوفة تتصدى إلى شبقي البصري،

شقها التناسلي الواضح الفتحة، يدعو ببياضه المتداخل مع احمراره إلى التحرش الجنسي به، يفاجأني جديٌ هائجٌ مثلي يقوم على معزَى تخضع لرغبته المفاجئة فيها، مشهد يتحول إلى حل، أفكر بمعالجة هياجي الجنسي، أنتهز فرصة مرور الشاحنة بطرق غير مزدحمة ولا مأهولة الجانبين، أجرجر معزَى إليَّ، تتمنع ثم تستسلم، أتراجع عنها، أعدل عن الفكرة. ما الذي يمكن لمعزَى فعله مع كائن ليس جَدْيًا..؟ أضحك باكيًا عليَّ؛ فيما يسخر قضيبي مني بالانتصاب، تتوقف الشاحنة عند مشارف بغداد الشمالية، أنزل شاكرًا السائق على معروفه، أعرض عليه مبلغًا، يرفض أخذه: (عيب، يقول) أطلُّ على بقايا سدَّة ترابية كانت تستخدم كحصن منيع لغرضين؛ الأول مدني يتم منها رصد نهر دجلة والتصدي لفيضانه، الثاني نقطة عسكرية لمراقبة تحركات الجماهير المناوئة للسلطة والإجهاز عليها بيسر وسرعة. أتجه سيرًا، يقوم الباقي من الساتر الترابي إلى شمالي، وإلى يميني تترا صف فيلات فخمة مؤلفة من طابقين أو ثلاثة، يسكنها الأغنياء والأعيان، أشجار الحدائق تتجاوز بارتفاعها الأسيجة، أبواب كبيرة للسيارات وأخرى صغيرة للأفراد، تحت شجرة بيلسان بعيدة عني ألمح شبح امرأة أبيض، يتضح كلما تقدمت منه، امرأة رشيقة في رداء بيجي اللون، تعتمر قبعة بيضاء مائلة، شعرها ملفوف بعناية إلى الخلف، وجهها حنطي متناسق القسمات، تقف ساهمة تحت ظلال الشجرة، تتدلى إلى الأعلى من رأسها بالقبعة البيضاء المائلة عناقيد الورد البيضاء، أقترب منها:

- مرحبا.

- مرحبتين.

- العفو الأخت قحبة.

- لا، شريفة مع الأسف.

- عفوًا يا شريفة أين أجد قحبة.

- لا أعرف، اسأل، أمكَ يا ابن الـ ..... أمك.

- لا أم لي.

- كيف...؟ هل حمل بكَ الجدار ثم وُلدتَ من شقه.؟

- طيب، ولا ثغرة داعرة فيكِ أدس فيه بروزي..؟

- لسوء الحظ كل ثغوري شريفة، بما فيها البسّام.

- هل أنتِ امرأة.

- لحسن الحظ، نعم.

يبادر فمها بالتبسم فجأة. ظهور الابتسامة على فمها المتناهي الصغر يداعب جمالها الساكن، ويطرحه على المساءلة البصرية، يعقب ابتسامتها تقدم جريء نحوي. أنضبط في مكاني، أضيف سعادةً على ملامحي بقدومها، ابتسامتها وتغيير رأيها، أفسر ذلك تجاوباً مع رغبتي فيها، أتهيأ شعوريًا لمساومتها عليها، أما جانبي الجنسي لا يحتاج إلى تهيئة، فهو متوتر ومنتصب وجاهز إلى الدخول في أي فعل ومستعد لأية مغامرة، لم تتوقف عندي؛ بل تتجاوزني إلى سيارة زرقاء حديثة الطراز تتوقف، يُفتح لها البابُ، تجلس إلى جانب رجل وسيم وأنيق يقود السيارة، تفتح نافذة السيارة تبتسم وتغمز بطرف عينها اليسرى.

- تسلم لي، سلِّم على أمك يا ابن الـ ..... جدار

يمتص حواري معها جزءًا هامًا من توتري الجنسي، أثناء الحوار ألتقطتُ لها صوراً متعددة شملت كل أعضائها ذات العلاقة بالرغبة فيها، أعدل عن فكرة البحث عن عاهرة، أقرر الذهاب إلى البيت، أخلع ملابسي وأتجه إلى الحمام، في الحمام بصيص ضوء، صوتُ تساقط ماء الدوش، أظهِّر صورها العارية الأعضاء، أعرض هذه الصور المثيرة في غاليري مخيلتي الجنسية، أدع حلمي عنها ينتزعها من وجود لا وجود لي فيه، يأتيني بها كما هي بثوبها البيجي اللون وقبعتها البيضاء، أقف بها، أدع الدوش يبلُّها بمائه الفاتر، أشطب من لائحة فستانها الأطراف التي تحول دون دخولي فيها، بصيص ضوء، صوت تساقط الماء، عُريٌ ومرايا، ثوبٌ مبلول يشدُد على عُري الجسد، أنا واقف، هي امرأة البيلسان مبطوحة بساقيها المنفرجتين على رغبتي فيها، أتداعى عليها، أحتويها كلها حتى لا يبقى شيء عداي.

لا أعرف
كيف حدث ما حدث
رأيتُ ليلة البارحة
امرأة تنهض منكِ
ورجلاً ينهض مني
وعلى مرأى منا
راحا يتعانقان

في المساء عاد أبي إلى المنزل شاحبًا ومغبرًا، لا يزال الاحمرار واضحًا في عينيه، أرحب به مبتسمًا وأشير عليه بالحمام، (لديَّ خبر سار، أخبره) سرور كلمة صارت غريبة على معجم اللغة اليومية، وكحال دخيلة على وجودنا اليومي، باختصار أُبطِل التعامل بها كتعبير وكظرف؛ لكن بوسع ابتسامة أن تبدد شحوبًا، يبدو أن أبي فرِح بي أكثر من الخبر السار الذي أحمل، يتهيأ إلى سرور ويتجه إلى الحمام، هو الذي يعرف من أية جهة تأتي المسرات، الجبهات مشتعلة بالحرب، الحريات ضائعة والأحرار مقبوض عليهم (لا حرية بلا أحرار) الموتى ما عادوا، ولا الموت تراجع آسفًا على موت موتانا، لا غائب تخلى الغياب عنه فأطلقه إلى الحضور، السماء توسِّطُ النافذة المنزوعة الستائر في التعبير عن بلوغ نجومها ذروة الضوء، لا وقع قدم ولا هدير محرك يحمل الشارع على التنازل عن هدوئه ووحشته، الصمت والترقب يُآخي بين البيوت المتراصة، أشجع فرحي على دحر تفكير يستدعي تجهمًا، تفكير عقيم بالآخر الذي هو أنا وسواي، أقف حيال زجاج النافذة، أسألني أنا الآخر: هل نلتُ في هذا العالم حق الاختلاف في الرأي والمعتقد.؟ هل أقرَّت الجماعة البشرية المجتمعة كلها على الفرد الأحد حقه في التصرف بجسده، بجنسه وبحلمه.؟ هل صار التعبير والتغيير تقليدان أساسيان راسخان غير خاضعين للتحكم وغير قابلين للمناورة والمزاودة.؟ لكنْ ألا تبدو مطالب كهذه بطرًا فكريًا ومظهرًا من مظاهر الرفاهية الثقافية، هذه التطلعات البشرية المشروعة أساسيات الشراكة الوجودية، وفقرات بنود العقد الاجتماعي تجهضها

الإنسانية بمشروعها الواعي، بعيداً عن العالم وقريباً من عراق العراقي الذي لا يتطلع فيه إلى نضال أو مساهمة مقدور عليها في الحضارة الكونية، يُختزل وجوده إلى ساعٍ إلى لقمة يومه البسيطة، مهمته الكونية وجُلّ تطلعاته وأعظم طموحاته أن يحافظ على سلامته في ظهوره ويضمن عودته إلى كهفه، غير مصاب بطعنة ولا متعرّض إلى إهانة، ثم يهجع لابداً من الموت المحيق، هنا السعادة والفرح صنفان من الخيال لا أساس لهما، الفرح والفرحان كلاهما متهمان عليهما ومطلوبان للعدالة القومية، بتهمة خيانة حزن الأمة على أمجادها الغابرة والمغدورة. فرح العراقي حزنه. الحزن نشأ عراقياً ثم أخذه العالم عنه. تشيّد مآتم الحداد على الحياة، وتقام كرنفالات الأفراح بالموت، يتم ترخيص المصائر وتحويل البيوت إلى أضرحة لدفن معالم الحياة، كل شيء يدعو إلى الموت وتعبيره العُنفي القتل، الخطاب الثقافي ناشط بتعبيرات استعدائية، صفحات التاريخ ساحات معارك، شعر يعظم القتل ويبخس الحياة التي لم تعد تساوي ثمن حزام ناسف أو طلقة، الغناء يتغنى بالقتل والقتلى، الأناشيد تنشد مجداً عسكرياً، لا مجد بلا عسكر، لا كرامة قومية دون نصر عسكري وعدو مهزوم، الوطن معسكر، الشعب جنود والحدود جبهات قتال مشتعلة أو هامدة.

تحاصرني الأفكار. زجاج النافذة يعيدني إلى القطيع جَدْيًا أرعَى وأتمرَّغ بحشائش وتراب. جديٌ بين ماعز لا يحمل عبء توتر رأسِهِ العلوي بالفكر والسفلي بالرغبة، يعثر بيسر على معزاه التي تشاركه علانية الرغبة فيهما، يدخلان فيهما بلا تبعات ثقافية على فعل طبيعي، لا يدفع لها مقابل خدمتها الجنسية، لا فكرة تحُولُ دون رغبته في شريكة عملية اللذّة ودورة التكاثر. هكذا يخرج الجَديُ من المواقعة خاليَ البال سليم الثقافة، يمضي يومه بلا تبعات أخلاقية تحطُّ منه على فعل بسيط لا يعقده تحليل أو تحريم، ولا يحتقر القطيع معزاه على مشاركتها في هذا الفعل الرغبوي، ولا يصنفها زانية أو عاهرة، ولا حكم مسبق أو لاحق يقيمُه عليها.

يخرج أبي من الحمام يردّد كلمات أقرب إلى الغناء من الحديث. أقبلُ عليه مخلفًا ورائي أفكاري التي تحاول التقدم عليّ.

- لا خيار غير السعادة.

يجب أن نكون سعداء، لحظات السعادة مقياس العمر وليس عدد أعوامه المنصرمة في الخوف والنكد، الحياة حاصل ذكريات، يسعدنا التكتم عليها والبوح بها. أسعى إلى إسعاد أبي، ويتمرّن هو أيضًا على الظهور بالسعادة. نقيم من حولنا مبررات سعادتنا، نجد أجملها وجودنا معًا وأعظمها إصرارنا على البقاء أحياء، ملامحنا لا تنكر خوفنا من ميتة القتل العمد، نحن المتخفّين بنا منه (الحرب قتل عمد) لهذه الحياة الصامدة فينا الحق علينا في السعادة بها. لنقف أو لنجلس نتبادل الشعور بفرح من نسج وهمٍ دونه لا حقيقة لنا.

رأيتُ أن من لا وهم له لا حقيقة له.

منْ جار على أوهامه جارت عليه حقيقته.

يتراكم أبي على الصوفة، وأحلّ أمامه جالسًا على الكرسي، أعتقد أن ذكرى وليست فكرة قد استأذنتني للانفراد به قليلاً، أطرد سؤالاً يلح عليّ، يسأل أبي عن شحوب وجهه واحمرار عينيه، أخشى من تأليب الوجع عليه، يصعب عليّ مرآه باكيًا مرة أخرى، لا أريد أن يتحوّل لقاؤنا إلى مأتم لرثاء حياة لم تندحر بعد. دعنا نسامح الفرح على غفلته، لا نعاتبه على فقدانه عنوان بيتنا، والكف عن زيارتنا حتى ولا في المنام، منذ بضع سنوات أتقنا لعبة التحايل على غياب الفرح؛ مرة بالعبث وأخرى بعدم الاكتراث، لكن ما هو الفرح..؟ كيف يتحول إلى تفاصيل صغيرة قابلة للحياة بيننا وقادرة على إسعادنا..؟ الفرح يأخذ في ظهوره هيأة كائن نحبه، أو يتسرب إلى صيغة خبر سارٍ، أو كمدًى يمتد بنا، أو كمنظر يُآخي بين هيمنة الأخضر وتعدد ألوان الورد، مبسوط كي يسعد مرآنا، أو بحر يبحر بأفقنا، ربما يشهق الفرح كجبل يترك لنا تسلق الصعاب وسيلة للتربع على القمة، أو يبدو على صورة وادٍ يشجعنا على الأخذ بعمقه.

قال الجبل للوادي:

أعرني عمقكَ
أمنحكَ قمتي

أبحث عن حل في هيئة شيء متجسد يمنع تدفق الأفكار الباعثة على الكآبة؛ حلٌّ روحيٌّ يشبه كأساً من العرق، لكني لا أجرؤ على إعداد كأس لي أو له، قد يفسر أبي تصرفي هذا تجرؤًا عليه وسوء استغلال لانفتاحه عليّ، فأجهض بكأس عرق صغيرة مشروعه الديمقراطي الكبير الذي يساوي بيننا في اتخاذ قرارات حياتية مصيرية. أعتقد أن سيدة البليسان يجب إنصافها بنخب.

الخبر السار هو ما دفعني هذا الصباح إلى تعقب أبي في صومعته الخضراء لإخباره به. أكيد سيسره كثيراً؛ لكن مشهد تلاوة القرآن والضريح أنساني فرحتي وأنساني أن أخبره، الخبر السار وهو حصولي على جواز السفر وتأشيرة المغادرة، لقاء الكفالة النقدية التي قيمتها عشرة آلاف دينار المقدمة من أبي طبعًا. يستقبل أبي نبأ فوزي بجواز سفر واقفًا ومصفقًا، يتقدم مني يأخذني بحضنه معانقًا إياي، يجهش بكاءً ويقهقه ضحكًا، يهنئني على نيلي شهادة رسمية بالنجاة، يصف هذا الخبر بالسار والمفاجئ، ويرى لحظة حدوثه لحظة عظيمة، يتنهد مُزيحًا عن صدره همًا طالما جثم عليه، يعتقد أن جواز السفر وثيقة نجاة؛ نجاة من موت، جوع وقهر، إعلان تنصُّل من وطن ينفي الفرح ويوطِّن الحزن، يعتبره شهادة إدانة على الجرائم التي ترتكب باسم العراق تحت مسميات قومية أو عقائدية. نعم هو شهادة رسمية على اجتياز لحظة الخطر الحرجة، يفرج الحزن عن أبي فينطلق فرِحًا، يقترح عليَّ الذهاب إلى شارع أبو نواس والاحتفال هناك بهذه المناسبة، نأكل ونشرب، لا يريد أن يمرَّ نبأ فوزي بجواز سفر وتأشيرة خروج دون توثيقها بذكرى تليق بها، كما تليق بتلك الحياة التي تنبعث بعد طول رقاد. ينبغي الاحتفاء بهذا النبأ الحدث الذي يمثل عودة فرح بعد انقطاع دام طويلاً. يخبرني في الطريق أننا سوف نأخذ كأساً ثم يستدرك: لا؛ بل عدَّة كؤوس عرق ثم نختتم السهرة بوجبة من السمك المشوي على الحطب والمعروفة بـ (السمك المسكوف)، يرجوني أن

أرتدي طقماً وربطة عنق، رغم شعوري المسبق بالضيق الذي سأكون عليه بسبب ارتفاع حرارة الجو؛ لكنه يطمئنني باعتقاده أن الجو سيكون مريحاً وسوف يلطفه نهر دجلة بنسائمه الندية، يرتدي هو طقماً وربطة عنق أيضاً.

- تاكسي، شارع أبو نواس من فضلك.

يأخذ الطريق إلى إحدى البارات التي كان يتردَّد عليها، أدخل وأبي باراً يُدعى (بار دنيا)، تبدو على أبي الحيرة، لا يستقر على كرسي ولا يركن إلى ركن، يغيِّر أكثر من طاولة، يبدي امتعاضه من الديكور، يجد في إصلاحه وتغييره تخريباً لمهجع ذكرياته وانقلاباً عليها، يبدو الديكور أنيقاً والكراسي وثيرة، يطلب إليَّ الانتظار قليلاً، يخرج، يلقي نظرةً فاحصة على لافتة البار الضوئية، يهز رأسه، ويعود إليَّ مصحوباً بحيرة وضيق، يجتاحه شعور بخيانة هذا المكان الذي يراه غير أمين على ذكريات أوْدَعها إياه في الأيام الخوالي، يتساءل: ما الذي حدا ببغداد كي تلفظ ذكرياتها.؟

- أردت التأكد من أنه البار المقصود.

يدور أبي في صالة البار الذي تحول إلى مطعم، كأنه يبحث عن مفقود، يتضح أنه يبحث عنه في بار ضاع بضياع أيامه (هل هناك شيء، يا سيِّدي) يدور على دورانه النادل المصري: (لا شيء، يرد عليه) أخيراً يستسلم للجلوس عند النافذة الزجاجية التي تطل على نهر دجلة عن بعد، تتلألأ الأضواء على أمواجه التي تجري بهدوء وألفة. يتقدم النادل المصري الذي يحاول أن يكون ودوداً أكثر مما يجب، لعله يمتص بلطفه اضطراب أبي، يطلب أبي قنينة عرق مع المقبلات، يُخرج من جيبه منديلاً يجفف عرقه المتصبب، فيما أستل أنا منديلاً ورقياً من العلبة الموضوعة على الطاولة، أمسح رقبتي، صدري، ثم أستل منديلاً آخر أمسح به وجهي، أناول أبي منديلاً ورقياً أحمر يرفضه بحجة المناديل الورقية هي للنسوان، يخرج منديلاً من قماش ويشرع بتجفيف عرقه.

- هل كان المنديل أحمر.؟

- نعم.

- وهل معطرٌ..؟
- نعم؛ ولكن لماذا يسأل.؟
- طبعاً، معطرٌ هذه ليست دعابة.

يسأل ريان البحر بهاء الذي قاطعه، ينظر بهاء إليه، يضطر آسفًا ومخالفًا قواعد تلاوة ريان البحر للذكريات، يحذّر من مقاطعته أثناء الحديث وإلاّ سوف يُصدر تصرفًا لا يتحمل تبعته. يعتذر بهاء إليه فالمنديل أثار فيه ذكرى سوف يحكيها إليه في وقت آخر، يتذكر هيفاء يسمعها عبر صوت ريان البحر، ويرى وجهها المقهور يرفرف بملامحه بالهواء، يختلط عرق بهاء بدموعه، يتنهد، تسقط منه دمعة على ظاهر كفه، أراد أن يستعير خدها ليذرف عليه دموعه، ويعيرها جسده لينضح منه عرقها. عرقٌ ودموعٌ آصرِتا الحب في العراق. يستدرك قصة هيفاء، تستولي على فمه لينطق بكلماتها، يحاول الاعتذار غيابياً لهيفاء. ينتهز بهاء التوقف الاضطراري هذا ليعبر عن امتعاضه المبطن من الاستخدام غير المرخص لعبارة (الحزن نشأ عراقياً ثم أخذه العالم عنه). لم يكن بهاء هو قائلها، سيطلب من ريان البحر في وقت مناسب أن يكشف الطريقة التي أوصلته لهذا التعبير. يسأله عن مصدره لعله يضبط سارقها منه، حصول ريان البحر عليها يعتبر غير مشروع، ثم يعود إليه؛ (لم أسمعها من قبل، ولا قائل لها إلاي، أنا قائلها يا أرشيف يا توثيق) يلعن توارد الخواطر، توافق التعبير ووقوع الحافر على الحافر ويلوذ بالصمت.

على ما يبدو أن هيفاء تعشعش في ضميره، لا شغل لها غير التأنيب. يتمنى استبدال التأنيب بالجنس ليكون لذيذاً ما يندم عليه. يقبل ريان البحر اعتذار بهاء، ويستأنف حديثه عن أبيه المنشغل عنه بمراقبة المكان كأنه يبحث عن نفسه فيه، أتمكن من الانضمام إلى أبي؛ فأنا معنيٌّ بذكرياته الآن، أكثر مما هو معنيٌّ بذكرياتي. يأتي النادل بالطلبات، يضعها بعناية، ثم يعدُّ لنا كأسين من العرق.

- بصحتك.
- بصحتك يا أبي.

يحدق أبي في نهر دجلة، لاغياً المسافة التي تفصلنا عنه، كأنه على مرمى لمسة منا، لم يعد شيئاً عراقياً في العراق، سوى نهر دجلة. حتى العرق الذي صان مزاج العراقيين، يبدو الآن قابلاً للغش، التلاعب والمنع؛ فيما دجلة ضمير العراق الجاري يتقدم بهم ولا يرتد عليهم. الأضواء مكياج وضّاء، يزيد أمواج دجلة جمالاً، دجلة هو الأنقى في زمن لا نقاء فيه، النهر ذاته، أمواجه، نسائمه، حبه وعطاؤه، إنه أوفى للعراق من عراقييه. يعُبُّ أبي الكأس دفعة واحدة بفيه، ثم يضحك بأسًى، (تعرف ماذا كنا نطلق على هذه الطريقة في الشرب (للكعب).؟ نرفع الكأس ونضعه في مواجهة الفم، العيون مصوبة إلى بعضها، نشرب الكأس دفعة واحدة، نقول؛ للكعب يا شباب) أي خذ الكأس حتى كعبها، إلى ما في قعرها، أفرغ فيكَ ما فيها، لا تبقِ على ما فيها من عرق. أعدُّ كأسين من العرق، أرفع الكأس، أضعها في مواجهة فمي، أصوب عينيَّ نحو عينيه.

- للكعب يا شباب.

- للكعب يا شباب.

نعُبُّ أنا وأبي العرق فينا، تترقرق عيوننا بالدموع؛ فيما تتعالى قهقهات ضحكاتنا، (الذي يعرف الحياة لا يموت أبداً، ومنْ يعرف الموت لا يحيا أبداً. إن صناع الموت وتجاره سيموتون به قبل مستهلكيه وقبل الموت ذاته، يقول أبي) ينقر على الطاولة نقرات خفيفة، يردد أغنية للمطربة العراقية سليمة مراد: (على شواطي دجلة مر، يا منيتي وقت الفجر). أردد معه. يأخذنا فينا العَرَق، دبيبه الخدِر اللذيذ، نعزلنا بجدار شفيف عن باقي الزبائن الذين أخذوا يتوافدون على البار. (ليس الوطن نحن وحسب، إنما العالم بأسره لا يكون ما لم نكن)، أشعر هكذا الآن، وأعتقد أن هذا ما يشعر أبي به أيضاً. تتجلى ذكرياته، فيمضي بي لنطوف في الذاكرة الوطن السري للمحكوم عليه بالإقصاء والتهميش. الذاكرة وطن مَنْ لا موطن لهم. يستبق أبي بجوابه السردي سؤالاً كنتُ على وشك طرحه عليه، عما آلت إليه رغبة الراقصة نادية أحمد في لقائه ثانية وإحاطته بتوضيحاتها.

أتردد في الذهاب على الموعد الذي حدّدته الراقصة نادية أحمد من طرفها، أشعر في عصر ذلك اليوم أن العالم اختارني دون سواي لأكون منخفضًا يصب فيه أنهار حزنه وكآبته، صرتُ حاد المزاج خلافًا لما يعرفني عليه عُمالي وعاملاتي، يتركني محاسب المصنع السيد أبو مناف إليّ بعض الوقت، دون أن يسألني عن سر كآبتي ومبعث ضيقي، يحدثني بصوت عالٍ، يردّد عبارة لعله يساعدني في تفسير مزاجي المتدهور: 'فتش عن المرأة'، يردّد العبارة بطريقة أقرب إلى الهمس- على الرغم من تعاقب الأعوام على عمله- يتصرف باحترام وطاعة المرؤوس لرئيسه، يتصفح جريدة كأنه يقرأ مقطعًا من نص بصوت منخفض: 'ما الذي يأتي بالرجل من أقصى العالم غير المرأة'. يصوب قوامه بحركة من مرفقيه، ثم يعدّل نظارته الطبية ويتسلل من المكتب إلى إحدى ورش المصنع. أسخر من أبو مناف في سرّي: إنه رجل عجوز يخرّف، لا يعرف مع مَنْ يتحدث، ومنْ أكون، أنا أقوى من أن تتحكم امرأة بي، ما وُجدت ولن توجد من تتحكم بي أبدًا، سأذهب هذا المساء إلى بار دنيا، أنضم إلى أصحاب الكأس وزملاء الطاولة، سوف نشرب ونمرح، وأرثي تلك المرأة المسكينة التي تعتقد أنها قادرة على إخضاع رجل هو أنا، وجرجرته كخروف وراءها. أضحك من هذا الرجل الطاعن وامرأته المزعومة القادرة على إخضاع رجل لنزواتها مستغلةً بروز عضوه وتجويف عضوها. أنا اعتبر كرامتي وكبريائي رأسمالي، وجودي، وعملي. لن أخلّ بهما وأجري وراء تلك المرأة السوقية التي تُدعى نادية أحمد... القحبة.

- عفوًا، مدام نادية أحمد.... الفنانة

أرد على صوت يتناهى من خلف الباب المغلق الذي يُفتح عليّ؛ (تفضل بالدخول، سيدتي موجودة وبانتظار حضرتكَ) تهرع إليّ الراقصة نادية أحمد تعانقني بلهفة: (لم أصدق أنك سوف تأتي- تقول، ولا أنا أقول- تفضل، خذ مكانك، البيت بيتك)، تطلب من خادمتها العناية بي، تستأذنني بالانصراف إلى تغيير ملابسها وتهيئتها إلى اللقاء. آخذ مكاني في الصالة، تقدم خادمتها على طريقتها كأسًا من الويسكي، يدخلني شعور بالضعف ويسقط الرضى عن نفسي، أعبُّ الكأس فيَّ لأجمعني فيَّ لعلني أقوى

عليَّ. تطلُّ الراقصة نادية أحمد، تسير خلفها خادمتها تحمل أذيال فستانها الطويل الوردي اللون والمحتشم، على وجهها مكياج خفيف، تغطي شعرها بخمار أرجواني تعقده عند صدرها، مما يضفي عليها هالةً، هيبة وجلالاً كأنها محظية ملكية وليست محظية مواطن عراقي لا حظوة له ولا حظ. أنهض لقدومها، أنحني مقبلاً كفها، أدعوها إلى الجلوس، تجلس أمامي كسيدة أرستقراطية من سيدات القصور، تشرب بتأنٍ وتختار كلماتها بدقة، تتراقص على شفتيها كلمات مثل: (آسفة على التأخير، ولعلّي من فضلك، شكراً، ألف شكر يا سيدي، عفواً، هذا غير ممكن)، وغيرها من مفردات لغة الصالونات الراقية، يترفع فمها عن النطق بلغة الملاهي الليلة السوقية، تنتفض عليَّ تلك الراقصة التي امتهنتها طويلاً فتنهض منها سيدة مهيبة، تعدُّ كأس الويسكي بنفسها، تقدم كأساً وتأخذ أخرى، ترفع نخبي بحفاوة لافتة، تدير آلة التسجيل على أغنية (الأطلال) للسيدة أم كلثوم تستجيب مع كلماتها ولحنها كسمّيع طرب محترف، تتنهّد بادئة حديثها بـ(عفواً): (إنني أعرف حسون المضلع من زاوية لا يمكن أن تعرفها أنت منها، فهو يعتبر كل نساء العالم عاهرات باستثناء ثلاث هنّ: أمه، أخته وزوجته، يعتقد أن في كل امرأة توجد عاهرة، إما مقموعة أو قامعة، ويذهب إلى أن هناك عاهرة كامنة في كل امرأة ضمورها وبروزها يتوقف على الظروف، أي أن المرأة عاهرة بطبيعتها، ما لم تكن المرأة تلك أمه، أخته، أو زوجته، وبما أنني راقصة، فأنا أقرب إلى الاتهام بالعهر، هذا ليس مهماً، ففي سياق مهنتي تكون سمعة العُهر أرحم من سمعة الحب). العاهرة لا تشكل تهديداً يفضي إلى رفض ذكورتهم أو نفيها، على العكس يبقى جسدها تحت تصرفهم الجنسي، أما سمعة العاشقة فتثير حفيظة الذكور عليها، فحبها فعل نافٍ لوجودهم، يعتبر إهانةً وتنكيلاً بذكورتهم، (أنا وحدي أدفع ثمن سمعتي كعاهرة، سمة ألفتها وقادرة على معالجة مخاطرها ومضاعفاتها، أما حال الحب فيدفع ثمنها اثنان أنا وآخر، والآخر هذا لا ذنب له سوى أنه سقط في حب ساقطة كما ينظرون إليها، نعم هذا الآخر لا ذنب له سوى أنه أحبني، أريد أن أتحمل تبعة العلاقة هذه بمفردي، لكن هذا ليس مفهوماً ولا مقبولاً ولا مسموحاً أن أحب. أنا جسد بلا قلب. الحب يخطف جسدي من أسر ذكورتهم، يحررني منهم، الحب هو الروح التي تتصرف بالجسد، ولا

مكان في كيان المحب غير الحبيب، يهيمن على وجوده واهتمامه، لكن مصدوم الحب لا يُقرُّ بوجود حب، ونهاية قصة حبه نهاية للحب في الكون، ورواد الملاهي الليلة هم من ضحايا الحب والكراهية، من المهمشين والمرفوضين، هل تصدق أن بعضهم يصرف مبلغًا طائلاً، ليقضي سهرة معي، يقص عليَّ قصة وفائه مقابل خيانة المرأة التي أحبّ. أشعر أني في حالات عديدة آلة تسجيل يضغطون بمبالغهم على زرِّ التسجيل ويمضون في تسجيل قصص حبهم المهزوم، أنفضني منهم وأمسح ما سجل فيَّ، طبعًا وضعهم المُزري لا يخفف ولا يعفي معشوقي الموهوم أو الفعلي من قسوة أحكامهم، وربما القصاص منه. تأكَّد لو أنني رفضت استلام مبلغٍ ما لظنَّ حسون المضلع أن حبًا قد حدث، وهذا يفرض عليه موقفًا لمقاومته). تأخذ سيجارة، تضعها في فمها.

- ولِّعلي من فضلكَ.

- حاضر سيدتي.

- شكرًا وألف شكر.

يثير تهذيبها المفاجئ وغير المرغوب فيه من قبلي؛ دهشتي وذهولي، يقلقني صراحة تهذيبها الذي لا ضرورة له كما أعتقد والآن بالذات؛ لكن طريقة حديثها وخبرتها الحياتية تشدني إلى الاستماع إليها؛ (عفوًا على المقاطعة، وأستميحكَ العذر، عودة إلى الموضوع، أعرف أن هذا المبلغ المؤسف والمقبوض من حسون المضلع وسواه في حال كهذه، يجرحني جدًا، صدقني أقبضه وأنا مرغمة، وكأنني أصادق على حكمهم عليَّ كساقطة، وأُسقط حقي في التصرف أسوة بالآخرين أو الأخريات. تستل منديلاً ورقيًا وتمسح دموعها: (آسفة على الدمعة)، تقول بصوت يزداد غنجًا.

تنهض تجلب المبلغ المقبوض من حسون المضلع وتضعه على الطاولة: (تصرَّف به كما تشاء، لكنك يجب أن تتذكر أنني امرأة قبل أن أُصار إلى ما يصيرونني عليه) أقبض بيدي على يدها، أرمقها بنظرة متفهمة ومتعاطفة، تستعيد الرضى عنها، ذلك الرضى المحرومة منه، تشعر أن المرأة الكامنة فيها تنطلق، لتعطل فيها تلك العاهرة المتخيلة والمنسوبة

إليها، لا يهم أن تكون عاهرة أو لا تكون، راقصة أو غير راقصة، المهم أن تكون امرأة ولو للحظة عندما تحتاج أن تكونها، تستبدل الطرب بالموسيقى الرومانسية التي تغطي أرجاء الصالة المضاءة بالشموع والمسدلة الستائر، تتقدم منّي، تنحني، ترجوني دعوتها إلى الرقص معاً، أنهض وأنحني مقبلاً يدها.

- هل تسمح السيدة بهذه الرقصة.؟

- نعم، بكل سرور.

نرقص معاً، تغيب عني لتبحث عنها فيها، وأنا أغيبُ فيَّ لعلني أزوغ مني، تنتهي الموسيقى، نتوقف عن الرقص، نصفق، أوسع طريقها أساعدها في رفع أذيال فستانها، أسحب لها الكرسي، أومئ بيدي، أدعوها إلى التفضل بالجلوس.

- شكراً وألف شكر أيها السيد النبيل.

تجلس إلى جانبي تضع ذراعها اليسرى على كتفي، تشدني إليها، ثم تأخذني في قُبلة طويلة (تهمس: سيكون وضعنا على السرير مريحاً) تمسكُ يدي بيدها ويدي ويدها الأخرتين تحملان قنينة الويسكي والكأسين، تجرُّني إلى غرفة النوم، نضع ما نحمل على طاولة صغيرة بالقرب من السرير، تغلق الباب، تخلع ملابسها قطعة بعد قطعة تقذف بها في فضاء الغرفة، تمسك بسروالها الداخلي، تبلُّه بماء فمها، تدعكه، ثم تمسح به وجهها، تزيح عن وجهها المكياج، يسقط القناع، فيعود إلى الوجه صفاؤه المتأخر عليه، تريدني أن أعرِّفها على طبيعتها، في فوضاها وفي جنونها؛ فيما أنا أخلع ملابسي، قطعة بعد قطعة وأضعها بعناية على الكرسي، ألقي نظرة على وجهي في مرآة خزانة الأثواب، فاعدِّل شاربي وأصفف الشعيرات المتمردة على حاجبيَّ، تستلقي هي على السرير، تدعوني إليها، أُقبل عليها، تحتويني بذراعيها، تقبِّلني، وتتحسَّس جسدي بلمساتها، تتفاهم مع جسدي دون واسطة من فكرة ذي موقف، تتوقف، ترفع من جسدها، تتناول قنينة الويسكي، تسكب قطرات في سرَّتها، تطلب منّي لعقها، فألعقها.

- ما يسكرك الآن سُرتي، أم قطرات الويسكي.؟

- قطرات الويسكي طبعاً.

تنهض غاضبة، تولول، تقذفني بقطع ملابسي، (انهضْ، اختفِ عن نظري) أنهضُ، أجمعني فيَّ، يساورني الإحساس برضًى مغرضٍ عن تصرفي في الإجابة، أرتدي ملابسي على عجل، تحمل كأساً مملوءة بالويسكي، تمسكني إياها: (ضاجعها، قبِّلها، سيمتعكَ ذلك أكثر مني، التذ به) لا تنفك عن توجيه السباب إليَّ وإليها، على دفعات وركلات متلاحقة منها، أجدني خارج الشقة ومغلق دوني الباب. الباب الموصد لا يحول دون سماع نشيج، تفتح الباب على نقرات ونداءات مني، تفتحه بعد مماطلة وتردُّد، نرتمي بأحضان بعضنا، نسقط على الأرض، نقبل بعضنا، نحبو، نتحرر من قطع ملابسنا، نزحف بشفاه ملتصقة إلى غرفة النوم، تغلق الباب بقدمها، على أرضية الغرفة المفروشة بالسجاد نتدهدر هياماً فينا، على لهاث، دموع، ونشوة نحتوي بعضنا ولا نبقي على شيء منا.

يأخذ أبي رشفة من كأس العرق، يعقبها بملعقة مملوءة بالحمص المسلوق، ألاحظ احمراراً في عينه، مثل ستارة يصعب إسدالها على أعماق مجروحة. يفضل أن يقذفني في أعماقه الآن، لأتعرف على مخزونها بنفسي، وليخفف عن نفسه عبء التعريف بها؛ لكنه يخاف عليَّ من تلك الأعماق، إنها سحيقة وتحتاج إلى دليل، ولا دليل لها إلاّه. يخاف عليَّ أيضاً، قد أدخل فيها وأخرج منها خلافاً لما ينشد، تضعف حدَّة صوته المثقل بعبارات تنوء بمعانيها، يتلفت، يجوب بنظره الأنحاء بحثاً عنه بين أصدقائه الغائبين في هذه اللحظة الموجود فيها في هذا البار (بار دنيا). كان يرتاده بصحبتهم، يعرفهم النُدُل، يهتمون بطلباتهم، يبحث عن النادل المخضرم (حنا) شيخ النُدُل الذي يحرص على راحة زبائنه، يعرفهم واحداً، واحداً، ويعرف عنهم ما يرغبون في أن يعرفه عنهم. يسعى إلى رفع أمزجتهم التي تتدهور أحياناً، بفعل تقلبات السوق؛ الانقلابات العسكرية والتقلبات السياسية والاقتصادية، مزاج يسوء بسبب ضغوطات الحياة اليومية أو بفعل حرارة الطقس، يهدئهم حنا بقوله: (ما دُمنا سنموت يوماً ما؛ لِمَ لا نستمتع بيومنا.؟ مَنْ ذا الذي دُفن همّه وانبساطه معه.؟ نموت ونخلف وراءنا حزننا أو فرحنا، لِمَ لا نفرح ونفرح.؟ الدنيا ريشة في مهب الموت). ثم يتضاحكون: (لكن الدنيا دون بار دنيا ليست دنيا)، أينهم الآن، حتى كراسيهم المصنوعة من الخيزران، تتموه بالقماش،

وأمكنتهم محتلة بآخرين غرباء يرطنون بلغة عصية على فهم أبي. يتنهد، يأخذ نَفساً عميقاً من سيجارته: (لا يعيش المرء غير زمنه، ولا أحد يعيش اللحظة ذاتها مرتين). يفكر بصوت عالٍ، ينسى أبي أني لا أزال ابنه، هكذا يُخيل لي، يجدني الآن صديقاً يختصر بحضوري أصدقاءه الغائبين، أصدقاؤه بين متوفٍ، مهجر ومنقطع؛ لكن دنيا أبي هي ما عليه الآن وليست له، وما دنياه إلاّيَ، المطلوب منه حملي على السفر إلى المجهول، ظنًّا منه أن من هناك سينطلق زمني الموقوف هنا، ويدرك أن لا زمن لي في العراق، يصعب عليَّ عيش زمن ليس زمني، يبدو أن العراق قد استنفد مخزونه من الأزمنة ولم يبقَ إلاَّ العدم والتسليم بالخراب. يؤلمه ذلك ويؤلمني أيضاً.

- بصحة العراق المُدْبِر.

- بصحة العراق الآتي.

ينقر أبي على الطاولة نقرات خفيفة، يغني بصوت خفيض على إيقاعاتها أغنية تصلح لطقس تناول العرق، فيغني مقطعاً من أغنية؛ (هذا مو إنصاف منك، غيبتك هلكد تطول، الناس لو تسألني عنك، شرُد أجاوبهم شقول - هذا ليس إنصافاً منكَ). غيابك قد طال. الناس عندما تسألني عنكَ، ماذا أجيبهم وماذا سأقول. أردِّد المقطع هذا معه، ثم يتوقف فجأة، يطلب مني تناول المقبلات مع الشرب، فالمقبلات تمتص الكحول وتقلل من ضرره على المعدة. لا أعرف عن أبي ميله إلى النصيحة وخصوصاً الصحية، يستعيض عنها بمثلٍ، حكمة، أو قول مأثور. أحس أن في أبي رغبة في مواصلة الحديث عن الراقصة نادية أحمد، فأطلب منه أن يحدثني عنها، طلبي هذا بقدر ما يُريحه يسبب له انقباضاً وحزناً جليَّين.

تقرر نادية أحمد أن نمضي يوماً كاملاً معاً، أذهب إليها صباحاً، تفتح الباب، ترتدي ثوب بيت عاديٍّ، لا تضع على وجهها أي مسحوق، شعرها منفوش، تطلب مني الجلوس في المطبخ، تحضر الفطور الذي يتألف من قيمر (قشطة)، أرغفة من الخبز الحار، وإبريق من الشاي. تصب لي الشاي بنفسها، وتأخذ قطعة من الخبر مغموسة بالقيمر، وتدسها في فمي، ثم تسألني عن غناءٍ معين أفضل سماعه صباحاً، أطلب منها

أن تفتح الراديو على إذاعة بغداد، لأنها تبث صباحًا أغاني السيدة فيروز، وهذه الفقرة الوحيدة الجديرة بالسماع منذ أن شغل الرئيس السينما، التلفزيون، المسرح، الإعلام، الثقافة والإذاعة، الأخبار، البرامج، المسابقات، الندوات، الحوارات وحتى الأغاني تدور عنه. يضفي صوت السيدة فيروز بعدًا جبليًا وريفيًا مرغوبًا فيه على صباحنا، فتصدح: (سنة عن سنة، عم يكبر بنفسي عهد الولدنه، يا حلو يا حبيبي ما بيع بالدني، وكل سنة بحبك أكثر من سنة).

تطلب إليّ الراقصة نادية أحمد أن أناديها باسمها الصريح (صفية) بدلاً من اسم الشهرة الفني الذي يبعدها عنها وعني؛ كما تقول؛. أخالفها الرأي أني عرفتها بهذا الاسم وأن اسم صفيه يفرض عليّ البدء من جديد بمراجعة إقرار مطابقة الاسم مع مسماه، فضلاً عن الوقت الذي أحتاجه إلى التطبع على مناداتها به؛ لكنها تصرُّ عليه، فألبي على مضض رغبتها.

تحضر لي بيجامة جديدة معطرة بعطر رجالي تفضله، تطلب مني ارتداءها، أذهب أنا إلى الصالة للجلوس فيها وتذهب هي إلى المطبخ لشطف الصحون، أجلس على الصوفة مسترخيًا، أتصفح بعض المجلات الفنية، أتوقف عند الأخبار المثيرة عن زواج وطلاق نجوم الفن، أجدها على تنوعٍ واختلافٍ أكثر من المطبوعات العراقية الموحدة على تأليه نجم لا نجم إلّاه، هو الرئيس، لا يجرؤ شيءٌ أو كائن على الاختلاف معه، تدخل الراقصة نادية أحمد، تحمل صينية عليها، فنجانان من القهوة، تتمنى لي مذاقًا طيبًا، آخذ رشفة من القهوة، أجدها غير مغلية تمامًا، طعمها حاصل ماء فاتر وبُن مبلول وحار. الماء والبُن يرفضان الامتزاج على يدها، ليُشكلا مذاق القهوة المطلوب؛ لكن يكفيني أنها قد أعدتها بيدها ومن أجلي. أتوجس خيفة من أن تصرَّ على أن أتناول طبقًا من طبخ يدها، فالقهوة يمكن تجرعها، لكن الطعام كيف تحمُّله. تقترح عليَّ أن نمضي الوقت بأحاديث مسلية خفيفة، نبتعد بها عما يكدر صفونا، تدعوني إلى أن نعيش يومًا مشبعًا بنا، يمكن أن نسميه يومنا بحق، أتفق معها، نتطرق بالحديث عن الأفلام العربية، تتحدث هي عن فيلم عربي (جعلوني مجرمًا). أطلب منها الحديث عن فيلم آخر أكثر

تسلية، تحدثني عن فيلم (إني راحلة)، يموت البطل في بيت يطل على البحر، حزن حبيبته على موته، يدفعها إلى رش المنزل بالنفط، تشعل عود ثقاب وتلقيه على النفط المرشوش، تعانق حبيبها الميت ويحترقان باحتراق المنزل، ثم تجهش بالبكاء، وتلقي برأسها على صدري وهي تنشج، أناولها بضعة مناديل ورقية لتمسح دموعها، أطلب منها أن تعود إلى الحديث عن فيلم (جعلوني مجرماً) على الأقل أن البطل يُسجن بعد اضطراره إلى ارتكاب جريمة ما، تنتظره حبيبته التي تقطع عهداً عليها بالوفاء والبقاء على حبه مهما تكون قسوة الظروف، أتصنع الاستماع إليها، طريقتها في سرد أحداث الفيلم مملة ومسهبة بالتفاصيل، المشهد الذي يستغرق عرضه على الشاشة دقيقة، تقصه عليّ بعشرة دقائق، مع فاصل إعلاني عن جدية ألمها وعمق تحليلها الذي يزيد تفاهة المشهد تفاهة. أتصنع الاستماع إليها للتغطية على انشغالي بموضوع الغداء، أنتهز انشغالها بالحاجة إلى سيجارة استدعى تدخينها ألم لقطة من الفيلم، فأتوصل إلى فكرة؛ لِمَ لا نطلب أكلاً جاهزاً بالتليفون من أحد المطاعم على ألاّ يكون الطلب دجاجاً، أصرح لها برغبتي هذه، (رغبتك هذه متأخرة، إن طبقاً من الدجاج المقطّع، حلقات البطاطا والطماطم، شرائح البصل، ثوم معصور، وتوابل مشكّلة، إنه في الفرن الآن، سيكون جاهزاً بعد ساعتين، وسوف لا تفرق بين أصابعكَ وقطع الدجاج بسبب الطعم الشهي جداً) تقول ذلك بثقة لا ينقطع إليها ظنّ، أتمنى ذلك؛ لكن من المؤكد سوف أعضّ أصابعي ندماً على هذه الأكلة. أطلب منها أن نأخذ كأسين من الويسكي، تعتذر هي الآن عن الشرب لأنها في خدمة سيدها، ترفض أية وسيلة اصطناعية أو خارجية تزخرف لها شعورها، تريد أن تقرر مشاعرها سعادتها بلا تدخل، لكن خدمتي تسعدها، تعدُّ بيدها كأساً من الويسكي، تقدمه برضًى، تعثر معي على لحظاتها المفقودة، اللحظة التي تظفر بها الآن، هي ربة بيت وامرأة مطيعة، تحقق سعادتها من رضى رجلها عنها: (أنتَ الآن زوجي وسعادتي من رضاكَ عني)

- نادية.

- صفيه من فضلكَ.

لكن ألا تحلم هي أيضًا برجل مطيع؟ ألا تحلم بالحب فقط؟ حين يقوم الحب تسقط كل الأشياء غير الحبيبة، في حضرة الحب تبطل الأسئلة، والحبيب الذي يطيع قلبه، يطيع محبوبه، هكذا تجيب. (تصرفك في إعداد الطعام، دجاج يا نادية عفواً يا صفية، أُعدُّ ذلك تصرفًا فرديًا مرفوضًا، يضرُّ بمشروعنا الديمقراطي ويعرِّض تفاهمنا إلى المساءلة.. دجاج يا صفيه هل هذا معقول.. صدقيني من شدَّة تعلق حسون المضلع بالدجاج كرهتُ الدجاج وكرهتني هي أيضًا)، أقول. تريدني سيداً مستريحًا، طلباتي ملباة، لا تعتذر هي عن تصرفها الأحادي وانفرادها في تقرير ما يؤكل ظهيرة هذا اليوم، تحاسبني على التدخل في شؤونها. شؤون المطبخ شؤونها ما دمت حاضراً في بيتها وسيداً على حياتها. تضعني في صورة تفكيرها، (إن حب الدجاج ليس حكرًا على حسون المضلع، وإن أساء إلى الدجاج بشراهته، فهذا لا يعني أن الدجاج سيئ؛ إنما حسون هو السيئ والمسيء إلى دجاج يحسن إليه بطعمه اللذيذ، صدقني إن طبق دجاج صفية حبيبتك يأتيكَ مباشرة من يديها الكريمة إلى فمكَ الجدير بما هو طيب، ستستطيبه وسيكون شكركَ متأخرًا، لكني سأنظر فيه). تنهض لتعدَّ لي كأسًا من الويسكي، تقربها من فمي، تُشربني إياها بيدها، ثم تعقبها بقبلة فمٍ شبه طويلة، تمسح فمي براحتها، تتنهد.

- ما رأيك بهذه المازة.؟

- ليس هناك ما ألذَّ منها.

- اللذيذ قسمة الجميل.

- لكن دجاج يا نادية، عفواً صفية وفي هذا اليوم بالذات..؟

- كف عن الإساءة لطبق دجاج صفية وإلاَّ سأحشو فمكَ بـ ...

- أكملي بماذا..؟

- بأصابعي العشر.

تقترب مني، تفتح أزار قميص البيجامة، تضع رأسها على صدري، تريد أن تنام نومة هانئة على صدري لا يوقظها فيها حلم، أداعب خصلات شعرها بأصابع يدي اليسرى، آخذ بيدي اليمني كأس الويسكي أرتشف منها، ترفع رأسها.

- تريد مازة..؟

- أنتِ كريمة وأنا أستحق.

تلصق فمها بفمي تطعمني قبلة، ثم تعود هادئة، تسلم جسدها المسترخي إلى النوم، تأخذ صدري وسادة، تغط بنومة عميقة. براءة طفولية تنبعث تلاحق بالإدانة زمناً على ارتكابه هموم كادت أن تصير تجاعيداً. على صدري وجهٌ سمحٌ تنتشر على ملامحه ابتسامة تتسع لفرحي بوجودها.

تطلق عليَّ الراقصة نادية أحمد صفة وليس اسماً 'عظيمي'، لا تسألني من أكون وماذا أعمل، تخاف على خيالها من أن تحدَّ من جموحه واقعية المعلومات، تخلع عليَّ هوية تشبه رغبتها فيَّ. تكتب حياتي على هواها لي. أتوهمني كما تتخيلني متعدِّد الصفات الجميلة. كلما يعثرني الواقع أجمعني في صورة حلمها عني. أضيعني فأعثر عليَ بها وفيها، تعبِّر عن حبها لي في كل فعل حبيب تقوم به، قلبها يحبني دون أن ينتظر إذناً من عقلها أو منها، أسمح لقلبي أن ينبض بحبها وأمنع لساني من التصريح به، سرُّ حبها يقبع فيَّ يكبر بي وعليَّ، منه أكون وأختلف به عن سواي، أجدني مرغوباً فيَّ ومحبوباً، أنفض عني غبار الإهمال وأقوم سيداً على جمال امرأة تُدعى نادية، عفواً صفية، يسعدني ذلك ويؤكد على وجودي الحالم والمطمئن في هذا العالم المكتظ بالخيبات، بالضغوط وبالمخاوف. بعد موات طويل تحييني بحبها، لا تسألني عما كنتُ أحبها أم لا، المهم هي تحبني، ويسعدها ذلك، يؤكد الحب على المرأة التي تكونها ويرد على محاولات العمل-الراقصة في نفيها عنها، تفخر بكونها امرأة، أنا من طرفي، أريد أن أعلن عليها حبي لها، لكنني أحتاج إلى الشجاعة للقيام بذلك؛ فيما أتصرف معها بما يمليه حبها عليَّ، دون التصريح به، أمهلني بعض الوقت لأتمكن من إعلانه عليها على الأقل، تنبعث من جهة المطبخ رائحة التوابل، الثوم والبصل من طبق الدجاج، رائحة الثوم،

التوابل والبصل تغلب على رائحة الدجاج، الرائحة تنتصر لي على الدجاج، يريحني ذلك، آخذ رشفة من الويسكي بلا عرضٍ بمازّة بسبب نومتها العميقة على صدري، أحني رأسي على رأسها، أغفو على إغفاءتها، لعلني أتسلل إلى نومها وأقاسمها الحلم.

تقطع إغفاءتنا نقرات قوية ومتلاحقة على الباب، نصحو مذعورين، تهرع سائلة مِن وراء الباب المغلق عمّن يكون الطارق، عقيد شرطة (خالد الدوري) يرد عليها بصوته الأجش، ترتعد وأنا من الخوف ووقع المفاجأة تنفي معرفتها به، تشير عليَّ الذهاب إلى المطبخ والانتظار فيه. أدخل إلى المطبخ أغلق بابه دوني، أرقب من ثقب المفتاح، تفتح الباب، يدخل رجلان في لباس مدني، في حزام كل منهما مسدس، يتقصدان الكشف عنهما، بافتعال تحريك جاكيتيهما، يقدم أحدهما الآخر إلى الراقصة نادية أحمد.

- العقيد خالد الدوري ضابط أمن المنطقة.
- لطيف الدليمي مسؤول منظمة الحزب في المنطقة.
- أهلاً و سهلاً، تفضّلا.
- أهلاً بكِ، شكرًا.

ترشدهما إلى مقعدين في الصالة، يمكن لي مشاهدتهما؛ فيما هي تنحجب عني. يُخرج المسؤول الحزبي، أوراقًا واستمارات، يفردها على الطاولة؛ فيما يحملق بعينيه العقيد صوب المكان الذي تجلس فيه، أتوقف لا أعرف على أية منطقة من جسد نادية أحمد يركز عليها نظره، أكيد أنه ينظر إليها، وتحديداً إلى ثوبها المفتوح على صدرها الناهد. وقع المفاجأة أنساني لفت نظرها إلى ضرورة عدم الكشف عن صدرها، والانتباه إلى جلستها ولا تدع ساقيها مكشوفتين. ألومني على غفلتي.

وقوف العقيد خالد الدوري المفاجئ يقلقني، بإمكانه - وعلى ما أعتقد- أن يصب نظراته على وادي نهديها الحريري، أسمع المسؤول الحزبي الذي لا أراه يتلو عليها خطاباً: (إن

قدر العراق العظيم جغرافياً وتاريخياً أن يخوض معاركَ بالنيابة عن الأشقاء العرب، هم يبنون ونحارب نحن، شعارنا الرئيسي (كل شيء من أجل المعركة) نعبّئ الجماهير إلى خوض معركة ضد الإمبريالية والصهيونية، نحن فلسطينيون أكثر من الفلسطينيين ومصريون أكثر من الأشقاء المصريين، نحن نقرر على الآخرين قضايا نضالهم. ماذا نفعل هذا قدرنا ولا أحد بوسعه الهرب من قدره. لقد خوّلنا أنفسنا الدفاع عن الأشقاء العرب، واليوم العراق يقوم بواجبه القومي، فيشنُّ حرباً على كل الأصعدة والاتجاهات؛ شرقاً ضد الأعداء الإيرانيين الخارجين على إرادتنا، غرباً ضد الإسرائيليين، شمالاً ضد الأمريكان وجنوباً ضد الهنود. إن الوطن يعيش لحظة مصيرية، ستتوج بالنصر، ومثلما انتصر الأجداد على الفرس، الأسبان، والرومان؛ ها هم الأحفاد ينطلقون من العراق بقيادة الرئيس ليدحروا الأعداء في الجهات الأربع، يصحح ليست جهات جغرافية مترامية؛ بل جبهات تاريخية محتدمة. يتلو المسؤول الحزبي خطبتَهُ، يومئ بالإيجاب ضابط الأمن الذي يتظاهر بالإنصات إلى خطبة المسؤول الحزبي. أشك فيه، يكذّب بإنصاته هذا ليس إنساناً مثلنا، إنما برج مراقبة يرصد المناطق الحساسة والموتّرة من جسد نادية أحمد عفواً صفية. ليتني نبهتها إلى صدرها وساقيها اللتين غالباً ما تسهو عنهما.

- هل انتهت الحرب، وانتصرنا فعلاً، لأنني في الواقع لم أستمع إلى الراديو صباح هذا اليوم، اسمحوا لي أن أقدم لكما عصيراً ابتهاجاً بالنصر.

- دعكِ من العصير، لم تنتهِ الحرب بعد، إنها مسألة وقت؛ لكن النصر لا علاقة له بذلك، إن شنَّ مجرد الحرب نعدُّه نصراً بحد ذاته، لا تهمنا التضحيات فالعراق معطاء.

يُقلقني توجيه العقيد نظره صوب الجهة المرشحة أن تكون فيها الراقصة نادية أحمد. كيف يشيح النظر عن البيانات، أليس هو يؤدي عملاً..؟ يعني أنه أثناء الخدمة وعليه القيام الحرفي بواجبه دون النظر حوله.. النظر بتلذذ لا يجوز، يبدّد وقته الحكومي بالنظرة على نهديّ امرأة وساقيها المكشوفتين. هذا فساد شخصي وإهدار بالمال العام، عليه الاهتمام بقضيته. لكني أكتشف أن صدر الراقصة وسيقانها أصبحت قضيتي، لا

أحد يقدر نبلها إلّاي. أضحك بمرارة على قضيتي المغفول عنها من هذه الراقصة التي لم تتدرب على حفظ جسدها، ومنتهكة من نظر العقيد الذي لم يتعلم كيف يغض بصره. قضيتي عظيمة؛ هي الغيرة عليها، الغيرة ضفاف الحب.

تشتدُّ حاجتي إلى التبول، أضغط عليَّ دون جدوى. ظهوري مخاطرة غير محسوبة النتائج، قد يلحق الأذى بنا؛ وربما ينتهي ظهوري إلى الاعتقال أو الإعدام بتهمة الزنا؛ فيما الوطن يخوض حربًا شريفةً. ماذا أفعل، أصبح التخلص من التبول قضية تستحق التضحية. يقلقني البول كقضية أكثر من قضية جسد الراقصة نادية أحمد المشرع على الاغتصاب البصري. نعم قضية تبولي أكثر حساسية وأهمية من قضية المسؤول الحزبي والعقيد اللذين يفردان أوراقها ويبسطان نظرهما على هذه المخلوقة البريئة. أكاد أتبول في سروالي، أريد حلاً، لحظة ويتجسد الحل على صورة آنية فخارية.

تنبعث رائحة حادة من الفرن تستدعي الراقصة نادية أحمد إلى تعليق إسهامها الإلزامي في الاستماع إلى دور العراق القومي والقدوم إلى المطبخ، تغلق وراءها الباب، تضبطني في حالة إدخال في الآنية الفخارية، حركة تبولي الراهزة تثير حنقها الأنثوي، تقترب مني: {ألا تستطيع الانتظار، آهٍ من الرجال يفكرون دائماً بأسفل سُرَّتهم، بروز أعضائهم سيجوِّف العالم. أليس الدخول في لحمي أكثر متعة من الدخول في الفخار}، تهمس. {أنا أبول فقط}، أهمس. تضع كفَّها على فمها لتكتم ضحكتها، ثم تضرب على وجهها برقة: {لقد احترق طبق الدجاج، هذه هي المرة الأولى التي أعدُّ فيها طبقًا في حياتي} أنتهي من التبول، أقتربُ منها، أرتب هندامها، أزرِّرُ صدرها، أنصح بألاَّ تغفل عن ساقيها وأن تجلس بعيداً عن مرمى نظر العقيد.

- تغار عليَّ؟
- أغلي غيرةً عليكَ.
- حبيبي أنتَ، آه كم أسعدتني، يا عظيمي.

تطبع قبلة صامتة على فمي الساكت عنوة، تسقط دمعة اعتزاز من عينها على خدها النضر بابتسامة، تعالج راحتها سقوط دمعتها، تفتح نافذة المطبخ لصرف رائحة الطبق المحروق. غيرتي عليها أنستها حُرقتها على طبقها المحروق. تنصرف عني، تغلق باب المطبخ وراءها، ألقي نظرة على الطبق، أقف دقيقة حداد على الدجاجة المحترقة، لها المجد. إنها شهيدة سقطت في حملة التعبئة لحرب لرئيس وقادسيته.

- ماذا حدث.؟ إنها رائحة حرق.

- لا شيء، احترق طبق الدجاج.

- وُجد العراقي ليضحي، سيشكركِ التاريخ على تضحياتكِ.

أشعر بشيء من الارتياح، لا ضغط من الحاجة التي كانت ماسة إلى التبول، جسد الراقصة المتحصن بثوبها وانتباهها في منأى عن فضول بصر العقيد والمسؤول الأمني. أسخر منهما إنهما الآن ينظران بيأس وخيبة إلى قضيتهما التي هي عبارة عن أوراق مفرودة على الطاولة. يعثر المسؤول الحزبي- بعد بحث مفتعل - على أوراق معينة. يقبض عليها بكفه ويقدم لها بخطبة: {أكيد إنك أسوة بالمواطنين الشرفاء، تعرفين توجهاتنا الجديدة حول مفهوم الأمن، إننا نبني المجتمع على أسس أمنية، نعتقد أن أمن الوطن ينبغي أن يكون مسؤولية المواطن، ولا يختص به جهاز حكومي واحد أو معين، ولهذا نطرح برنامج {الأمن الاستراتيجي} يتعين على كل مواطن أن يصبح أميناً، أعني رجل أمن، عفواً امرأة أمن، إننا نحدث ثورة في علاقة المواطن بالوطن عبر توثيق صلته بالأجهزة الأمنية والاستخباراتية، نحن نحترم العائلة ونقدر دورها التاريخي كنواة المجتمع، هذا الدور الذي يرفد المجتمع بأعضاء صالحين وترفد الدولة برجال أمن مخلصين، نتوجه إليها مباشرة، نعمل على أن يكون فرد واحد على الأقل من كل عائلة عضواً في جهاز الأمن، يقدم تقريراً أسبوعياً عمّا يدور في عائلته وما يحدث في منازل جيرانه، إن أمن الوطن فوق كل اعتبار، إننا نؤسس قيماً، معايير وأخلاقيات جديدة، نبني بها مجتمع عراق الثورة والتقدم، يجب أن تتغير نظرة المواطن إلى رجل الأمن، ودوره وهذا أمامكِ مثال، انظري هذا رجل الأمن، العقيد خالد الدوري، خذيه مثلاً

وقدوة)، يقول المسؤول الحزبي؛ فيما يتململ العقيد، على ما يبدو أنه ليس سعيداً بما انتهى إليه المسؤول الحزبي، لأنه لا يريد أن يكون مثالاً وقدوةً لراقصة، لا يراها سوى عاهرة مستباحة، غير أنه يتظاهر بالرضى، يأمرها بملء حقول الاستمارة من الاسم، العمل، أسماء أفراد العائلة وميولاتهم، أسماء المعارف والأصدقاء العناوين والميولات، الأماكن المفضلة، وتنتهي إلى اللون المفضل. يطلب منها تقريراً عمّا يدور في مجال عملها وأحاديث الزبائن والزملاء. سيتم تأمين الحماية الكافية لها، يعرف هو ويقرر كيف ومتى يتصل بها، لا يرى داعياً لقلقها بهذا الشأن.

- شكراً لك.
- شكراً لكما على الزيارة.
- والثقة.

تودعهما عند الباب، تقبل عليّ، أقبل عليها متوجساً، تطوقني بذراعيها وتجذبني إليها تقبيلاً وتحسساً، لا تعطي موضوع زيارتهما أية أهمية، لا تعقب على الاستمارة ولا تحدثني عنها، لا يبدو عليها القلق أو الخوف، كأن الموضوع قد انتهى بمجرد مغادرتهما. تمسك يدي وتذهب بي إلى الصالة، تهيمن عليّ، تحاول تعويض الوقت المهدور. أسرح بعيداً عنها، تدرك ذلك. تتوقف وتجلس ظهرها: (في مهنتي أتعرض لمواقف أخطر وأصعب بكثير من هذا الموقف الفارط وأصعب مما تظنّ، أنا موضع ابتزاز؛ يبتزني صاحب الملهى، الشرطي، وحتى ذلك الذي أستأجره لحمايتي. إن التعايش مع الخطر يقلل من الإحساس به).

إن صمتاً مرعباً يطبق عليّ، لا أقوى على الكلام، تتوقف ملكة الكلام، كأني لم أتكلم في حياتي، يمارس خوفي وحذري ضبطاً صارماً على فمي. إن فلتان كلمة يمكن أن يودي بحياتي أبداً، إن غريزة البقاء على قيد العراق تقاوم الغرائز الأخرى بما فيها غريزة الجنس. إن المواطن الصالح هو القادر على الصمت. تلوذ هي مني بالصمت أيضاً، نراهن على لغة العيون، لعلها أقدر على التفاهم، تفهمني، هكذا يتضح من عينيها؛ لكني

لا أتفهمها ولا أفهمني معها، يتملكني إحساس بالخوف والحذر منها، لا أعرفها جيداً، لكني أعرف لساني المتهور. الحياة لا تساوي كلمة، كلمة عابثة تنهي حياة جادة. تعتذر عن الطبق المحروق، فيما أنا أعدُّ حرق الطبق الحسنة الوحيدة في زيارة هؤلاء. تفشل كل محاولتها للتقارب الجسدي والروحي بيننا، أخلع بيجامتها، أرتدي ملابسي، تدفن رأسها بين يديها، ثم أتركها إليها وأهرب بي.

يذهب حزن عميق بأبي، يدخن سيجارة، يعبُّ كأس العرق، يسرح بنظرهِ حيث يجري نهر دجلة، كأنه يتنصَّل بهدوئه مما يجري على ضفافه من قمع، اضطهاد وإكراه، يعرض دجلة جماله، عطاءه لكن هناك من لا يريد أن يتعلم الجمال من جمال دجلة والجمال عموماً، يغضب دجلة فيفيض، يتصدّون له بالسدود الترابية، بدلاً من أن يتراصوا حبّاً وجمالاً، فيعود دجلة يائساً يوثر الصمت والهدوء، يوفر على مائه سلامة الجريان وليس حريته. أحاول استعادة أبي من الحزن. ينتبه أبي إلى صمته، الصمت داءٌ يعاني منه كل عراقي يتعرض إلى القمع أو الشعور به. الصمت وقاية من وباء الاضطهاد المتفشي في العراق.

- بصحتك يا أبي.
- بصحتك، هل مضى وقت طويل على صمتي.؟
- لا.

يتضح أن أبي يتمرَّن لا شعوراً على الصمت، وعلى تجميد ملكة الكلام عند الإحساس بالخطر الداهم، إن ظهور أي شبح على مرأى منا، يتطلب إجراءً فوريًا يشمل تغيير الموضوع أو الاعتصام بالصمت، حتى الأشباح يمكن تجنيدها كجواسيس تعمل لمصلحة الدولة. يطلب أبي من النادل تغيير الكأسين، هذا أفضل ويحفظ مذاق العرق -كما يعتقد- كما يطلب منه تجديد أطباق المازوات. يعرض عليَّ سيجارة، آخذها شاكراً، لا تبدو على أبي رغبة في الاستماع إليَّ؛ فهو يعرفني عبر أمي ومن خلال ما يشاع عني، الكتب التي أميل إلى قراءتها لا تثير فضوله ودهشته، أكيد أنه يكوِّن صورة

عني ليس من مسموعاته عني فقط؛ وإنما من الكتب التي تحتويها مكتبتي، وهو القائل مما تقرأ يمكن أن أعرفك وأفهمك، ويمكن أنه يعرفني بالفعل فأنا أكثر ميلاً للروايات، الشعر، الكتب الفلسفية، والكتب التي تتحدث عن البحر، ليس كعلم؛ وإنما تجربة. لا أميل إلى الحديث عمَّا أقرأ كما يفعل أقراني وخصوصاً أولئك الذين يحفظون عن ظهر قلب مقولات الفلاسفة والمفكرين. أرد عليهم: ليس المهم أن تحفظ، المهم أن تفهم وتتمثل، لكن الحفظ أيسر من الفهم وأصعب ما في الفهم تمثله. إن الحفظ أقصر طريق إلى الجواب والحمل على الإقناع؛ أما الفهم فيفضي إلى طريق لا نهاية لها من الأسئلة والقلق، أما الإيمانيون يختصرون موقفهم من الآخر بتكفيره وتحليل هدر دمه، لا وقت لديهم للنقاش والحوار. رغم نهمي إلى القراءة الذي لا يبدو عليَّ، أفضِّل الحياة - التجربة على الكتاب، ويمكن القول أن أبي يقبل عليَّ الآن على طريقته، وليس على طريقة طرْحٍ للنقاش، يدخل عليَّ من الباب الذي يعتقد أنه يتسع له، ومما لا شك فيه أن غياب أمي غيَّب المسافة الفاصلة بيننا، ولعله يدرك أن حاضر صداقتنا لا يعد بمستقبل ولا يهم أن يكون هناك مستقبل

ما دام الحاضر قائماً على ما ينبغي. إنه يعدُّني إلى السفر ويزودني بمتاع من التجربة، فيما يتمرَّن هو على الزوال، والوقت المتاح يجب توفيره من قبله لأتزود بخميرة مصدرها تجربته، هكذا أحسب الآن، لكن لا يمكن إغفال مسألة أن أبي لا يطمح أن أحبه أو لا أحبه ليس هذا هو المهم بالنسبة إليه، المهم أن أحبه بصدق أو أكرهه بحق، والمهم أيضاً أن أفهمه على حقيقته، وليس على صورة الأب الموروثة، بعد ذلك أقرر بحرية موقفي منه. هو ليس أمامه منْ يعترف إليه، أما أنا فأمامي الحياة واسعة فيما هو لم يبقَ له إلاّ وداعها. رغبة الموت تقوى فيه. أنا أفهمه وأحبه، ثقته بي هي مسؤولية يسعدني أن أكون جديراً بها. إن الحياة قادرة على كتمان السرِّ؛ فيما دنو الموت يضغط دائماً على البوح.

الساعة تربو على السادسة مساءً. الشمس تحتضر فتهذي بأشعة واهية. الليل يقدم إلى حلوله بالصفير. سحب يرث بياضها احمراراً عن شمس راحلة. الهواء يحمل نقيق ضفادع من القناة المائية المحاذية للشارع الأسمنتي. حشائش وشجيرات تنموان على ضفتي القناة. العصافير تأوي أعشاشها صامتة. سقسقة قد تودي بعصفور. الغناء وصية العصافير. لا يسجل ظهوراً مريباً يتطلب الحيطة أو الدفاع. الشارع قطعٌ من بغداد بحذر. بين الحين والآخر قد تتوقف سيارة يمارس من فيها قبلة أو مضاجعة. الشارع متروك، ومتقطعة وغير معبدة الطريق المتصلة به، والمتفرعة عنه، إهمال الشارع يوفر هامشاً لسرقة فعل من حرية مصادرة. سيارة واقفة قبالة شمس، ترثي مصابيح الشارع رحيله. حسون المضلع يضع يده على كتف أبي. حزنٌ عراقيٌ معهودٌ يلمُّ بهما، يحاولان العثور على أمل ضائع وإسعاف قيمة جريح.

- ألست خائفاً؟

- بالطبع أنا خائف. الذي لا يخاف ليس رجلاً.

- ليس عراقياً.

- أخاف من اثنين؛ زوجتي والحكومة.

- خدمتكَ لي فيها خطورة على حياتكَ.

- أعرف، لا يمكنني التخلي عن المساعدة. أكرهني إن لم أفعلها.

- قد يقبض عليك وتعدم بتهمة الخيانة.

- أخون وطناً ولا أخون صديقاً، الوطن للجميع فيما الصديق لي وحدي.

مفهوما الخيانة والوطنية قراران سياسيان. لم يعد لدينا وطن لنتفانى من أجله أو نخونه، مَنْ يحتل القصر الجمهوري يحتل العراق، يسيِّر تاريخ العراق على هوى مصلحته، ويجبر الشعب على خدمته عسكرياً ومدنياً. تتقاطع أفكارهما حول وطن كان عراقاً وذات تاريخ، يحاول حسون المضلع أن يخدم أبي بتحويل مبلغ كبير من الدنانير العراقية إلى الدولارات الأمريكية. خدمة قد تكلف حسون المضلع حياته، خدمة تصبح جريمة عند اكتشافها، توصف بجريمة اقتصادية عقوبتها الإعدام. يشعر أبي بالاعتزاز بصديق يخاطر

بحياته لخدمة صديقه، خدمة تنعش قيمة حاول الاستبداد تغييبها عن الوعي والشعور بها. قيم الحب والتعاون سُحِقت بالكراهية، الفُرقة والوشاية، الحذر والخوف يسكنان بيوت الجميع ويحتلان نفوسهم. الآخر عدو حتى يثبت عكس ذلك. يلاحظ أبي ظهور سيارة تتجه نحوهما لا يتبينها، يطلب من حسون المضلع اتخاذ الحيطة والحذر. يضع حسون المضلع يده أعلى عينه، كمن يتجنب ضوءًا، يجمع قوى بصره ويطلقها نحو السيارة، يسحب نفساً، ويضحك بقهقهاتٍ متقطعةٍ وخفيضة.

- هل من خوف.؟

- لا خوف من خائف.

- كيف.؟

- فيها امرأة ورجل خائفان من غيرهما على فعلٍ أتى بهما إلى هنا.

- ماذا يفعلان.؟

- يمارسان الجنس.

- في هذا الوقت في هذا المكان..؟

- الجنس لا يعترف بوقت ولا يُحجر بمكان، العالم سَريرٌ كبيرٌ، دعْ البشرية تمارس عليه الجنس، بمناسبة الجنس الراقصة نادية أحمد تسأل عنكَ ماذا حدث بينكما، حتى تلحَّ على معرفة عنوانكَ.؟

يدق بمرفقه خاصرة أبي دقات ودية خفيفة: (يا فحل يا نطاط النسوان)؛ لكنه يرمقه بنظرة حسدٍ على رجولته التي انشغل بها جسد الراقصة نادية أحمد الفاتن. يختصر حسون المضلع الرجولة إلى عضو منتصب والأنوثة إلى فرج حليق: (داخل ومدخول). بروز نادية أحمد كامرأة قد يعكر صفو مودتهما. ظهور امرأة بين صديقين يضرّ بالصداقة. يخشى أبي خسران حسون المضلع وخدمته في هذا الوقت الحساس. جمال نادية أحمد ومهنتها، الراقصة مهنة مشبَّهة بالدعارة. امرأة لكل الرجال وليس لرجل معلوم الأوصاف ومعروف العنوان. جسدٌ عام لا يخوخص من رجل واحد. تعرض الرجل الذي تعجب به أو تحبه إلى كراهية الرجال وانتقامهم منه. التضحية بالحياة والمال أرخص من

التضحية بامرأة. ربما يكون حسون المضلع استثناءً من أولئك الرجال وهذا مظنون فيه. يرفض أبي أن يكون طرفًا في إلحاق الضرر بالراقصة نادية أحمد وسمعتها. لا يحبذ أبي أن يكون حسون المضلع بغض النظر عن نيته طرفًا في قصته معها، ينفي أبي بهدوء وبلا توتر وجود أية علاقة، وخصوصًا تلك العلاقة التي قد تصل إلى فعل كالذي تتمحور حوله ذكورته ويذكّره بأنه كان حاضرًا ليلتها وشاهدًا على هزيمته الجنسية معها، يطمئن حسون المضلع، يسلمه أبي الدنانير العراقية، يقترح عليه تمضية البقية من المساء في ملهى ليالي الصفا، يجلسان تحت سيقان ونهديّ نادية أحمد المتراقصة. يعتذر أبي بلباقة ويتحجج بتعب جسده، يتمنى عليه توصليه إلى البيت، يشكره على خدمته ويتفقان على موعد لاحق لتسلم الدولارات الأمريكية. يحمل أبي جرحه ويمضي، يبكي على إسقاط حقه الشرعي في الدفاع عنها وعن حبها، يجده ضئيلاً في بيت يتعاظم برغبته الحادة في أن تكون نادية أحمد سيدته.

- هل رأيتَ الراقصة نادية أحمد؟

اعتذرتُ غير مرة لحسون المضلع على الخروج معه في أيام الخميس، وهو الذي لا يواجه مشكلة في العثور على جليس أو نديم. أبقى في مكتب المصنع، بعد مغادرة العمال والعاملات والمحاسب أبو مناف الذي يفتش دائمًا عن المرأة فيّ، أشغلني بما يشغلني عن الإحساس بالفراغ، أو الرغبة في الظهور، فأنهمك بالعمل لأتفادى الحاجة إلى الظهور، أسمع طرقات على الباب، أفتح الباب، أجد الطارق (ميسا) خادمة الراقصة نادية أحمد، شاحبة ومنذعرة، تخبرني أنها تحمل رسالة صوتية من الراقصة نادية أحمد، أسألها عنها، تنفجر بالبكاء والنواح وتلطم على خدها، أهدئها وأنا مضطرب وخائف، وبين نشيجها وصوتها المتقطع تخبرني.

تغادر الراقصة نادية أحمد البيت في وقت مبكر من الصباح، ثم تعود في ساعة متأخرة من المساء، أفتح الباب تسقط على الأرض وهي محمومة وتطلب مني حملها إلى التواليت، تعاني من إسهال شديد.

- ما الذي تناولته.؟

- لم أتناول طوال اليوم سوى كأس العصير في مكتب العقيد.

أفرش لها بالقرب من التواليت، تطلب مني أن أحضر آلة التسجيل وتشرع بتسجيل رسالة إليكِ. تمد يدها في حقيبتها تخرج شريط كاسيت، أمضت الليلة معكِ، بعد أن طلبت مني الذهاب إلى الفراش لكني بقيت صاحية قلقة عليها، أصحو صباح اليوم مرعوبة على تساقط شعرها وأسنانها، أحضر طبيباً يكشف عليها، يرتبك، يطلب مني أن أرافقه إلى الباب، يحذرني: (لا تفكري بدعوة طبيب آخر البتة، حذار) يدس في يدي ورقة نقدية ويرجوني ألاّ أكشف عن اسمه، ثم يفر مذعوراً.

تناديني، تطلب إليَّ أن أحمل لكِ هذه الرسالة، تنتظر جواباً منكِ مسجلاً أيضاً. تلطم على وجهها، فحالتها تزداد تدهوراً، تنهمر دموعي. أطلب إلى الخادمة ميسا أن تتركني وحدي، وتعود بعد ساعة، لتحمل رسالتي إليها، تنحني وتنصرف باكية ومرعوبة. أضع الشريط في آلة التسجيل، لا تشتغل، أكتشف أن التيار الكهربائي مقطوع، أدخن، أخرج قنينة الويسكي من درج المكتب، أشرب من فوهة القنينة مباشرة. أنتظر عودة التيار الكهربائي، ألتم على فكرة، قد أعثر على بطاريات، أكسر درج المحاسب أبو مناف الذي يحتاط لكل شيء، أعثر على قصاصات من صحف لزاوية الأبراج، لا شعورياً أبدأ بقراءة برج الأسد: (سوف يبتسم لك الحظ، تذكر أن الحظ لا يبتسم مرتين، يوم السعد الأربعاء) اللعنة اليوم هو الأربعاء، أصرخ ثم أواصل البحث، أجد أقراص آلام الرأس مكتوبٌ على العلبة بخط اليد: (ومنع التحامل، بين قوسين الحمل، التوقيع أبو مناف) ألمح مصباحاً يدوياً، أفتحه، أفرغه من البطاريات، أحملها إلى آلة التسجيل، أفتح المكان المخصص لوضع البطاريات، أجد فيه بطاريات، أرمي البطاريات، أفصل الموصل الكهربائي، أشغل آلة التسجيل؛ فيهدر صوت الراقصة نادية أحمد محموماً ومتقطعاً:

- عظيمي...

السيد نشأت البحر، أخيراً عرفتُ اسمكَ ومَنْ تكون، بعد محاولات مريرة مع حسون المضلع، اسمكَ جميل على مُسمى أجمل، دُمْ جميلاً لمن يسره مرآك جميلاً، أحبكَ، الحب وجود لمن هو محكوم عليه بالزوال المبكر. لأول مرة في حياتي أعرف الحب، ويسعدني أن أعرفه معكَ.

عظيمي نشأت...

يزورني العقيد خالد الدوري، لتسلم الاستمارة والتقرير، يطلب إليَّ أن نقوم بإجراءات التسليم في غرفة النوم، يزعم أنه قد سئم من الصالات، المطابخ والمكاتب، يبدي إعجاباً بالتقرير، رغم أن التقرير ليس فيه ما يدعو إلى الإعجاب، يشرب الويسكي من فوهة القنينة، يفكّ أزرار قميصه وسرواله، يطلب إليَّ أن أكون على راحتي في بيتي، تصوَّر، وراحتي تعني التخلص من قطع الأثواب، يراها زائدة ولا لزوم لها ما دام المكان مغلقاً والجو معتدلاً. أحتج عليه بلهجة ناهية، يسوِّق طلبه على أنه من صلب مهمتي.. الحقير تصوَّر، يسألني عما يدور في الشارع الآن: في الملهى تقصد. أصحح له، الشارع هو الآخر ملهى في هذه الأيام. يردِّد مخموراً مقطعاً من أغنية حربية: (يلعب، يلعب، صقر السمتية الما يتعب، يلعب، يلعب) ويلعب بسحاب بنطلونه، لكي أصرفه عن التفكير بما يكمن تحت بنطلونه، أنقل له قلقاً يساور الشارع، من كثرة الوفيات بين معوَّقي وجرحى الحرب الذين يتلقون العلاج. كثير من الناس يتهمون وزير الصحة، ويتحدثون عن ضلوعه في مؤامرة القضاء عليهم بالعقاقير الطبية السامة، ووزير الصحة هو من بين المسؤولين الحكوميين والحزبين المسموح باتهامه، ويعتقد الناس أن اتهامه لا يعرضهم إلى عقوبة قاسية خلافاً لاتهام مسؤولين غيره، أقول. يردُّ حانقاً أنه ليس سوى طبيب فاشل تفضلنا عليه بمنصب وزير صحة.

يمضي إلى القول: إن مشهد معاقي وجرحى الحرب وظهورهم في الأماكن العامة يقلقنا، يضعف الروح المعنوية للشعب، ويؤثر سلباً على البرامج التعبوية، مما حدا بالقيادة إلى اتخاذ قرار بالقضاء عليهم بدس السم في الأدوية التي يتعاطونها في دورات علاجهم، وبما أن موتهم التدريجي شكل ظاهرة، من الممكن أن تثير البلبلة والشغب في

صفوف الشعب، لا بد من البحث عن كبش فداء، والكبش موجود هو وزير الصحة، وبناء على توجيهات رئاسية، قمنا بترويج شائعات وبث نكات تنال من شخصية الوزير وتنتقد أداءه الوظيفي. كل النكات السياسية من صنع الأجهزة المخابراتية، الغرض منها معالجة تداعيات الحرب والسياسة على المزاج العام. على صعيد آخر لقد اخترنا شخصية مطرب معروف واخترعنا له ميلاً إلى الذكور وغراماً بالمؤخرة وجعلناه موضوعاً للنكات والتندر، نوجه النكات ونتحكم بها كيلا تطال رمزنا الرئيس، صناعة الرأي العام مهمة سياسية ومخابراتية، النكتة والشائعة أداتان سياسيتان. طبعاً نحن لا نلعب: (يلعب، يلعب، صقر السمتية الما يتعب، يلعب، يلعب) ويلعب بما بعد سحاب بنطلونه.

- النكات الرائجة عن المطرب من صنعكم؟

- نعم، نراقب ونصنّع كل النكات السياسية.

خذي هذه النكتة: (المطرب المذكور عندما كان مجنداً هرب من جبهة الحرب، فنشرنا على الطريق على مسافات متباعدة؛ جنوداً شباباً جاثين على رُكبهم، ينصبون مؤخراتهم المكشوفة المهتزة الإليات كمائن للإيقاع به والقبض عليه).

ضحكي على هذه النكتة يشجعه على الادعاء بأنها من صنعه. يأخذ رشفة من الويسكي يمدُّ يده ليقبض على نهدي أرجع صدري كيلا يطاله بيده، أُجلسني بعيداً عن مدى يده الطويلة؛ دعينا من المطرب وخلينا مع الوزير، لقد هيأنا الرأي العام عبر دسِّ الاتهامات على شخصه وتحميل صفته الوظيفية مسؤولية التقصير والضلوع في تصفية معوقي الحرب. الغرض من الحملة هذه باختصار هو توفير غطاء شعبي لقرارنا بإعدامه، وبإعدامه نعدم البلبلة ونحتوي التداعيات السلبية لمشهد معوقي الحرب وتأثيره على التعبئة الشاملة من أجل الحرب. لقد أُعدم وزير الصحة فعلاً، لكن الإعلان عن إعدامه يتطلب بعض الوقت، ريثما تتوفر الأجواء الملائمة لهذا الإعلان، هكذا يقول العقيد خالد الدوري. يهز كتفيه مردداً: (يلعب، يلعب، صقر السمتية الما يتعب، يلعب، يلعب) يلعب بسحّاب بنطلونه المفتوح، لا آخذ كلامه بجدية، أعتبره ادعاءً أو غزلاً بوليسياً، الغرض منه انتزاع الإعجاب عبر الصفة وليس بالشخص ذاته. يكرر محاولاته

لمضاجعتي، أتحجج بمختلف الأسباب بعدم استطاعتي؛ لكنه يغضب فيضرب كأساً بالأرض، تأتيني فكرة أنهي بها محاولاته المزعجة، ادعيتُ أني في حالة حيض، يتراجع على مضض، ألا أعجبكَ.؟

يستدعيني العقيد إلى مكتبه يوم أمس مخفورة بواسطة ثلة من مساعديه المسلحين، وصلتُ إلى مكتبه بعد سلسلة من إجراءات مخيفة ومعقدة، يستقبلني بهدوء، يطلب مني الجلوس، يقدم لي سيجارة، يضغط على زرٍ، يدخل أحد مساعديه، يأمره بإحضار كأسٍ من عصير البرتقال الطبيعي والمركز، لأروق به أعصابي- كما قال- يفتح محضراً مكتوباً مسجلاً ومصوراً، يوجّه لي اتهاماً بإثارة الشائعات الغرض منها إشاعة روح التخاذل في صفوف شعب قرَّر بمحض إرادته خوض حرب دفاعاً عن وطنه، ينسب إليَّ كل ما صدر عنه في المساء إياه، وبعد أن ينتهي من توجيه لائحة الاتهام، يأمر بإقفال المحضر عند هذا الحد، يوقف التصوير، التسجيل والكتابة. ينهض يعدل هندامه، يرد على سؤال لم أطرحه، سوف يستكمل التحقيق بالاستماع إلى أقوالي المتعلقة بالتهم المنسوبة إليَّ، عندما يعود بعد قليل من أداء مهمة طارئة، يرجوني تناول العصير، متمنياً لي الصحة والهناء، ينصرف إلى مهمته كما ادَّعى، أبقى في مكتبه حتى ساعة متأخرة من المساء، أغفو من شدَّة الإعياء والضيق على الكرسي الجالسة عليه، ثم أستيقظ على دوار، حمّى وآلام مبرحة في المعدة، يدخل عليَّ أحد مساعديه يعتذر بالنيابة عن العقيد خالد الدوري لعدم تمكنه من الحضور لانشغاله بمهمة خاصة، يوصلني إلى شقتي بناء على أمر منه.

عظيمي..

أحبك، أنا بحبكَ لا أفنى، من دونه لا قيمة لحياتي ولا معنى لها، حبكَ فقط ما أفخر به في حياة تجرِّدني من دواعي الفخر بها وبنفسي على حد سواء. حبكَ وجودي كله، لا وجود لي قبلكَ، وجودي حبكَ. أريد سماع صوتكَ، لا تحرمني منه، أنا على ثقة من أنني سوف أغيضك ذات يوم بطبق دجاج مباغت دون أن أترك لكَ فرصة الاعتراض

عليه، صدقني كم سيكون شهيًا وطيبًا، وكالعادة سيأتي شكركَ متأخرًا، لكني سأنظر فيه، أعدكَ بي.

حبيتكَ صفية.

أستمع إلى رسالتها، أشعر يضيق بصدري، أخجل من ضعفي. أرتجف خوفًا وأستشيط غضبًا، أبكي علينا، أسكب سائل الويسكي في جوفي. الجدران تحولت إلى مرايا تفضح عيوبي. أحجبني بسحب من دخان سجائري، أسعى إلى جمع شتاتي فيَّ، لعلني أتمكن مني، أحاول تأجيل الشعور بالفجيعة، أحشدني للقيام بفعل واحد الآن خلاصته تسجيل رسالة جوابية تخفف من ألمها، أدير الآلة على التسجيل وأمضي بالقول:

صفيتي الغالية...

حلوة بغداد. أفكر فيكِ كلما يحل المساء وتبدأ الوحشة والصمت، أذكر قلبك الذي سكنتُ إليه بعد ضياع، حضنكِ الذي احتواني، معكِ أكون رجلاً آخر، أعجب به حتى أنا، هذا الرجل الذي أوجدته أنتِ. يغيب عني بغيابكِ. أنصرف مني إليكِ، لأكون معكَ كما أرغب في أن أكون، حتى الحزن يتردَّد في مداهمتي إجلالاً لفرحي بكِ واعترافًا منه بحقي في لحظة سعادة، لا أطيل عليكِ الآن، عيشي لكي أراكِ.

العظيم بكِ نشأت.

تأتي الخادمة ميسا كأنها طينة يشيئها الحزن على ألمه، أشعر برغبة في عناقها، أعانقها، وأحمِّلها سلامي، عناقي وقُبَلي إلى سيدتها نادية أحمد، أعرض عليها مبلغًا من المال، تعتذر عنه بصمت، تنصرف عني.

أترك المصنع، لم أتأكد من إقفال الأبواب بإحكام. تكبر المدينة وتتسع الشوارع ويقلُّ البشر. أتعقبني أنا السائر من دوني، تحملني قدماي ما شيًا، لا وجهة لي، مخفوراً من حزن ومحفوفًا بألم، الشمس تتراجع عن الضوء، العتمة أقنعة العابرين، أنتهي إلى إحدى خمارات منطقة الباب الشرقي، تنعدم في الخمارة الرؤية. ستار كثيف من

الدخان، يتشظّى التواصل البصري، يرهف السمع وتتعالى الأصوات، الأغاني شعبية تأتي من بعيد، بحة صوت مطرب يتغزل بذكر مثله، تعبأ الخمارة الصغيرة بأسمال تصرُّ أجساداً مطلوبة من هزال ومرض ومرفوضة من الرفاهية، شغيلة يد وقدم، سحناتهم شاحبة يتناوب عليها الإرهاق والهم، كتل بشرية مرفوضة يمكن الاستغناء عنها بلا اكتراث، يقصون إقصاءهم عن هذه الزاوية المقصية من العالم المترامي من دونهم، يتبادلون البرهنة على أهميتهم، يواسونهم على الجحود بهم، لم يشدّ انتباههم حزني، فالكل حزانى، كل واحد منهم اختاره القدر ليكون مستودعاً لحزن البشرية جمعاء. يثير فضولهم البصري مظهري الذي لا يزال أنيقًا للأسف، أقف عند البار، أطلب منه كأساً من العرق.

- الدفع مقدماً.

يقولها بلهجة فظّة. أرمي على البار ورقة نقدية من فئة الخمسة وعشرين ديناراً، يطلب عفوي ويتحجج بأنَّ منْ لا يعرف أحدًا يجهل مقامه وأهميته، يعدُّ لي كأساً، يصفه كأساً محترماً. آخذ رشفة، أنتبه، هناك من يربت على كتفي أحس به ولا أراه، يشق سحب الدخان، يهبط من أعلى، يعزل عني الأصوات إلاَّ صوته، الوجوه عالقة في فضاء دخاني، تتحول ملامحهما إلى خطوط باهتة مرسومة كيفما اتُفق على لوح رمادي شفاف، الكراسي والطاولات تشبه كثبان رملية تتفتت على جانبيَّ درب يفضي إليّ. عوم على فضاء. تصغر الأشياء على كبر كتلة أحس بها ولا أراها، منْ يربت على كتفي ويشدُّ انتباهي.؟ يفصل رأسه عن سقف الخمارة شعره الأشيب، رأس يحذف المسافة بينه وبين قدميه اللتين لا تطولهما الأرض بسطحها.

- فتش عن الحب تجد المرأة، فتش عن المرأة لا تعثر على الحب

رأس يتكتم على ملامح وجهه، يواجه رأسي، يسحب شيئًا من حزني الكامن في ملامحي، يحيطني، يتكشف على بصري رجل يصوِّب قوامه بحركة من مرفقيه، يعدِّل نظارته الطبية، يترك عبارته النصيحة، ثم يتلاشى في سحب الدخان. إنه أبو مناف، أينه، لماذا يتعقبني بصوته.؟ أنا لا أفتش عن المرأة، أنا أفتش عن صفيه لأعثر بها عليّ،

أدير ظهري إليه، أتجه نحو رسالة الراقصة نادية أحمد ورسالتي الجوابية، أعيدهما عليّ، أضرب كفي بالكف الأخرى، أتذكر أني لم أقل لها أحبكِ. لمَ لم أُسمعها حبي لها بكلمة تسمعها مني.؟ لماذا لم أضمد قلبها الجريح بكلمة 'أحبكِ' .؟ أنا أحبها فعلاً. أتألم ساخطًا عليّ، أشرب الكأس وأطلب أخرى أشربها، ثم أترك الخمارة، جريًا.

على نقرات مني تنفتح الباب على الخادمة ميسا التي صيَّرتها الفجيعة تمثالاً تنطبع عليه ملامح الحزن وعلامته. بلا حيوية تتحرك تشبه إنسانًا آليًا مبرمجًا على الاستجابة الشرطية جامدة التفكير وخالية من ردّ الفعل، دموعها ناشفة وحزنها وفير، تُصدر جوابًا مبنيًا على سؤال مفترض: (سيدتي سمعَتْ رسالتكَ الصوتية بفرح عظيم، ثم أغمضتْ عينيها، يا سيدي) أرجوها أن ترشدني إليها، أريد أن أسمعها كلمة فاتني تسجيلها (منْ تسأل عنها لا وجود لها، يا سيدي)

- هل ذهبت.؟
- لا ذهبوا بها.
- إلى أين.؟
- إلى جهتهم.
- هل كانت على موعد معهم.؟
- لا، هم كانوا على موعد مع موتها.

تغرورق عينا أبي بالدموع وكذلك أنا. في الحزن العظيم يتداعى الكلام. كأس واحدة أو أكثر من العرق لا تتسع لطوفان الحزن الجارف. ما يأخذه الحزن لا يسترده الفرح. الحزن أصلب من أن يكسر بحلم بغدٍ أفضل. الغد خدعة لتمييع الخوف والتفاؤل رشوة ساذجة للسكوت على التشاؤم المستشري في وجودنا. التشاؤم كناية الوجود. الغد أفضل من يوم لم نعشه؛ لكنه لا يكون أفضل من يوم عشناه، أي يوم لم نعشه أفضل من غد يمكن عيشه. الهارب من يومه يلجأ إلى الغد. وما الغد إلاّ يوم أخر وأمس ماضٍ. أمس أبي أفضل من يومه ومن غده. الغد لمن لا يوم له ولا أمس.

لو كان الألم أبيض
لزيّنا به واجهات المنازل
و صالات الا ستقبال
لأنه أ سو د
فقد أ خفيناه
في أ سفل درج من القلب

يتملل أبي يبحث عن درج شاغر في أ سفل أو أعلى رفوف قلبه، لا ليخفي به ألمه؛ وإنما ليحتفظ به، لعله الآن يتسا ءل: منْ أعطى الآخر الحق والقدرة في تأليم سواه و سحقه.؟ الآخر الذي يحكم بالموت على سواه، هو ذاته غير مؤهل للحياة. فكيف يحكم بالموت.؟ هو ونا دية أحمد يواجهان عواقب وجو دهما المبكر. قدر حملهما على أن يكونا نطفتين في رحم بلاد لا ترحم تدعى العراق. زهرتان في حديقة حب تليفت عليهما حشائش بشرية ضارة. يقارب أبي بين الحاضر والماضي، يحاول التدخل في ر سم النهايات. النهاية خيار منْ قُدرت بدايته. الماضي الذي قضت نهايته على منْ أحب يقاوم ألا ينتهي الحاضر بنهاية كتلك. يصحو يجده في حاضر، يغا دره الماضي دون إذن أو محا سبة. الماضي رفات ذكريات محفوظة في نعش يسمى الذاكرة؛ أما الحاضر قوامه أنا وهو، يصمم على أن يتولى بنفسه التحكم بسير الحاضر إلى نهاية من صنعه هو وليس مقهوراً عليها. سيحفظ منْ يحبه الآن من الزوال المبكر، ومنْ يحبه هو أنا، نجاتي مهمته الحياتية الأخيرة. يجفف دموعه وعرقه، من أين له بمنديل يمسح به ملامحه.

الساعة تشير إلى الحا دية عشرة مسا ء. يتقدم منا النا دل المصري، يحيطنا بلطفه وعنايته، ربما يكون الآن في حالة تخاطر مع أبي المحزون، أو أن من يحلّ في العراق يدرك أحزان عراقييه. يسألنا عن رغبتنا في الطعام الذي نفضل تناوله، يطلب أبي من النا دل وجبة السمك المسكوف المشوي على الحطب، على الرغم من أن الحزن قد ذهب بالشهية، أ ستلُّ منديلاً ورقيًا أبيض، أكتب عليه بالقلم الجاف طلبًا ينتبه له النا دل المصري، فيشاغل أبي بالا ستماع إلى ملاحظته المذاقية حول وجبة السمك، أ دسُّ

المنديل دون أن يشعر أبي في جيب النادل المصري، أعدُّ كأسين من العرق، أرفع الكأس بالقرب من فمي، وأ صوِّب نظري إلى عيني أبي.

- للكعب يا شباب.

- للكعب يا شباب.

يشرب أبي كأس العرق فيختلط ضحكنا بنشيجنا، أشرع بالنقر على الطاولة نقرات خفيفة، أردِّد أغنية عراقية فلكلورية: (كصة المودة، شعري، أرد اكصه عليك، صبر اللي صبرت عليك، تعدّى حدوده). يشاركني أبي، يتحول زبائن البار القليلون إلى كورس إنشاد ونقر على الطاولات، يأتي النادل المصري بطبق؛ قطع دجاج، شرائح البطاطا، والطماطم، وحلقات من البصل، ثوم معصور وتوابل مشكّلة. تطيب التوابل رائحة الشواء. يضعه على الطاولة، ثم يتوجه بالكلام إلى أبي:

- طبق صفية.

يتلقى أبي طبق صفيه بعين مفتوحة وفم فاغر، يختلجه شعور مزيج من الدهشة والامتنان، ينعتق أبي منه ومن آخر يكونه ممالأةً، مجاملةً أو نفاقًا، يكشف عنه، حبيب مكلوم القلب، فجع بمنْ أحب، سرقوا زمنه و صفية وفروا به، لم يتركوا وراءهم دقيقة واحدة يُسمع فيها أبي صفة كلمة أحبكِ، كلمة أخافه قولها. الآن ينعتق من فكر و شعور يحول دون توحده بصفية، يتوحد بها، روحها وروحه ينوء بهما جسد واحد هو جسده الموشك على الزوال، يأكل أبي الطبق بعينيه، يلامس بصريًا أصابع صفية التي تتحسس الدجاجة. الآن تقوم فيه، تقشع سحب أعماقه الملبدة هامسة: (أنا على ثقة من أنني سوف أغيضك ذات يوم بطبق دجاج مباغت دون أن أترك لكَ فرصة الاعتراض عليه، صدقني كم سيكون شهيًا وطيبًا، وكالعادة سيأتي شكركَ متأخرًا، لكنني سأنظر فيه) شكر أبي المتوقع تأخره، أنظر أنا فيه بالنيابة عن صفيه، يعود الصمت إليه وتعود الشهية إلى التحرش بأبي، يأكل، لكن لا يأكل معي؛ وإنما يواكل صفية هناك، المرأة التي لا تغيب عن عالم ما دام هو ليس غائبًا عنه، تكون صفيه أنَّى يكون، لن تغيب عنه أبداً.

أطلب من النادل حساب الطلبات. يرفض أن يقبض ثمن وجبة الطعام، ويضيف بخط يده على قائمة وجبات الطعام (طبق صفية)، أصرُّ عليه، يرد عليَّ: (أنا صعيدي ومعروف عنا الكرم، دع الليلة تمضي ببهجة. أنا سعيد بكما، وسعيد بـ (طبق صفية) الذي أعددته بيدي، بعد أن اعتذر الطباخ عن إعداده. لا أريد ثمنًا نظير جعلكما سعيدين، اترك لي شيئًا أعتز به في هذا المساء؛ أما المنديل الورقي الأبيض الذي يحمل رغبتك في تحضير طبق صفيه يسعدني الاحتفاظ به) نأخذ تاكسي، نبقى صامتين طوال الطريق، ما احتجنا إلى كلمات، أحاسيسنا كانت تتفاهم وتعبر عن معانيها ورغباتها بلا مفردات، نفتح الباب ونغلقها علينا، نقف وسط الصالة قليلاً، ثم نفترق كل منا إلى سرير.

- تصبح على خير.
- شكراً، تصبح على خير.

أمضي الليل ساهرًا على كتابة رسالة إلى أبي، يحزن عليَّ من زمن يتغيَّر إلى الأسوأ، يخاف من خيانة وغدر. ينسى أبي أن الرعب كشف بشري، الخائف يخيف سواه. هكذا هم البشر. السيئ يورث الأسوأ. حاضر الأبناء مهما يكون لماضي الأجداد دور فيه، آباء ينسخون أبناءً على إشكاليتهم، والأبناء ذاتهم لا يحولون عيوب أجدادهم من حروب، أحكام مسبقة، وكراهية إلى ميزات من قبيل: السلم، التفاهم والمحبة. لا فعل غير الانفعال بفعل فاعل ربما سنكونه يوماً ما. أفكر بوضع الرسالة على طاولة الطعام في المطبخ، يستهل صباحه بقراءتها مع فنجان الشاي، القشطة والخبز الحار.

إلى صديق كبير بصفة أب...

طاب صباحك. شكرًا على سهرة الأمس، أنا ممتن على ثقتكَ بي وإطلاعي على تلك الصفحات المؤثرة والمطوية من حياتكَ. تصفحتُها بيدكَ وقرأتها بعينيكَ وتلقيتها بقلب يحبكَ وعقل يحترمكَ. أسعدني التعرف عليك عاشقًا. الحياة بلا حب غير مأسوف على زوالها. أشاطرك الإعجاب بصفية والحزن على مصيرها المفجع. اسمح لي أن أضعك في صورة ما أفكر به. الابن على أبيه بالصفة أتمنى أن أكون عاشقًا مثلك ذات يوم.

يبدو أن العالم مرهق من تعدد بلدانه وعدد حدودها وتضاعف سكانه، هذا الإرهاق يميل إلى العنف والتآمر بوصفهما عنصران من عناصر التغيير. العالم يعيد النظر بخارطته، وفق منظوره التاريخي. التغيير آتٍ لا يُوقَف أو يُستأنف بناءً على ابتهال أو استجابة لنداء أو خرافة أو تعويذة تبطل مفعوله. التغيير في عصرنا في حالة شروع دائم، يمكن ملاحظة تدرجه، لكن ضجيج الحرب وتعالي نداءات إيقافها أو شنها وابتكار همومٍ للناس وإشغالهم بها، يشوش على ملاحظة التغيير. رعاة التغيير يمضون به بلا عرقلة أو استفادة غير محسوبة سلفًا، مساعٍ مقصودة ومرسومة إلى تهميش دور الغالبية فيه. يفاجئنا التغيير بطفرته كما لو أنه لم يحدث تدريجياً، العالم ليس هو ولن يبقى كذلك، لا يستقر على خارطة، كما يشهد التاريخ على ذلك، ستتحول بلدان إلى بلدات وعواصم، ومدن إلى ضواحٍ وقرى؛ أما اللغات فستنتهي إلى لهجات، وإن قاومت انقراضها، وستسود لغة واحدة تعبر عن ثقافة موحدة؛ أما الثقافات الأخرى فستواجه خطر الانقراض أو التحول إلى عادات محلية لا تعدو عن كونها طقوساً احتفالية وفولكلورية. بالمقدور تصور الخارطة على نحو كهذا، سيختصر العالم دوله إلى ثلاث ولايات، هي: أوربا، أمريكا وأستراليا؛ أما أسيا فستتحول إلى منتجع روحاني وأفريقيا إلى مزرعة، يقصدهما طلاب التصومع والراحة. لكن على اختلاف الأحوال، ستبقى آسيا وأفريقيا محميتان غربيتان، لا يظهر فيهما شبح التغيير، وستدوم المحافظة عليهما، كشاهدتين على أصالة لا يزعزعها نزوع تاريخي محموم إلى الحداثة. ملامح الخارطة الكونية الجديدة، يمكن التنبه إليها عبر انتقال مناطق النفوذ السياسي الجديدة حيث كثافة القوة ورجاحة الثقل الاقتصادي. تشهد المناطق هذه تحولاً بالانتباه، والتوجه إليها وتزايد الاهتمام بها، مما يجعل مدينتي بروكسل ونيويورك أكثر اهتماماً ومتابعة من عواصم تاريخية، ستبدو تقليدية- فيما بعد- مثل باريس ولندن. كل شيء يتغيَّر، العالم ليس هو. لكن العالم بيتنا مهما جُدِّد ديكوره وغُيِّرتْ أثاثه. الأمكنة لا تنزح عن ناس رغم نزوحهم عنها، سوء العالم من إساءة البشر إليهم.

صديقك بصفة ابن.

أنام وقتًا قليلاً وأصحو باكرًا أهيئني للخروج. أريد عيش لحظات الصباح وما يليه من وقت. سأحملها أنّى سأكون. أجوب الشوارع، أنظر إلى الأبنية، أتأمل الوجوه، الأصوات والروائح، أختزنها للغياب. كلها أمتعتي في سفري إلى المجهول. أودِّع الأمكنة التي أدين لها بذكريات. يتعذر عليَّ توديع البشر. معارفي أكثر من أصدقائي ينصحني أبي بلقاءات خاطفة ويحذرني من توديعهم. لا شيء مضمون. أخترق القادمين والقادمات، ألتقط أحلامًا ساقطة وأسعف آمالاً مغمًى عليها، أجلس قليلاً في المقهى ثم أذهب لاستلام تذكرة السفر، أعرج على السوق، أكمل شراء ما ينقصني من حاجات السفر، أتكتم على السفر خوفًا من العواقب وعملاً بنصيحة أبي. لم يبقَ الكثير من الوقت، غداً سأطير إلى باريس، في الفجوات الذهنية أحاول رسم صورة عن باريس المدينة وناسها، أصرح بالمبلغ المسموح به في السفر؛ أما المبلغ الباقي الذي يزيد على مائة ألف دولار فأدسه في كعب حذائي العالي، المبلغ تم تصريفه في السوق السوداء بمساعدة حسون المضلع الذي رفض تقاضي عمولة عليه، مقابل خدمته أهداه أبي طقمًا ذهبيًا من ملاعق، شوك وسكاكين، قبلها على مضض.

البيت سوف يستلمه مشتريه بعد غد، أبي طلب من خالي عدم مجيء بديعة، لا يريد تحميلها متاعب إضافة إلى متاعب حملها، بديعة قللت من مجيئها إلينا، في المرات القليلة تجنبنا أي احتكاك، لوم أو عتب قد ينتهيان إلى فعل، كانت في الغالب تعدُّ الأكل في مطبخها وترسله إلينا وتستأجر منْ تنظف البيت بدلاً عنها. يقف أبي وراء تقليص مرات مجيئها، لا يريد أن يعرِّف أحداً بما ينوي عليه، خوفًا من إفشال خططه، بسوء أو حسن نية. الوقت حرجٌ لا يقبل المغامرة، يعمل على احتواء ما يؤثر على سفري أو يهدد حياتي. إنقاذي مهمته الأخيرة، صفّى ممتلكاته وأدّى كافة واجباته حيال المدين إليهم بذكرى أو موقف، طلب أبي من خادمة الراقصة نادية أحمد ميسا أن تعيش في بستانه وقد ملّكها إياه- كما أخبرني-.

أعود إلى البيت، أضع عني ما أحمل، أريد أن أعرف رأيه برسالتي، أبحث متلهفًا عن ردة فعله عليها؛ رسالة جوابية، باقة ورد وشيء رمزي بصيغة هدية. لا أثر لردة فعله في

الزوايا المرشحة. أدخل المطبخ، أجدها على الطاولة في مظروفها كأنها لم تُمس وإلى جانبها مظروف ممسوس، أفتحه أجد فيه بطاقة أنيقة وبالحروف المذهبة:

(يتشرف السيد نشأت الصرّاف بدعوتكم لحضور مجلس العزاء المقام على روحه الطاهرة في داره الجديدة والكائنة في بستانه الواقع في منطقة الراشدية، حيث سيواري جسده الثرى بنفسه. وبحضوركم يزداد مجلس العزاء جلالاً وهيبة. ملاحظة، الدعوة خاصة، يفضل حضوركم شخصياً، ليتقبل بنفسه تعازيكم بمناسبة وفاته. المرحوم نشأت البحر)

آخذُ سيارة تاكسي، أجلس صامتاً في جلال حزني وعظمته تحصنني ضد فضول السائق وغيرهم من الذين مررتُ عليهم. أحاسبه وأهرع مذعوراً وحزيناً، أتجهُ إلى البستان، يستقبلني الصمت المطبق، أشاهد عدداً قليلاً من الرجال يطوفون حول الضريح، يقرءون الصلوات، في الطريق إليهم تستوقفني فتاة أراها أول مرة، جمالها مُوقّفٌ عن المشاكسة، تنتكس به؛ لكنها ليست غريبة عليَّ، أعرفها من وصف أبي لها وحديثه عنها، إنها الخادمة ميسا، تشبه آلة مبرمجة على الفعل والقول، تلقّى أبي التعازي بنفسه، تناول مع مُعزيه غداءه الأخير المؤلف من خروفين مشويين، سلطات، مخللات وأرغفة خبز، تم إحضارها من أحد المطاعم، ثم قام بعد ذلك بإزاحة الستار عن شاهدته التي تشير إلى يوم ميلاده ويوم مماته الذي يصادف هذا اليوم، مكتوب عليها أيضاً؛ (مرحَى بالموت، يا اسماً مسماه الرهبة، أنتَ الذي لا تتخلى عنا بعدما تخلت عنا الحياة. عفوك عن التطفل على ميتتك بموت إرادي أو انتحار، إننا نسيء إليك، جعلناك وعيداً وراعباً. عفوكَ عن حياة تسيء إليكَ بكَ)، حدث كل شيء بهدوء وصمت، تجاوب المعزون مع إشارات الرغبات الصادرة عنه، لم يسجل المأتم أية خروقات من شأنها تكديره، سار كل شيء حسبما أَعَدَّ له؛ دعا المعزين إلى تناول حلوى الفقيد، استأذنهم، ثم انصرف عنهم إليه. أتقدم من ميسا أعانقها، أعانق كتلة متراصة، جعلها الفرح باهتةً والحزن صلدةً.

- أين أبي الآن.؟

- أنه في ضريحه.

- يستقبل التعازي.؟

- لا.

- ما ذا يفعل؟

- إنه يموت.

ينهض بهاء، يتقدم من ربان البحر يعزيه بموت أبيه الإرادي، يستعير حزنًا جديداً ليحزن به على هذا المصير. لقد بدّد كل أحزانه على حياة غير جديرة بها وبه، حياة قامت على وعد قطعه لها القدر بأن يكون حزيناً منْ يحيا بها، يتراكم صمت على ربان البحر الذي يندفن فيه، يترك وجهه شاهدة ترثي حياة لم يحياها.

- بصحتك.

- بصحتك.

- حياة لم نحياها.

- وموت لا يموت من دوننا.

ينهض ربان البحر، ينفض عنه حزنه، بآهة عميقة يرقبه بهاء يتناول الزبائن طعامهم وشرابهم بشهية، يترقبون برنامج المطعم الموسيقي الذي تحييه فرقة الغناء الشعبي (فرقة الشيخات).

لا تزال رائحة البحر عالقة بهما، ومداه حمل ربان البحر على الإبحار في خضم ذاكرته المتلاطمة الذكريات، ذاكرة تتوعده بالغرق وتعد حزنه بالنجاة. كل ما فيه غرقان إلاّ حزنه. في نزهتهما البحرية المسائية، ظنّ بهاء أن الروائح أثارت حنينه إلى عالم أبيه وإليه بالقدر ذاته، مما دفعه إلى الاسترسال بالحديث دون توقف أو مقاطعة، باستثناء الوقفة عند ذكر مناديل هيفاء المعطرّة، والمعتذر عنها طبعاً. يتماهى في عالمه الذي ليس فيه إلاّ هو، يترك لجليسه الحرية في الإنصات، التفكير بغيره، تأمل ذاته

وموضوعها أو الانصراف عنه، لكن بلا مقاطعة. إنه عدّة أشخاص مضغوطة في شخصية واحدة. وجود بالمصادفة. شخصيات انبثاقها معلق على اتخاذ موقف أو نطق كلمة. كونه يتكوّن من كائنات مجروحة تواجه مصيراً جارحاً. زمن ربان البحر كل الأزمنة الماضية على أمكنة تمكن فيها غرباء عنهم وعنها. يهرب من زمن ظافر إلى مكان مندحر، يسقطهم عنه ليقوم كما ينبغي أن يكون عليه، يرفع بهاء كأسه إلى مستوى فمه، ويصوب عينيه صوب عينيّ ربان البحر.

- للكعب يا شباب.

- للكعب يا شباب.

يعبُّ ربان البحر كأس الويسكي فيه ويفعل كذلك بهاء رغم أن حدّة طعم الويسكي لا تصلح أن يُشرب للكعب، يلتهم بهاء شريحة من الباذنجان المقلي، يعالج بها حدّة المشروب، يدعو بهاء ربان البحر إلى التعرف على رأي هيغل بالحرب، الرأي هذا -كما يعتقد بهاء- انتهازيٌّ قابلٌ للبيع السياسي والمساومة التاريخية، يضفي هيغل أهمية كبيرة على الصراع والنزاع، يذهب إلى حد الاعتقاد بأن الحرب أرفع أخلاقياً من السلم، فلو لم يكن للأمم أعداء تحاربهم، لدبَّ فيها الضعف والانحلال الأخلاقي. التدمير والقتل قيمتان أخلاقيتان رفيعتان حسب أعراف هيغل؛ لكن من حسن حظ الشعب العراقي أنه لم يسمع برأي هيغل وإلاّ وقف خلف الرئيس وهو يجرهم إلى الهلاك والدمار في حروبه. العقل البشري العقيم لا ينجب خياراً أو حلاً ثالثاً عداهما. المستبد العراقي لا يقرأ رأياً كهذا ولا غيره من الآراء، وهو المكتفي به. سعة علمه تبطل حاجته إلى رأي أو مشورة حين يشن حربه أو يقوم بفعل موازٍ لها. إنه في انتظار الأعداء دائماً، يعيش في حالة البحث عن عدو وإنْ تعذّر وجود عدو خارجي، يخترع أعداءً محليين، فيشنُّ حرباً عليهم ويسوغها بحديث مقدس وليس برأي من وضع فيلسوف فانٍ. العدو حاجة سياسية للقفز على التنمية والبناء المخنثتين، لا تماثيل تمجد البنائين. المجد للقتلة مشعلي الحروب ومدمري مرافق الحياة العامة والخاصة، السياسة تعني القوة والمصلحة، فالحرب من السهولة شنها، فالبشرية قد خبرت وتمرنت على حسن أدائها

بفعل التاريخ وشواهده؛ لكن السلم المتسوّل على أبواب التاريخ لا إرث له كما الحرية وكما الحب. التاريخ تاريخ حرب وليس سلام، لا تاريخ للسلام ولا شواهد، لم تشهد البشرية سلاماً؛ إنما هدنة أو استراحة سلاح. لا نُصُب تُمجّد داعية سلم أو تخلّد عاشقاً. النُصب تمجد دعاة الحروب ومشنيها، الشرف حاجة سياسية وليس موقفاً أخلاقياً كما يرى هيغل ويسوقه الساسة. إن وجود الأعداء الخارجيين ضروري لكي تكتسب الأمة صحة معنوية ووحدة أخلاقية، كما يطيب لـ'هيغل' قوله؛ أما هرقليطس يقفل الموضوع بما يذهب إليه؛ 'الحرب أم الأشياء جميعاً'.

يوقف بهاء الحديث عن هيغل إثر نظرة مفاجئة سقطت منه على ساق بضّة ومكتنزة، بروزها يؤكد على إخفاق الفستان في احتوائها، هناك إشارات إنفراجية تساعد على التعمق بالنظر.

على الخشبة يجري الاستعداد وينتظر صعود (فرقة الشيخات)، يأخذ عازفو الإيقاعات أماكنهم، يعبُّ ربّان البحر كأساً من الويسكي فيه. ينهض، يتوجه إلى الخشبة، ظهوره عليها، يحدث تململاً من قبل الزبائن وترقباً من جانب النُدُل، يقف قُبالة عازفي الإيقاعات، يطلب منهم عزف إيقاعات معينة، يمرنهم عليها قليلاً، ضبط الإيقاعات وتناغمها غير المألوف يساعدان على كسب الزبائن في صف ربان البحر. يقابله فتور واضح على حركة النُدُل، يقف ربان البحر في مواجهة الحضور، يرفع يديه بشكل أفقي، ويثني ساقه، يطلب من الحضور أن يطلقوا همهمات منتظمة، يمرنهم عليها، يستجيبون معه. جديته و صرامة ملامحه تكسبه ثقة الحضور على الرغم من أنه لا يحتاجها، تجتاحه رغبة عارمة في الرقص من أجله وليس من أجل سواه. تصطف عضوات فرقة الشيخات وبقية العازفين على يمين الخشبة في حالة ترقب لما سيحدث.. يؤشر بيده، فيبدأ عازفو الإيقاعات بالعزف فينضم إليهم الحضور بهمهماتهم. يشرع ربان البحر بالرقص، يثير رقصه حماس الحضور وتجاوبهم، فيقفون من أجله يصفقون ويهمهمون همهمات متقطّعة ومنتظمة، تشي وجهوهم بالنشوة؛ فيما يغرق وجهه بدموع غزيرة لا ينتشله منها غير حزنه.

قوبل انتهاء ربان البحر من الرقص بالتصفيق. يعود إلى كرسيه صامتًا، فيما الأنظار تتجه إليه، تتعقبه بالدهشة والإعجاب به، هو ليس مع غيره، إنه معه الآن يتوحد فيه على طقوسيته وشعائر عالمه المحرّم، عالمه البعيد لا يدركه إلاّه، يتركه بهاء إلى توحده، يأخذ كأسًا من الويسكي، لا يعرض عليه شيئًا، يخرج ربان البحر منه ثم يدخل إليه ثانية باحثًا عن شخصية أخرى يمضي بها بقية الوقت، ببطء يتناول كأسًا من الويسكي، يطأطئ رأسه، ثم يرفعها على صوت النادل الذي يحمل طبقًا، روائحه تمهد لقدومه، يضعه على الطاولة.

- طبق صفيه، بالصحة والرائحة.

يرمق ربان البحر بهاء بنظرة شاكرة. يصمت ثم ينفجر بالبكاء، فيبكي بهاء على بكائه؛ لكن سرعان ما يمتزج نشيجهم الباكي بقهقهاتهم الضاحكة العالية.

يتركان المطعم بالتوديع الحار والتصفيق المتكرر، ينحني ربان البحر شاكرًا. في الطريق يطلع بهاء على مشروع مصيري يخطط له ويكون لأشخاص الفندق دور فيه، مشروع يعدّ النقطة ما قبل الموت، أو ربما الموت بعينه. هناك سيقيم مهجعًا عظيمًا يتلاءم وانتظار الموت. في النقطة الفاصلة تلك، سيفي باستحقاق عمر مدين بالكثير. لا تزال مراحل متقدمة من حياته متخلف هو عن عيشها. سيضع حدًّا لكل المتأجلات والمتأخرات. قضى على حياته مترحلاً، لا بيت يأوي إليه. غريبًا أينما يحلُّ. عابرًا على كل طريق وطارئًا على كل شيء. لا يفتقده أحد ولا هو يفتقد أحدًا. هو منْ يسأل ولا يجيبه غيره. عاش على الهامش، زبون حانات، نزيل فندق، شريك عابر لسرير نساء طارئات. دخل في نساء كثيرات وخرج منهن دون أن يخلف في أرحامهن نطفة. يقاوم انقراضه، يكتسح الزمن عمره، يسقط أعوامه العام تلو الآخر. سيموت غريبًا ويوارى أرضًا غريبة. لا يحزن عليه أحد ولا أحد يرث عنه ألبوم صوره، أباريقه وكؤوسه وذكرياته. سيخلف وراءه صور نساء فاته أن يضاجعهن. خرج من النساء اللواتي دخل فيهن بالذوق والتجربة. علمنه الخفة وعدم الاكتراث. تزود بخبرة جميلة؛ لكنها غير قابلة للنسخ والتكرار، ينوء بها من مرحلة عمرية إلى أخرى كنحت حجري ساقط

الأهمية. يعدُ بهاءَ، هناك سيخطف الأضواء وسينتفض على إهماله. يواتيه الوقت بفرصة التربع على القمة. سيصنع مجداً ويخلفه مثالاً يُحتذى به. يتوقف، شعوره بالإرهاق ينهاه عن التمادي بالكلام، يعده بإتمام قصة مشروعه المصيري في لقائهما التالي، الموضوع هذا قد يتضح أكثر في الغد، يتوقفان عند مفترق طريق، يودعانهما يشكرانهما على سهرتهما التاريخية. يعاتب بهاء ربان البحر على انفراده في دفع الطلبات وحرمانه من الدفع أو المشاركة فيه على الأقل، يقلل ربان البحر من أهمية ذلك: (لقد نعستَ وأخذتَ تقول كلاماً لا حكمة فيه، اذهب إلى الفراش فوراً) يعبر ربان عن احتقاره للمال ويراه غير جدير أن يشكل مادةً للحديث، ليس سوى وسيلة: (المال أحط وسيلة لبلوغ غاية رفيعة، للأسف) يمنيانهما بلقائهما يوم الغد.

تدنو الساعة بهدوء من الرابعة صباحاً، يحمل الطريق المضاء رجلاً يترنح ثمالة أو حزناً لا فرق. أما بهاء فيعدل عن فكرة الذهاب إلى الفندق، خوفاً أن يأخذه النوم ولا يسترده الصحو منه إلاّ بعد فوات الأوان. يقرر التوجه إلى البحر. أضواء تتسكع بانتظار الصبح. لم يبقَ إلاّ القليل وسيبزغ الفجر بسعيدة المبلولة. تأخذه خطاه إلى الشوارع التي تخلت عن المارة، من وقت إلى آخر تدهس عربة بوليس خلوة الشوارع. الآن بهاء وحده يتدرج على الطريق الأسمنتي المحاذي إلى البحر، تطفو على البحر أحلام بشرية، تطلب النجدة على الغرق. المحال تصمت على إغلاقها. الليل يكسر الصمت بصفيره. سحب بيض تحجب قمراً لا يزال منيراً. الأشياء تميل إلى الهدوء. الهدوء حديث الأشياء. الأشياء تتفاهم مع البحر بلا واسطة بشرية نفعية الغرض. الإنسان علم الأشياء والكائنات الفساد والضراوة. جعل في كل شيء ربحاً. أهمية الشيء مربحه. أشياء صامتة، بحر هادئ ورجل موعود بامرأة مبلولة تشق عليه الماء تتدحرج عند قدميه. يتوقف بهاء عند صنبور ماء يغسل وجهه من النعاس وفمه من رائحة المشروب الروحي، يطالب ذاكرته بتجميد مضاعفات ذكريات ربان البحر المؤلمة وحفظها بعيداً عن النسيان، يحصر شعوره في اللذائذ المتغلغلة في مسام جسد سعيدة اللدن وثغورها، توصل قدماه جسده حيث كثبان الرمل والشجيرات الموعودة، يجلس قفاه للشجر ووجهه للبحر، أقرب إلى الماء يكون، يطلق قدميه من حذائه ويغطسهما في الماء

البارد، يمنح جسده إلى أية نومة مقابل وعد بحلم. لقد أخذ جرعات كثيرة من الحزن هذا اليوم، يريد أن يفرغها منه بقليل من السرور. خبر أحزانه أكيد تتعقبه وسوف تضبطه بين كثبان الرمل والشجيرات متلبساً بفرحة على هيئة امرأة. إن تعباً ونعاساً يعطلان قدرته على التفكير من دون المساس بشعوره الناشط في حث الحزن عليه. يختبئ بأثوابه ويتنكر بفرح كيلا يتعرف عليه حزنه، ينسحب الظلام أمام صعود الضوء. خيمة زرقاء السقف والمدى تخيم عليه. على مقربة منه شجيرات ورمال تقاوم بألوانها الكامدة هيمنة الأزرق الوضّاح، تخطفه منه إغفاءة عابرة، يصحو منها على ليونة تندق بقدميه، يفتح عينيه على جسد أنثوي مبلول ينهي تدحرجه، ثوب قطني أبيض لاصق يجسِّم فتنة الأعضاء، تنفر حلمتان من الثوب؛ فيما النهد يرنو إلى لمسة، ترتجف هي برداً ورغبةً، تتفاهم معه بصرياً على لمها بحضنه طلباً لدفء جسدها وتحقيق رغبتها، يرفعها إليه بقبلة شفاه لاهبة، عيناها تبحث في عينيه عنها هي الهائمة فيه، فيما تسوح لمساته على جسدها ناشدةً اللذة. مَنْ يكونان هما ومَنْ هما.؟ هما ليس سوى جسدين يلتحمان بالرغبة فيهما، يهيمن عليهما باعداً عنها برداً، يجفف جسدها بجسده الساخن بالرغبة فيها، يدس أصابعه بخصلات شعرها المبلول، يكشف الثوب الملفوف أو المثني عن جسد مشتهٍ ومشتهى، يلتف عليها، يشملها كلها من خصلة الشعر وحتى أظفر القدم بالقبلة واللمسة، الفم الذي عثر على قبلته في فم آخر لا يفرط بها إكراماً لكلمة، القبلة أولى بالفم من الكلمة، تنهض، يرشح بللها عليه، يتندى بها، تتداعى عليه، شعرها المبلول يقطِّرُ على وجهه، تهيمن عليه، تبل شفتيه برطوبتها، تدع فمها يواجه فمه عن قرب، تفتح فمها وبأناملها توسع بين شفتيه وتريق ماء فمها بينهما: (ذُق عسلي، خذه قهوةً لصباحكَ وخمرة لمسائكَ، اسكر به يا سكِّير، يا شرِّيب). يترشَّفان ماءهما عطشان إليهما، يدقق فيها. مَنْ يكون هو الذي تحتها.؟ ومنْ تكون هي التي تعتليه.؟ منْ منهما يكون هو الآخر الآن؟ (خذني مني) يتلاهثان تبلغ رغبتهما فيهما ذراها، ترعاهما الشمس بالضوء والدفء، يدعو البحر أمواجه لتعزف على هديرها، طيور تأخذ الشجيرات منصة للغناء، ريح تتحول إلى نسمة عند اقترابها من شعرهما، يتخلى الشاطئ عن غيرهما، سفن تلوح لهما بأشرعتها، نوارس تصفق لهما بأجنحتها. بيدها

اليمنى تسدد وجهه صوب وجهها، تتملى به، يدها اليسرى تنداس من حذاء أسود. يرتجفان من ذعر يجتاحهما، تسحب فمها تصطك أسنانها، تتعالى أنفاسهما، تشدها من شعرها يدٌ غليظة توازيها اليد الأخرى بالهراوة.

- فعل فاضح في مكان عام؟

يقفان مرتجفان قبالة شرطيان متجهمان. يضبطان لصّين متلبسين بسرقة رغباتهما. يطلب من بهاء الكشف عن هويته. كونه رجل الجنس ودانماركي الجنسية يعفى من المساءلة. تصطف بينهما خائفة وعاجزة عن الكلام. ملامحها تنكمش على لحظة مرعوبة. يطلبان منها مرافقتهما؛ فيما يكتفيان بتدوين اسم بهاء ورقم جواز سفره ونوعه. يُرمى عليها شعور بالخزي. ينظران إليها كعاهرة. يتصديان زجراً لمحاولات بهاء في التدخل وتحمل المسؤولية عن الفعل مناصفة معها. يقف بهاء مجروح الكرامة وعاجزاً عن الفعل. تُطأطئ سعيدة رأسها خجلاً وخوفاً. فتاة مبلولة مرصوفة بين شرطيين جافين. يجرانها مرتعدة لا تقوى على السير. يجرجرانها إلى مصير سيكون مجهولاً. يتداخل خوف بهاء بحزنه عليها، مسلوب الحق والقدرة على مساعدتها، يُعنفه بهاء على رغبته التي تحولت إلى فضيحة. الحياء العام ينخدش من رغبة حب، ولا ينخدش من فقر وإرهاب، فساد وتخلف. عقوبة جماعية أكبر من فعل فردي يوصف بالإثم. لِمَ لا تكون العقوبة غرامة على سوء استخدام مكان عام. مثلاً يقول. لِمَ هذا التعنيف، التحقير والإسقاط. يتنحّى البحر، تتراجع المحال وتحذف المارة من قائمة الشوارع، يُشمل بظلال صمته سواه وتلك الفسحة المتحركة التي يقطعها كدرب، يمر بهاء على المحال والناس محمولاً برعبه، حزنه وحنقه، جسده وعاءٌ ملآن بدمه الساخن الذي تغلي أعضاؤه فيه، احمرارٌ يطغى على وجهه ولعاب يند عن فمه، يشعر بتماسه مع الجريمة، يفكر بارتكاب جريمة ما، أية جريمة تتاح؛ لكن كيف.؟ لا يعرف ما هي الجريمة وكيف يكون مجرماً.؟

- دور الدولة تحويل أحلام رعاياها إلى كوابيس ورغباتهم إلي فضائح.

يقتحم بهاء محل بيع الخمور يستل زجاجة ويسكي، يقذف بورقة نقدية أكبر قيمة من ثمن الزجاجة. يلتصق الخمّار بالجدار معلقاً على فمه ابتسامة باهتة، في عينه تتأرجح نظرة استفهام. يغادره بهاء مسرعاً إلى الفندق، لا يُلقي ولا يتلقّى تحايا، لا يتكلم ولا يرد على كلام، يضرب على العلاقة مع الأخر كائنًا يكون أم شيئًا، يخطف المفتاح من يد موظفة الاستقبال التي تقف خلف مكتبها مُسمَّرة ومذهولة من تصرف غريب حتى عليه. يصعد مسرعًا وينعطف جريًا، يدخل الغرفة، يغلق الباب دونه. يُسدل الستائر عن العالم الخارجي الخارج على رغبات بشره. يتجرع الويسكي من فوهة القنينة. يعتم مصير سعيدة المظلم عليه، يتخبط كعصفور مكسور الجناح ومجروح على اقتناص عصفورته، لم يكن ليتوقع أن رغبة كهذه ستنتهي بسعيدة كاسم في سجل الدولة للجانحات. لا يُمحى اسمها منه باعتذار أو ندم، لكن لماذا يضطر المرء إلى الاعتذار عن رغبة فطرية؟ فتاة جميلة طيبة النية قامت بنزهة بحرية صباحية فخرجت منها عاهرة وساقطة. هكذا تتحول الرغبة أو النزوة إلى شبهة وسابقة تتهدد مستقبلها في حياة سوية. يتحطم حلمها وترنو من خلف القضبان باريس التي تبعد عنها. يتخيل بهاء أيامها القادمة؛ يُطلَق سراحُها من السجن أو يفرَج عنها بعد توقيف، تُحرم من العمل ويُمنع عنها التسامح الاجتماعي، نعم، ليس أمامها سوى رصيف تقف عليه، تساوم العابرين على جسدها. فيما جسده هو تعتذر قدماه عن حمله، يُصاب بالدوار والوهن، ينهار على أرضية الغرفة التي تدور به، يمسك بقائمة السرير، يضيق تنفسه، قلبه يسرع بالضرب على قفصه، يحرر صدره من القميص، وهنه الجسدي يؤدي إلى اضطراب نفسي وخوف من نهاية تدنو منه، يغشى كل ما حوله ضباب كثيف، غشاوة على عينيه، الأشياء تكف عن وضوحها، لا يزال تنفسه على ضيقه وأرضية الغرفة على دورانها، نذر النهاية تلوح له، الموت يشرف عليه، يزيح الستار عنه، يطل من باب الحمام، يتدلى من السقف، يتغلغل بالضوء والرنين، الموت يحيق به وكل ما حوله تحول إلى أداة له، يحول دوران أرضية الغرفة، غشاوة بصره ووهن قواه دون القيام بفعل من أجل نجدته.

يتعاظم خوفه على الأشياء التي تتناهى بالصغر، لا شيء يُرى بعينه المجردة، تشق الضباب أمه بردائها الأبيض، تناشده الهرب بحياته فالموت سيدهمه، يطوف أبوه

متوكئًا على عصا حاني الظهر، يعتذر عن دوره الضئيل في حياته، يحثه على الظفر بحياته، هيفاء تعصب رأسها بمنديل أخضر تتراءى عبر الستارة تعيد عليه قولها: (حياتك أمانة فلا تخنها بموت مبكر أو انتحار) سحابة سوداء تخترق جدران الغرفة تلبدها، تتقدم عليه: (أنا الموت الذي لا مفر منه)، يزحف عليه الموت بسحابته السوداء ويزحف منه بجسده الخائر القوى، يندحس في جوف العتمة اللابدة تحت السرير، رِجلاه يدقهما بالحائط فيما يوثق كلتا يديه بقائمة السرير، وجه سعيدة يُحلّق ثم يتشظّى في الفضاء، صوت يدوي:

- لا تمُت قبل الأوان ولا بعده.

الفصل الثالث :

الهروب إلى النهاية

نقرات حادة، ينهار الباب على وقع ضربات القبضات وركلات الأرجل، مسلحون بثياب مدنية يقتحمون غرفة بهاء، يصفعه الأول والثاني يوثق يديه خلف ظهره، يجرون إلى الخارج، يطرحونه تحت أقدامهم في المقعد الخلفي من سيارة غامقة اللون، ثم ينطلقون به إلى جهة لا يفصحون عنها. عند الانعطافات الحادة يضغط أحدهم بفردة حذائه اليسرى على صدره وباليسرى على بطنه، ثانٍ يبصق عليه، ثالث يجلس في المقعد الأمامي يدير رأسه واعداً زملائه بالتبول عليه عندما ينحصر. يغلق فم بهاء المتأوه ببوز فردة حذاء أحدهم، تتوقف السيارة، ينهضونه على صفعاتهم وسبابهم، يعصبون عينيه ويكممون فمه. تسرع السيارة وتفرمل، يرتطم بشدة بظهر المقعد الأمامي، تكرار الإسراع والفرملة وارتطامه يدفعهم إلى الضحك.

تتوقف السيارة في مرأب مغلق، يخرجونه من السيارة على ركلاتهم يركضون به، يصعدونه أدرجاً وينزلونه أدراجاً، معصوب العينين ومكمم الفم لا يعرف أين هو وما الذي فعله بهؤلاء الذين لا يكشفون عن هويتهم. يدخلونه غرفة، يرفعون العصابة عن عينيه، يجده في مكتب تحقيق داكن الألوان، الستائر مسدلة. ينهض المحقق من خلف الطاولة، يتقدم من بهاء يزيل كمامة الفم، يرحب به ومعتذراً عن الطريقة التي تمَّ استدعاؤه بها، ثم يعود إلى الطاولة جالساً خلفها، يبقي على بهاء واقفاً أمامه،

- شرفت أستاذ بهاء، أليس هذا هو اسمك؟

- نعم.
- طالب فلسفة؟
- نعم.
- عضو في خلية هدّامة..
- لا.

رجل مدني اللباس، ضخم البنية، كثُّ الشاربين، عابس الوجه، يجلس على الصوفة يشرب شاياً. يضع فنجان الشاي على الطاولة، ينهض، يتقدم من بهاء يحملق به، ثم يسدد صفعة له، يرتطم بهاء على إثرها بالجدار، ثم يعود الرجل إلى صوفته جالساً شارباً شايه باستمتاع، يتناول المحقق ملفاً سميكًا يضعه أمامه، يلاحظ بهاء اسمه مكتوباً عليه كيفما اتفق، يمكن أن يضايقه ذلك أكثر لو كان في وضع أفضل. الملف يضم معلومات عن بهاء منذ تلك الدقيقة التي ولِد فيها حتى هذه الدقائق التي يبعث فيها أمامهم، يقبض على بهاء لاستجوابه عن نشاط دعائي لمصلحة العدو الفارسي عبر نشر أفكار هدّامة، يقرأ المحققُ على بهاء معلومات تعتبر أدلة بنظره على ممارسات غير مشروعة قام بها؛ لكن المحقق يتغاضى عنها لأنها ليست من اختصاص جهازه.

- كم سنة مضت على انخراطك؟
- أنا لستُ منخرطًا.

يضع رجل الصوفة فنجان الشاي على الطاولة، يتقدم من بهاء يقف أمامه، يصفعه ويعود جالساً، يعرفون كل شيء عنه وعن دائرة علاقاته ونطاق تحركها، لديهم تقارير تؤكد على وجود خلية مشبوهة، يكون بهاء أحد نشاطيها، مهمتهما زرع الشقاق، إثارة القلاقل، نشر الشائعات والتعرض لتاريخ الأمة المجيد والتشكيك بدورها الريادي وطمس هويتها وتسفيه بطولاتها، يخيِّر المحققُ بهاءَ بين الاعتراف والتعاون أو الاحتفاظ به سجيناً حتى يهلك. 'النجاة بالاعتراف'. يتصفح ملف بهاء يتوقف عند صفحة ما، يقرأ ويتكلم في آن واحد؛ ' صبيحة يوم شتائي مشمس، في كافيتريا الجامعة، وبالقرب

من زجاجها، كنتم أربعة تتحلقون حول طاولة واحدة، أنتَ الوحيد من بينهم طلبت فنجاناً من الكاكاو، لماذا تطلب الكاكاو، فيما يطلب الآخرون شاياً، كنتَ طويل الشعر حليق الشاربين، ترتدي طقماً نايلونياً بنياً وقميصاً مشجراً نسائي اللون، تميل إلى الألوان النسائية، كما هو مدوّن هنا، تطور حديثكم من الموضة النسائية، قصات الشعر إلى دور أمتنا في الحضارة العالمية، قال أحدكم ويُدعى الأدهم؛ لقد زعموا أن أمتنا اعتمدت في عطاءاتها الحضارية على الفكر الخارجي والإغريقي على الأخص، في حين تقول الحقائق التاريخية عكس ذلك، إن الأمم الأخرى اعتمدت على حضارة أمتنا في تطورها الحضاري وفي مشاريعها النهضوية ولو لا أمتنا لما عرفت البشرية تطوراً، نحن خير أمة أخرجت للناس بلا جدال، وانتهى الأدهم بالحجة والدليل إلى نفي التأثير الخارجي في تطور الأمة ثم دحض أن يكون هناك أي دور مزعوم للفرس في حضارتنا أو في الحضارة العالمية عموماً، وأكد أن الحقائق التاريخية تشير إلى أن الفُرس عديمو الثقافة وإسهاماتهم محدودة لا تتجاوز بضع نقشات وبضعة كتب، ثُرتَ أنتَ عليه رافضاً حقائقه وواصفاً إياها بالتهيؤات، تلكأت بالبرهنة على دور الفُرس في حضارة أمتنا، أدعيتَ أن واضع قواعد لغتنا الجميلة هو فارسي 'قبيح' ، قدمت أرقاماً من وحي خيالك المأجور مبالغاً في عدد الأعلام الفرس ودورهم في حضارة أمتنا، تحينتَ الفرصة للقيام بالدعاية والانضمام بمعلوماتك المغرضة إلى الحملة النفسية التي يشنها العدو الفارسي لكسر عزيمة أفراد أمتنا على النضال. على ما يبدو أن حلاوة الكاكاو أنستك مرارة أفواه جنودنا وهم يقاتلون عدواً يسعى إلى احتلال أراضينا ونهب ثرواتنا القومية من نفط، فكر وعلوم، جنّدكَ العدو لتقوم بالترويج لأفكاره، تلمّع صفحته وتعظّم تاريخه ودوره، تخالف حقائق الأدهم لتغطي على دناءتك في الحصول على ماذا، على المال، من أجل حفنة من المال تخون أمتكَ في وقتٍ شبابنا يضحون بدمائهم دفاعاً عن البوابة الشرقية لأمتنا، اعترفْ على الجهة الخارجية التي تقف وراء تثقيفكم وتزويدكم بالمال وبالأدوات للقيام بنشاطاتكم الهدامة، إنك ضالع في مؤامرة دولية لتخريب ثقافتنا. يلعن بهاء والفرس معاً، يبرز المحقق منفعلاً صوراً عن فواتير الكتب التي اقتناها بهاء منذ تعلمه القراءة وحتى الآن، يجرّمه على عدم اقتنائه كتب الرئيس، وتلك التي يدعو إليها،

فمقاطعته لهذه الكتب التي يوصي بقرائتها الرئيس وعصابته، تُعد عصيانًا معرفيًا وخيانة ثقافية وتُحسب كأدلة على الضلوع في الأنشطة الهدامة.

لا يعرف بهاء كيف يرد على التهم المنسوبة إليه، في الجلسة إياها لقد تحدث بهاء فعلاً؛ لكنهم أساءوا فهم رأيه وقراءتهم لموقفه كانت مغرضة، فالأرقام تشير إلى وجود عدد كبير من الأعلام الفُرس الذين لعبوا دوراً مهماً في حضارتنا، ثم إنه لا يرى أن هناك أمة خير من أمة أخرى، ومساهمة أية أمة هي إغناء لها ولسواها من الأمم، إن المساهمة الحضارية دور وليس فضلاً، يقصد أن أية أمة لا تتفضل بمساهمتها على غيرها من الأمم، فتُكرههم على الانحناء لها وتمجيد دورها ليل نهار، وترغمهم على دفع الثمن مقابل الاستفادة منها أو عدم الاستفادة، كل أمةٍ مدينة لأخرى. عندما دخل بهاء إلى النقاش كان بنية التوضيح وليس بنية تحسين صورة بالإساءة للأخرى، أما فواتير الكتب فصحيحة هي الأخرى، لكنها ليست دليلاً على النشاط المزعوم، ولا تُحسب أدوات له. يقرأ المحقق عليه أسماء زملائه من الطلبة الذين لا يعرف عنهم شيئًا الآن سوى سفرهم، يطلب المحقق منه أن يتحدث عنهم بإسهاب عن حياتهم الجامعية والعامة ونشاطاتهم اليومية في الجامعة وخارجها، المنهج الذي يحللون المادة الدراسية به، موقفهم النظري من الوضع السياسي. تُسجَّل وتصوَّر مُجريات التحقيق. تحدَّث بهاء، ما يعرفه عنهم يعرفه غيره، لا سرٌّ مخيف ينطوي عليه نشاطهم اليومي. يحاول المحقق أن يجُر بهاء إلى إيراد أسماء جديدة في سياق حديثه عن غيرهم.

يضغط المحقق على جرس ضغطتين، يدخل على إثره حارس، يتقدم من بهاء يجُره إلى خارج المكتب، يأمره صارخًا الانتظار هنا في هذا الدهليز، ثم ينصرف عنه منزعجاً، يقف بهاء متكئًا على الحائط، الخوف والترقب يعلقان الشعور بالجوع؛ لكنهما يحفّزان الألم، يسقط على الأرضية ومن ثمَّ في النوم، يصحو على شرشرة ماء كريه الرائحة تسقط عليه، يجد الرجل الذي كان في السيارة يفي بوعده فيبول عليه، لعبة التبول تستهوي زملاءه العابرين فيقومون بالتبول على بهاء المتقرفص خوفًا وقرفًا. تنبعث رائحة

التبول الكريهة من ملابسه المبلولة، تمضي ساعات على انتظاره، يمتص فعلَ هؤلاء المقزّز والانتظار الرهيب شعوره بالصدمة، فيتكيف نفسياً مع خوفه.

يتقدم رجل يرفسه، ينهض بهاء ثم يقتاده، يقطعان ممرًا مظلمًا ثم ينتهي ببهاء إلى باب حديدي، يفتحه ويدفع بهاء إلى الداخل، ثم يقفله عليه، يعرف بهاء أنه الآن في زنزانة، تتخلل كوّتها الصغيرة حزم ضوء شاحب، ليست غريبة برطوبتها وتشقق جدرانها وعفنها الكريه، لقد أعتقل وعذّب فيها طيلة الكوابيس التي تعاقبت على نومه ويقظته، يسمع بهاء عن حلم جماعي يتخلل نوم كل المنفيين المتقطع، يعود المنفي في الصباح سرًا إلى بيته تستقبله أمه بالشمّ، الضم والبكاء، يتناولان طعام الفطور معًا الخبز الحار والقشطة، القيمر، فجأة يتناهى إلى أسماعهما جلبة أقدام عناصر مسلحة تتعقب الابن العائد، تحث الأم الابن على الهرب صارخة: 'لماذا عدتَ يا ولدي، لأراك يا أمي، يجيب، كبرتَ على رحمي، ليتك جنين لحملتُكَ وما وضعتكَ في أرض الرافدين أبدًا. يشل سرعة رجليه خدر وثقل، مذعور ومشلول الحركة يترقب ما سيؤول إليه مصيره على أيدي أولئك القادمين عليه، تفتح باب الزنزانة، يرمى عليه رغيف خبز وإبريق نايلوني مملوء إلى النصف بالماء، يقضي حاجاته من التبول وغيره في صفيحة قديمة مركونة في إحدى زوايا الزنزانة،

تنفتح الباب، يدخل رجلان الزنزانة، طويلا القامة، غاضبا المزاج، يشبه أحدهما الآخر في سحنة الوجه وقصة الشارب، يقف الأول عند الباب، فيما يندفع الآخر نحو بهاء. ظهورهما المفاجئ يضاعف من إحساسه بالرهبة، يتصبب عرقًا، يقتاده الرجلان إلى سيارة 'مرسيدس' زرقاء اللون، لا يمارسان عنفًا عليه، لكنهما لم يكونا لطيفين معه، يجلس بينهما في مقعد السيارة الخلفي، يوعز أحدهم إلى السائق المتأهب بالانطلاق، تنطلق السيارة، تنعطف إلى شارع 'أبو نواس'، ثم تقف عند مبنى فخم، تلفت انتباهه لافتة كبيرة مكتوب عليها: 'معهد الدراسات الاستراتيجية' يحاط المبنى بحراسة صارمة، يمنع وقوف السيارات بمحاذاته ويحظر مرور المشاة على رصيفه، تصميم المبنى والتشدد عليه لا يوحيان بأجواء دراسية البتة، زجاج النوافذ غامق اللون، رجال

يجوبون حول المبنى، يخبئون مسدسات تحت قمصانهم الرمادية اللون، يرقبون القادمين بحذر وحيطة، يلاحظ خروج ودخول أشخاص صارمي الملامح، يتجهان ببهاء إلى ممر، يتقدم عليه الأول ويتأخر عنه الثاني، على خطوهما يخطو، يجعل الخوف الجامح، الصمت المطبق والترقب المريب، الممر أطول مما هو عليه، طلاء الجدران صقيل داكن اللون، الأرضية مفروشة بسجاد يحتوي جلبة الأقدام المتوقعة، ينفصل جدار الممر عن خط سيرهم المرسوم بمتر واحد، لا أحد يصادفهم ولا يقاطعهم أحد، لحظة توقفهم، ينفتح باب على بهاء تبتلعه فكّاه من دونهما، ينقذف بجوف مظلم، كثافة ظلامية يسمع فيها صوت اضطرابه ورعبه، يغرق في الظلام، يخالجه شعور أنه اللا حي، لا الحياة تحيا به ولا الموت يُميته. يحس أن الموت خلاص من محنة الحياة. ينحسر الظلام أمام الضوء الصاعد ببطء، يبدأ الوضوح تدريجياً، ليس وحده في هذه الغرفة المثلثة، على بعد متر عنه يوجد كرسي، جدران الغرفة الثلاثة مدهونة بلون دموي، ستارة هائلة حارقة اللون تتداعى على نافذة صغيرة، يتحطم أمل النظر والضوء بإزاحة الستار، يصرح الضوء بظهور بطيء لطاولة قائمة في زاوية الغرفة الحرجة، خلف الطاولة تحديداً يحس بوجود كائن ما، يحظر الكشف عنه، يعرف بالاكتساب: 'عليه ألاّ يرى وألاّ يسمع حتى يأذن له بهما. يُطلب منه الجلوس، يجلس طبعاً، تُقدم سيجارة له، يعتذر عن تدخينها، يُفسَّر اعتذاره رفضاً، تُسدَّد لطمة لوجهه من قبضة معلومة تعود إلى رجل محجوب، تُعرض السيجارة عليه ثانية، يقبلها طبعاً، يُقدم له مشروب، يشربه طبعاً، مهمتهم الأساسية تصنيع الرعب ونشر أجوائه. إنهم على ثقة بأنه ليس من الصنف الـ 'نعَمِي'، نسبة إلى نعم، إذ بـ'جراحة إرهابية' يمكن استئصال 'الزائدة اللائية' التي تؤخر المواطن عن المضي قُدماً في عصر القمع الزاهر بالاستبداد والتخلف، وفقاً للمعلومات المتوافرة لديهم، إنه يعرف الـ 'لا'، ولا 'لا' لهم عليه، هذا ما يدفعهم إلى الإتيان به إلى هنا.

التحقيق عقوبة ودرس، عقوبة على الماضي ودرس للحاضر والمستقبل، لكن العقوبة والدرس يتوقفان على سير التحقيق أولاً وثانياً يرتبطان بظروف الاعتقال أو إمكانية الإفراج، الكائن الذي في الزاوية الحرجة من الغرفة يتحول إلى صوت رهيب مدوٍ،

ينتقي مرحلة معينة من حياة بهاء، يعتبر تصرفاته الذكورية أفعالاً يمكن أن يدان عليها قانونياً وأخلاقياً، فضائح وليست تصرفات، هكذا يصورها، إن إفشاءها يقرّره مجرى التحقيق، رغم خجله من الطريقة المؤسفة التي طرحت بها، لكنها تقوّي موقفه بعض الشيء، فضيحة أخلاقية ولا شبهة سياسية، يستعيد توازنه متخلياً عن بعض من رعبه، توقف 'الصوت الرهيب'، عند محطات قصيرة من حياته تحرجه وتخجله باعتبارها أسرار خاصة وشئون شخصية، يحمر لها وجه بهاء ويتصبب عرقه من نشاطه الجنسي المحموم من نط على سطح أو تسلل إلى بيت دعارة. أسرار شخصية لا يجوز فضحها، يعتبرها بهاء انتهاكاً لحرمته كإنسان.

تُعرض على بهاء سيجارة ثانية، يدخنها طبعاً، يُعرض عليه فنجان من الشاي يوضع أمامه ثم يُسحب بسرعة، قبل أن يُعرض شربه عليه، بعد لحظات يؤتى بفنجان من الكاكاو بدلاً عنه، أنتَ تفضّل الكاكاو على الشاي، أليس كذلك؟ لماذا تشرب الكاكاو بينما يشرب الآخرون الشاي؟ يحاول البدء بالإجابة لكن لطمة خاطفة تقهقر كلامه إلى عمق فمه وتعدم عليه إمكانية التحول إلى مسموع، يؤمر بشرب الكاكاو، يشربه طبعاً، يواجهه بأسوأ الاحتمالات. يرى أن تماسكه مطلوب، حياته مرهونة بقدرته على التملص مما يعرضونه عليه.

يركن 'الصوت الرهيب' إلى الصمت قليلاً، يعطي فرصة إلى الرعب ليأخذ مفعوله في القضاء على 'فيروس الرفض' المحتمل أن يحمله بهاء، يجري الرهان على الصمت والعتمة في إخضاعه غير المشروط لإرادتهم، في الوقفات الرهيبة يصغي بهاء إليه، يستعيد صدى 'الصوت الرهيب' المخزون فيه، حياته توقفت على كلمة، الحياة لا تساوي كلمة، حياة هشّة قابلة للإعدام، إن انتفى الشرط السياسي فهناك الشرط الأخلاقي، فقد أورد التقرير لائحة من اتهامات بأفعال جنسية غير شرعية طالت النساء من بينهن سيدة متزوجة، هذا الوضع يضعف موقفه، ويرشحه لاحقاً إلى الابتزاز هو ونساؤه، لا فرق ثأر أو عقاب على شهوة جنسية جاء منها وفطر عليها، هذا فضلاً عن قائمة الكتب الطويلة التي يتعاملون معها كأدلة وأدوات لجريمة الترويج للأفكار الهدّامة،

'الصوت الرهيب' هو الوهّاب الذي يتفضل عليه بهبة الحياة، هو المميت هو العافي عنه من جرم، بكلمة منه يحيا وبأخرى يهلك، يتوصل إلى أن النجاة من الإعدام تتطلب التمرين السريع على حشد إجابات مقنعة على أسئلتهم المحتملة، عليه عدم تبديد الوقت المتاح بالرعب، في الصمت والعتمة يجب أن يقوم بمراجعة الأسئلة المحتملة، الحياة الآن أهم من أي شيء مهما يكون نفيساً، للأسف، ما أحقرها من لحظة، ينعدم فيها الخيار والموقف، ليته مات بغتةً ولم يعشها البتة، لا موقف ولا غرض سوى كيف أن ينجو بحياته وبأية طريقة وبأي ثمن، سحقاً، يخلف التفكير وراءه ويتقدم نحو التدابير.

يعود 'الصوت الرهيب' إلى الإنوجاد المسموع، يدوي من جديد في أعماق بهاء المتداعية حذراً واستعداداً، يباغته بعبارة 'أنتَ تعرف'، وقع العبارة هذه على بهاء يشكل مفاجأة مريحة، تمتص قليلاً من روعه، قد يأخذ التحقيق منحنى معرفياً، يعد بهاء المعرفة مجال اختصاصه، يراهن على حدوث مفاجآت معرفية قد تغيّر مجرى التحقيق لمصلحته، يستعيد رأسه، يستخدمه لأغراض التفكير بعد أن أسره الخوف، يرتشف الكاكاو يحس بلذة مذاقه أول مرة منذ أن خطفت حياته ووضعت تحت تصرف 'الصوت الرهيب' ومزاجه البوليسي، عبارة 'أنتَ تعرف' قد تمثل إذناً بوليسياً وأمنياً مفاجئاً بضرورة استخدام قواه العقلية لغرض التحقيق، يتمنى التوصل إلى الإقرار بشرعية التفكير في العراق ومنه إلى العالم، ليس لغرض التحقيق، وإنما لأغراض تحقيق الاختلاف.

ينفي 'الصوت الرهيب' وجود معارضة شعبية، يشكره ويحمد الأجهزة المخابراتية والأمنية على فضلها باجتثاثها، نحن أدرى بشعبنا من الغرب، فالديمقراطية قد تضرُّ به، شعبٌ غضٌّ يمكن تغريره بالديمقراطية تلك البدعة الغربية التي لا تقرها عراقة عراقنا، الديمقراطية غربية وطارئة لا وجود لها على أجندة أسلافنا، إنها مفردة دخيلة على معجمنا السياسي، لا قطرات دمٍ سالت من أجلها على صفحات تاريخنا، نحن نعرف متى نمنح الحق الديمقراطي ومتى نصادره، نحن أوصياء على شعبٍ لا يزال قاصراً،

الديمقراطية سلاح سياسي غربي انتقائي موجه للإطاحة بمقدساتنا وبأصالتنا، الديمقراطية آلية رأسمالية لتحويل البلدان إلى أسواق والشعوب إلى متبضّعين.

ينهض مصدر 'الصوت الرهيب'، فينهض بهاء على نهوضه؛ تعرف، ذات مرة شعر الإله بالوحشة من وحدته والملل من ألوهيته وضيق السماء على سعته، ففكر أن يأخذ إجازة من السماء يقضيها بصفة إنسان على الأرض، قرأ وعاين البشر جميعهم إنساناً إنساناً والبلدان كلها بلاداً بلاداً، فلم يجد إنساناً أعظم وأكثر كمالاً من رئيسنا، ولا بلاداً أجمل من العراق ملكوتاً ولا أروع من الشعب العراقي عبيداً، فظهر على صورة رئيسنا وتجوهر بجوهره واتصف بصفاته، ارتدى بزةً عسكرية، هزَّ صولجانه ومضى يتبختر مرحاً، لِمَ لا يكون رئيسنا هو الإله ذاته، أعجبته الأنسنة فقرر الإقامة في العراق خالداً على شعب لا ضير في فنائه، المهم هو العراق.

هذا ليس أوان التفكير والحوار، إنه أوان السكوت والتقهقر، إن كلمة طائشة قد تُنهي حياة جادة، كل الكلمات طائشة ما لم تعبر عن تفكيرهم، ينكمش بهاء فيه خجلاً من المعرفة ومنه على حدٍّ سواء، إنه فرد أعزل ومسالم أصلاً، كيف يقاوم قاهريه ومُذلّيه، عجزت أحزاب عن مقاومة الاستبداد واحتواء بطشه، فإما هربت بأعضائها أو انهارت بتنظيماتها، فكيف به هو المعزول والأعزل.

ينفتح الباب، يدخل الرجلان ذاتهما، ينتزعان بهاء من كرسيه ويمضيان به إلى زنزانته، يجد بانتظاره رغيف الخبز وإبريق الماء، ينزوي يتأمل سؤال الحرية الباعث على القلق، الإنسان غير مؤهل لتقرير حريته فكيف يجرؤ على تقرير حرية سواه، يُحمل على الغثيان حين يُكره الإنسان على مقايضة حياته بحريته أو العكس. الحرية قيمةٌ لا حُكمٌ، القمع نقيض الطبيعة وليس نقيض الحرية، القمع جاد في ترسيخ حضارته، فيما الحرية محرومة من التعبير عنها، الحرية مصدر البهجة، البهيج وحده يعرف حريته دون تعريف. تعريف الحرية انتقاص منها لجهة القمع. لماذا يسيء الإنسان إلى طبعه وإلى

الحرية بتطبُّعه على القمع وتكيُّفه مع اضطهاده، القلق نَبْذُ القمع، الحرية لا تُعطَى ولا تؤخذ، الحرية هي إرث طبيعيٌّ وهبةٌ كونية، الحرية هي الإنسان، طليقٌ لا حَدَّ يُحد منه.

- لا حرية لي دون حرية سواي.

يقف لصْقَ الجدار، يحاول استعادة شعوره بالحركة، دقات الساعة اليدوية أخذت تُسمع الآن، قلبه يشي بنبضه، الكوَّة تكسر السكون البصري برفيف مفاجئ لجناحِ حشرة طائرة، ضوء يقوى ويتلاشى تحت فتحة الباب، يدق الأرضية؛ لكن لا وقع لقدم حافية، يقف إلى الجدار قرب النافذة أو يمضي نحو الباب ليشهد على تلاشي الضوء، لا عالم خارج هذه الزنزانة وخارجه، ما هو موجود تهيؤات ذاكرة مخدوعة بذكرياتها، 'لا وجود لوجودٍ دون إنوجادي' ولِد في هذه الزنزانة وسيموت فيها، هو قلب العالم النابض، اعتزاله قلبه عزل العالم عن النبض، يضع وجهه قبالة الكوَّة، ضوء شاحب ينثال عليه، لم يبقَ فيه غير إحساسه بوجود ملَكَة محرَّمة هي ملكة القراءة والكتابة، في داخله ينمو فعل ولا يسلم بالسكون، فعل يستطيع أن يسميه التفكير، يجده مسخراً لهذا الفعل الذي يتخذ من الكتابة وسيلة للتعبير عنه. التفكير يعني الحركة والحركة تعني الحياة والحياة لا بُد أن تحيا كما يجب حتى في الزنزانة. يرغب في الكتابة. ملَكَة بلا أداة، مجرَّدٌ من حقه في ورقة، قلم وكتاب يُقرأ، يفتح صفحة في ذاكرته ينقش عليها، يحجر ملايين البشر على العالم في زنزانة خوفًا عليه من الهرب والسقوط في أحضان الحرية. على صعيد الحرية يحاول أن يتذكر خواطره عن الحرية التي خطرت له قبل قليل، يختزنها في ذاكرته ويحرسها من النسيان.

ينهض يفتح سحَّاب بنطاله، يخرج قضيبه يتأمله متحسراً، يعتذر إليه عن هذا الظرف القاهر الذي اختزل استخدامه 'للبول فقط'، مع الأسف، يمسِّد عليه واعداً إياه، 'الآتي أجمل من الغادي'، ثم يشرع بالتبول، صوت تساقط بوله يهشم سكونهم المضروب حوله، سكون يهزمه خرير، قلقه يأتي على ابتسامة كانت في طور النشوء، يأخذ رغيف الخبز، يبله بإبريق الماء، يستطيب مذاقه بعد جوع.

لن تجعلوا
من فمي زنزانة
يقضي فيها
مدى حياته لساني

يستيقظ في نوم عميق، تحوم أحلامه حوله، هي الأخرى سجينة، ليس بوسعها هدّ جدار ولا توسيع كوّة كي ينهمر الضوء، هي ليست شمساً لتمضي الوقت بالزنازين، أحلام محكومة برجل محكوم عليه بالغياب، تعاني مثله، شاخت على التحقيق، الأحلام أكبر من الحالم وأبعد منه، الحالم يأسره الحاضر؛ فيما تنطلق هي في المستقبل، 'تأتي من المستقبل وتأخذنا إليه'.

يتداعى الظلام، ينتهز الضوء فرصة فتح الباب ليعبر عنه، يقتحم رجلان الزنزانة؛ طويلان، ضخمان، عابسان، ترتجف شواربهما، يحملان فانوسين، يضعانهما في زاويتين متناظرتين، يخلعان بنطلونيهما ولباسيهما الداخليين، بهاء وسيم، جسده نحيل ولِّين، وجمال وجهه رغم رجولته لا يخلو من مسحة أنثوية، تتعدّد على أثوابه الألوان النسائية البينة على رسمات الورد والنقشات، يتجهان إلى بهاء الناهض على قدومهما إليه، يلعب كل منهما بعضوه طلبًا للانتصاب، يعقد أحدهم يديّ بهاء خلف ظهره بطريقة سريعة ومؤلمة، بينما يقوم الأول بتجريد بهاء من أثوابه، يجهز الثاني بثقله على قدرته على المقاومة، لم يبقَ غير الصراخ والألم، يبطحانه على بطنه، يلهثان ينضحان عرقًا وتصدر عن جسديهما غير المستحمة منذ فترة رائحة ثومية وبصلية، يضغط أحدهما بيديه على كتفي بهاء، ارتطامه بالأرضية الإسمنتية يخلف كدمات في مرفقيه وركبتيه وخدوشاً في قشرة جلده الناعمة، يجثو الآخر على بهاء ماساً وركه وفارداً رجليه.
- توقف لستُ امرأةً أنا.

بعد إخفاق، يكرِّر محاولات ولوج قضيبه في إست بهاء، يؤّهوه، يتألم ويخاف على جسده منهما، يشتد الألم على بهاء كلما توغل القضيب فيه الأعمق، يتأوّه، فيما ينتهي

الآخر ناخرًا إلى حالة القذف، ينهض لاهثًا، يتوقف قليلاً، ثم يتبادل مع زميله المكان والموقف، يفرك الثاني ورك بهاء وهو يلعب بقضيبه، فور انتصابه يدخله بسرعة في إست بهاء ويشرع بالرهز والنخر غير عابئ بصراخ بهاء واستشاطته ألمًا، ينسحب بعد قذفه، يتركانه مقذوفًا فيه وعليه، ثم ينصرفان قافلين باب الزنزانة عليه.

بلا مقدمات زمنية و شعورية يجده مَأبونًا، مُلاطًا به شاذًا، يرتعش جسده المحموم ويشعر بدوران في رأسه، يقوى الشعور بالعار والخزي عليه. تعرض ذاكرتُه عليه سلسلة من الصور المطبوعة فيها عن اللوطيّين، تحطُّ منهم وتجمع على نبذهم اجتماعيًا ودينيًا، يُحكى أن خليفة مسلمًا أمر برمي أحدهم منكسًا على رأسه من منارة مسجد، خليفة مسلم آخر حكم قبله، هو وقائده العسكري كل منهما جمهر ناسًا وأحرق على مرأى منهم لوطيًا، أم بهاء تفضح فعلهم ويصفه عمه بأكبر الكبائر، ثقافة شفاهية تعاقب الضحية المُلاط به؛ فيما تعفو عن الفاعل وقد تفخر بفحولته.

يذكر أن الغلام مثنى يقف على ناصية الطريق يدعو الرجال إلى وطئه مقابل ثمن، لا يجد مثنًى حَرَجًا أو خجلاً من عرض دُبره للاستخدام الجنسي، كان يحترم بهاء ويطمئن إليه، يحدثه عن الذين مارسوا الجنس معه، من بينهم أسماء معروف عنها ورعها ومساعيها الخيرة، اعتزازه ببعضهم وخوفه من بعضهم الآخر يمنعه من التصريح بأسمائهم، يتفهّم بهاء مثنى ويجده خدومًا ولطيفًا لا يتأخر عن واجب وغير مبالٍ باحتقار الآخرين، قد لجأ إلى بهاء مرة أو مرتين طلبًا للمشورة والمساعدة، فلم يبخل بهاء بهما عليه، أما أمه فقد غضبت عليه، غسلت الأرض؛ بالماء، الصابون والاستغفار، ثم رمت كل الأشياء التي قد مسّها أو تناول بها شيئًا؛ كأس الماء، فنجان الشاي، الشرشف الذي جلس عليه والمخدة التي اتكأ عليها. قاطعه أبوه رافضًا الحديث والأكل معه لعدّة أيام؛ لكن ما هو موقف بهاء الآن؟ دخل السجن مناضلاً وخرج منه مأبونًا، هو بهاء ذاته، هل سيفخر بدخوله معتقلات الاستبداد وبصموده فيها وعدم التفريط بشرف موقفه الوجودي؟ منْ يحترم مأبونًا على موقف؟ 'كان الأجدر بكَ أن تحافظ على دُبركَ'، 'دع النضال والمواقف لسالمي الشرج'.. 'منْ لم يحافظ على نقب صغير

كيف يدافع عن وطن كبير؟ ينتفض، لماذا حصروا الشرف بين فرج وشرج؟ لماذا يكون الشرف العربي إما فرَجيًا أو شرَجيًا وليس رأسيًا؟ الرأس مَكْمن الشرف، شرفه موقفه الوجودي من الكون والكائنات؛ لكن لا مفر من الشعور بالخزي، شعور تذكيه الذاكرة الجماعية التي تجمع ذكرياتها الشفاهية والمتداولة كحكايات على تحقير المأبونين. ذاكرة لا تتسامح ولا تتفهم؛ لكن - بعيدًا عن التداعيات الاجتماعية والثقافية- هل سيبقى على سويته الرجالية، يتألم، موجوع المؤخرة، يرعبه التوسع الحادث في إسته، تقلقه التغييرات المحتملة التي قد تطرأ على جسده من جراء هذا الاختراق غير المسبوق؟ هذا الحفر الجسدي قد يؤدي إلى تغيير جنس بهاء من رجل إلى امرأة أم إلى ماذا؟ هل سيتحول إلى جنس ثالث مجهول وغامض، يخترقان جسده، يوصمانه بعارهما وليس بعاره، خلفا وراءهما حفرة في جسده يصعب طمرها؟ الخاصيان أذلاّهُ وتركاه مخصي الشعور، يسقط رضاه عنه وعن الوجود البشري، يسخط على الشق الذكوري من الوجود البشري:

- أهذا تعذيب أم لذّة؟
- الاثنان معًا.
- لذتهما تقوم على تعذيب الآخر.
- أأنتَ ضحية رجل.؟
- العالم بأسره ضحية الرجال.

يحاور بهاء ذاتَه ويمضي إلى التفكير مثلما أساءوا إلى الموت بجعله عقوبة، يسيئون إلى الجنس بتسخيره كأداة من أدوات التعذيب والإذلال وحجة لإقامة الحكم، الجنس علة التكاثر، يتحول بفضل البشرية الفاضلة إلى وسيلة قهر رخيصة وكلمة بذيئة للشتم. يحتقر بهاء ذاته، كونه إنسانًا وعراقيًا، يريد أن يبصق على الوطنية والبشرية معًا؛ مَنْ هؤلاء الأوغاد وما فعلهما الإنساني هذا؟ يؤديان واجبهما الوطني بشرف وأمانة؟ يغتصبان مواطنًا باسم الوطن؟ هل هم بشرٌ أُصلاءٌ، أم أنهم قسوة تتنكر بهيئة بشر؟ الحيوان أخلص إلى غرائزه من الإنسان الذي يتنكّر لها بالتحليل والتحريم، يخون الإنسان مشاعره

الأصيلة بعقله المكتسب، الحيوان هو الأصل فيما الإنسان ظاهرة طارئة، الإنسانية تعبير واعٍ عن قسوة الطبيعة اللاواعية؛ أما بهاء فلا يعرف منْ هو ومن يكون.. إنساناً أم مجرد كائن شعوري مبكر على الوجود الواعي؟ هو ليس سوى مركب من جرح وإهانة، جوف محشو بالعار، قشرة جلدية رقيقة وطبقة لحمية واهية تكسو فراغاً منتهَكاً، يزداد وجع مؤخرته وكدماته، فيما تحرقه خدوشه، دمه بين متفصد ونازف، عظامه المحطّمة المُضَعْضَعة من رهزهما وتعاقبهما على ظهره، يلملم نفسه بألم شديد، يشعر بحمّى ووهن، لا يقوى على النهوض، يفخج في خطوهِ من جرّاء الألم في مؤخرته، يتجمع فيه، يتكوّم في زاويته مندحراً ومنكسراً. إنه خاليَ المشاعر وفارغ التفكير، لا يعرف كيف يقوَى على القيام بأي فعل، بما فيه فعل البكاء، لا يعرف كيف تمكن من البكاء، فبكى.

تفتح باب الزنزانة يدخل الرجلان ذاتهما، ظهورهما ثانية، يكرّس هزيمته وشعوره بالضعف والخيبة، يخاف على جسده منهما، لا يسعه حمايته منهما، ينزوي فيه؛ لكنه يتحدّاهم بمزاولة التفكير والاحتقار، ينالون منه، ما لا يقوى على الاحتفاظ به، دُبره مثلاً، لكنهم لن ينالوا من رأسه، إلاّ بالقطع، يقطع عليهم الحيلة في التعرف إلى رأسه المشغول بالأفكار المناوئة، سيمتنع عن الإدلاء بأية معلومات أو تفاصيل، سيدعم موقفه المعارض ويواصل بكل الوسائل المتاحة نضاله ضدهم. قد يُقطع رأسه لكن لن ينحنيَ، هو ما سيبقى مرفوعاً ما دام غير مقطوع، لن ينالوا منه غير تلك المؤخرة السعداء بوطئها، سيكرّس اعتقاداً فيهم، بعدم قدرتهم على إخافته، يستحضر قصص الضحايا الذين قهروا جلاّديهم بالصّمت والاحتقار، قرأ بعضاً منها وسمع عن بعضها، الصمود يتألف من الكتمان، الصمت، الاحتقار الامتناع عن الإجابة وإشعار الجلاّد بأحقية قضية الضحية وبُطلان قضيته، باختصار إن للضحية قضية عادلة، تشغل الرأي العام؛ فيما الجلاد محتَقرٌ دائماً، هو مجرم شرعي، زائف وطارئ. يشعر بهاء بالتماسك، يراجع هوامش القوة المتاحة له، 'أخرس لا يتكلم، جاهل لا يعرف شيئاً'، هكذا سيكون أثناء التحقيق، وليفعلوا به ما يفعلون، لا خوف من شيء، لا خوف على شيء، لم يبقَ غير الألم والتأليم، حتى الحياة غير مأسوف عليها، ما داموا هم فيها، أينما وُجدوا يصير العالم جيفة تعوم على مياهٍ آسنة.

يتقدمان منه، يسحبانه بسرعة إلى خارج الزنزانة ويركضان به إلى المرأب، يعصبان عينيه، يدخلانه بفظاظة إلى سيارة، ثم ينطلقان به. بعد سير متعرّج وملتوٍ، تتوقف السيارة، يرفع أحدهما العُصابة عن عينيه، يعتذران بطريقة خشنة عن اعتقاله الذي يصفانه بالإجراء الوقائي؛ لكنهما يحذرانه من مغبة إفشاء ما دار في المعتقل، عند المخالفة سيواجه عواقب وخيمة، أمه ستتعرض إلى المصير ذاته، سيغتصبونها أمامه مهما كان عمرها، يلعنان بياض شعرها، حتى أبوه المتوفّى سوف ينبشان قبره ويغتصبان جثته أو رفاته على مرأى منه ومن غيره. يأمرانه بترك السيارة، يُخشّن أحدهما صوته متوعداً؛ الويل كل الويل، إن أباح عن ظروف اعتقاله وما تعرض له فيها. يقف مرفوع الرأس، يخزرهما بطرف عينه، يفضل الانشغال بتعديل هندامه على الإصغاء إليهما، يعطيهما انطباعاً أنهما لا يساويان بصقة، لا يرد على حماقتهما:

- الردُّ على الحماقة حماقة أكبر.

لا مبالاة بهاء تثير حنقهما، مما يدفعهما إلى شتمه: 'أنتَ لست رجلاً، مكانك الطبيعي بين النسوان ودورك كدورهن، ابحث عن رجل أسوة بهن يتستر عليكَ'، يبصقان عليه، ثم يغادرانه بسرعة خاطفة، يتركانه في مكان من حسن حظه يعرفه. من أعطاهم الحق في اغتصابه وتعذيبه، وإبطال حقه في مساءلتهم، لماذا هم فوق الآخرين، وفوق الأخلاق،؟ الأعراف والقانون أحق منه بالوطن والكرامة.

يتمشى قليلاً. يؤدي الشارع الفرعي به إلى شارع رئيسي مزدحم بالسيارات المبالغة بهدير المحركات وأرصفته المكتظة بالمارة وأفواههم العالية الأصوات، الشوارع الفرعية تفرغ حمولتها من البشر والمركبات عليه، صخب ينهى عن الشرود ويبعثر التفكير. يتأمل اللافتات الضوئية التي تتلامظ على وجوه معتمة، تتكتّم على خوفها وإحباطها، يشعر بهاء بنشوة ناقصة، نشوة العاثر على ضائعه بعد طول ضياع، معثور عليه بين ضائعين، ناجٍ بجسد محطم وإست منقوب، يتوجع عليه، لا خيار أمامه إلاّ أن يُطمر سرَّه في الحفرة التي حفراها السافلان، سرٌّ يفضح في بوحه ويجرح في كتمه. سينوء به، لا آخر يتحمل بوحه، لا ليس سراً؛ بل فضيحة موقوتة، لكن لا الأيام تعود ولا

الخزية المشؤومة تُمحى، لا، ليس أمامه إلاّ الانخراط في النضال ضدهم والسعي إلى استعادة سويته الرجالية، يعني بالسوية المتواضع عليها اجتماعياً وثقافياً، أما سويته فهي موقفه الكوني وليس جنسه، إنه حي من جديد، وهذا داعي سعادة، لقدميه نصيب في الخطو، ولعينيه الحق في النظر، المشهد الآن خلافاً لما تركه، يتخلى عن رتابته ويتقدم من البصر بجمال وبهجة. الصخب الذي كان مرفوضاً، يتحول اللحظة إلى ميلوديا حالمة تدور عن الخلود، احتفال سمعي مرئي بمرأى كائن حديث العهد بالنجاة.

يتوقف مقلباً خياراته في التوجه قدماً، يتمرن على كتم سره، يقرر قطع الطريق مشياً، يستغل طول المسافة في التفكير بكيفية التصرف. الاعتقال وضعه أمام خيار واحد هو مقاومة الاستبداد وعدم السكوت عليه؛ لكن كيف؟ لا يقوى بمفرده على مقارعة نظام مستبد، رخّص الإنسان وابتذل القيم، أحزاب كانت هنا ثم هاجرت، وأحزاب أخرى تناضل في الظلام، يفكر بالسفر والالتحاق بواحد من تلك الأحزاب، هناك خلاف فكري بينه وبين الأحزاب، لا يحبذ التنظيم والانضباط، نعم، سوف يسافر، السفر يعده تراجعاً تكتيكياً، أينما يكون سوف يشن حملة لفضح أساليب هذا النظام وانتهاكه للإنسان وحقوقه، حتى لو اقتصر الأمر عليه وحده. كانت مشكلته مع المستبدين عامة، أما اليوم فقد أصبحت شخصية، لكن لمنْ يترك أمه؟ لا أحد لهما، هو الآخر بعد تخرجه من الجامعة، سيكون عمله مشروطاً بولائه وانضمامه للحزب السلطوي القائم على شلة من القتلة. هذا ما يرفضه قطعاً.

يتعالى على جراحه، يحاول إيقاف تداعي تلك الخزية على حياته، سيحيلها ذهنياً إلى مأثرة، ثمن جماله وعدالة موقفه، يريد أن يعود إلى حياته كبير الأمل وألاّ يُمكّن وغدين من النيل منه ومن موقفه الكوني، يتوقف عند دكان بقالة، يشتري دفتراً وقلماً ويطلب كأساً من الماء، يدفع من المبلغ الذي نجا من يدهم، يشكر ثم يودّع، يقترب من موقف باص مضاء من مصباحٍ متدلٍّ من عمود، يضغط ليعود إلى سويته الفكرية، يدون: الإنسان وحشٌ يمكن أن يكون أليفاً بالحب، الحب اعتذار غير ملزم على وحشية الإنسان المتأصلة، الحب يعمق الجمال، فيما الحرية تزيد من الإحساس به.

يقترح بهاء على البشر قيماً ثلاثًا، الحرية، الحب والجمال، ويفترض عناصر ثلاثة يتكون منها الموجود، الرغبة، اللذّة، والألم، لعله يكون قد ردَّ بها على الإغريق السعداء بتوصل فيلسوفهم 'أنبا دوقلس' إلى العناصر التي تتكون منها الطبيعة، التراب، النار، الهواء والماء، يدوّن هامشاً، لا يتقصَّد الإساءة إلى الصينيين، بسبب رفضه لفرضية فيلسوفهم ' شي بو' حول العناصر الخمسة، التراب، النار، الماء، المعدن والخشب، لا يقر بالهواء عنصراً ويفضل عليه المعدن والخشب؛ لكن بهاء يعلق اعترافه بـ ' شي بو' حتى يوافقه على تجنيس المعدن بدلاً من الاكتفاء بتنويعه، فيجنس مؤقتًا النوع المعدن إلى الحديد، وبذلك يمكن تحليل شخصية المستبد، فيرى أن أنشط عنصرين فيها، هما الحديد والنار، ومسوغ وجودها الدفاع عن التراب والهجوم على الهواء، يجد هذه اللعبة الفلسفية، وغيرها من اللعب الكلامية مقبولة ما دمت تخلو من إلحاق الأذى..

- الجنس أبو الأشياء كلها.

يشعر بنصره عليهم وتمكُّنه منه، الآن، يقف خارج الزمن وداخل حياة لا يداخلها الموت، نعم يتقهقر الموت أمام حيويته الظافرة. يسير ببطء، يلفت نظر الناس الأحياء إلى فرق نجاته عنهم، يخترق وجوهاً شاحبة الملامح، أطفال يمتهنون مهن الكبار، الأعمار تبدو طاعنة في القدم، فيما سنواته خَجلَى من تواضع رقمها، الحياة موقف وأعمال الحي تُعد أعوامه عليه.

تهبُّ رائحة الشواء والأطعمة فتحرِّض عليه جوعه، جائع لا يقوى على الأكل، ينعطف إلى شارع يبدو قليل الحركة والظهور، ضوء أصفر باهر مغزول بدخان أزرق تتخلله أجساد لينة مشتتة، يقترب بهاء تتضح إليه المصابيح المتدلية وجوهاً نسائية نيرة الجمال، مكياج لمَّاع يشكِّل ظلالاً لونيةً على ملامح أنثوية متألقة، أثواب ملونة بارعة بعرض أجساد ماكرة الأعضاء، امرأة بفستان طويل، عطرها نافذ، وجهها جميل وشفتاها الغليظتان عليهما طلاء فاقع، تستوقف بهاء تساومه على جسدها، تحت إشراف مصباح متدلٍ، تفتح بسرعة فستانها، فينجلي صدرها بنهدين ناعمين، خصر دقيق يحتضن سرَّة

غائرة تشرف على مثلث حليق الشعر، تثير حركتها السريعة وعري جسدها فضول رأس بهاء، فضول لا يتطور إلى انتصاب.

- أتضاجعني.؟

- لا.

- يا لوطي.

تردُّ بحنق وتقفل فستانها على جسدها، عبارة (يا لوطي) التي كان بهاء يضع نفسه في موقف كي تقذفه امرأة بها، تضحكه وتثيره في آنٍ واحد. الآن صار وقعها جارحاً عليه. يشعر بالصدمة، يرتعش خوفاً من احتمال تغيره، لا يطيق تغييره ولا يحتمل تبعاته، يتضوَّر حزناً، يرثي رجولته القتيلة، يسرع في خطوه، يفر منه، يريد أن يضيعه ولا يعثر عليه كأطلال ذكورية تبكي الرجل الذي كانَهُ. يدخل إلى بيته، تهب أمه عليه، تشمه وتضمه إلى صدرها نائحة:

- لِمَ غبتَ عني.؟

- ما غبتُ؛ بل غيَّبوني.

- آلموكَ؟

- ومنْ يؤلم غيرهم.؟

تلطم على خدَّيها، ابنها الذي يبقى طفلاً مهما كبر. يعذبونه على مسمع منها وتعجز عن غوثه. يتضاعف شعورها بالشيخوخة، تواسيه بأن لعنةً سماويةً ستحلُّ عليهم، تخفف عنه بما تقدر عليه مثل؛ البكاء، إعداد الطعام، تحبيبه بالماء، تذكيره بفوائد الاستحمام. لكنه يفضل النوم على كل الأشياء المقترحة عليه والمتمناة له الآن، يُقبِّل يدها ويمضي إلى فراشه، يسقط في النوم فيما تقوم أحلامه.

تتلاحق نقرات حادة على الباب، رنين التليفون لا ينقطع، يصحو، يلفه ظلام دامس، يشعر بصداع وغثيان، يحاول النهوض فيصده جسم حديدي، يتلمسه، يحسه سريراً وهو ملقًى تحته. يزحف، يتمكن من الوقوف، يمشي متحسساً، يتوصل إلى زرٍّ يضغط عليه فيتوهج الضوء، الستارة مسدلة، زجاجة الويسكي فارغة وساقطة على أرضية الغرفة المعبوث بها، جوارب وحذاء، الرائحة الكريهة تفسد الجو، تتواصل النقرات ويستمر الرنين، يجده في سروال بدون قميص، يفتح الباب قبل شروع عمال الفندق بكسرها، يعتذرون عن إزعاجهم له، يضعونهم في صورة القلق عليه، لم يرد على المكالمات التليفونية المتكررة بإلحاح، الباب مقفول والمفتاح داخل فيه بطريقة يصعب إسقاطه من الخارج، يحول إقفال الباب والمكوث بلا رد على نداء دون تنظيف الغرفة وتبديل الغيارات، يتوقف رنين التليفون، يتوقف خائر الجسد، يومئ برأسه الموجوع موافقةً وبيده الواهنة يعبر عن اعتذاره.

يغلق الباب دونهم، يشعر ببرد قارص وجوع شديد، يطوق معدته بذراعيه ضاغطًا عليها، يضع جاكيتاً عليه، يلتهم حفنة من التشبس، لا يقرب الثلاجة؛ الحليب قد فسد والفاكهة تعفنت احتجاجاً على غياب سعيدة. دخل الحمام، خلع ملابسه وغطس في البانيو الملآن بالماء الفاتر. الآن، لا يعرف كم الساعة ولا يتذكر أي يوم هو فيه، لا يعرف أيضًا كم دقيقة أو عام انقضى على نومه، لا لم يكن نائماً، بل مغشياً عليه.

غادر الغرفة الوسخة نظيفًا، ترك النوافذ مشرعة، يراهن على الهواء في حمل الغرفة على النقاء. رحّب موظف الاستقبال به، معتذراً عن إجراء الإدارة ومبرراً إياه بالقلق عليه. ينطلق من ضيق الفندق إلى رحابة الشارع.

الغروب ينتهي إلى مساء، الجوع يدفعه إلى تناول وجبة سريعة التحضير، يتجنب الاحتكاكات البصرية، يميل إلى الاختصار في كل فعل، يعجز عن التواصل مع الآخر، يفكر بتعقب ربّان البحر في الأمكنة التي تحتمل وجوده على مضض أو على ترحيب. يتوقف قليلاً، جسده يعتذر عن كل أمنياته عليه ويحمله على الذهاب إلى الفندق

والتصومع في الغرفة، يحتاج إلى الجلوس إليه والانفراد به، تجرّد الآخر، وشيء من القدرة على انتزاع بهاء من وحدته، شعور بالبلادة يطغى على ما حوله، على الجهات المتفرقة إلى أربع لا تكف الأشياء عن الظهور على هيئة عربة، ماكينة، أو على صورة بشرية ذكورية مرة وأنثوية مرات. كل شيء بليد ورتيب، لا شيء أهم من أن يُعبئه في قنينة حجرية ويغلق سدادتها عليه. لا يتذكر ما حدث أثناء قيامه بأفعال مثل؛ السير، أخذ المفتاح، الوصول إلى الغرفة وفتح الباب. لا يتذكر سوى سرير مفتوح ألقى جسده عليه، يقبل على النوم، يودع المساء ويقفل عن الأحلام، يسقط في النوم، ليس طلباً للراحة ولا سعياً وراء حلم؛ بل يسقط في النوم من أجل صباح جديد، النوم أقصر طريق إلى الصباح.

أُلقي بجسدي
كمنْ يسقط من أعلى
فينفتح السرير
لأفارق الحياة.

يصحو مبكراً، يذهب إلى الحمام، يحلق ذقنه، يمرح على حفاوة المرآة بوجهه وبما يتراءى من جسده لها. تخطر سعيدة على باله، هاجسها الغامض يحمله على الشعور بالعبث. يرتدي ملابساً كيفما اتفق، غياب سعيدة غيَّب الرغبة في الظهور وعدم القدرة على الاختباء، قلقه على مصيرها يدفعه إلى العزوف عن ممارسة طقوسه اليومية، غيابها علق المتعة. تواتيه فكرة على صيغة اقتراح بتغيير الفندق، لكن لأي غبار يترك بصماتها؟ ولأي نسيان يعهد بذكرياتها؟ يوشك على البكاء عليها؛ لكن لا يجوز استقبال يوم جديد بوجه باك. بكاء الصباح نذير شؤم، الضحك شروق الوجه وغروبه البكاء، لا يريد أن يصحو غائماً على صباح صحو، يكتفي بهذا القدر من الحزن ويعلق الباقي حتى لقاء ريَّان البحر في مقهى مراكش وتناول القهوة معه، سيناقش تغيير الفندق وغياب سعيدة عنه، لعله يعيره بعضاً من خبراته لاستيعاب ما أحدثه تغيُّب سعيدة المبكر والقسري عنه. هو خبير الأحزان، نصيحة ومشورة وفنجان قهوة سادة.

- صباح الخير، سيدي.

- صباح النور.

- امرأة في مكتب الاستقبال تطلب لقاءكم، سيدي.

- سآتي حالاً.

راحت على ريان البحر معية تناول القهوة، القهوة مع امرأة ألذ، حلو الكلام يذهب بالمرارة، تكفي نكتة سخيفة وضحكة مفتعلة على دحر الحزن. قهقهاتها المتلاحقة تدفع العالم الرصين إلى هز وسطه، تخلب لب العقل بتحليلها المغناج لأحداث التاريخ العظيمة، المرأة حدث العالم الجميل، كل شيء يصبح ليّناً عند الثرثرة واستعراض الميوعة، يلقي نظرة عليه، ظهور المرأة دافع إلى الأناقة والمرح، تلومه المرآة على اضطراب ألوان ملابسه، يندفع سريعاً إلى البحث عن ملابس على وفاق لوني، يستقبله موظف الاستقبال بابتسامة مهنية، يشير إلى المرأة التي في انتظاره، يسلمه المفتاح ويتجه إلى بهو الاستقبال. امرأة جالسة تعطي وجهها إلى النافذة، ترتدي جلبابة صفراء، صدارة النهدين أو النهدين ذاتهما وراء هذا الاندفاع الصدري المُغرض، شعرها أسود فاحم، وجهها يميل إلى السمرة، خال على خدها اليمنى، على شفتيها طلاء برتقالي فاتح، وركها يتحين الفرصة للتعبير عن اكتنازه، تقف إثر توقّفه عندها.

- صباح الخير، آنستي.

- صباح النور.. سيد بهاء، أليس كذلك.؟

- بكل ثقة مأسوف عليها، نعم.

- أحمل إليكَ رسالة وحقيبة.

- ممنْ؟

- من السيد ريّان البحر.

- أينه؟

- لقد سافر.

- كيف.؟ لِمَ لم يتصل بي؟

- جاءكَ واتصل تليفونياً عدة مرات رغم ضيق وقته.

- ما اسمكِ؟

- زُلفى، سيدي.

يتداعى على الكرسي، يشعر بانهيارٍ شامل، يضيق صدره ويصعب تنفسه، يصحو فيجده خائناً، ينجو من نوم غاشم، فيراه ناكث وعد وقليل وفاء، يخذل ربّان البحر المخذول أصلاً، يطلب إليها الذهاب معاً إلى فضاء أرحب، يشعر أن الهواء قد قلَّ هنا، يترك إليها اختيار المقهى أو المطعم، ما يهمه هو الوصول إلى مكان أوسع، ينتابه شعور بالضعف وبالمرارة من خذلانه لسيد يحترمه ويحبه، إثر نومة بليدة يغادره صديقه مخاناً ومخذولاً، يسقط رضاه عنه، يراه قبيحاً، ينفر منه. سوء الأفعال تذهب بالجمال. لا جمال في السوء. كم هو سيء منْ يخذل سواه؟

يتقاوَى على الوقوف والسير، وقعُ سفر ربّان البحر على بهاء يتجاوز حدود تصور العاهرة زُلفى. كانت تعتقد أن عملية تسليم واستلام الأمانة ستتم بسلاسة، كما هو معهود، وستُكافأ بمائة درهم أو ألف شكر في أضعف حال؛ لكن أن ينقلب المشهد إلى دراما تنذر بمأساة، هذا ما لم تهيِّئ نفسها إليه. نعم، إن عملية تسليم الأمانة - عدا ما خطر لها من مكافأة مالية وتقدير معنوي- ستوفر لها الفرصة لممارسة مهنتها عبر عرض الأنثى التي فيها على الذكر الذي فيه، داخل ومدخول وثمن مقبوض، وكل حيٍّ حرٌّ بحياته، توافق العاهرة زُلفى بهاء بلا فهم وعلى مضض، تحمل الحقيبة بدلاً عنه، تسير معه بينما يسير هو وحده، تختار مطعماً مطلاً على البحر، يهتديان إلى زاوية بالقرب من الزجاج، بمساعدة النادل المرحب بهما أكثر مما يجب، لا يستوعب بهاء ما يحدث، تغيُّبٌ قسري، نوم قاهر وسفر إرادي، كأساً من الماء البارد يطلبُ، يفتح الرسالة ويشرع بقراءتها:

؛ صديقي المؤلم بهاء، لقد آلمتني، اتصلتُ بكَ وجئتُ إليكَ، بلا جدوى، رغم ضيق الوقت وكثرة المشاغل، تعتصم في الغرفة مضرباً على المغادرة والرد على المكالمات، أتمنى أن يكون المانع امرأة، وراء كل تخلف رجل عن رجل امرأة، الخيانة بدافع امرأة وفاء، يا خائني الوفي أملكك ما لا أملك، من شمس وهواء 'كل أراه ملكي'، رسالة وحقيبة تحملها مني إليكَ هذه الزهرة الأنثوية اليانعة في حقل الذكورة، بالمناسبة عاهرة هي، تعرف كم أثق بالعاهرات، الدعارة أشرف مهنة، لا تمارس تحت شعار حماية الفضيلة ومكافحة الأمية، ادفعْ وتمتع، على قدر مالك تأتي متعك، لا متعة بلا ثمن؛ أما على صعيد الصور المرفقة، هناك صور السيدات اللواتي تشرَّف جسدي بمواقعتهن، احتفظت بها لنفسي؛ أما الصور المرفقة فهي لسيدات لم أضاجعهن للأسف. على ظهر الصور أرقام تليفونات وعناوين، أتمنى ألاَّ تكون غير صالحة بسبب الإصلاحات السياسية والعولمة، أضعها تحت تصرفكَ الجنسي، ضاجعهن أرجوكَ، أهبكَ الكؤوس والأباريق، كما أضع تحت عنايتكَ دفتر يومياتي، فيه ذكرياتي، ثروتي الوحيدة في عالم أفقرني من وطن ومنِّي، الذكريات أمانة لديكَ، عاملها بما يليق بها.

- ذكرياتي أناي الحاضرة في غيابي.

صديقي المؤلم، سافرتُ إلى الالتحاق بالمجد الذي تأخرت عليه، هناك سأقوم بإنشاء نواة لحالة بشرية، ربما تنمو لتغدو مجتمعاً، لقد عاينتُ جزيرة صغيرة منسية، أخطط إلى القيام بنشاطي الجمالي عليها، سأؤسِّس تجربة جمالية قائمة على الحرية، تبدأ حريتي عندما تبدأ حرية الآخر، لا حرية لفرد على إنهاء حرية سواه، حريتي امتداد لحرية غيري وتأكيد عليها، سبقني جماعة قليلة العدد من رجال ونساء، تمَّ تعارفُنا على متن سفينة قبل ثلاث سنوات وبقينا على تواصل بريدي وتليفوني، يمكن أن نحدث معاً تجربة قابلة على التعميم، نسعى إلى إنشاء وحدات بشرية متجانسة المشاعر ومتشابهة المواقف، وحدة الشعور توحد الجماعة ويؤلف بين أفرادها الشبه في الرؤيا، شركاء في المشاعر والمواقف، نعم وحدات بشرية شعورية تنبذ العنف والكراهية وترفض الصراع، تتجاور بسلام وتتطلع إلى جيرانها من الوحدات الشعورية الأخرى بمحبة

وطمأنينة. مجتمع يقوم على أسس شعورية وليس على أساس عرقي، نحلم بإقامة وطن الجسد وعاصمته القلب، الكون مشاعية الكائنات، يقوم المجتمع الشعوري على مفاهيم، العمل خيار شخصي، الكل للكل، الأخذ طبق الحاجة والعطاء وفق الرغبة، 'خذْ ما تحتاج وأعطِ ما تشاء'، لا عزم بلا متعة، حفظ آلات الوقت، حصر العلوم بالصحة، البيئة والجمال، الحث على الخضار وتبشيع تناول اللحوم، لا شرعية لحياة كائن يحيا على هدر حياة كائن آخر، إبطال الضراوة، إحالة ما هو خاص إلى عام، التعلق بالثقة وتعليق الحذر، دفع الأقفال والمفاتيح إلى الإهمال، ترك التعامل بالمحاذير والأسرار بوصفها تركات عصور الرعب، الحاجة إليها قامت على خوف وحيطة لا وجود لهما في عصر الحرية، عصر الحرية سيدشن تاريخ البشرية لأول مرة، لا يعرف الإنسان عن الحرية غير لفظها وكلمة يحسن تهجّيها، يخدع بها ويستعبد باسمها، العبودية تنجز مشروعها فيما الحرية لا تزال فكرة، ليحيا الكائن على فطرته، وليكتسب الشعور بالجمال، كل شيء بالحب ممكن وجميل، الحب قيمة تقوم على القيم، توسيع البهجة وتضييق الحزن، توطين الأمن ونفي الخوف، قلبنة الموجودات، إشاعة الموسيقى وإذاعة الشعر، عصر الحب يدشن التاريخ، سنعهد في المستقبل إلى العاهرات دور إعادة تأهيل الساسة والعسكر إلى الحرية والحب، أوصيك بكَ، لا تقضِ يوماً منكوداً، كنْ مجهولاً على حزن ومعروفاً من فرح، عش حاضركَ، فالحاضر هو ماضيكَ الذي سيمضي ومستقبل الآتي، لا تؤجل متعة اليوم إلى الغد، فالغد يوم آخر وأمس سيمسي، الجسد أمانة كونية لا تعذبه بالحرمان ولا تنتهكه بالعمل، افعل ما تحب وأحبب ما تفعل، لا وصاية عليكَ، لا تكن حرّاً بين سجناء ولا سجيناً بين أحرار، لا تدع شوقاً أنتَ حرٌّ به يستبدكَ، ابن الأرض أنتَ امرح، الهو، اعبث، اليوم أنتَ على صدرها وإلى عمقها غداً ستؤول، أنتَ فرصتكَ الأولى والأخيرة، لا تتأخر عليكَ فتوتكَ، حطكَ بحسناء تحسن إتقانكَ، أحسنْ إلى حُسنها بحسنكَ إليكَ، كنْ أنيقاً أيها الولد، الرجل فن المرأة فيما المرأة علم الرجل، العالم سريرك لا تقضي العمر المحسوب عليكَ غافلاً أو نائماً، مارس اليقظة ومارس متَعَكَ، مارس الجنس وباركه، الجنس علة الوجود، لا تجعله كلمة أنانية ولا أداة إذلال، لا يأخذكَ شيء

عنكَ لا قيمة لقيمة من دونكَ، كل الكل أنتَ فكن جميلاً ومحبوباً. نفيسي بهاء، هل يمكن أن تقدم لي خدمة بسيطة، هل تستطيع أن تشن حملة لتجريم استخدام الأسلحة وتحريم علومها، هل يمكن أن تقاضي صانعيها ومستخدميها، سأكون مديناً بالشكر لكَ لو فعلتَ ذلك. أنا أتعبكَ معي، أليس كذلك، لا أتمنى ذلك. سأكتب إليكَ، لن أنساكَ أيها العظيم بإصغائكَ، اعذرني عن عدم إعطاء المزيد من الإيضاحات والمعلومات حول السفر، واسطته ووجهته، الزمن لنا مادمنا أحياء، علينا عدم تبديده بالعمل وسوء الفهم، إلى لقاء».

شريككَ الكوني ريَّان البحر.

يتنهّد بهاء، يطوي الورقة ويعيدها وصور النساء إلى المغلّف، يتفكر، يحاول الخروج منه ليفهم ما يدور حوله وما يحدث له، تغييب سعيدة مقبوضاً عليها، تغييب ريَّان البحر سفراً ساعياً إليه، ما هذه النهايات الطاوية لصفحات لم يبدأ بقراءة بعضها ولم ينتهِ من بعضها الآخر، نهاية شاذة عن قاعدة البداية، يجوب الأرض بحثاً عنه، يحلم أن يعثر عليه في امرأة أخرى، يحبها، الغرض من وجوده هو الحب، نعم وجدِ ليُحِب ويُحَب، لا يحلم بغير الحب، سيتحقق كائناً بعد وهم، ينتظر ظهور الحب بهيئة امرأة، لعله يستريح من عناء التهيؤات وشقاء الخيال، وحتى يحين ظهور الحب يقضي وقت انتظاره، بالاستمناء ومطالعة الكتب الفلسفية.

ينتبه بهاء إليه، يرى أن ليس من الذوق الانصراف بالتفكير والوقت عن العاهرة زُلفى، يستدير إليها، يجدها مندمجة في مشاهدة برنامج تلفزيوني، هو حوار مع ممثلة موهوبة الجسد، تسيل أنوثتها على الشاشة والمشاهدين، تشهق مع قولها لاسم وتتأوه مع الفعل وتمط شفتيها متراقصة في الرد على الأسئلة، ينتاب بهاء فضول في متابعة البرنامج التلفزيوني هذا، 'زيارة إلى فنان'.

- لو دخلتِ بيتاً ورأيتِ لوحة معوجة، هل تعديلها دون استئذان؟

- على طول، الله.

-هل تذكرين رقم سيارتكِ؟

- لا، خالص.

- هل تفضلين اللون الأصفر؟

- أموت عليه.

- هل أنتِ، عبقرية، ذكية، محظوظة أم واثقة من نفسك؟

- بصراحة، أنا خلطة منها.

يقطع اندماجها في متابعة البرنامج التلفزيوني، ضحك بهاء الذي سرعان ما يتحول إلى سخرية وتهكم، تحاول أن تستفسر بنظرة من عينها وحركة من كفها، سرّ تحول بهاء من التراجيديا إلى الكوميدية، ثم ما الذي يدفعه إلى الضحك؟. يقترح عليها بهاء تناول الفطور معاً، لا تمانع على العكس تعتبر تصرفه لطفاً منه، تومئ إلى النادل وتحجز وجبة الفطور اليومية، يطلب بهاء التعجيل بكأس عصير البرتقال.

- هل أنتِ معجبة بأدوارها؟

- لا، بفساتينها.

يتكشف جمال العاهرة زُلفى مع مرور الوقت على حضورها، يتأملها بهاء، بينما تدهن قطعة من الخبز بالزبدة، ثم تضع مربّى الكرز عليها، تلحس قبل البلع. تصحو العاهرة زُلفى متأخرة، بسبب عملها المرتبط بالليل، لكنها استيقظت مبكرة هذا الصباح، استثناءً لكي تؤدي الأمانة إلى أهلها، هي تعز ربّان البحر كثيراً، لقد أعجبت برجولته من أول مصّة، ذات نهار توقفت عند باب مسكن كانت تسكنه قوّادة 'جرارة'، قصدتها العاهرة زُلفى لتساومها على زبائنها من الرجال، لقد شحّ الطلب على جسدها المعروض، والسوق الجنسية أخذت تعاني من الركود بسبب 'نهاية التاريخ'، 'صراع الحضارات' الدموي واشتداد حروب الشرق والغرب، تسللت من يدها نقرات ناعمة، لكنها فوجئت بظهور رجل طاغيَ الرجولة، هيبته أسرت في جسدها قشعريرة، لم يكن

عابساً ولا باسماً، يترك النهار يملي عليه ملامحه بجدية، ارتباكها جعلها تتلكأ في تبيان قصدها وطرح سؤالها، افتعلت كلاماً لتطيل بقاءها معه:

- هل تحتاج إلى شيء سيدي؟

- أنا أجهل الحاجة وأعرف الرغبة؟

- ماذا ترغب؟

- أرغبُ فيك.

- أنتَ قليل الذوق.

- وكثيرته أنتِ.

صراحةُ عرضهِ ومن هذا الرجل بالذات قد جرحها، 'اكذب عليَّ ولا تجرحني، جاملني'، أعطته ظهرها وسلمت إلى الطريق خطاها يتصرف بها ويحدد وجهتها، يدع ربان البحر الباب مفتوحاً ويتجه إليه وسط الغرفة يواجه المرآة الكبيرة، تحسن المرآة إليه باستحسان وجهه، تدله عليه، الفرحة المعثور عليها تضيِّع تجعيداً، يفاجأ أن وجهاً مليحاً يشاطر وجهه، تنحاز المرآة إليه، تطرحه على تدقيق ربان البحر فيه، يميل إلى السمرة، ينجذب الضوء إليه، حوله شعر يفحم بسواده، قرطان غجريان تلومانه على ركون، تدليهما يشرِّده إليهما، عينان واسعتان على رؤية الرغبة وعميقتان برؤيا اللذّة، شفتان غليظتان ينفقع عليهما لون بني، مكياج خجول يتردَّد من جمال جريء تكشفت الجلبابة المخلوعة عن ثوب أسود شفاف، مختصر ومثير، ضوء سائل يتصبب لمعاناً على العنق والصدر، صدر متنهد يحمل على النظر إلى نهديه، تفرج شفتاها عن ابتسامة آسرة، على الفم تواقع النظرة الكلام.

- اسمي زُلفى.

- ما اسمك؟

- اسمي يسميه موقفي.

- ما موقفكَ الآن؟

- واقف على انبطاحك.

- أعطني سريراً وخذني.

- السرير سر سروري.

- السرير يبوح لكَ بسر زُلفى. يضمها إلى صدره، تعطيه قبلة مجانًا وتتغاضى عن ثمن بعض المداعبات، لكنها لا تخلع لباسها الداخلي ولا تفتح ساقيها إلاّ بعد الاتفاق على سعر يروق لها، يتناسب مع جمالها وخبرتها في تصنيع المتعة ونشر البهجة، خشيت أن يحول طلب الثمن دون تلاحمها الجسدي، لقد أثار شهوتها إليه، لكن المبدأ هو المبدأ، هذه مهنة ولا يجوز الإخلال بها حتى أن قبلة الفم غير مأذون بها ولا تتضمنها قائمة العرض الجنسي. لا يهمه المال فيحتقره، يرفض أن يكون سببًا أو حائلاً دون متعة، المتعة شعور شخصي فطري بتحقيق إشباع رغبة أو سد حاجة، المتعة الجسدية حق طبيعي غير قابل للمساومة والبيع، يريدها ألا تفكر بالمال كثمن نظير تسخير جسدها للاستخدام الجنسي، يرجوها أن تنظر إليه كهدية من رفيق رحلة متعة، كلامه لم تألفه من زبون غيره، لكنها تريد أن تفهمه كإقرار لفظي بمبدأ الدفع، ترتمي عليه، تأخذه بقبلة لاهبة وخالصة، توافقه على قول لا تفهمه، المهم تستمع إليه، وليس بالضرورة أن تفهم ما يقوله، ليس كل ما يقال مفهوماً، جاءت لتجعل الكذب صدقًا، إذا اقتضى الموقف، الكذب والمجاملة من عناصر عملها، إنها تكذب؛ لكنها لا تغش، توهم ولا تخدع، هنا ستكون عارية بين جدران الرغبة، لا تتقصَّى كذباً من صدق، الكذب ضرورة اجتماعية، الكذب في مهنتها صدق، لولا الكذب والنفاق لتذابح البشر وسقط منهم العديد كقتلى، دونه لتوترت العلاقات واحتقنت النفوس، واكتظت السجون بالجناة والمصحات بالمصدومين. ضحايا الصدق أضعاف ضحايا الكذب؛ لكن بدلاً من معاقبة الكذاب لماذا لا يجتث الكذب.

بُعثت من أجل إمتاعه، ستعمل بكل أعضائها على أن تتحول المتعة إلى تجربة ومن ثم إلى ذكرى لا تنسى، تستأذنه بالذهاب إلى الحمام، تشطف جسدها وتصوِّب شعرها، تطل عليه، وجهها يستدير على ابتسامة ويدور الجمال حول ملامحه، من شعرها تأخذ خصلة تلويها ثم تعقدها والباقي تدعه مرسلاً، شريط وردي تلفه حول جبينها وتعقده

من الجهة اليمنى. ينهض إلى استقبالها، ينحني مقبلاً ظاهر كفها اليمنى، تطلب إليه إحكام إغلاق الباب والنوافذ خشية أن تدهمهما الكوابيس، يدفعه الجمال والذوق إلى استئذانها بالذهاب هو أيضاً، تخرج العاهرة زُلفى شريط كاسيت من حقيبتها، تضعه في آلة التسجيل، يصوّت بموسيقى إيقاعية تهتز لها البطون، يأتي أنيقًا متألقًا، يبالغ شعره الطويل ولحيته باختلاط حمرتها وبياضهما، رجل أنيق أصهب يتقدم منها، يسفّل نظرته إلى ما بين الركبة والرقبة، فيما تصعّد من نظرها إلى وجهه، تسوح على ملامحه المهيبة، تجلسه إثر قبلة، تتراقص أمامه على الإيقاعات الشرقية، كل عضو منها يهتز رقصاً، ينشر بهجة ويحقق إمتاعًا، تتداعب عليه، يبطحها على السجادة، جعل جسدها اللين مائدة زاخرة بالطيبات من فواكه الأرض وشرابها المعتق والطازج، لا يفرق بين الرمانة والنهد، تتموع العاهرة زُلفى وتتلوّى بين أحضانه، يقطر هو عليها ويلعق.

- الحَسْني كشيءٍ حلو، لا تبقِ على شيء منه.

تلحس بقايا مربّى الكرز المتخلف على شفتيها، ثم تزمهما، يتقصّاها بهاء بصريًا، جانب من وجه أنثوي، شعر أسود، قرطان غجريان يعترضان رسله، وراء الوجه بحر يؤاخي بين الزرقة وأشعة الشمس الذهبية، أُفق يقبل الإبحار إليه دون وعد بساحل أو جزيرة، قوارب تبحر على أمواج هادئة، هواء يداعب الأشرعة، يكسر بهاء تداعيات المشهد على الرغبات الموقوفة بسبب الخشية من النهايات الغاشمة.

- ماذا تطلبين؟

- مائتا درهم.

- على ماذا؟

- مبلغ ليس كثيراً على المص واللحس ووضع الحصان الذي تتميز بالقيام به، تجلّس ظهرها، تتحدث كخبيرة ذكورة: يضاجع الزوج زوجته مضاجعة رسمية، تستلقي بأدب، تكشف عن ساقيها بحشمة، يفرج ساقيها ويستلقي عليها باحترام، عملية جنسية فاضلة، سرية وصامتة، تكمم الزوجة فيها فمها، تكون الزوجة أداة لينة وطيعة لتسهيل بلوغ العملية الجنسية من غرضها القذفي، الجنس للإنجاب فقط، لكن الويل للزوجة إن

تأوهت، رهزت أو تجرأت على أن تكون فارسًا تمتطي حصانًا يكون زوجها، سيحسبها رخيصة وسيصنفها عاهرة، يتوجب عليهما الانفصال، بعد إتمام العملية الجنسية المحترمة، يتعاقبان بالنهوض والذهاب إلى الحمام للتطهر بالماء والصابون من رجسها. الرجل هنا، كما خبَّرته العاهرة زُلفى، يدفع مبلغًا كبيرًا من أجل أن يستمتع بسماع تأوهات المرأة العاهرة ونخرها ورهزها، ينبطح تحتها لتمتطيه كالحصان، هذا هو وضع الحصان مرغوب من الرجال وخصوصًا الأزواج منهم، مع مرور الوقت أتقنت ركوب الرجال وأحسنت التأوهات.

لا يبدو بهاء مكترثًا بها كعاهرة، لا ينكر جمالها طبعًا وشرحها اللبق الذي لا يخلو من الإثارة، يسترعي فضوله وضع الحصان كعرض مهني وطلب ذكوري، لا يميل بهاء إلى ممارسة الجنس مع عاهرة، يصعب عليه شراء متعته، لا يفهم كيف سمحت الثقافة البشرية بتحويل المتعة إلى سلعة، لا ينفي أنه قد مارس الجنس فعلاً مع عاهرات بدافع الفضول، الحاجة أو الضعف أمام جمال وإثارة بعضهن، تأخذ العاهرة زُلفى رشفة من القهوة بالحليب وتمنح البحر نظرة رضى، يبدو عليها أنها أدت أمانة، تناولت فطوراً مع رجل وسيم في مطعم بحري، تحدثت عن خبرتها المهنية فأصغى. يخرج بهاء من جيبه ورقة نقدية بمئتي درهم، يدسها في يدها، تنظر إليها بدهشة، تستفسر عن سبب دفعه المقدم عن عملية جنسية لم يُبت بها، ينفي بحركة رأس رغبته في الذهاب معها بعيداً حد السرير.

- لِمَ تدفع إذن؟

- أنتِ طلبتِ؟

- أنا أساوم، أنا عاهرة ولست شحاذة تتصدق عليها بدراهمك.

- آسف، لم أقصد.

- خذ ورقتك النقدية تصدق بها على غيري. تغادره مجروحة ومنزعجة، تلعن عينها على تجرؤها عليها بدمعة غير مرغوب فيها الآن، ليست ضعيفة أو مهزومة لكي تبكي، إنها

مجروحة، تو صيه بالحقيبة، تجمعها فيها وتنطلق إلى سوقها الجنسية تعرض بضاعتها الجسدية على الطالبين، تترك بهاء إليه.

صدمة تشبه صفعة يتلقاها، توالت الصدمات عليه، نهاية مهينة تسبقها نهاية مريرة. ما سر النهايات هذه التي توالت دون بدايات؟ يفكر بتقديم سفره والذهاب إلى الدنمارك، حيث طغيان البرمجة، النهاية محفوظة ومدونة في المفكرة اليومية، بالعام، الشهر، الأسبوع، اليوم، الساعة والدقيقة، لا شيء يحدث مفاجئًا أو عفويًا، الوقت سلعة مباعة أو محجوزة سلفًا، كل شيء محسوب ومعلوم، سوف يقدم موعد عودته على أول رحلة جوية ممكنة، نعم سينضم إلى وحدته، فرد أحد لا أحد له، غرفة تقاسمه حياته ولا تنقسم عليه، الغرفة ثوبه الحجري، لا يطول، لا يقصر، ولا يبلَى.

يهمل الورقة النقدية التي أهملتها العاهرة زُلفى يغادر المطعم البحري، الصُّوَيْرَة مختصَرة الآن، شارع خالٍ يقطعه، السماء غبارية اللون تحلق فيها أسماك طائرة، طيور غائرة في بحر جامد زجاجي السطح، لا محال ولا مبانٍ تشغل جوانب لم تعد جوانبًا، بل امتداد مترام، يتمرد العالم على الجهات الأربع بالمدى اللا نهائي، يقف بهاء عند واجهة تشير إلى دكان بيع خمور يريده فيكون، يدخل بهاء. فراغٌ هلاميٌّ يبرز منه جزء من رفٍّ عليه قنينة نبيذ، يدٌ بادية من جسد متلاشٍ، تحملها إلى يد بهاء، تقبض اليد الثمن وتعيد الباقي من الحساب، يغادر بهاء الدكان فيكفُّ الدكان عن التراثي.

ريحٌ عاتية يقدم لها الصفير الحاد، لا أحد إلا هو، العالم سحب بشره من الصُّوَيْرَة واختبأت المحال والمباني، السماء والأرض مطويتان ومركونتان، تتكاثر الغيوم الرمادية على طريقه يجتازها بلا مشقة، باب يشير إلى فندق، يد تسلمه مفتاح، درجة من سلم محجوب ترتقي به، ممر مطويٌّ، يقف عند باب غرفته، يندلف إلى عتمة بيضاء، تُقصِر لونه وتحلل كتلته إلى عناصر غير مرئية، كائن محجوب في بياض سرمدي، رقعة أقل بياضًا يتراءى عليها سائل يتمرد على سيادة البياض بلونه النبيذي، ينسكب على أخدود كان قبل قليل فم بهاء الناطق والنادم على نطقه.

يصحو بهاء باكراً، النافذة تشي بجو غائم جزئي، صرير ريح شمالية، ينقر على النافذة مدينة الصُّويْرَة معروفة بريحها، الريح تفيد الذكور بتطييرها أذيال أثواب النسوة، لكن الصويريات اعتدن على ارتداء أثواب تفوّت على الريح فرصة رفع أذيال ثوبها، المرأة الغربية هي منْ تطيّر الرياح أذيال ثوبها، لا.. ليست صويرية مَنْ تدع هواءً يلعب بذيل ثوبها، هكذا يحكي. يتحرك بهاء ببطء يفقد شهيته الوجودية، تعارض روحه تحركه الجسدي كل ما حوله جاء بزواله وعابث ببقائه، يؤدي طقسه الصباحي من حلاقة الذقن إلى الاستحمام مرغماً، يقترب من المرآة يدعها تفرح بوجهه عليه، يقبل على مضض اقتراحه، يتصل تليفونياً بوكالة السفر.

- هل يمكن تقديم موعد السفر إلى كوبنهاجن؟
- نعم، هناك فرصة بعد غدٍ.
- سأمر على وكالتكم.
- نحن في الخدمة.

يقرّر بهاء قضاء هذا اليوم بتوديع الأماكن التي ضمته هو وسعيدة، وسماءها التي شهدت لقاءاته مع ربان البحر، يُلقي تحية الوداع عليها، بما يليق بمكانتها في ذاكرته ووجدانه، وخير ما يستهل جولته به، هو مقهى مراكش، يودعها ويتناول قهوته الصباحية فيها، يقطع الطريق دون حدوث نظرة أو ابتسامة، تأخذ الأشياء بالانتقال من المستقر إلى الرتيب، يلاحظ عن قرب أن هناك منْ يشغل كرسيه، يزعجه ذلك جداً، فيأخذ كرسياً آخر، يجلس متأملاً الريح تصعّد من صفيرها، الشوارع تخفّض من عدد مارّتها، المحال تبقى على إغلاقها، البحر ينقض عهده، لا يريه زرقة صافية، لا نوارس ولا أشرعة، (البحر رائع عندما أكون أنا رائعاً).

يمضي على جلوسه وقت طويل دون أن تبادره النادلة كعادتها بطلبه وبترحيبها. ينتظر أيضاً أن تبدي رأيها بأناقته، لا يريده أنيقاً هذا اليوم؛ لكن هذا لم يمنع من سماع رأيها. يحاول الاحتفاء به، كما أوصاه ربان البحر، لكن حزنه على سفر ربان البحر وتغييب سعيدة، يتربّص به، فيصادر أية فرحة، يصفق بيده، يأتي نادل عجوز لا يرحب ولا

يعتذر عن تأخير، يسأله عن النادلة، ينفي أن تكون هناك أية نادلة، لا يشجع ردّه الجاف على المضي بالحديث نحو معرفة مصير النادلة المهني أو ربما الحياتي، الفقراء أهداف سهلة، للمرض، الحزن، والموت، 'يشاهد طفل بمعية أمه برنامجاً عن الجياع في الشرق، يسأل أمه: مَنْ يكون هؤلاء الفقراء؟ إنهم أبناء الله، تجيب الأم، يتساءل الطفل: لماذا يترك الله أبناءه فقراء؟ هل هو فقير أيضاً؟ جدتي أغنى منه، لم تتركنا جائعين حتى أنها تفكر كثيراً بقطتي'.

يطلب بهاء فنجان قهوة سادة وكأس ماء بارد، 'وخّا سيدي' يحسب بهاء اختفاء النادلة أول نهاية يبدأ نهاره بها يفتقدها في المقهى هذه فقط، خدمة جيدة وترحيب لطيف. بعد مضي وقت ليس قصيراً، يضع النادل فنجان القهوة وكأس الماء. يأخذ بهاء رشفة من الماء يجده ليس بارداً، يأخذ رشفة من القهوة، يجدها حلوة، يصفق يحضر النادل.

- القهوة ليست سادة؟

- وعلامَ سادة يا سيِّدي؟، حبات سكر تحلي ولا تمرر، بالصحة والراحة.

يترك بهاء القهوة في فنجانها والماء في كأسها، يضع الثمن على الطاولة وينصرف منزعجاً. طعم القهوة لم يفسد مذاقه، بل يُنذر بأن يفسد يومه. يحاول تجاوز ما حدث يريد أن يودع الصويرة المدينة التي أحبها بأقل خيبات ممكنة، كما يريد أن يحافظ على ذكرياته فيها، ويؤمن عليها من نسيان أو إساءة، يجوب شوارع الصويرة، يلتقط صوراً ذهنية لها، يدعم ذاكرته البصرية بصور متعددة عنها، قد تكون مُعيناً في شوقه إليها. يجلس على سياج واطئ، يُدلّي رجليه، يتطلع إلى المارّة، يراهم أضحوا أغراباً عليه، ما الذي يجعل المكان ضيقاً غير الأفعال البشرية الجاحدة، يقطع الطريق إلى بار يتناول ثلاث زجاجات بيرة فيه، يواجه صعوبة في التركيز فيعزف عن فكرة تدوين ملاحظاته الأخيرة، يتهرب بالتفكير من جوعه يذهب إلى البحر، يجلس قبالته، يفتح كيساً، يخرج سندويتشاً منه، يشاغل جوعه به، الشمس تسير ببطء نحو غروبها، تحمل قدماه جسده المتعب إلى الفندق.

- هناك رسالة لكم يا سيدي.
- شكراً.

يضع ما يحمل على السرير، تعاني غرفته من الفوضى، جواربه وملابسه الداخلية ملقاة كيفما اتُفق على السرير أو على الطاولة. يخلع حذاءه ويقذف جواربه، يعد كأس ويسكي له، يأخذ رشفة منها، يتذكر الرسالة، يعود إليها، ويشرع بقراءتها:

(سيدي بهاء جئت ولم أجدكَ، هل قرأت صحف اليوم، قرأت مصادفة في جريدة زبون خبراً مؤسفاً، يتعلق برحلة ربان البحر البحرية، سأتيكَ غداً صباحاً لنذهب معاً إلى الجهة ذات العلاقة للاستفسار عنه، إني قلقة جداً عليه، أتمرن على الشفاء من جُرحكَ، لم أقوَ على العمل هذه الليلة، روحي مضطربة وجسدي متوتر، سأذهب باكراً إلى الفراش، لعلني أنام، ارشد النوم إليَّ. مع تحيات زُلفى).

تدب حمرة في وجه بهاء يبلع ريقه، يجتاحه قلق مشوب بحزن عميق، يفرغ ما في الكأس فيه، يقرر الذهاب لشراء جريدة اليوم، يحاول تهدئته دون جدوى، خوف وحزن ينفردان به الآن، يقصد محل بيع الصحف.

- جريدة اليوم من فضلكَ.
- لقد نفدت يا سيدي، تسلَّى بجريدة الأمس، الأحداث منسوخة عن بعضها، ومكررة.
- هل هناك حدث ما وراء نفاد نسخ عدد اليوم.؟
- يا سيدي ما دامت هناك سياسة هناك عنف، يعني وقوع أحداث.
- مهمة السياسة افتعال مشاكل وقهر الناس على حلها، الدولة تبني حضارة توأمها العنف، لا حضارة بلا عنف الحضارة حضارة العنف.

يدور بهاء على كل باعة الصحف، لا يأخذ منهم غير اعتذارهم عن نفاد عدد اليوم، هناك منْ قام باسترجاع المتبقي، زاعماً أن الإقبال على شراء الصحف يقل بعد الظهر، بائع يتفكَّه وآخر يتهكَّم. باعة الصحف أسوة بقرائها لا يثقون بأقوال الصحف، يطلقون

سخرية عليها، "كلام جرايد"، ثرثرة لا حقيقة فيه، الصحف تعبر عن موقف الحكومة الرسمي، صحف مشتراة وأقلام مأجورة، لا توجد صحيفة مستقلة البتة. يقترح بائع على بهاء توفير لهفته إلى امرأة وليس إلى جريدة. يتحول بهاء إلى عبوة، يحشون فيها نكات وتهكمات، لا يقوى على استيعابها، قلقه على ربان البحر يذهب بطاقته؛ لكن يتفق معهم، كيف تصدر جريدة وحرية التعبير مصادرة، تشجع السلطة الشعب على القراءة المأذون بها، القراءة الموالية، يحملون الشعب على حفظ الخطب الرسمية، القرآن والأحاديث القدسية، كذلك حفظ بيانات السلطة والإشادة بمواقفها "العظيمة والتاريخية"، تسفّه السلطة الخطاب المعارض، تتهمه بالخيانة والتخابر مع الخارج "العدو"، كما تقوم أجهزة السلطة المختصة ببث حكايات تربط بين القراءة والبلاء. وراء كل مكروه كلمة، يجري تأميم الفكر، الرأي، وتنفير الناس من القراءة والتفكير، وتسويق مآسٍ، تكون للكلمة دور فيها تُعرض الزَّلةُ اللسانَ إلى القطع، تريد السلطة شعباً متوكلاً، يتوجه بشكواه إلى قبة السماء وليس إلى ديوان جمهوري أو ملكي، فالسماء مصنع الأقدار، وليست الأرض التي يتحكمون بثرواتها الطبيعية، بما فيها الثروة البشرية.

يعتقد بهاء أن حزنه على ربان البحر وقلقه على مصيره يقف وراء هذا التوغل في التفكير. يفكر بالهرب من النهايات العشوائية المحيقة، يناشد الطبيعة أن تخدعه، فتحوّل الموت إلى إغفاءة، الجسد رهينة يطلق سراحها الموت، الزمن حارس العدم، يقف بهاء وحيداً في عالم يوثر الصراحة الآن، يريده كاذباً، الحقيقة انقطاع إلى الوهم، الأصح حكم متغيِّر، الألوان تميل إلى الداكن، الغيوم شطحات السماء لا يريد أن يفكر سيسقط أمام عاصفة التفكير هذه، يريده واقعياً، لا حالماً ولا متوهماً، عليه أن يفعل شيئاً من أجل صديقه غامض المصير، لكنه لا يعرف شيئاً عن رحلته ولا يعرف عنوان زُلفى.

الصحو الجزئي يسلم العالم إلى الغروب، الريح تتحول إلى خفيفة. تواتي بهاء فكرة إقامة طقس مناجاة البحر، يحمل شموعاً، ويُعبِّئ سائل الفودكا في قنينة ماء، لغرض

التمويه فقط، يشتري جرامات من الموالح يعالج بها حدَّة مذاق الفودكا، ويقرر الذهاب إلى أقصى الشاطئ، حيث تتكاثر الأشجار ويقلْ البشر. غياب البشر يغيِّب الخطر ويكرس الوحشة.

يقف حيال البحر، الشمس تفضل الغرق على التشبث بالسماء، يخاف أن يكون ربان البحر كذلك، يفضل الغرق على النجاة. الغرق نجاة أحيانًا. يناشد البحر أن يكون رحيمًا به، أن يدعه يعيش أيامه، يعود بهاء إلى فكرة قد يكون البحر قد انتهز وجود ربان البحر على سطحه، فجذبه إلى عمقه، عقابًا على خيانته له مع اليابسة، أو أن السيدة المتشحة بالسواد على مساوئ اليابسة، قد ضمت ربان البحر إلى فتاته. منها يعرف الحب. ومنْ يعرف لا يعود غريبًا. هي وطنه وجزيرته. يغمض بهاء عينه، يشق ظلام أعماقه ربان البحر يحتضن فتاته، ويغمز بعينه اليسرى له، (اسْعَدْ مَنْ هي بين أحضانك) فيما تباركهما حكيمة البحر السيدة المتشحة بالسواد، صوت حميمي يعيد بهاء إلى يقظته، يفتح عينيه على نور شمعة أنثوية تبدد وحشة ليل من صنع الرجال، تطلع من البحر عليه، امرأة جميلة ممشوقة، مبلولة، مستحمة لتوها، تنبثق بثوب أسود قطني لاصق، تحمل بيدها معطفًا خفيفًا تقف مبلولة، خائفة ومترددة؛ لكن مظهر بهاء الوسيم وحزنه المهيب يزيدان من طمأنينتها.

- كم مضى على وجودكَ هنا؟
- أربعون عاماً.
- ماذا تفعل؟
- انتظر.
- ماذا تنتظر؟
- أنتظرني.
- ابنكَ؟
- أنا الضائع فيَّ، أنتظر منْ يعثر عليَّ.
- هل عثرت عليها؟
- قد تعثر هي عليَّ، فتعيدني إليَّ.

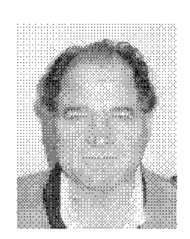
تقدم نفسها إليه، تعمل معلمة فنون في ثانوية، تأتي إلى البحر غروبًا من وقت إلى آخر، تغطس فيه لعلها تتحلل من همومها، البحر كبير ويحتمل، لا تخفي عليه، تعد نزهتها البحرية مغامرة، لكن الحياة مغامرة بحد ذاتها، عندما تخرج إلى الشاطئ يهدد رضاه عن فعلها خوف من عاقبته. قد تحدث مصادفة ذكورية تُلحق أذًى بها. يشاركها بهاء مخاوفه فجمالها ثمين، يمكن أن يُغتصب. تقبل دعوته إلى تناول فنجان قهوة، (هذه أول مرة أتعرف على رجل وأقبل دعوة بهذه السرعة) امرأة معروف عنها انضباطها، طيبتها ومساعدة الغير، تعتقد أن العطاء مفتاح السعادة؛ لكنها كلما تنظر إلى بهاء، تشعر برعشة ورغبة في الاستسلام إليه كأنه له كل الحق عليها، تجدها مسخرة إليه، يمكن أن تذهب معه إلى حد المغامرة والتهور.

ترتدي معطفها، تعصب شعرها بعصابة حمراء تزيدها جمالاً، تسير بناء على طلبه، يطلعها على سبب وجوده على الشاطئ. هي قد قرأت أيضًا عن استهداف سفينة، يرجح أن غرقها عمل مدبر، نشرة أولية تحسب الركاب والطاقم في عداد المفقودين؛ لكن هناك تطمينات بأن الخسائر البشرية قليلة والموقف عمومًا تحت السيطرة؛ (سنعرف المزيد عن الحدث، عندما نكون في المقهى من خلال النشرة الإخبارية المتلفزة). يضعها في تزايد قلقه، قد يؤجل سفره حتى يتضح مصير ربان البحر، وتسأل بعد اتضاح مصير صديقه، ألا يريد أن يعرف شيئًا عن مصيرها؟ تعتقد أن الزمن ادخرها من أجله، تريد أن تراه دائمًا، (أنا مناسَبة ودعوَة، ألا يستدعيان تأجيل سفركَ وتلبية حضورهما؟) تدعوه غداً إلى تناول طبق مغربي 'الشريحة بالكركاع، التين والجوز'، تحسن إعداده، يمسك يدها تجدها متحررة من مقاومته، تضغط على كفه، يرفع كفها إلى فمه، يطبع قُبلة عليها، تمنت أن يأخذها في قبلة فم، قبلة تعرفها، لكنها لم تذقها، بعدها، إن استطاب طعم طبقها وذاق شريحتها وكركاعها، سيطلق اسمها على الطبق.

- ما اسمك.

- سمِّني أنتَ، أنا أُولد الآن، والوليد لا يسمِّي نفسه.

• • •



منعم الفقير

MUNIAM ALFAKER

- في العراق عمل في جماعة المسرح الجديد كاتبًا وممثلاً.
- غادر العراق لأسباب تتعلق بالإرهاب عام ١٩٧٩.
- في بيروت عمل في الصحافة الثقافية وكتب قصائده الأولى هناك.
- غادر بيروت إلى دمشق إثر الاجتياح الإسرائيلي لبيروت عام ١٩٨٢.
- عمل في دمشق في الصحافة الثقافية.
- انتقل من دمشق إلى كوبنهاجن في عام ١٩٨٦.
- **صدر له :**

*** في الشعر :**

- بعيدًا عنهم : دمشق ١٩٨٣
- المختلف : دمشق ١٩٨٦
- كتاب أسئلة العقل : كوبنهاجن ١٩٩٠
- أثر على ماء : كوبنهاجن ١٩٩١
- اللوعات الأربع : القاهرة ١٩٩٤
- لا جسد في الثوب : كوبنهاجن ١٩٩٥
- حواس خاسرة : القاهرة ١٩٩٦

- كتاب الرؤيا : الدار البيضاء ١٩٩٧
- معًا : كوبنهاجن ١٩٩٨
- نادرًا : دمشق ٢٠٠٠
- أخيرًا : القاهرة ٢٠٠٢
- رأى العين : بغداد ٢٠٠٥ / القاهرة ٢٠٠٦
- صمت متأخر : عمان- بيروت ٢٠٠٦

*** في النثر :**

- مقهى مراكش : رواية
- قطار الطفولة : مسرحية ورواية، عملان مشتركان مع الشاعرة الدنماركية مريانه لارسن

▪ **ترجم له :**

- المختلف : إلى الفرنسية، باريس ١٩٨٨م.
- غيمة على سفر مختارات شعرية إلى الدنماركية ١٩٨٨ / إلى الفرنسية ١٩٩٤ / إلى النرويجية ١٩٩٥م.
- معًا إلى الدنماركية : كوبنهاجن ١٩٩٨م.
- كتاب أسئلة العقل : عنوانه بالدنماركية (الصراخ خيول الروح) كوبنهاجن ١٩٩٠م.
- أثر على ماء : كوبنهاجن ١٩٩١م.
- اعتزال قلب (مختارات شعرية) : إلى الفرنسية. طبعة أولى باريس ١٩٩٨، طبعة ثانية مراكش ١٩٩٩م.
- كتاب الرؤيا : إلى النرويجية، أوسلو ٢٠٠١م / إلى الدنماركية، كوبنهاغن ٢٠٠١م.
- نادرًا : إلى الفرنسية، الرباط ٢٠٠١م.
- رواية مقهى مراكش : إلى الفرنسية ٢٠٠٦م / إلى الدنماركية ٢٠٠٦م.
- تُرجمت مختارات من شعره إلى الأسبانية، الإنجليزية، الألمانية، المقدونية، الاستونية، الماليزية والهولندية.

▪ **صدر عنه :**

– منعم الفقير أخطاء كونية : دراسات ومختارات شعرية، إعداد الكاتب عزت الغزاوي، منشورات مركز أوغاريت، رام الله بالتعاون اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس.

▪ **الجوائز :**

– جائزة الشاعر بول سورنسن.
– جائزة الكاتب : يمنحها سنويًا اتحاد المكتبات العامة في الدنمارك.
– جائزة الإنجاز الفني : يمنحها صندوق الدولة لرعاية الفنون والآداب.
– جائزة فنان القوميات : عن مسرحيته (قطار الطفولة).
– جائزة الإبداع : منحتها استثناءً منظمة مساعدة اللاجئين الدنماركية.
– جائزة السلام والتفاهم مع الشعوب : يمنحها اتحاد الكتّاب الدنماركيين.
– جائزة البنك الوطني الدنماركي للآداب والفنون.
– جائزة فنان العام بدرجة شرف، ٢٠٠٣م.
– درع الثقافة العراقية : أسندته إليه وزارة الثقافة العراقية، ٢٠٠٥م.
– فضلاً عن العديد من المنح الثقافة والأدبية.

▪ **أنثولوجيا :**

– حدد وأعدَّ باللغة الدنماركية انطولوجيا (بطاقة حب) مختارات شعرية وبطاقات بريدية عن الحب والشعر في العام ٢٠٠٠ ضمت ٥٥ شاعرًا دانماركيًا.

– اختير شعره في الأنثولوجيات التالية:

انسكلوبيديا الأدب الدنماركي كوبنهاجن ، انسكلوبيديا الشعر العالمي لندن ، انطولوجيا الشعر العربي الحديث بالألمانية ميونخ ، انسكلوبيديا كاد الأدبية كوبنهاجن ، انسكلوبيديا يغوندوم كوبنهاجن، بيوغرافيا تاريخ الأدب الدنماركي ، أنثولوجيا الشعر الدنماركي بالأسبانية، أنثولوجيا شعر الشمال الأوروبي بالاستونية ، أنثولوجيا الشعر العراقي الحديث بالفرنسية ، انسكلوبيديا الأدب العربي المهجري الولايات المتحدة ، أنثولوجيا الشعر والإنسانية

بالماليزية ، أنثولوجيا قصائد الحب كوبنهاجن ، انطولوجيا الفن والحياة (مختارات لشعراء دانماركيين بالأسبانية).

- أُقِرَّ شعره في المناهج الدراسية ضمن الانثولوجيات التي يصدرها اتحاد المعلمين : قصائد النهار ، مختارات شعرية لطلبة المرحلة الابتدائية ، قصائد الليل ، مختارات شعرية لطلبة المرحلة الثانوية.
- هذا بالإضافة إلى انثولوجيات أخرى منها : أدب بلا حدود ، جناح الطائر ، اقرأ قصة عالميًا ، بين وطن ووطن ، شعراء من القرن العشرين ، السماء قبعتي.

▪ **النشاطات** :

- مدير تجمع السنونو الثقافي في الدنمارك.
- رئيس تحرير مجلة السنونو (مجلة بالعربية تعنى بالثقافة الدنماركية).
- مدير تحرير مجلة ديوان (مجلة بالدنماركية تعنى بالثقافة العربية).
- رئيس جمعية الشعر في اتحاد الكتاب الدنماركيين.
- عضو لجنة العلاقات الدولية في اتحاد الكتاب الدنماركيين.

▪ **الفعاليات الثقافية** :

أشرف على الفعاليات التالية :

- أيام الثقافة المصرية الدنماركية في القاهرة.
- أيام الثقافة الدنماركية المصرية في كوبنهاجن.
- أيام الثقافة السورية الدنماركية في دمشق.
- أيام الثقافة الدنماركية العراقية في كوبنهاجن.
- رئيس مهرجان الثقافة العربية الدنماركية الدوري في كوبنهاجن.
- مسؤول عن الفعاليات الفصلية : ثقافة في مقهى ، أمسيات السنونو الشعرية ، أصوات من العصر ، العالم في كلمة ، حرية بلا حدود ، وجه وأقنعة.

- **المشاركات الثقافية :**

شارك ومثل الدنمارك في العديد من الندوات والمهرجانات منها :
مهرجان الشعر العالمي في مقدونيا، مهرجان الشعر العالمي في النرويج، مهرجان الشعر العالمي في استونيا ومهرجان الشعر العالمي في ماليزيا، مهرجان ربيع الفنون الدولي في القيروان، معرض أوسلو الدولي للكتاب، معرض كوبنهاجن الدولي للكتاب، معرض القاهرة الدولي للكتاب ومعرض أبو ظبي الدولي للكتاب.

- البريد الإلكتروني : **alfaker@assununu.dk**

Café de Marrakech

Muniam Alfaker

Roman

Traduit en français par Touria Ikbal

Traduit en danois par Sejer Andersen

